الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران



كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

ضمن مشروع النقد الأدبي القديم عند العرب للأستاذ محمد بن سعيد

مبدأ المقايسة لدى القاضي الجرجاني

[كتاب الوساطة أنموذجا]

من تقديم الطالب:

* قـادة بوجمعة

إشراف الدكتورة:

* خضرة العابدي

2014/06/26

لجنة المناقشة

أ-د :محمّد بن سعيد	رئـــــيسا	جامعة وهران
د : خضرة العابدي	مشـرفة ومقرّرة	جامعة وهران
أ- د :ناصر سطنبول	عضوا مناقشا	جامعة وهران
د : حليمة الشّيخ	عضوا مناقشا	جامعة وهران

1435-1434 / 2014-2013م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــــداء

- إلى روح الشّيخ الكبير محمّد بن الكبير –رحمه الله تعالى – من علّمنا تعاليم الدّين وغرس في قلوبنا محبّة الخير.

(اَلآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾[سورة يونس آية 62].

- إلى الوالدين الكريمين الّذين أكنّ لهما كامل التّقدير والاحترام.

وَقُل رَّبِّ إِرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴿٢٤﴾) [سورة الإسراء آية 24].

- إلى كلّ الأساتذة الأفاضل من جامعة سعيدة ووهران الذين علّمونا وأرشدونا ولم يبخلوا علينا.

(وَقُلِ إِعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَالْمُومِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّيُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [سورة التوبة آية 106].

- إلى كلّ من يحبّنا ونحبّه خصوصا البنتين الغاليتين ضحى وأختها آية وأخوهما الصّغير أحمد حسين الّذي أكرمنا الله به ونحن نكتب هذا الإهداء فإرادة الله تعالى أرادت له أن يخرج إلى الوجود مصاحبا خروج هذه المذكّرة.

الفضل موصول لأمّهم التي ساندتني وساعدتني على إنجاز هذه المذكّرة ،كما لا أنسى إخوتي جميعا وأبنائهم ،وكلّ عائلة بوجمعة كبيرا وصغيرا

(وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ اَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّه أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِين إِمَاما ﴿٧٤﴾[سورة الفرقان آية 74].

ينشط النقد الأدبي وتتنوّع مجالاته عندما ينتقل العمل الأدبي من مرحلة إلى أخرى بفعل مجموعة من العوامل غالبا ما تعود لمتطلّبات البيئة وما تفرضه من شكل ثقافي وما تستدعيه من تجديد ،فيعمل النقد على دراسة التغيّرات والمستجدّات المواكبة لذلك التّنقل ويعمل على ملاحظة المفارقات بينهما ومن ثمّ الحكم على كلّ مرحلة بما يراه مناسبا لها.

إنّ مهمّة النقد لا تنحصر في بيان النّقائص وتتبّع العثرات ،وغضّ الطّرف عن المحاسن والإبداعات كما هو الحال في الحركة النقدية التي تلت القرن الرّابع الهجري (العصر المملوكي والعثماني في القرن الثّامن والتّاسع والعاشر الهجري)حيث أصبح مهنة من لا مهنة له وصناعة من لا خبرة له وبضاعة من لا مال له ،وبذلك يصبح هذا النقد ذاتيا خاليا من الموضوعيّة وبعيدا عن الفنيّة ،لأنّه يؤدّي مهمّة سلبية تغيب فيه الأمانة العلميّة ويفقد فيها الإنتاج الفنيّ غايته التواصليّة كما سنراه عند كثير من خصوم المتنبي وبالأخصّ النقاد منهم .

تتمثّل غاية النقد في رفع النصّ إلى أعلى مستوى مطلوب من الإجادة يراه الناقد مناسبا له،هذا ما يسمّى بالنقد الموضوعي المستند على قيم ومعايير فنيّة يصبح النصّ من خلالها أكثر فاعليّة وحركيّة تدفع به إلى الأمام نحو المستوى المطلوب والمرغوب.

عرفت ساحة النقد العربيّ القديم خصومات فنيّة ونقاشات علميّة حادّة سرعان ما انكشفت غمامتها وتجاوز الزّمن حدودها لتظهر في القرن الرّابع الهجري شخصيّة فريدة عرفت كيف تحرّك المشاعر وتجيش النّفوس وتبعث روح التأمّل من جديد ،دارت حول هذه الشخصيّة معركة نقديّة لا تزال تلقي بظلالها حتّى في عصرنا الحاضر ،إنّه أبو الطيّب المتنبي (354هـ)الشّاعر العربيّ الأصيل الذي ملأ الدّنيا وشغل النّاس.

قضت حكمة الله أن جعل له أنصارا رفعوه إلى مقام العصمة في حين رأى آخرون اتّصافه بكلّ نقيصة وتهمة ،فكان لزاما على العِلم أن يفصح برأيه ،وبالنّقد أن يدلي بدلوه ،فتكلّم القاضي الجرجاني (ت392هـ) في هذه المسألة بما جادت به القريحة ،منتهجا نهج الوسطيّة بين الفريقين لأنّ طبيعة

الموضوع اقتضت ذلك فإذا شهّر بمحاسنه اتّهم ،وإن قصّر في ذكر الزّلات ظلم ،فتيسّر له مبدأ المقايسة لتلاؤمها مع الفكرة المبتغاة ،فالتوسّط يقتضي موقفا معتدلا بين طرفين ،نفس المعنى نجده في المقايسة التي تسعى لإيجاد رابطة تجمع بين طرفي القياس.

قارن الجرجاني بين المتنبي وغيره من الشّعراء ،وقام بجمع النّظائر والمتماثلات ثمّ ردّ الفروع لأصولها،والمتشابهات لمثيلاتها ،وخرج بحكم نهائيّ هو ما جاز لهذا جاز لذاك.

ومن خلالها الاهتمام والحرص بما كتبه النقاد حول وساطة الجرجاني استوقفنا كثيرا من الثّناء والإطراء من النقاد والأدباء لعمل الجرجاني ووصفه بالموضوعيّة والفنيّة فزاد التعلّق بالوساطة أكثر وقويت المحبّة والرّغبة في المعرفة به أكثر.

يعود سبب الاهتمام بالجرجاني ووساطته لأنّه ناقش أعظم خصومة عرفتها ساحة النقد هذه الخصومة التي ظهرت في مظهر بعيد عن محاسن العدل والإنصاف ،كانت علاقتنا بالوساطة في بداية المطاف مبنيّة على القراءة والتأمّل حتّى لفت أنظارنا محمّد مندور فوجدناه أفاض الحديث عن الجرجاني ووساطته وكثيرا ما يُشِيدُ بمقايسة الجرجاني ثمّ سرعان ما ينتقدها في بعض الأحيان ،فدعتنا الرّغبة العلميّة لاستبانة هذا الأمر ،وانتقلت علاقتنا مع الجرجاني من فضاء القراءة إلى عالم البحث والاستكشاف فأردنا أن بحث في هذه المقايسة التي اعتمدها في دفاعه عن المتنبي .

البحث يحتاج للتأمّل ويستدعي كثيرا من الجهد لأهميّته فرحاه تدور حول آلية المقايسة التي وظّفها الجرجاني كمبدأ في وساطته بين المتنبي وخصومه ،فكان لزاما علينا أن نقف عند كلّ محطّة وقوف السّائل الباحث عن استكشاف الحقائق ومحاولة كشف بعض الغموض واللّبس ليكون الموضوع واضحا وجليّا ،من أجل ذلك سألنا النقاد عن نتائج المقايسة التي توصّل الجرجاني إليها ومدى إصابته وإجادته فيها ،فذكرنا من وافقه ،وأشرنا إلى من خالفه ،باستصحاب الحجّة والدّليل ثمّ نجنح للمخالف أو الموافق لما رأيناه قويّ الدّليل.

اخترنا لهذا الموضوع عنوانا أطلقنا عليه **"مبدأ المقايسة لدى القاضي الجرجاني-كتاب الوساطة أنموذجا- ".**

نلاحظ من خلال العنوان أنّ مصطلح المقايسة هو نفسه القياس إلاّ أنّه ظهر لنا أن نطلق لفظ القياس في المجالات التي يكون فيها إلحاق فرع بأصل إذا كانت العلّة مناسبة بينهما كما في النّحو مثلا فنعطي حكم الأصل للفرع ،أمّا على سبيل المقارنة وذلك من خلال تحديد عناصر التّماثل والتّباين فنطلق على هذه المقارنة اسم المقايسة ويكون هذا في المسائل فقط لأنّ القياس أو المقايسة من خلال عناوين البحث شيء واحد ،ومثّلنا عليها بالشّواهد الموجودة في الوساطة فقط لم نخرج عن الكتاب كما سعينا للإيضاح العلل التي ألحقت بها الفروع بالأصول كما في المسائل النّحوية واللّغوية وغيرها ونعتذر لقلّة العلم ونقص الدربة.

إنّ الإشكال الذي سعينا للإجابة عنه في هذا البحث هو هل تصحّ المقايسة في كلّ الأحيان كمبدأ معتمد ؟ وما مدى الأهداف التي تحقّقها ؟ وهل أثمرت مقايسة الجرجاني في النقد ؟وإذا كانت مثمرة كيف يمكن تفعيلها في مجال النقد ؟.

هذه التّساؤلات حاولنا الإجابة عنها من خلال المنهج الذي ارتضيناه وهو المنهج الوصفي التّحليلي حيث قمنا بوصف عمليّة القياس ثمّ بعد الوصف جاء التّحليل وأعقبهما تنزيل الشّواهد وتطبيق آلية المقايسة عليها .

اعتمدنا على هذا المنهج في جميع مراحل البحث وذلك لما تقتضيه الموضوعات المتناولة مثل وصفنا لمعالم الجرجاني الناقد وفي تحليلنا لموضوعات كتاب الوساطة وفي تطبيق المقايسة في القضايا النقدية واستعنا بالمنهج التّاريخي في بعض المواضع وذلك عند تتبّعنا لقضايا الخصومة النقدية منذ نشأتها وصولا إلى خصومة المتنبي وكذلك أيضا في دراسة موضوع السّرقات وتتبّع توالد المعاني وتطوّرها من عصر لآخر.

إنّ مقايسة الجرجاني منثورة في كتب النقد ،تناولها النقاد في كتبهم كمحمّد مندور في كتاب النقد المنهجي وإحسان عباس في كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،لكنّ هذه الأحكام تخلوا كثيرا من التّعليل والإيضاح ،لا يفهمها إلاّ روّاد النقد وفحوله ،فعملنا على محاولة جمع ما تناثر في تلك الكتب والشّيء الذي اعتنينا بتحقيقه وصبونا لتحصيله يكمن في :

-توضيح مفهوم المقايسة وبيان أنواع القياس ،وتحديد الأمور المرتبطة بكلّ نوع من أنواعه .

-جاءت أحكام المقايسة في كتب النقد خاليّة من تحليل طرفي القياس أو لنقول إنّ أحكامها مجملة تحتاج للشّرح فعملنا على توضيحها ومثّلنا على طريقة انتقال حكم الأصل للفرع.

ولتفكيك رموز عنوان البحث اخترنا الخطّة الآتية : فبعد المقدمة قسّمنا دراستنا إلى ثلاثة فصول ذكرنا في الفصل الأوّل مفهوم القياس وأنواعه وشمل أربعة مباحث ،الأوّل :عرّفنا فيه قياس الأشباه والنّظائر (عند الأصوليين والنقاد) ثمّ المباحث الثّلاثة الأخرى ذكرنا فيها القياس المنطقي،والقياس الأصولي،والقياس النّحوي وأشرنا لأهمّ المسائل المتعلّقة بكلّ نوع من أنواع القياس ،أمّا الفصل الثّاني فعنوانه :موقف الجرجاني من خصومة المتنبي وأثر ذلك في النقد الأدبي (توصيف ومناقشة) ،اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث الأوّل :ملامح النقد في القرن الرّابع الهجري وتجلّيات خصومة المتنبي المبحث الثّاني :الأفكار النقدية في كتاب الوساطة وقيمتها العلميّة ،المبحث الثّالث : المشروع النقدي لدى القاضي الجرجاني (دراسة في الذّوق والرّؤية) ،أمّا الفصل الثّالث فجاء بعنوان : المقايسة الموضوعاتيّة وشمل أربعة مباحث ،الأوّل :المقايسة على المستوى النّحوي واللّغوي ،المبحث الثّاني :المقايسة في عناصر عمود الشّعر ،المبحث الثّالث : المقايسة في الغلوّ والتّعقيد ،المبحث الرّابع : المقايسة في ابتداع المعاني (السّرقات الشّعرية) ،وذكرنا في الخاتمة أهمّ النّتائج التي توصّلنا إليها والآمال التي يطمح البحث لتحقيقها من أجل ضمان بقائه وتفاعله.

اعتمدنا مجموعة من المصادر والمراجع رأيناها موردا للبحث من أهمّها كتاب الوساطة باعتباره الميدان الذي جرت فيه المقايسة والكتب التي تناولت جوانب مهمّة من حياة الجرجاني الثقافية والنقدية مثل

كتاب "القاضي الجرجاني الأديب الناقد"لمحمود السمرة وغيره ،وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي وذلك من أجل فهم شعر المتنبي جيّدا ثمّ دواوين غيره من الشّعراء الذين أقحمهم الجرجاني في المقايسة ثمّ كتاب العمدة لابن رشيق ومؤلّفات عبد القاهر الجرجاني وهذه الكتب خاصّة بمجال تطبيق المقايسة ،أمّا الجانب المتعلّق بتعريف القياس وأنواعه فلم نستغن عن كتب النّحاة والأصوليين والمناطقة فاعتمدنا على كلّ فريق لفهم مصطلح القياس عنده فكلّ موضوع خاصّ يطلب كتابا خاصّا اعتنينا بالأخذ منه ومراعاة خصوصيّته في ذلك .

بالنّسبة للصعوبات التي تلقّيناها في رحلتنا مع البحث فأشدّها على النّفس تصفّح دواوين الشّعراء وذلك لفهم المراد منها حتّى تتسنّى لنا المقايسة بوضوح ،كما نعترف بما راودنا من قلق وأرق ونحن نرسم خطّة البحث وذلك لصعوبتها في نظرنا وكلّ نقد يوجّه إلينا يجب أن نتلقّاه بصدر رحب ،لكنّنا نرجو التّوفيق من الله وأن يلهمنا حسن الإجابة فيما سنلقاه ،فقد عهدناه سبحانه بتثبيت المؤمنين بالقول الثّابت كما نسأله تعالى أن يعلّمنا من العلم أنفعه ،وأن يفتح لنا أبواب الفهم لتحصيل العلم.

وحسبنا بعد ذلك كلّه أنّنا سعينا وبذلنا غاية الجهد وإن كنّا نستقلّه، لكن كما قيل:

عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يسْعَى إِلَى الْخَيْرِ جُهْدَهُ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ تَتِمَّ الْمَطَالِبُ.

وفي الختام نسأل اللهَ تعالى أن يجزي الأستاذ صاحب المشروع محمّد بن سعيد والأستاذة المشرفة خضرة العابدي أحسن الجزاء وأن يثيبنا وإيّاهما بالحسنى والزيادة ،وأن يشمل بفضله جميع الأفاضل الذين ساعدونا على إنجاز البحث بالإرشاد والتّوجيه ،لهم منّا جميعا كامل الشّكر والتّقدير، والله الموفّق للصّواب.

وهران بتاريخ: الخميس 24جمادى الثّانية 1435هـ.

الموافق لـ24 أفريل 2014م .

المبحث الأوّل: مفهوم قياس الأشباه والنّظائر(عند الأصوليين والنقاد).

سنحاول في هذا الموضع أن نشرح مفهوم القياس الذي قام على مداره البحث ،وننبّه منذ البداية إلى أنّنا استعملنا لفظ (المقايسة) الذي هو قياس أيضا ،نعني بالمقايسة قياس الأشباه والنّظائر ،وهو قائم على المقارنة وذلك من خلال البحث عن وجوه الشّبه والفروق الحاصلة بين طرفي المقارنة وهو قياس أيضا ،أمّا لفظ (القياس) فنعني به أحد هذه الأنواع الثّلاثة ،إمّا القياس المنطقي أو القياس النّحوي أو القياس الأصولي فهذه الأنواع من الأقيسة تعتبر آلة الاجتهاد في حقولها المعرفيّة ،وكما أشرنا في المقدّمة فإنّ هذا التّقسيم إنّما هو في المسائل الفرعيّة فقط التي قمنا بتحليلها.

إنّ الدّافع الذي ساقنا لاستعمال مصطلح القياس والمقايسة(الأشباه والنّظائر) هو نصّ الإمام محمّد بن إدريس الشّافعي (204ه) في القياس حيث قال ":القياس من وجهين :أحدهما أن يكون الشّيء في معنى الأصل فلا يختلف القياس فيه ،وأن يكون الشّيء له في الأصول أشباه فذلك يلحق بأولاها به وأكثرها شبها فيه ".[1]

والجرجاني كان شافعيّ المذهب وبالتّالي فقد امتثل أصول الشّافعيّة ومن بينها أخذه بالقياس الذي قسّمه الشّافعي باعتبارين الأوّل قياس في معنى الأصل وهو أن "يجمع بنفي الفارق ويسمّى تنقيح المناط ".[2]

وهذا خاصّ بمسائل أصول الفقه ،حيث يقوم المجتهد بتنقيح العلّة وذلك من خلال تحديد مواصفاتها المناسبة كما في حديث الأعرابي[3] الذي أفطر في رمضان متعمّدا فجامع أهله ثمّ جاء يسأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن حكم ذلك فأمره بالكفارة فكونه أعرابيّا يلحق به الحضري ،وكونه أفسد الصّيام بالجماع يلحق به الأكل والشرب عمدا ،فهذه الأمور تسمّى عند أهل الأصول قياس في معنى

[1] محمّد بن إدريس الشافعي ،الرّسالة ،تحقيق :عبد الفتّاح بن ظافر كبّارة ،دار النفائس ،بيروت، لبان ،الطبعة الأولى :1419ه-199م ؛ ص :224.

[2] (الغزالي) أبو حامد أحمد بن محمّد ،المستصفى من علم الأصول ،تحقيق:حمزة بن زهير حافظ دار الفكر ،لبنان؛(د،ط) ؛(د،ت) ، ج: 2 ، ص: 303.

[3] (البخاري)محمّد بن إسماعيل ،صحيح البخاري ،تحقيق : أحمد زهوة وأحمد عنابة ،دار الكتاب العربي ،بيروت ، (د،ط) :1426ه – 2005م ج:2،ص:520 رقم (2600) كتاب الصّوم ،باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر.

الأصل ،أمّا القياس الثّاني عند الشّافعي فهو قياس الشّبه وهو " إلحاق فرع مردّد بين أصلين بأكثرهما شبها به ".[4]

وسنبيّن هذين النّوعين من القياس ونذكر أهمّ الأمور المتعلّقة بذلك .

يعمل قياس الشّبه على إيجاد الوصف الجامع بين طرفي القياس ويجب أن يكون الوصف مناسبا لنعطي حكم أحد الطّرفين للآخر،أمّا إذا انعدم الوصف المناسب بين الطّرفين فلا شبه بينهما ومن ثمّ فلا قياس بينهما ،لأنّ المقايسة تقوم على تحديد أوجه الشّبه وحصرها ثمّ النّظر في مدى المناسبة الجامعة بين طرفي القياس ليعطى حكم أحد الطّرفين للآخر.

هذه المقايسة اعتمد عليهما القاضي الجرجاني في وساطته كمبدأ في دفاعه عن المتنبي ،لكن ما ذا نقصد بالمبدأ أوّلا ؟.

مفهوم المبدأ :المبادئ جمع مبدأ ،مصدر ميمي ،وهو اسم ظرف من بَدَأَ "وبدأ الأمر من باب سما أي ظهر ،وبدا له في هذا الأمر بداء بالمدّ :أي نشأ له فيه رأي".[5]

ومبدأ الشّيء أوّله ومادّته الّتي يتكوّن منها كما يطلق على القواعد الأساسيّة الّتي تقوم الأشياء عليها.

هذا في اللّغة ،أمّا في الاصطلاح فيعرّف المبدأ بأنّه ":النّظام الذي يضعه المرء أو المجتمع في قضيّة ما أو القضيّة المطروحة للدّراسة ممّا لا يرقى إليها الشكّ أو القاعدة لدراسة الأخلاق أو الأدب أو السياسة وصاحب المبدأ هو الذي يضع ما يتبنّاه نصبَ عينيه ولا يحيد عنه".[6]

المبدأ إذن هو :الالتزام الذي يتقيّد صاحبه به ولا يحيد عنه ،وقد يتعلّق المبدأ بماهية الموضوع المراد دراسته كما هو عند المناطقة فالمبادئ عندهم "هي التي يتوقّف عليها مسائل العلم كتحرير المباحث وتقرير المذاهب فللبحث أجزاء ثلاثة مرتّبة بعضها على بعض وهي المبادئ والأواسط والمقاطع وهي

[4] (التلمساني) محمّد بن أحمد،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ،تحقيق :عبد الوهاب عبد اللّطيف،دار الكتب العلمية بيروت،لبنان،الطبعة الأولى :1417-1996م ، ص : 121.
[5] محيي الدّين عبد الحميد ومحمّد عبد اللّطيف السبكي ،المختار من صحاح اللّغة ؛دار الشّروق بيروت ؛ لبنان ؛ (د،ط) ؛(د،ت) ،ص : 33.
[6] محمّد التنوجي ،المعجم المفصّل في اللّغة ،دار الكتب العلميّة ،بيروت ،لبنان ،الطّبعة الثّانية 1419ه-1999م، ج:2،ص : 142.

المقدّمات التي تنتهي الأدلّة والحجج إليها من الضّروريات والمسلّمات ومثل الدور والتّسلسل وهي التي لا تحتاج إلى البرهان بخلاف المسائل فإنّها تثبت بالبرهان القاطع".[7]

من خلال التعريفين السابقين للمبدأ نلاحظ بأنّ صاحب المبدأ يضع قاعدة معيّنة يلزم بحثه بعدم الخروج عنها بأيّ شكل من الأشكال ،ومن سلّم بأدلّته تلزمه نتائجه ،من هنا نحكم على أنّ الذين يجوز لهم انتقاد الجرجاني ووساطته هم من سلّموا بالقياس كإجراء في الدفاع عن المتنبي ،ولا نقصد بالدّفاع الانتصار له ،وإنّما نقصد به الأحكام التي تراها الوساطة والعدالة حقّا له لا يمكن سلبه إيّاه.

اعتمد القاضي في وساطته بين المتنبي وخصومه مبدأ المقايسة ،وألزم نفسه به في جميع محطّاته الدفاعية عن المتنبي ،لكنّ الأمر الهامّ الذي يجب التّأكيد عليه وهو عبارة عن نتيجة حتميّة توصّلنا لها من خلال مصاحبتنا للجرجاني وكثرة تمعّنا لكتابه الوساطة أنّ مصطلح المقايسة وظّفه الجرجاني على هيئتين الأولى :مقايسة يراد بها الأشباه والنّظائر وهي قائمة على المشابهة والمقابلة أو المقارنة بين المتنبي وغيره من الشّعراء وتحديد عناصر التشاكل والتباين ومن ثمّ تحديد النتيجة المتوصّل إليها وهذا القسم يمثّل جميع الأخطاء والمآخذ ما عدا أخطاء النّحو واللّغة لأنّ الجرجاني انتهج فيها القياس العلمي المسلّم به عند من يرى القياس ويمثّل هذا القسم الأخير النّوع الثّاني من المقايسة التي اعتمدها الجرجاني والذي أطلقنا عليه اسم القياس كما أشرنا إليه سابقا.

إنّ هذه النتيجة المستنتجة ندلّل عليها بما ذكره محمّد مندور في معرض تقويمه لعمل الجرجاني حيث قال ":ففي هذه المواضع فقط يشبه الآمدي".[8]

يقصد بالمواضع المسائل المتعلّقة بالقياس النّحوي واللّغوي حيث عالج أخطاء المتنبي النحويّة واللّغويّة وردّها لقواعد القياس، وكثيرا ما أضاف إليها نظائر أخرى من قبيل المقايسة ليدعّم حجّته في الحكم المستنبط منها.

[7](الجرجاني) عليّ بن محمّد ،التّعريفات ، تحقيق :إبراهيم الأبياري ،دار الكتاب العربي الطبعة الرابعة ؛1418ه-1998م ،ص:252.
[8]محمّد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب،نهضة مصر،(د،ط):2003 م،ص : 257.

أمّا بالنسبة لغيرها من الأخطاء كالغلوّ والتّعقيد والسّرقات فقد استند كلّيا على المقايسة (المقارنة) وقاس أخطاء المتنبي بأخطاء غيره من الفحول ،هذا الأمر الذي لم يرق كثيرا من النقاد فانتقدوه من هذا الجانب كالموقف الذي تبنّاه إحسان عبّاس حيث قال ":يتّضح لنا أنّ مبدأ المقايسة يصلح إلى حدّ لا يتجاوزه ،فإذا جاء الدّور الايجابي في فحص الشّعر رجاء استكشاف خواصّه ومميّزاته الفارقة بطلت المقايسة واضمحلّت ".[9]

هذا الرّأي مبنيّ على مقايسة خطأ بمثله ،ولكن ليس كما يتصوّره هذا الناقد أو غيره لأنّ الجرجاني كان على دراية بأنّ الشّعر "لا يحبّب إلى النّفوس بالنّظر والمحاجّة ،ولا يحلّى في الصدّور بالجدال والمقايسة ،وإنّما يعطفها عليه القبول والطّلاوة ،ويقرّبه منها الرّونق والحلاوة".[10]

ولما كان القصد من وساطته إنصاف المتنبي والعدل في محاكمته استعمل قياس الأشباه والنّظائر ليُعلم الجميع أنّه ليس من الإنصاف تطبيق بعض المقاييس على بعض الشّعراء وإغفالها عن البعض الآخر.

لقد أراد أن يصوّر الحالة السيّئة التي كان عليها نقاد القرن الرّابع الهجري الذين آخذوا المتنبي على النّقير والقطمير من العيوب وسارعت أقلامهم في تجريحه والحطّ من قدره ،وقد أثبت النقد تعصّبهم وتحاملهم في الكثير من المسائل التي ردّها النقد الموضوعي كما أثبتت الدّراسات النقدية الحديثة القيمة الفنيّة لشعر المتنبي وتلاؤمه مع المناهج المهتمّة بتحليل الخطاب الشّعري والوقوف على جماليّته دون اعتبار العوامل الخارجيّة التي تجعل النصّ خاضعا للأحكام المسبقة والمعايير المجحفة.

فالقراءة الفاعلة ترى "أنّ النصّ لا يغلق بعصر ولا قارئ ولا حتّى منتج له فهو مفتوح على نفسه أوّلا ومتقاطع أو متناص مع نصوص أخرى متعاصرة له أو متباينة معه زمنيّا إنّ النصّ يبقى دائما نصّا إنّما

[9] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ،دار الكتب العلمية ،بيروت،الطبعة الأولى:2006م،ص :320.
[10] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه،تحقيق :محمد أبو الفضل وعلي البجاوي،مطبعة عيسى بابي الحلبي،القاهرة مصر،الطبعة الرابعة،1386ه-1966م،ص :100.

الذي يتغيّر أو يموت هي قراءتنا لا سيما إذا كانت هذه القراءة سلبيّة واللّعبة في نظرنا بين الباثّ أو المبدع والمتلقّي أو القارئ ليست أكثر من لعبة زمنيّة صرف".[11]

تعمل المقايسة دورا فعالّا في إثراء النّصوص من خلال مقابلتها والبحث عن وجوه الاشتراك بينها.

نبدأ الآن بتعريف القياس لغة ثمّ نبيّن مفهوم قياس الأشباه والنّظائر ونذكر كيف تأسّس هذا النّوع من القياس وما هي أهمّ المسائل المرتبطة به والتي لها علاقة بموضوعنا لنكون على بصيرة ودراية بالشّكل الذي وظّفه الجرجاني له في كتابه الوساطة.

أوّلا :التعريف اللّغوي للقياس.

يطلق في اللّغة على معاني منها التقدير فيقال ":قاسه بغيره يقيسه قيسا وقياسا واقتاسه :قدّره على مثاله ،والمقياس المقدار".[12]

وجاء في اللّسان "قست الشّيء بغيره وعلى غيره أقيسه قيسا وقياسا فانقاس إذا قدّرته على مثاله وفيه لغة أخرى :قسته أقوسه قوسا وقياسا ،والمقدار قياس ".[13]

وقاس الطّبيب قعر الجراحة قيسا إذا جعل فيها الميل يقدّرها به ليعرف غورها، وفي معجم المقاييس "القياس هو تقدير الشّيء بالشّيء، والمقدار مقياس، تقول:قايست الأمرين مقايسة وقياسا ".[14]

حكى ابن فارس أنّ أصل القياس من القوس أي السّبق"قاس بنو فلان ببني فلان إذا سبقوهم وأنشد:

لَعَمْرِي لَقَدْ قاسَ الجَمِيعُ أَبُوكُمُ فَهلاَّ تَقِيسُونَ الذِي كَانَ قَائِسَا."[15]

---

[11] عبد الجليل مرتاض ؛في عالم النصّ والقراءة ؛ديوان المطبوعات الجامعيّة ،الجزائر ،الطّبعة الثّانية : 2007م ، ص: 124.

[12] (الفيروز آبادي) محمّد بن يعقوب ،القاموس المحيط،تحقيق:نصر الهوريني،دار الكتب ،لبنان،الطبعة الثانية :1428ه-2007م،(باب السين فصل القاف) ،ص :593.

[13] ابن منظور(محمّد ابن مكرم)، لسان العرب،تحقيق:رشيد القاضي ،دار صبح يسوفت ،بيروت الطّبعة الأولى :2006م ،ج :12،ص: 315.

[14] (ابن فارس) أبو الحسن أحمد؛ معجم مقاييس اللّغة؛ تحقيق:إبراهيم شمس الدّين؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى:1420ه-1999م ،(باب القاف والواو وما يثلّثهما) ،ج:2،ص :377.

[15] المصدر السّابق ؛ ج:2،ص :377.

نلاحظ أنّ القياس يأتي بمعاني مختلفة منها التّقدير الذي يستلزم المساواة ،واسم الفاعل منه قائس والمصدر قَوْسًا وقِيَاسًا .

القياس مشترك بين المساواة والتّقدير والمجموع اشتراكا لفظيا ،فإذا قلنا فلانا يقاس بفلان بمعنى يساويه في القدر والشّرف وغير ذلك ،ومثال التّقدير قولنا قست الباب بالحبل إذا حاذيته وسوّيته به أي قدّرته حسيّا ،وقايست السّلعة بالسّلعة إذا قدّرتها بها فساويت بينهما في القيمة ،ويطلق هذا المجموع أي مجموع التّقدير والمساواة إذا قصدت الدّلالة على مجموع ثبوت المساواة عقب التّقدير.

والمقايسة مفاعلة من القياس بمعنى المشاركة ،نقل هذا المعنى اللّغوي إلى الاصطلاحي فأطلق في النّحو والفقه على إلحاق فرع بأصل لمساواته له في العلّة مثلما سنبيّنه في مبحثي القياس الفقهي والنّحوي .

ثانيا : التعريف اللّغوي للأشباه والنّظائر.

أ)تعريف الأشباه في اللّغة:قال ابن منظور ": شَبَهَ :الشِّبْهُ وَالشَبَهُ والشَبيهُ المثل والجمع أشباه ،وأشْبَهَ الشّيء الشّيء ماثله ...المتشابهات المتماثلات...شبَّه إذا ساوى بين شيء وشيء".[16]

ويقال :هذا شبه هذا أي مثله، ومنه تشابه الأمران تماثلا "واشتبها:أي أشبه كلّ منهما حتّى التبسا وأمور مشتبهة ومشَبَّهَةٌ كمعظَّمة:مشكلة، والشُّبْهَةُ بالضمّ الالتباس".[17]

نلاحظ أنّ الشّبيه والمثيل في اللّغة هما بمعنى واحد ،أمّا النّظائر في اللّغة فهي كما يلي:

ب) جاء في لسان العرب "ناظره من المناظرة ،والنّظير المثل في كلّ شيء وفلان مثلك أي نظيرك لأنّ إذا نظر إليهما النّاظر رآهما سواء ،وحكى أبو عبيدة :النَّظْر والنَّظير بمعنى مثل الندّ والنّديد".[18]

نستنتج أنّ اللّغويين جعلوا الشّبيه والنّظير والمثيل بمعنى واحد ،لكنّ غيرهم من العلماء كالأصوليين الذين أسّسوا علم القواعد الفقهية فرّقوا بين الشّبيه والمثيل والنّظير ،فقالوا بأنّ المماثلة تقتضي المساواة

[16]ابن منظور(محمّد ابن مكرم)، لسان العرب ، (باب : الشين ،فصل :الهاء) ، ج : 07 ، ص : 19-20.
[17]الفيروز آبادي) محمّد بن يعقوب ،القاموس المحيط ، (باب الهاء ،فصل الشين) ، ص : 1255.
[18]ابن منظور(محمّد ابن مكرم)، لسان العرب ، (باب :النّون ،فصل :الرّاء) ، ج : 14 ، ص :185.

من كلّ وجه ،والشّبيه بمعنى المشاركة في أكثر الوجوه لا كلّها ،أمّا النّظير فهو الاشتراك في بعض الوجوه ولو من وجه واحد.

أمّا الأشباه والنّظائر في الاصطلاح فيراد بها "المسائل التي يشبه بعضها البعض مع اختلاف في الحكم لأمور خفيّة أدركها الفقهاء بدقّة أنظارهم ".[19]

تضمّن هذا التعريف أمرا هامّا في كون أنّ الأشباه تختلف عن النّظائر عند اجتماعها ،لذلك ألّف الفقهاء نوعا ثانيا سمّوه الفروق ،من أشهر المؤلّفات فيه كتاب الفروق للإمام القرافي (684هـ)المسمّى "أنوار البروق في أنواء الفروق".

أضيفت كلمة النّظائر للأشباه لأنّ علماء الشّريعة لما صنّفوا في القواعد الفقهيّة وجدوا أنفسهم مضطرّين لجمع الفروق المتشابهة في وجوه كثيرة والوقوف على النّظائر التي تساعد على إدراك الفروق بينها، ولو كان الشّبه ضعيفا كما في الفروق.

قال السيوطي في أهميّة هذه الفن ":اعلم أنّ فنّ الأشباه والنّظائر فنّ عظيم به يطّلع على حقائق الفقه ومداركه ومآخذه وأسراره ويتمهّر في فهمه واستحضاره ويقتدر على الإلحاق والتّخريج ومعرفة أحكام المسائل التي ليست بمسطورة والحوادث والوقائع التي لا تنقضي على ممرّ الزّمان ولهذا قال بعض أصحابنا :الفقه معرفة النّظائر".[20]

اعتمد الفقهاء على هذا الفنّ في تأسيسهم للقواعد الفقهيّة حيث قاموا بجمع الفروع المتشابهة والمتناظرة في العلل فصنّفوا تلك الفروع المتنوعة وأخضعوها لقاعدة جامعة تتفرّع عنها قواعد فرعيّة أخرى .

إنّ مسألة الجمع بين الأشباه والنّظائر لها أدّلتها الشّرعية ،وممّن نصّ على ذلك الأخضري في كتابه "الإمام في مقاصد ربّ الأنام " حيث قال ":إنّ ضمّ المفردات إلى أخواتها وأشكالها محمود حسن

[19]عبد القادر الداودي ،القواعد الكليّة والضّوابط في الفقه الإسلامي،دار ابن حزم ،لبنان ،الطّبعة الأولى: 1430ه-2009م،ص :17.
[20](السيوطي) عبد الرّحمن بن أبي بكر،الأشباه والنّظائر في فروع فقه الشّافعيّة ،تحقيق:خالد عبد الفتاح شبل ،مؤسّسة الكتب الثّقافية ،الطّبعة الأولى :1415ه-1994م ، ص: 13.

ومتعلّق به شرعا وعقلا ،وشواهد ذلك أنّ نصوص القرآن ضمّتها أسماء السور ومتون السنّة حوتها أبواب رواد الحكمة ،وفروع الفقه حدّتها قواعد أهل الذمّة وكان النهج التّشريعي قائما على أساس (فإنّ القضاء فريضة محكمة ،وسنّة متّبعة ،فافهم إذا أدلي إليك بحجّة وأنفذ الحقّ إذا وضح فإنّه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له وآس بين النّاس في وجهك ومجلسك وعدلك حتّى لا ييأس الضّعيف من عدلك ولا يطمع الشّريف في حيفك ،البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ...الفهمَ الفهمَ فيما يختلج في صدرك ممّا لم يبلغك في الكتاب أو السنّة ،اعرف الأمثال والأشباه ثمّ قس الأمور عند ذلك فاعمد إلى أحبّها عند الله وأشبهها بالحقّ فيما ترى)[21]".[22]:

هذا الكلام جزء من نصّ رسالة عمرَ بنِ الخطاب لأبي موسى الأشعري وهي صريحة في الأمر بتتبّع النّظائر وحفظها ليقاس عليها ما ليس بمنقول ،وقول عمر (فيما ترى)إشارة إلى أنّ "المجتهد إنّما يكلّف بما ظنّه صوابا وليس عليه أن يدرك الحقّ في نفس الأمر ،ولا أن يصل إلى اليقين ،وإلى أنّ المجتهد لا يقلّد غيره".[23]

نلاحظ أنّ عمل المجتهد هو حكم ظنّي ،ولا يقدح في النّتيجة التي توصّل إليها إذا لزم ترجيح المصالح والنّظر في الحالات والمآلات فكثير من النّصوص سكت الشّارع عنها .

نقوم الآن بسرد مجوعة من الأدلّة الشّرعيّة على اعتبار قياس الأشباه منها ما يلي:

أ)اعتمد الشّارع الحكيم في تشريعه على الكثير من وجوه الشّبه واعتبرها دليلا قطعيّا، من ذلك قوله تعالى في جزاء الصّيد (فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴿٩٥﴾ [سورة المائدة آية 95] ،فجعل اللّه تعالى كفّارة الصّيد الذي يصطاده المحرم مثل ما يشبهه من الأنعام أي يماثله ،ووجه الدلالة في الآية أنّ الله اعتبر المشابهة في هذه المسالة وذلك في تقدير الكفّارة.

[21] (السيوطي) عبد الرّحمن بن أبي بكر،الأشباه والنّظائر في فروع فقه الشّافعيّة ،تحقيق:خالد عبد الفتاح شبل ،مؤسّسة الكتب الثّقافية ،الطّبعة الأولى : 1415ه-1994م، ج: 1 ؛ص : 13.

[22]الأخضر الأخضاري ،الإمام في مقاصد ربّ الأنام (مقاصد الشريعة الإسلامية)،دار المختار للطّباعة والنّشر والتّوزيع ،الجزائر،الطبعة الأولى2010م،ص:122-123.

[23](السيوطي) عبد الرّحمن بن أبي بكر،الأشباه والنّظائر في فروع فقه الشّافعيّة ، ص : 14.

ب)قوله عليه الصّلاة والسّلام للسّائلة عن دين الميت ":أرأيتِ لو كان على أمّك دين فقضيته أكان ينفعه ؟قالت: نعم، قال:فدين الله أحقّ أن يقضى".[24]

ووجه الاستدلال بالحديث هو "تنبيه منه صلّى الله عليه وسلّم على قياس دين الله على دين الآدميّ بجامع أنّ الكلّ حقّ مطالب به الإنسان ،وأنّه يقضى عنه بدفعه لمستحقّه".[25]

ج)اتّفق جمهور علماء الأصول على أنّ أحكام الله تعالى معلّلة لأنّها لا تخرج عن جلب المصلحة فهذا معنى التّعليل الذي يقول به الفقهاء ،فإذا كانت العلّة غير منصوص عليها تعيّن اشتمال أوصاف المحلّ عليها ،وهذه الأوصاف إمّا المناسب والطردي والشبه.[26]

عرّف علماء الأصول قياس الشّبه بأنّه"إلحاق فرع مردّد بين أصلين بأكثرهما شبها به".[27]

ويكون إلحاق الفرع على أساس الوصف المناسب الذي اعتبره الشّارع والتفت إليه كتردّد العبد المقتول بين الآدمية والقيمة فعلى الأوّل باعتباره مكلّفا بالعبادة مثل الحرّ ،وعلى أساس القيمة فهو يباع ويشترى ويورث ويرهن فيلحق بشبه المال لغلبته ،وقسّم العلماء قياس الشّبه إلى قسمين هما :

1)الشّبه الحكمي :مثاله الوضوء يعطى حكم التيمّم فتجب فيه النيّة والعبد يعطى حكم السّلعة فتجب فيه القيمة ،هذا عند الفقهاء أمّا في النقد فقد أكثر الجرجاني من استعماله وذلك لأنّ شعر المتنبي إذا أشبه شعر غيره فنعطيهما نفس الحكم المناسب لهما فإذا جاز لهذا الشّاعر أن يستعمل هذا النّوع من الاستعمال جاز للمتنبي ذلك لاشتراكهما في الوصف الجامع .

هذا النّوع من الشّبه حجّة عند جمهور الفقهاء من المالكية والشّافعيّة والحنابلة وهو ما تفرضه الضّرورة المنطقيّة في النقد أيضا لأنّ العقل يبيحه ويجيز استعماله.

---

[24] البخاري ،الصحيح ، رقم (1852) ص : 65.
[25] محمد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر ،تحقيق:أبي حفص سامي العربي،دار اليقين ،مصر ،ط:01،1419ه-1999م ص : 595.
[26] ينظر مسالك العلّة في القياس الأصولي في هذا الفصل المبحث الثّالث منه .
[27] (التلمساني) محمّد بن أحمد،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ، ص : 121.

2)الشّبه الحسّي أو الصّوري :هو الاشتراك في الصّورة من أشكاله عند الفقهاء قياس الخيل على البغال والحمير في عدم وجوب الزكاة ،أمّا في مجال النقد فيتضّح كثيرا في قياس الجرجاني أخطاء المتنبي على أخطاء غيره لاشتراكهما في الصّورة.

تعود نشأة الأشباه والنّظائر أو الوجوه والنّظائر إلى الدّراسات القرآنية وبالأخصّ علم التّفسير الذي بدأ البحث في تلك المعاني المتشابهة التي يدلّ عليها لفظ واحد مع اختلاف المعاني التي يحملها ذلك اللّفظ ،فالوجوه هو اسم للمعاني أمّا النّظائر فهو اسم لتلك الكلمات المتشابهة.

من أقدم الكتب المصنّفة في الوجوه والنّظائر كتاب مقاتل بن سليمان (150ه) "الأشباه والنّظائر" وكان ضمن الأمور المتعلّقة بالمشترك اللّفظي باعتبار أنّ المعنى يتعدّد فيه ،ثمّ ألّف الخالديان (أبو بكر محمّد(380ه) وأبو عثمان سعيد(360ه) كتاب " الأشباه والنّظائر من أشعار المتقدّمين والجاهليّة المخضرمين" وهو من أقدم ما ألّف في الأدب واقتصرا فيه على الشّعراء غير المشهورين ولم يستشهدوا ببيت واحد للمتنبي مع كثرة إيرادهم شعر المحدثين ،وقد أشار محقّق الكتاب محمّد يوسف إلى منهج الكتاب بقوله إنّه "في غاية البساطة لا يعدوا عرض قطعات مختارة من شعر المتقدّمين والمخضرمين إنّما يتخلّلها إيضاحات لبعض النقاط الغامضة وتنبيهات على فوائد لا تخلوا من الأهميّة مع إيراد الأشباه والنّظائر التي هي الميزة الكبرى للكاتب".[28]

يتكوّن الكتاب من مجموعة من الموضوعات المتنوعة في مختلف الأغراض الشّعريّة كالهجاء والمديح وأمور متعلّقة بالشّجاعة فيذكرون أبياتا من الشّعر ويقابلونها بنظائرها وأوّل معنى استفتحوه هو كره قتال الأقارب بكره القلوب فذكروا شعرا للمهلهل بن ربيعة على أنّه هو الأصل في هذا المعنى ثمّ يذكرون أخذ الشّعراء له وتناولهم إيّاه ،كما أنّهم لم يذكروا ما اشتهر من الشّعر عند النّاس وإنّما حاولوا ذكر غير المشهور منه ،اهتمّ المؤلّفان بموضوع السّرقات فتتبّعوا المعنى الواحد وذكروا له نظائره من

[28] (الخالديان) أبو بكر محمّد وأبو عثمان سعيد ؛الأشباه والنّظائر من أشعار المتقدّمين والجاهلية والمخضرمين ؛حقّقه :محمّد سيّد يوسف ؛ القاهرة (د،ط) ؛ (د،ت)، المقدمة : (ر).

الشّعر وأشاروا لذلك بقولهم "ونحن نتكلّم على المعاني المخترعة والمتّبعة ولا نجمع نظائر البيت في مكان واحد ولا المعنى المسروق في موضع بل نجعل ذلك في موضع ذكره".[29]

وما يمكن قوله عن الكتاب أنّه غنيّ ثريّ خصوصا في مجال السّرقات وتفردّه بنظائر كثيرة لمعاني مختلفة تساعد الباحث على الدّراسة التّاريخية للمعاني والمقارنة بينها واختلاف دلالاتها من عصر لآخر.

ثمّ ألّف الثعالبي (429هـ) "الأشباه والنّظائر في الألفاظ القرآنيّة التي ترادفت مبانيها وتنوّعت والنّظائر".

لكنّ الاهتمام البالغ لموضوع الأشباه والنّظائر كان واسعا في ساحة الفقهاء وذلك لحاجتهم في ضبط القواعد الفقهيّة الذي أصبح من أهمّ الأمور المرتبطة بمجال الدراسة الفقهيّة والأصوليّة ،وبذلك أثرى الفقهاء ساحتهم مثل كتاب "الأشباه والنّظائر"لتاج الدّين عبد الوهّاب السبكي(771هـ) وقبله كتاب "الأشباه والنّظائر"لابن الوكيل الشّافعي (716هـ).

وفي النّحو ألّف السيوطي (911هـ) كتاب "الأشباه والنّظائر"وله كتاب آخر شبيه "الأشباه والنّظائر" في فقه الشّافعية.

نعود لبيان المجال الذي يتعلّق به قياس الأشباه والنظّائر وهو النقد الأدبي عموما وبالأخصّ شكله ورؤيته في فهم القاضي الجرجاني الذي هو موضوع بحثنا ودراستنا.

يتشابه الشّعراء في الكثير من الأمور المرتبطة بشكل القصيدة ،فالشّعر ينبع من النّفس الإنسانيّة وما يُجِيد فيه هذا الشّاعر قد يجيد فيه غيره أو يسيء ،فيبحث النقد في تلك الأمور التي يبني عليها أحكامه .

[29] المصدر السّابق ، ص : 3.

إنّ مفهوم المقايسة في الأدب هي "النّظر إلى شيء بالقياس إلى شيء آخر والحكم عليه ،وهي من معاني حرف الجرّ (في) نحو الآية(فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلاَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ [سورة التوبة آية 38]أي بالنّسبة للآخرة".[30]

ومن معاني المقايسة المقارنة على سبيل الاعتبار كما في الآية الكريمة السّابقة ،إنّ فكرة المقايسة لا يمكننا الاستغناء عنها لأنّه ليس في مقدور الإنسان الإحاطة بجميع الجزئيات ،فيقاس في كلّ علم ما لم يذكر على ما ذكر حتّى أحكام الشّريعة الإسلامية جاءت بهذه الميزة.

إنّ الذين يُرجعون الأمور كلَّها دائما للنّصوص الثّابتة أي الموجودة والمنصوص عليها قد تنزل بهم مسائل لا يجدون لها حكما خاصّا وواضحا في تلك النّصوص فإذا لم يستعملوا الاجتهاد الذي آلته القياس والذي نعني به إلحاق المسألة النازلة بغيرها من المنصوص عليه بواسطة العلّة الجامعة بينهما كما نقوم بجمع وجوه الشّبه التي نلحق بها الفروع بالأصول والمتماثلات بمثلها فإذا لم نفعل ذلك أثبتنا عجز الشّريعة الإسلامية وجمودها ،كما نحكم على تحديد طاقاتنا العقليّة وأنّها غير قادرة على الاستنباط والإبداع وهذا ما لا يقول به عاقل .

نجد ناقدا كبيرا كالآمدي استعمل المقايسة ووظّفها في حديثه عن سرقات البحتري حيث ذكر جملة منها ثمّ طالب بمقايستها بأشابهها ممّا لم يذكر ،يقول الآمدي في ذلك ":وأنا أذكر في كلّ باب من هذه الأبواب أمثلة تستدلّ بها على صحّة ما ذكرناه وتجعلها قياسا على ما لم نذكره".[31]

لأنّ الآمدي ذكر بعض أشكال السّرقة للبحتري ولم يتتبّعها جميعا فذكر البعض يغني عن غيره ممّا يشبهه .

[30]أيميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني ،قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية،دار العلم للملايين، بيروت ، الطّبعة الأولى:01 : 1987م ، ص : 370.

[3]0 (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،تحقيق:محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العلمية ،بيروت ،ص : 289.

أمّا في وساطة الجرجاني فذكر محمّد مندور بأنّ ":النّاظر في كتاب الجرجاني لن يجد فيه من النقد الموضوعي المفصّل غير الصّفحات الأخيرة من (315 إلى 365) باب ما عابه العلماء على شعر المتنبي فهو في تلك الصفّحات فقط يشبه الآمدي في موازنته ،وأمّا في بقيّة الكتاب فمنهجه هو ما ذكرت من قياس الأشباه والنّظائر".[32]

ماذا يريد بقوله ":يشبه الآمدي في موازنته" هل يقصد النقد الفنّي بمعنى تعليل الأحكام ؟ وإذا كان ذلك قصده أليست المقايسة فيها جانبا كبيرا من الفنيّة ،إذا استثنينا بعض الجوانب التي كان فيها الشّبه صوريّا وهو الاشتراك في الخطأ وإن كنّا نبرّر فعل الجرجاني بأنّه كان يسعى لتأصيل مقاصد النقد الموضوعي العادل الذي "يستند إلى قيم ومعايير متّفق عليها لا على ذوق الناقد وعواطفه".[33]

والآمدي كان متعاطفا مع البحتري كثيرا لأنّ كان –في نظر الآمدي-ملتزما بطريقة العرب في نهجها وبذلك ألغى إبداع أبي تمام على ذلك الأساس ،نحن نؤمن في هذا المقام بمقولة طه إبراهيم التي يقول فيها":يجب أن نعلم أنّ النّاقد لا يستطيع أن يكون موضوعيا بحثا ،وأنّه لا يرى في الكلام المنقود إلا نفسه وصورته ،ومتعة روحه ".[34]

بينما لا نر في نقد الجرجاني صورته ومتعة روحه لأنّه اعتمد على المقايسة في وساطته بين المتنبي وخصومه ومن سلّم بمبدئها لزمته بالضّرورة نتائجها.

إنّ الذي يتبادر إلى أذهاننا من خلال قول مندور في النصّ السّابق " يشبه الآمدي في موازنته"يقصد بذلك القياس النّحوي واللّغوي فقد أبدع الجرجاني فيهما لأنّه قام بالشّرح والتّعليل ،وفي المقايسة أيضا قام بالشّرح والتّعليل إلاّ أنّ المقايسة كان فيها بعض الجوانب الّتي لم ترق أمثال محمّد مندور لأنّ الأخطاء في نظرهم لا تصحّح بمثلها وإنّما الأخطاء تصحّح بما يزيل عنها الخطأ ،والجرجاني كان بصيرا

[32] محمّد مندور، النقد المنهجي عند العرب ،ص : 257.

[33] إيميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني ،قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية،دار العلم للملايين، بيروت ، الطّبعة الأولى:01 : 1987م ،ص : 392-391.

[34] طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،دار الكتب العلمية ،لبنان ،الطبعة الأولى ؛ 1405ه-1985م،ص :177.

بهذا الأمر لكنّه أراد أن يلزم خصوم المتنبي بالإجابة عن هذا السّؤال المهمّ وهو :كيف تجيبون عن الأخطاء الّتي وقع فيها فحول الشّعراء في الألفاظ والمعاني ؟ فإذا سلّمتم بها وذلك من خلال إثبات منزلتهم في الشّعر وصدارتهم فيه فكيف تنكرون شاعريّة المتنبي مع أنّه وقع في نفس الأخطاء الّتي وقع فيها سلفه من الشّعراء مع كثرة إبداعه وتفوّقه في المعاني وروعة شعره.

يجب أن تدرس وساطة الجرجاني في مجالها المحدّد لها ،إنّها تسعى لأنصاف أبي الطيّب لا لتمجيده وعصمته كما قد يفهم البعض ،والمسألة الأخرى الّتي نرى ضرورة التنبّه لها هي أنّ البعد النقدي الذي سعى الجرجاني لتأصيله يجب التمعّن فيه لأنّ مجال النقد يتكوّن من الفاعل أي الناقد والفعل الذي هو النقد ،والمفعول به المتمثّل في النصّ هذه العناصر الثّلاثة ينبغي الاهتمام بها جميعا ،فنقاد المتنبي في القرن الرّابع الهجري قبل أن نقرأ نقدهم يجب أن ننظر في أهليتهم ومدى تأهّلهم ومقدرتهم في النقد والأدب ليكون إنتاجهم قابلا للأخذ ،هذا ما يقبله العقل ،ويتقبّله العلم .

"فالمقايسة إذن هي المنهج الأساسي الذي اعتمده الجرجاني في وساطته ولكن هل تصحّ المقايسة في كلّ الأحيان منهجا معتمدا؟".[35]

هذا السّؤال الذي حاولنا الإجابة عنه في جميع مراحل الفصل الثّالث وذلك من خلال بيان المواضع التي يصلح الاعتماد فيها على المقايسة واعتبارها دليلا مناسبا في الأحكام النقدية التي لها علاقة بين إنتاج المتنبي وإنتاج غيره من الشّعراء خصوصا عند إعمالنا مبدأ المقاصّة الذي اعتمده الجرجاني كإجراء قضائي في دفاعه عن المتنبي .

اختلفت أشكال المقايسة من حقل معرفي لآخر فتطلق على تقدير الشّيء المادي أو المعنوي ،فالشّيء المادّي نقيسه بأشياء معيّنة كالمستعمل في العلوم التّجريبيّة والرّياضيات والفيزياء ،وقد تطوّر في زماننا هذا وأصبح يستعمل في علم النّفس لقراءة تغيّر السّلوك الإنساني ،وفي المجال المعنوي نستعمل القياس مثلا في وضع معايير ومقاييس نردّ الأشياء إليها ونحكم بها مثل قولنا :مقياس الأخلاق كذا ومقياس

[35] نجوى صابر،الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري،دار الوفاء،الإسكندرية،الطبعة الأولى:2006م،ص:189

التّفاضل بين النّاس يكمن في كذا ومقياس تحديد المهارات والكفاءات يتمثّل في كذا إلى غير ذلك من المقاييس.

هذه بعض الإشارات المتعلّقة بقياس الأشباه والنّظائر ،أمّا بالنسبة لأنواع القياس الأخرى فهو ما سنذكره في المباحث الآتيّة حسب التّرتيب الزّمني فنقدّم الحديث عن القياس المنطقي ثمّ القياس الأصولي ونختم بالقياس النّحوي واللّغوي لنعطي صورة واضحة المعالم لهذه الأنواع من القياس ليتسنّى لنا توظيفها في الفصل الثّالث التّطبيقي .

المبحث الثّاني : القياس المنطقي:

يعتبر المنطق من العلوم العقلية التي اعتمد عليها الإنسان في تقويم منهجه الفكري، كما يساعد على تنظيمه ليكون فاعلا ومنتجا، وقد عرفه الإنسان قديما لكنّ شهرته شاعت في المجتمع اليوناني والرّوماني قبل ميلاد المسيح بزمن طويل.

يعرّف المنطق بأنّه":آلة قانونية تعصم مراعاتها الذّهن عن الخطأ في الفكر، فهو علم عملي آلي كما أنّ الحكمة علم نظري غير آلي ".[36]

المقصود بالآلة بمنزلة الجنس،والقانونية تخرج الآلات الجزئية لأرباب الصنائع ،وقوله تعصِم مراعاتها الذّهن عن الخطأ في الفكر بمعنى تحفظه من الوقوع في ذلك ،والفكر هو النّظر أي ترتيب المعلومات التّصديقيّة والتّصويرية من أجل الوصول بها إلى مجهول تصديقي أو تصوّري ،وهذه المعلومات التّصديقية أو التّصورية هي موضوع علم المنطق التي يعتمد عليها للوصول إلى مجهول تصديقي أو تصوّري ،فغاية المنطق تتمحور إذن في :عصمة الذّهن عن وقوع الخطأ في الفكر.

وقد أولاه سقراط (ت469-399ق،م) اهتماما كبيرا، حيث يعدّ من أوائل العلماء الذين اهتمّوا به وأكدّوا على أهميّته في مواجهة الأفكار التي كان السفسطائيون يبثونها في المجتمع على سبيل التّضليل والمغالطات، ثمّ جاء تلميذه أرسطوAristote (385-322ق.م)فاعتنى بالمنطق اعتناء كبيرا فاق به أستاذه من حيث التهذيب والتنظيم ،واعتنى بالقياس والبرهان والجدل ،وبذلك يعتبر أرسطو المؤسّس الأوّل لعلم المنطق ،كما اهتمّ به الرّومان في الحفاظ على موروثهم الثقافي الذي أخذوه عن اليونان وبذلك انتقلت الفلسفة اليونانية إلى الإسكندرية وأصبحت موضعا هامّا للعلم يقصدها الطّلاب من كلّ مكان وتكوّنت فيها مدارس فلسفية متنوعة من أبرزها المدرسة الأفلاطونية التّي كانت تسعى للتّوفيق بين الآراء والفلسفات خاصّة كتب أرسطو وأفلاطونPlaton (427-347ق.م)"واستمر المنطق وغيره من العلوم يدرس هناك في المدارس الّتي أنشئت في حرّان إلى أن فتحها المسلمون

[36]الجرجاني ،عليّ بن محمّد بن عليّ ،التّعريفات، ص: 301.

واختلطوا بسكانها من اليهود والمسيحيين ودارت بينهم المناقشات والمجادلات الدّينية وكثرت المنازعات واشتدّ الجدل بسبب أنّ أصحاب المدارس يستخدمون قوانين المنطق وقواعده في سوق البراهين والأقيسة الجدلية ".[37]

هذا ما يؤكّد حقيقة علمية مفادها أنّ الاستعمار الروماني لليونان كان استعمارا ثقافيا بالدّرجة الأولى كما تمثّل المدارس الأفلاطونية حلقة هامّة في مجال التطوّر الفلسفي الذي بدأ يقترب من الديار العربية والذي ساعد على ظهوره بها مجموعة من العوامل أثّرت في تفاعل العرب معه .

طرق انتقال المنطق للعالم الإسلامي :

حمل العصر الأموي ثقافة متنوعة تمثّلت في النقاش الذي دار في الكنائس وفي غيرها من الأماكن حول فلسفة اليونان وفي مقدّمتها المنطق الأرسطي وعلاقته بالمعتقدات عند المسلمين وغيرهم في إقامة الحجّة والبرهان غلى صحّة ذلك المعتقد أو غيره .

وعرف المسلمون الثقافة اليونانية قبل عصر الترجمة معرفة محدودة "ويذكر أنّ الدلائل على علم المسلمين بالمنطق اليوناني في عهد بني أميّة ما يذكر من أنّ خالد بن يزيد (ت90هـ) أمر بعض علماء اليونان الذين كانوا يقومون في الإسكندرية بترجمة الأورجانون من اليونانية إلى العربية".[38]

يمكننا أن نعتبر هذه العمل من قبيل الإرهاصات الأوليّة والبوادر الأولى في اتّصال المسلمين بالمنطق لكنّ الاطّلاع على التراث اليوناني آنذاك كان عامّا، لم يبلغ مستوى الرّقيّ المرغوب كالذي أحدثته الترجمة في العصر العباسي الذي تطوّرت فيه الحياة العقلية والمستويات الاجتماعية بحيث أصبحت لا تمثّل المسلمين وحدهم نظرا لتمسّك بعض المجتمعات بديانتها وآرائها وقامت بالدّفاع عنها متسلّحة بالمنطق في إثبات أصالتها وبذلك لعب الزنادقة والملحدون دورا كبيرا في غرس الشّبهات والأباطيل

[37] نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، مطبعة حسان، مصر ؛(د،ط) ؛1982م ؛ ص : 58.
[38] المصدر السابق ؛ ص : 60.

واتّخذوا المنطق سلاحا لنشر زندقتهم وإلحادهم ، فقام المسلمون بعمليّة الترجمة أوّلا لتتمّ بعد ذلك مناقشة الأفكار والآراء.

إنّ الخلفاء كانوا أكثر النّاس ميلا للعلم ومحبّة في تحصيله ،فشخصية المأمون في حبّه للاستطلاع وتحصيل المعرفة من أكبر العوامل التي دفعت الهمم نحو الوقوف على التراث اليوناني ،وتذكر مصادر التاريخ أنّ من أهمّ الذين ترجموا المنطق الأرسطي عبد الله بن المقفع وأبو بشر متى بن يونس ويحي بن عدي "وهكذا تبيّن أنّ العرب قد بذلوا جهدا في سبيل الترجمة لكي يسلم النص الأرسطي للمنطق اليوناني بدون تحريف ،ولم ينتهي القرن الثالث الهجري حتّى سيطر المنطق على أكثر دوائر الفكر الإسلامي سيطرة تامّة".[39]

ومن مظاهر سيطرته ظهور الفكر المعتزلي الذي أرجع المسائل كلَّها للعقل ودان بالتّحسين والتقبيح العقليين ،لا ننكر تأثير المنطق على الثّقافة العربية التي بلغت أوّجها على يد علماء فطاحل في ميدان العلوم النّقلية والعقلية وبرعوا في علوم الفلسفة وأنتجوا فيها مؤلّفات قيّمة من أشهرها مؤلّفات الشيخ الرّئيس ابن سينا "الشفا والإشارات" وكتب الإمام فخر الدين الرازي وحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي إلى غيرها من المطوّلات والمختصرات ،وقد امتازت هذه المؤلّفات بزيادات قيّمة متعلّقة بمباحث المنطق القديم"مبحث العلم والدّلالات وحرّروا الموجهات ونقلوا الحدّ من كتاب البرهان ووضعوه بجانب الكلّيات الخمسة ،وأطلقوا على ذلك اسم التّصوّرات ،وحذفوا من كتاب أرسطو المقولات وهي تدرس الآن علما مستقّلا لأنّ النّظر في المقولات ليس مقصورا للمنطقي بالذّات بل بالعرض وحذفوا البرهان والجدل والخطابة والشّعر والسفسطة وألحقوا بكتاب العبارة الكلام في العكس والتّناقض لأنّ ذلك من أحكامها وتوابعها".[40]

وبالإضافة لهذه التصرّفات والزيادات قام بعض علماء الإسلام بنقد منطق أرسطو خصوصا مباحث القياس وما يتعلّق بأشكاله وضروبه ،سنذكر بعض هذه الانتقادات في آخر هذا المبحث .

[39] السابق ؛ ص : 66.
[40] المصدر نفسه ؛ ص : 67.

أشرنا سابقا إلى أنّ المنطق يبحث في التّصورات والتّصديقات ،مثال ذلك :إذا تصوّرنا محمّدا بأنّه علم على شخص ثمّ حكمنا عليه بالشّجاعة فحكمنا قد يكون صحيحا أو خاطئا وبالتالي نسميه تصديقا أو قضيّة عند المناطقة ،وتسمّى أجزاء هذه القضيّة (محمّد شجاع) حدودا فمحمّد حدّ منطقي وشجاع حدّ منطقي ،وهذا الحكم يحتمل الصدق أو الكذب ،فالحدّ المنطقي هو اللّفظ أو الألفاظ الدالّة على معنى في القضيّة وليست دالّة على كلّ المعاني مثل قولنا :محمّد عالم ،وقد يكون الحدّ المنطقي أكثر من لفظ واحد مثاله :إذا طلعت الشّمس جاء خالد.

وتنقسم الحدود المنطقية من حيث الكمّ إلى جزئية وكليّة ،ومن حيث الكيف إلى سالبة وموجبة ونقصد بالكمّ الشكلية والجزئية ،وبالكيف الإيجاب والسّلب ،ولنبدأ الحديث عن بيان الكمّ :

أ)الحدّ الجزئي:هو المعيّن أو الخاصّ لا يقبل الاشتراك مثل أسماء العلم (محمّد،عليّ،خالد، هذا، أنت) فهو موضوع لمعيّن.

ب)الحدّ الكلّي:ما يقبل اشتراك أفراده مثل إنسان نبات ،فواكه ،وقد يخصّ بالإضافة مثل فاكهة التّفاح ،أمّا من حيث الكيف فتنقسم الحدود إلى :

أ)حدود موجبة:هي ما حكم فيها بإثبات شيء لشيء كاعتقادنا بأنّ: الله موجود.

ب)حدود سالبة:ما حكم فيها بنفي شيء عن شيء كقولنا المسلم لا يظلم فقد حكمنا في هذه القضيّة بنفي الظّلم عن المسلم.

والذي يهمّنا من المنطق هو القسم الخاصّ بالتّصديقات وله مبادئ هي:القضايا ومقاصد هي الأقيسة التي سنتحدّث عنها بعد أن نقف على القضايا.

1) القضايا: جمع قضيّة ونقصد بها المركّب الخبري الذي يحتمل الصّدق أو الكذب، وتتكوّن القضيّة من ثلاثة أجزاء هي:

أ)حدّ يسمّى الموضوع:وهو الجزء الأوّل في الرّتبة فهو الذي يخبر عنه كالمبتدأ أو الفاعل، وقد يتقدّم أو يتأخّر.

ب)حدّ يسمّى المحمول:وهو ما تأخّر في الرتبة وإن تقدّم في الذّكر، مثل الخبر.

ج)النّسبة بمعنى الرّابطة بين المحمول والموضوع وتفيد الإيجاب ،مثل محمّد نبيّ وتسمّى القضيّة الموجبة محصّلة ،وتفيد السّلب كقولنا :خالد ليس عالما ،وتسمّي القضيّة السّالبة بالمعدولة .

أنواع القضايا:تنقسم باعتبارات مختلفة، فباعتبار محمول القضيّة إذا لم يفدنا فائدة جديدة مثل القمح البرّ أو الأسد الغضنفر، نلاحظ بأنّ المحمول هو نفس الموضوع وبالتالي نسمّيها القضيّة التّحليلية.

وتستعمل القضيّة التحليلية في المعادلة الرياضية :(س+ص)=(ص+س)

. (5+2)= (2+5)

يجب أن يكون فيها كلا الطّرفين مساويا للآخر،ما على يمين المعادلة مساويا لما على يسارها.

أمّا إذا أفادتنا القضيّة معرفة جديدة لم نستنتجها من موضوعها سمّيت تركيبية مثل قولنا :محمّد عالم صاحب العمامة فقيه ،فالمحمولين أفادنا معرفة جديدة وهي نسبة العلم لمحمّد والفقه لصاحب العمامة وتعتبر القضيّة التركيبية وحدة العلم الطّبيعي لأنّه يسعى دائما لاكتشاف الجديد ويتوقّف صدق هذه القضيّة على مدى مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها فهو خبر يحتمل الصّدق أو الكذب.

أنواع القضايا من حيث الحكم :وتنقسم إلى حملية وشرطية .

أ)قضايا حملية :يكون الحكم فيها على الموضوع مباشرة ،فإذا عمّ جميع أفراده سميّت كليّة وإلاّ كانت جزئية.

ب)قضايا شرطية :هي التي يكون الحكم فيها مشروطا ،فإذا كان الحكم فيها بالتّلازم بين طرفيها تسمّى متّصلة كقولنا :إذا طلعت الشّمس فالنّهار موجود ،العلاقة تلازمية بين الشّرط والمشروط.

إذا كان الحكم متنافيا بين طرفيها سمّيت منفصلة، كقولنا:هذا الإنسان إمّا ناطق أو صامت فهذا التصوّر لا يصدق إلاّ على أحدهما فلا يمكن اجتماعه فيهما، فالقضايا إذن أربعة هي:

حمليّة كليّة (كلّ معدن يتمدّد بالحرارة)،أو حملية جزئية (الحديد معدن) ،شرطية متّصلة أو منفصلة ففي هذه الأقسام الأربعة إذا كان الحكم فيها بثبوت المحمول للموضوع سمّيت القضيّة موجبة ،وإن كان بالسّلب أي النّفي كانت القضيّة سالبة ،مثال ذلك :

-السّالبة الكليّة:لا واحد من المسلمين ظالم.

-السّالبة الجزئية:بعض المسلمين ليس بعالم.

-السّالبة المهملة:المعدن لا يوصل الحرارة.

-السّالبةالشّخصية: خالد ليس بعالم.

الكلّية الموجبة أو السّالبة تستغرق موضوعها ،والجزئية السّالبة أو الموجبة فلا تستغرقه ،أمّا بالنّسبة للمحمول فالكلّية الموجبة والجزئية الموجبة لا يستغرقانه بخلاف الكلّية السّالبة والجزئية السّالبة فيستغرقانه.

إنّ مفهوم الاستدلال القياسي هو"محاولة الوصول إلى حكم جديد مغاير للأحكام التي استنتج منها ويكون في نفس الوقت لازما عنها مترتّبا عليها ".[41]

نلاحظ أنّ النّتيجة الجديدة لا تشبه الأحكام التي استنتجت منها مع لزومية النّتيجة لها ،وينقسم الاستدلال عند أرسطو إلى قسمين :

1-استدلال مباشرimmédiate inférence:هو الذي يتكوّن من قضيّتين تجمعهما علاقة كعلاقة التّداخل ،مثلا لو فرضنا صدق الموجبة الكلّية فتصدق الموجبة الجزئية لأنّها داخلة تحتها ،فإذا

[41]علي عبد المعطي ومحمد محمد قاسم ،المنطق الصوري أسسه ومباحثه،دار المعرفة الجامعية، مصر، (د،ت) ؛1985م ؛ ص : 269.

قلنا مثلا :كلّ جزائريّ إفريقي فهي كليّة موجبة يلزم عنها صدق بعض الجزائريين إفريقي فهذه جزئية موجبة ،بخلاف العكس فإذا قلنا بعض المسلمين يتصدّقون لا يلزم أن يكون المسلمون كلّهم يتصدّقون (كلّية موجبة)،وفي هذا الاستدلال لا نحتاج إلى متوسّط للرّبط بين القضيّتين فهو يقوم على تطبيق قوانين الفكر مباشرة.

2-الاستدلال غير مباشر(القياس)médiate inférence :سمّي بذلك لأنّه لا يعتمد على مقدّمة واحدة بل من أكثر يربط بين تلك المقدّمتين أو المقدّمات الحدّ الأوسط ،والاستدلال غير المباشر قد يكون قياسا أو استقراءا أو تمثيلا ،والفرق بين القياس والاستدلال والتّمثيل هو أنّ "القياس انتقال من كلّي إلى جزئي ،والاستقراء انتقال من جزئي إلى كلّي،والتّمثيل انتقال من جزئي إلى جزئي ".[42]

نعرّف هذا القياس أوّلا كما رآه أرسطو وغيره من المناطقة ثمّ نذكر أركانه وأقسامه وما يتّصل بذلك.

تعريف القياس المنطقي:

عرّفه أرسطو في التّحليلات الأولى بأنّه ":قول إذا وضعت فيه أشياء أكثر من واحد لزم عنها شيء آخر بالاضطرار لوجود تلك الأشياء الموضوعة بذاتها ".[43]

القياس عند أرسطو يتكوّن من ثلاث قضايا هي المقدّمة الكبرى والمقدّمة الصّغرى والنّتيجة الّتي تلزمنا بها الضّرورة المنطقية،هذا القياس صوري لأنّه يعتمد على شكل القياس فقط دون اعتبار مطابقة النّتيجة للواقع أم لا ،مثال على تركيب القياس :كلّ معدن يتمدّد بالحرارة (مقدمة كبرى) ،وكلّ حديد معدن (مقدمة صغرى) ،النتيجة :كلّ حديد يتمدّد بالحرارة.

مبدأ القياس عند أرسطو مبنيّ على قاعدة التداخل بين الحدود ،فالحدّ الأوّل في الكبرى يستغرقه الحدّ الثاني فهو أعمّ منه ،والحدّ الأوّل في الصغرى يستغرقه الثاني .

[42]الدكتور علي عبد المعطي محمد ومحمد محمد قاسم ، المنطق الصوري أسسه ومباحثه ؛ ص : 210.
[43]أرسطو ،فن الشعر،تحقيق :عبد الرحمن بدوي،ضمن مجموعة بعنوان(فن الشعر لأرسطو طاليس مع الترجمة العربية القديمة وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد) النهضة المصرية،،ص : 253.

ويمكن تعريفه بعبارة أخرى "القياس قول مؤلّف من أقوال إذا سلّم ما أورد فيه من القضايا لزم عنه لذاته قول آخر".[44]

نقوم بشرح هذا التعريف كما يلي :

قوله : (قول) يشمل جميع المركبات سواء كان مفهوما عقليا أو لفظا مركبا مفيدا خبريا أو إنشائيا أو ناقصا.

(مؤلّف) أي على هيئة خاصة كما في المثال السّابق.

(من قضايا) اثنين أو أكثر فيشمل القياس المركّب من قضيّتين أو أكثر من ذلك، أخرج المركّب من قضيّة واحدة فهو استدل مباشر، والمركّبات النّاقصة والقضايا الموجّهة فإنّ هذه لا تسمّى قياسا.

(متى سلّمت) عند السّامع أو الخصم فلا يلزم أن تكون القضايا صادقة في الواقع مثل قولنا:

كلّ إنسان ناطق وكلّ ناطق جماد فيلزم عن ذلك نتيجة أنّ كلّ إنسان جماد فتسليم الخصم بالقضية دون مراعاة صدقها أو كذبها في الواقع فيدخل القياس الكاذب باعتبار الآخرين لأنّهم لم يسلّموا بالمقدّمتين ومن هنا أعترض على القياس الصّوري لأنّه أهمل النّتيجة في الواقع فهو"لا يقرّر -أي- التّعريف الأرسطي للقياس الصّدق الفعلي لمقدّمات القياس بل كلّ ما يقوله أنّه (إذا سلّمت بها لزم عن ذلك النتيجة ".[45]

(لزم عنها) خرج قياس التّمثيل والاستقراء فإنّ المقدمات فيها لا تستلزم النتيجة.

(لذاتها) أي لذات القضايا فخرج قياس المساواة ،نحو قولنا محمّد مساوي لإبراهيمَ وإبراهيمُ مساوي لأحمدَ إذن محمّدٌ مُسَاوٍ لأحمدَ فهذا الترتيب وإن لزمت عنه نتيجة فإنّها ليست لذات المقدّمتين بل بواسطة مقدمة أجنبية هي المساوي للمساوي لشيء مُسَاوٍ لذلك الشيء فلزوم النتيجة وعدم لزومها

[44] (ابن سينا) أبو عليّ ، الإشارات والتنبيهات ،تحقيق سليمان دينا ،دار المعارف ،مصر ؛(د،ط) : 1960؛ ص: 421.
[45] علي عبد المعطي ومحمد قاسم ، المنطق الصوري أسسه ومباحثه ، ،ص : 205.

يتبع دائما صدق المقدّمة وكذبها مثل مساواة محمّد لأحمد في المثال السابق ،وأمّا كذبها أي عدم لزوم النّتيجة نحو قولنا :الخمسة نصف العشرة والعشرة نصف العشرين فلا يلزم أنّ العشرة نصف العشرين.

(قول آخر) هو النّتيجة وهي غاية القياس فلا تكون إحدى المقدّمات ،فخرج بهذا القيد قياس المساواة إذ النّتيجة فيه ليست لازمة لذات المقدّمات بل لازمة لصدق مقدّمة خارجيّة والمراد بلزوم النتيجة للمقدّمات ألا يتصوّر تخلّفها عن هذه المقدّمات ،أمّا بالنّسبة للاستقراء والتّمثيل فقد تتخلّف فيهما النّتيجة عن المقدّمات لأنّ الإنتاج فيهما ظنّي.

إنّ النتيجة تلزم بالضّرورة عن المقدّمات لمجرّد التّسليم بها دون النّظر في صحّتها أو خطئها "فالعمليّة القياسية الأرسطية ليست عمليّة استنتاج نتيجة من مقدّمتين ،وإنّما هي عمليّة تهتمّ بلزوم النّتيجة من مقدّمتين ،وهذا يعني أنّ النّتيجة متضمّنة في المقدّمتين لأنّ الحدّ الأوسط كما يقول أرسطو هو ما كان مندرجا في شيء آخر وهو بحكم ترتيبه أوسط".[46]

لا يمكن ربط النّتيجة بغير المقدّمتين،فمهمّة القياس المنطقية البرهنة على إثبات علاقة بين مسألتين بالنّفي أو الإثبات فهي لا تبحث عن الحقائق لتقرّر صدقها فالقياس المنطقي"يستخدم القياس الأرسطي بالأحرى في عرض المعلومات التّي سبق اكتسابها ،لا في الوصول إلى حقائق جديدة ".[47]

وهذه أحد المؤاخذات عليه باعتباره لا ينتج، فالحقائق ناشئة من مقدمتي أو مقدمات القياس فهي عبارة عن نتائج مسلّمة من ذات المقدّمات، نبيّن شكل الرموز المستعملة في القياس كما يلي:

إذا كان (أ) محمولا على كلّ(ب)

وكان (ب) محمولا عل كلّ (ج)

فإنّ (أ) محمولا على كلّ (ج)

[46]المصدر السابق ؛ ص : 148.
[47]علي عبد المعطي ومحمد محمد قاسم ،المنطق الصوري أسسه ومباحثه ؛ ص : 11.

يقول لوكاشيفتن "إنّ القياس الأرسطي يقوم على اللّزوم الضّروري بين الطّرفين وهو على شكل الأقيسة الشّرطيّة اللّزوميّة ".[48]

وانتقد قياس أرسطو بأنّ هذا اللّزوم الضّروري الذي تظهر فيه قوّة القياس يرى فيه أعداء القياس سببا من أسباب فساده لأنّه قد يتوصّل إلى نتائج صحيحة من مقدّمات خاطئة مثال ديكارت يبيّن ذلك :كلّ إنسان حصان

وكلّ حصان عاقل

النتيجة هي :كلّ إنسان عاقل

"فالنّتيجة هنا صحيحة وإن كانت المقدّمتان فاسدتين ،حقّا هذا انتقاد وجيه للقياس المشّائي وليس للقياس الأرسطي ،إذ القياس المشّائي ليس بالضّرورة قياسا أرسطيا فصورة القياس السّابق ليست أرسطية لأنّ أرسطو لم يضع أقيسة على شكل استنتاج وهذا هو الخلاف بين القياس الأرسطي وبين غيره من الأقيسة "[49].

إنّ أرسطو أسّس لأقيسته على أنّ قضاياها لزومية يتألّف من مقدّمها من المقدّمتين لتكون النّتيجة بعدها "ولم يدخل في نظريّته الحدود الجزئية ولا المقدّمات الخصوصيّة ولم يستعمل المتعيّنات الثّابتة من الأشياء كالأجناس والأنواع في الأقيسة اللّهم إلاّ في الأقيسة المعزولة وإنّما يستعمل المتغيّرات الحروف"[50].

يعتبر الاستدلال القياسي صوري خالص يهتمّ بالعلاقات بين القضايا من حيث الشّكل لامن حيث المضمون لاستبعاد أرسطو مادة القياس ولم يستبق غير صورته وبالتّالي يمكن أن نقدّمه في صورة رمزيّة كما يقول (ولتن) ونستعمل الموضوعات والمحمولات المتعيّنة .

نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، مطبعة حسان، مصر '(د،ط) : 1982،ص : 91.
[49]صالح نعمان ؛القياس بين المنطق وأصول الفقه ؛إشراف : السويسي ؛سنة : 1992م ؛ مكتبة الحضارة الإسلامية تحت رقم : 546 ؛ص :23
[50]المصدر السابق :24.

مكوّنـــاتالقياس:

يتكوّن القياس المنطقي من:

1-المقدّمات :نقصد بها المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى والنتيجة "المقدّمة هي جملة تثبت شيئا لشيء آخر أو تنفي شيئا عن شيء ،وبهذا المعنى النّتيجة لأنّها تقدّر شيئا لشيء".[51]

إثبات شيء لشيء أو نفي شيء عن شيء هو قضيّة ،فالمقدمة الكبرى قضيّة تحتوي على الحدّ الأكبر وهو المحمول ، والحدّ الأوسط وهو الموضوع ،أمّا المقدمة الصّغرى فتشمل الحدّ الأصغر وهو الموضوع والحدّ الأوسط وهو المحمول ،والنتيجة تحتوي على الحدّ الأصغر وهو الموضوع والحدّ الأكبر وهو المحمول ، فالقياس الأرسطي يتكوّن من ثلاثة قضايا وثلاثة حدود نعطي مثالا نوضّح به ذلك :

-الحدّ الأكبر نرمز له **(ك)**يكون في المقدمة الكبرى والنّتيجة.

-الحدّ الأوسط نرمز له **(و)** يكون في المقدمة الكبرى والصّغرى.

-الحدّ الأصغر نرمز له **(ص)** يكون في المقدمة الصّغرى والنّتيجة.

تحتوي المقدّمة على حدّين مترابطين هما الموضوع والمحمول الذي يقال له الحكم.

ونمثّل لشكل القياس كما يلي:

القضيـــــة	**الموضوع**	**المحمول**
المقدمة الكبرى :	**(و)**	**(ك).**
المقدمة الصغرى :	**(ص)**	**(و).**
النّـتـيجـة :	**(ص)**	**(ك).**

[51] السابق ؛ ص :24.

وترتيب المقدمتين عند أرسطو ليس ثابتا لأنّ ترتيبهما أمر لا إلزام فيه "لأنّ مقدمتي القياس يتألّف منهما قضيّة عطفيّة وأجزاء القضية العطفية تقبل التّبديل فيما بينها فليس وضع المقدّمة الكبرى أوّلا من قبيل الاصطلاح كما يرى لوكاشيفتن ".[52]

بينما وضع المناطقة القدماء المقدّمة الصّغرى في صدر القياس والنّتيجة في آخره ،واتّفق المحدثون على وضع المقدّمة الكبرى في صدر القياس ولذلك يصبح "وضع الحدّ الأصغر في صدر القياس أكثر استجابة لدواعي المنطق وأحكم ترتيب "[53]

عندما نبحث عن حكم النّبيذ مثلا كغاية في القياس المطلوبة ،نقول :

النّبيذ مسكـر (مقدّمة صغرى).

وكلّ مسكر حرام (مقدّمة كبرى).

تكون نتيجتنا :النّبيذ حرام.

إنّ تقديم الحدّ الأصغر (النّبيذ) في صدر القياس ليكون في النّهاية موضوعا في النّتيجة هو لقصد الاهتمام به وأنّه المطلوب في النّتيجة.

2-الحدود:يتكوّن القياس أيضا من ثلاثة حدود هي :الحدّ الأكبر والحدّ الأوسط والحدّ الأصغر،فالحدّ الأصغر أقلّ أفرادا من الأوسط وهو أقلّ أفرادا من الأكبر ،نلاحظ إذن أنّ الحدّ الأوسط مستغرق لجميع أفراد الحدّ الأصغر ،والحدّ الأكبر يستغرقه نمثّل على ذلك بقولنا:

كلّ إنسان حيوان (كلمة إنسان حدّ أصغر ،وهذه مقدّمة صغرى) ، وكلّ حيوان نام (كلمة حيوان حدّ وسط ،وهو يشمل الإنسان وغيره) ويستغرق الحدّ الأوسط الحدّ الأكبر وهو نام.

[52]المصدر نفسه ؛ ص :25
[53]كتاب أسس المنطق الصّوري،محمد أبو ريان ص:248-249.

الحدّ الأكبر هو محمول النتيجة ،والحدّ الأصغر موضوعها ،والمقدّمة الصغرى مشتملة على الحدّ الأصغر والأوسط ،والكبرى مشتملة على الحدّ الوسط والأكبر ،ويحذف الأوسط في النّتيجة.

أكدّ الغزالي (ت505هـ) على أهميّة الحدّ الأوسط قائلا إنّه ":لابدّ أن يكون واحدا مكرّرا مشتركا في المقدّمتين فإنّه إن لم يكن كذلك تباينت المقدّمتان ولم يتداخلا ولم تلزم من ازدواجهما النّتيجة".[54]

النتيجة المسلّمة عند الغزالي هي المقبولة عقلا ،وقد لا ينتجها القياس الصوري عند أرسطو لأنّه لا يهتمّ بطابع النتيجة في الواقع.

الشروط العامة للقياس :

1-يتركّب القياس الواحد من مقدّمتين، فكلّ قياس تركّب أكثر من مقدمتين فهو أكثر من قياس.

2-يذكر الحدّ الأوسط في المقدّمتين ويحذف في النّتيجة.

3-يجب ألاّ يكون الحدّ الأوسط من الألفاظ الموهمة ، فأهميّته هي البرهنة والعقل يتطلّب أن يربط بين الموضوع والمحمول ولا يكون ذلك إلاّ بالحدّ الأوسط "ومن هنا كانت ضرورة أن يأتي في المرّتين بمعنى واحد فإذا جاء بأكثر من معنى أصبحنا في مواجهة أربعة حدود لا ثلاثة ونشأ عن ذلك ما يعرف بأغلوطة الحدّ الرّابع ومثّل عليها : كلّ كريم جواد ،لكلّ جواد كبوة ، كلّ كريم له كبوة".[55]

ومثله لفظ العين فإنّه يطلق على الجارية والجارحة والذهب، فلا يصلح جعلها حدّا وسطا لدفع الالتباس أو لنقل الألفاظ المشتركة التي يقع بها الالتباس.

4-إذا تقدّمت الصغرى على الكبرى أو العكس فذلك لا يؤثّر في النّتيجة.

5-لا بدّ من استغراق الحدّ الأوسط لجميع أفراد الأصغر بحيث يكون الأصغر أحد أفراده فإذا لم يكن كذلك بطل القياس.

[54]أبو حامد الغزالي،معيار العلم في فنّ المنطق ،دار الأندلس للطّباعة والنشر والتوزيع ،لبنان ؛ (د،ط) ،(د،ت) ،ص : 99.
[55]علي عبد المعطي ومحمد محمد قاسم ،المنطق الصوري أسسه ومباحثه ؛ ص : 298.

6-تتبع النّتيجة الأخسّ من المقدّمتين لأنّه إذا كانت إحدى المقدّمتين سالبتين كانت النتيجة سالبة ، لقولهم (النتيجة تتبع الأخس) أي الأضعف "فالحد الأوسط إذا كان له صلة بإحدى المقدمتين فقط انقطعت الصّلة الأخرى مثاله :كلّ ذهب معدن ولاشيء من المعدن نبات وجب أن تكون النّتيجة سالبة لا شيء من الذّهب نبات ".[56]

فهذا القياس فاسد بهذا الاعتبار، وإذا كانت إحدى المقدّمتين جزئية كانت النتيجة جزئية لأنّ الكلّية أشرف من الجزئية، وسنبيّن ذلك في تطبيقنا على الأشكال.

7-لا إنتاج من مقدّمتين سالبتين لأنّ الحدّ الأوسط هو الرّابط بين الحدّيين فإذا سلبناه عن الحدّ الأكبر وسلبنا عنه الأصغر فلا وجه لارتباطهما ومن ثمّ تفسد النّتيجة من حيث انفصال موضوعها عن المحمول ،مثال ذلك قولنا :

لا واحد من المسلمين ظالم، ولا واحد من الظالمين محبوب تكون النّتيجة:لا واحد من المسلمين بمحبوب وهذه نتيجة كاذبة لوجود السّلب بين المقدّمتين.

8-لا إنتاج من المقدّمتين إذا كانت صغراهما سالبة والكبرى موجبة جزئية لأنّ السالبة تصبح مستغرقة والكبرى ليست كذلك (موجبة جزئية) وهذا يفسد القياس ،ولا إنتاج من مقدّمتين جزئيتين لأنّ الحدّ الأوسط لا يكون شاملا ومستغرقا.

أقسام القياس:ينقسم القياس الأرسطي إلى قسمين:

1-**القياس الاستثنائي:**هو ما ذكرت فيه النّتيجة أو نقيضها بالفعل في المقدّمات،و سمّي هذا القياس استثنائيا لذكر أداة الاستثناء فيه (لكنّ) وإن كان معناها اللّغوي الاستدراك إلاّ أنّ المناطقة سموها أداة استثناء اصطلاحا لشبه الاستثناء بالاستدراك ،فمعنى الاستثناء إخراج الشّيء ومعنى الاستدراك يقاربه.

[56]نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، ص : 278.

كما "يتألّف القياس الاستثنائي من مقدمتين أحدهما شرطية والأخرى استثنائية تفيد:إمّا وضع أحد جزئي الشرطية –أي إثباته-أو تفيد رفع أحد جزئي القضية -أي نفيه- لينتج وضع الجزء الآخر أو رفعه والنّتيجة هي المستنبطة من المقدّمتين إذا فالقياس الاستثنائي يتركّب من :

أ-المقدمة الشرطية :تسمّى بالمقدّمة الكبرى.

ب-المقدمة الاستثنائية :تسمّى الصغرى.

ج-النتيجة :وهي القضية المستنبطة من المقدّمتين."[57]

نعطي مثالا نوضح به معنى هذا النصّ فنقول:كلّما كانت الشّمس طالعة كان النّهار موجودا(هذه مقدمة شرطية)، لكنّ الشّمس طالعة فالنّهار موجود (هذه مقدمة استثنائية)، فالنّتيجة هي (النّهار موجود) بالفعل فهذه النّتيجة ذكرت بمادتها وصورتها في المقدّمة الأولى.

أمّا نقيض النّتيجة فنمثّل عليه بقولنا:كلّما كانت الشّمس طالعة فالنّهار موجود لكنّ النّهار ليس موجود فالشّمس ليست بطالعة النتيجة هي (الشّمس ليست بطالعة) مذكور في القياس نقيضها وهو الشّمس طالعة وهو خال من الحكم أيضا.

2-القياس الاقتراني أو الحملي:سّمي بذلك لاقتران الحدود فيه ،وأداة الاقتران هي (الواو)، والنّتيجة فيه لم تذكر بصورتها وإنّما بالقوّة أي يشار إليها ضمنيا،وفي هذا القياس يكون "ما يلزمه ليس هو ولا نقيضه مقولا فيه بالفعل بوجه ما بل بالقوّة كقولك :كلّ جسم مؤلّف ،كلّ مؤلّف محدث النتيجة هي كلّ جسم محدث ".[58]

نلاحظ أنّ النّتيجة ناتجة بالضّرورة من المقدّمتين، وينقسم القياس الاقتراني إلى ثلاثة أنواع:

[57]المصدر السابق ؛ ص : 280.
[58]علي عبد المعطي ومحمد محمد قاسم ،المنطق الصوري أسسه ومباحثه ؛ ص : 295.

أ-قياس حملي : يتألّف من قضايا حملية بحتة متركّبة من مقدّمتين ونتيجة مثل قولنا :الخَمْرُ مُسْكِرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، النّتيجة هي :الخَمْرُ مُسْكِرٌ ،وكثيرا ما يمثّل المناطقة المسلمون على القياس الحملي بهذا المثال الذي هو في أصله حديث نبويّ شريف ،يقول عليه السّلام:{كلّ مسكر خمر ،وكلّ خمر حرام }[59]،نلاحظ أنّ نظم الحديث جاء على طريقة المناطقة فقد تكوّن من مقدّمتين لزم عنهما نتيجة وهي أنّ :كلّ مسكر حرام ،فلا يجوز الاستدلال بهذا على أنّ أحكام الشّريعة جاءت ممزوجة بأصول المنطق فهي بخلاف ذلك كما قال الشّاطبي (ت790هـ) في الموافقات"الشّريعة لم توضع إلاّ على شرط الأميّة ومراعاة علم المنطق في القضايا الشّرعية مناف لذلك فإطلاق لفظ المقدّمتين لا يستلزم ذلك الاصطلاح".[60]

ب-القياس الشّرطي المتصّل:يتكوّن من قضايا شرطيّة متّصلة بحتة، وهو قليل الاستعمال، نمثّل له بقولنا: إذا كان الإنسان مخلصا كان محبوبا وإذا كان الإنسان تقيّا كان صالحا، النتيجة إذن:

إذا كان الإنسان تقيّا كان محبوبا.

ج- القياس الشرطي المنفصل:يتألّف من قضايا شرطية منفصلة بحتة مثاله:

العدد إمّا زوج وإمّا فرد والعدد إمّا غير زوج أو قابل القسمة على اثنين النّتيجة هي العدد إمّا فرد أو قابل للقسمة على اثنين.

لواحق القياس:ألحق المناطقة بالقياس أمورا أربعة هي :

1- القياس المركّب:يتألّف من مقدّمتين تنتج عنهما نتيجة تركّب مع مقدّمة أخرى تنتج نتيجة أخرى إلى أن يتحقّق المطلوب "وإنّما يستعمل هذا القياس في المقدّمات النّظرية بقصد الاستدلال عليها، ويمكن ردّه إلى القياس العادي ".[61]

[59]البخاري ؛ الصحيح ؛ ج : 01؛ ص : 62 (كتاب الطّهارة ؛ باب : لا يجوز الوضوء بالنّبيذ ولا بالمسكر).
[60](الشاطبي)أبو إسحاق ،الموافقات في أصول الشريعة ،تحقيق:عبد الله درّاز،المكتبة التوفيقية القاهرة ؛(د،ط) ؛(د،ت)،ج :4-ص: 281.
[61]نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، ص : 287.

نعطي مثّالا على ذلك كقولنا: العالم متغيّر وكلّ متغيّر حادث وكلّ حادث مسبوق بالعدم وكلّ مسبوق بالعدم أثر للفاعل المختار النتيجة إذن: العالم أثر للفاعل المختار.

2- قياس الخلف:

سمّي خلفا أي باطلا ،والبطلان لا يرجع لذات القياس بل لأنّه ينتج الباطل على تقدير أنّه يثبت المطلوب بإبطال نقيضه فمطلوبه لا يأتي عن طريق الاستقامة بل عن طريق خلفه ولذلك سمّي مقابلة بالقياس المستقيم لأنّه يثبت المطلوب بنفسه مباشرة ،نعطي مثالا على هذا النّوع من القياس فنقول :

كلّ إنسان ناطق حيوان كليّة موجبة عكسها بعض الحيوان إنسان نلاحظ أنّ العكس صادق فعندما يعارض أحد في صدق هذا العكس ونريد إثبات الدّليل عليه نستدلّ بقياس الخلف فنقول مثلا:لو لم يكن هذا العكس صادقا فنقيضه صادق وهو لاشيء من الحيوان إنسان فلو ضممنا نقيض العكس إلى القضيّة الأصل تصبح :كلّ إنسان حيوان ولا شيء من الحيوان بإنسان ينتج لا شيء من الإنسان بإنسان وهذه قضيّة باطلة لأنّ فيها سلب الشّيء عن نفسه وجاء البطلان من نقيض العكس فيكون العكس صحيحا وهو بعض الحيوان إنسان.

مثّل أبو حامد لقياس الخلف بقول الفقهاء "كلّ ما هو فرض فلا يؤدّى على الرّاحلة ،والوتر فرض فإذن لا يؤدّى على الرّاحلة ،فهذه النتيجة كاذبة ولا تصدر إلاّ من قياس في مقدّماتها مقدّمة كاذبة".[62]

نلاحظ أنّ المقدّمة الأولى صادقة والثانية مشكوكة أو ظاهرة الكذب أنتجت نتيجة كاذبة .

3- **الاستقراء**:هو انتقال الفكر من الحكم على جزئيّ إلى كلّي يشمل هذا الجزء ،وعرّفه أبو حامد بقوله ":هو أن تتصفّح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلّي حتّى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات حكمت على ذلك الكلّي به".[63]

[62] أبو حامد الغزالي،معيار العلم في فنّ المنطق ؛ ص : 114.

نلاحظ أنّ الحكم من جزئيات كثيرة على جزئيّ واحد هو الاستقراء ،وهو أقوى عند الغزالي من قياس التّمثيل ،وينقسم الاستقراء إلى :

أ) استقراء تام (تلخيصي) :هو عملية تشمل جميع الأفراد والجزئيات ويستغنى فيه بالكثرة عن القلّة لاستحالة تحصيله.

ب) استقراء ناقص :فيه يتخلّف بعض الأفراد أو الجزئيات عن الحكم.

لقد اعتنى العلماء بالاستقراء ووصفوه "بالمنهج العلمي، وعنوا به عناية كبيرة وتوسّعوا فيه خاصّة بعد تقدّم العلوم الطّبيعية كما يتّضح ذلك من دراسة مناهج البحث في المنطق الحديث".[64]

كما يسمّى هذا النّوع أيضا بالاستقراء الحديث أو النّاقص ولا يهمّ فيه حصر جميع الجزئيات ،ويعتمد هذا الاستقراء العلمي على الملاحظة والتّجربة ،وافتراض الفروض ،ثمّ التحقّق من تلك الفروض ،وهذه مراحل البحث العلمي ،ويمتاز الاستقراء بأنّ فيه استدلال وبرهان أمّا الاستدلال فيكون بذكر المقدّمات الجزئية والوصول منها إلى نتائج كليّة ،وأمّا البرهان فهو بذكر النّتيجة الكليّة وردّها إلى المقدّمات الجزئية ،فإذا قلنا مثلا :كلّ معدن يتمدّد بالحرارة فهذا استدلال وهو استقراء كليّ لأنّ فيه كلّ فإذا رددنا هذه النّتيجة إلى مقدّماتها الجزئية قلنا :الحديد يتمدّد بالحرارة ،ويعتبر أرسطو أوّل من استعمل الاستقراء ،وهو عنده على طريقتين ،الأولى :انتقال من مقدّمات جزئية إلى أمور كليّة تعمّها عن طريق التجربة الحسيّة كما مثّلنا سابقا بتمدّد المعادن بالحرارة.

والثانية:الاستقراء الحدسي وهو يقوم على الانتقال من الجزئيات إلى الكليّات لكن لا يلزم فيه تمام الإحصاء ،فهو استقراء ناقص قد يكون صحيحا إذا كانت الجزئية تصدق على باقي الأفراد فإذا قلنا مثلا : النحاس يتمدّد بالحرارة لأنّه معدن ثمّ نحكم على المعادن الأخرى بالتمدد بواسطة الحرارة.

[63] المصدر السّابق ؛ ص : 115.
[64] السّابق؛ ص: 289.

د)قياس التّمثيل:يعرّف هذا النّوع بأنّه "إثبات حكم واحد في جزئي لوجود ذلك الحكم في جزئي آخر لمعنى مشترك بين الجزئيين يوجب ذلك الحكم".[65]

وهذا المعنى المشترك يطلق عليه علّة الحكم الذي يجمع بين الجزئيين،هذا النّوع من الاستدلال يسمّيه الفقهاء قياسا كقولهم :النّبيذ حرام كالخمر لأنّه مسكر وكلّ مسكر حرام ،فالخمر يسمّى أصلا أو مقيسا عليه ،والنّبيذ فرع وعلّة الحكم هي الإسكار أو المعنى المشترك.

أشكال القياس :الشكل عبارة عن الهيئة الحاصلة من اجتماع مقدّمات القياس من غير ملاحظة السور ،ويتحدّد شكل القياس من خلال وضع الحدّ الأوسط في المقدّمة الكبرى والصغرى ،ووفق القسمة العقلية لوضع الحدّ الأوسط في المقدّمتين يصبح على أربعة أشكال نبيّنها كما يلي :

-الشكل الأوّل :يكون الحدّ الأوسط فيه محمولا في الصغرى موضوعا في الكبرى مثال ذلك :

كلّ إنسان عاقل، وكلّ عاقل محمود، النتيجة هي: كلّ إنسان محمود.

ويمتاز هذا الشكل بأنّه الوحيد الذي يكون فيه موضوع النّتيجة محمولا في المقدّمة الكبرى موضوعا في الصّغرى ،وينتج جميع أنواع القضايا ويختصّ وحده بإنتاج الكليّة الموجبة ولهذه الخاصيّة جعله أرسطو (385-322ق.م) أكمل أشكال القياس وإليه يردّ الشكليين الآتين (الثاني والثّالث).

نلاحظ أنّ العقل في هذا الشكل ينتقل فيه من الأصغر إلى الأوسط ومن الأوسط إلى الأكبر فيمكّن العقل من أن يحكم بالأصغر على الأكبر ،وينتج لنا أربعة ضروب لأنّ الصغرى يجب أن تكون موجبة (سواء كانت كليّة أو جزئية) فهذان ضربان،والكبرى يجب أن تكون كليّة (موجبة أو سالبة) نبيّن هذه الضروب من خلال هذه الأمثلة كما يلي :

الضـــرب	الصّـغرى	الكـــــــبرى	النتـــــيجة
موجبتان كليتان	كلّ إنسان عاقل	وكلّ عاقل محمود	كلّ إنسان محمود

[65]المصدر السّابق؛ ص: 289-290.

إيجاب كلّي مع سلب كلّي كلّ فضّة معدن لا شيء من المعدن نبات لا شيء من الفضّة بنبات

إيجاب جزئي مع إيجاب كلّي بعض النبات قمح كلّ قمح غذاء بعض النبات غذاء.

إيجاب جزئي مع سلب كلّي بعض النّاس عقلاء لا واحد من العقلاء بموجود بعض الناس ليس بموجود

هذا الشكل أوضح الأشكال لأنّه على التّرتيب الطّبيعي وأنتج لنا المطالب الأربعة:الإيجاب الكلّي والجزئي، والسّلب الكلّي والجزئي.

-الشكل الثاني:إذا كان الحدّ الأوسط محمولا فيهما كقولنا :

كلّ كريم محبوب، لا ظالم محبوب النّتيجة لا كريم ظالم، تتبع النّتيجة الأحسن.

ينتج هذا الشكل القضايا السّالبة ،ويكثر استعماله في البراهين الّتي تساعد على إثبات فساد الأحكام ويستعان به في الجدل مثل إبطال الدّعوى لأنّها تكون في العادة موجبة ويكون الردّ عليها على شكل قضيّة سالبة ،ويشارك هذا الشكل الأوّل في المقدّمة الصّغرى ونظرا لاشتمالها على موضوع النّتيجة فضّلت على المقدّمة الكبرى لأنّ النّتيجة مقصودة من حيث موضوعها وهو الغاية الأولى ثمّ يطلب له المحمول لأنّ ما تعلّق البحث به ليس كما يبحث عنه لغيره.

-الشكل الثّالث : هو عكس الثّاني لأنّ الحدّ الأوسط يكون موضوعا فيهما ، مثاله :

كلّ إنسان عاقل وكلّ إنسان محمود النتيجة : بعض العقلاء محمود.

ينتج هذا الشكل قضايا جزئية فقط حتّى ولو كان مركّبا من موجبتين كلّيتين كما في هذا المثال.

المقدّمة الكبرى أدنى من الصغرى لاحتوائها على موضوع النّتيجة لهذا جاء هذا الشكل ثالثا.

-الشكل الرّابع : إذا كان الحدّ الأوسط موضوعا في الصغرى محمولا في الكبرى مثاله :

كلّ شجر نام وكلّ شجر نبات، ينتج بعض النامي شجر، ولا ينتج هذا الشكل إلاّ الجزئيّ فقط، ولإنتاج هذه الأشكال لا بدّ من توفرّ شرطين هما:

1-لا بدّ من إيجاب الصغرى لتكون النّتيجة الصادقة مطّردة ،فلو كانت الصغرى سالبة تصبح النّتيجة مرّة صادقة ومرّة كاذبة والنّتيجة لا بدّ أن تكون ثابتة ،مثال ذلك قولنا :لاشيء من الفضّة بذهب وكلّ ذهب معدن فإذا حذفنا المكرّر ينتج لا شيء من الفضّة بمعدن وهي كاذبة فكلّ فضّة معدن فعندما فقدنا إيجاب الصغرى كذبت النّتيجة.

2-يجب أن تكون الكليّة كبرى لأنّها لو كانت جزئية لا يطّرد صدق النّتيجة فتكذب مرّة وتصدق أخرى ويجب أن تكون النّتيجة مطّردة لتكون مسلّمة في العقل فإذا قلنا:كلّ قمح نبات وبعض النّبات تفاح فالنتيجة : بعض القمح تفاح وهي كاذبة لاختلال الشّرط وهو كليّة كبرى والنّتيجة لابدّ أن تكون مطّردة الصّدق.

نؤكّد في ختام المقام بأنّ منطق أرسطو لم يسلم من الانتقاد سواء عند المسلمين أو غيرهم وبذلك ضاق مجال استعماله ولم يعد قادرا على الاستجابة لدواعي البحث العلمي السّليم المبنيّ على الاستدلال الاستقرائي.

نقد منطق أرسطو:

إنّ أهمّ ما يعنى به المنطق الأرسطي على وجه التّحديد مباحث القياس أي الاستدلال القياسي وهو تبيين الأشكال والضروب المنتجة وغير المنتجة ،وبجانب هذا يعنى بمقدّمات القياس فيبحث في القضايا وأجزائها ،والبحث في المقدّمات المقصود منه هو الاستدلال القياس كما بيّنا سابقا ،فالقياس هو الفكرة الجوهرية التي يعنى بها مباحث المنطق الأرسطي.

بينما يعتمد المنطق الحديث على الاستقراء أو الاستدلال الاستقرائي كفكرة أساسية مهمّة ومطلوبة وفيه ينتقل الذّهن من الخاصّ إلى العام كتصفحنا لجميع المعادن ثمّ الحكم عليها بالتمدّد بالحرارة

لنحصل في الأخير على أنّ كلّ المعادن تتمدّد بالحرارة بخلاف الاستدلال القياسي فالذّهن فيه ينتقل من العامّ إلى الخاصّ،فنقول :محمّد إنسان وكلّ إنسان مفكّر إذن :محمّد مفكّر ،فالعامّ هو الإنسان المفكّر والخاصّ هو النّتيجة ،والاستدلال القياسي لا يحفل بصدق النّتيجة أو كذبها في الواقع بخلاف الاستقرائي فهو يعتمد على التّجربة والملاحظة ثمّ افتراض الفروض وبعدها يأتي التحقّق منها لمعرفة مدى صدق النّتيجة في الواقع "فإذا كان المنطق القديم يعنى بصورة القياس ويعوّل على أن تكون المقدّمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النّتيجة من غير نظر إلى الحياة الواقعية فإنّ المنطق الحديث يتحرّى صدق النّتيجة ،وهل هي مطابقة للواقع أم لا ؟".[66]

نلاحظ أنّ الاختلاف بين الاستدلال القياسي والاستدلال الاستقرائي مناطه النّتيجة ومدى صدقها أو عدمه في الواقع.

لقد سيطرت فكرة التمسّك بالمنطق الشكلي لدى أرسطو عقودا زمنية متوالية امتدت من عصر أرسطو إلى أواخر القرن السّادس عشر الميلادي واعتبر منطق أرسطو هو الحاكم على الأفكار والمعيار المحكّم لكنّ الأبحاث العلمية التي اعتمدها العلماء وتوصّلوا من خلالها إلى حقائق علمية أوجدت تمرّدا كبيرا على المنطق الأرسطي ،وبذلك أصبح المناطقة لا يعتمدون على الهيئة الصّورية المتعلّقة بالفهم الأرسطي لأنّه لا يتوافق مع الحقائق التي أثبتها الاستدلال الاستقرائي في الواقع ،وأصبح لزاما على الأمّة الأخذ بالمنهج الرياضي لديكارت لأنّه "المنهج الذي يصلح في جميع أنواع العلوم ،لأنّ التفكير الرّياضي هو التفكير المنتج حقّا على عكس القياس الأرسطي".[67]

يبيّن لنا المنهج الجديد الذي عرف به ديكارت انقلابا فكريا على الموروث الثّقافي عن الأسلاف ،فقد احترم القدماء القياس الأرسطي احتراما مبنيا على المحاكاة ،وقام فرنسيس بيكون بالثّورة على المنطق الأرسطي وساهم في تأسيس المنطق الاستقرائي الجديد واعتبره المنهج المساير للعقلية الإنسانية المفكّرة.

[66] نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، ص : 69.
[67] المصدر السابق ؛ ص : 71.

وفي حقيقة الأمر إنّ المسلمين هم أوّل من شنّ هجوما على المنطق الأرسطي وبيّنوا زيفه لأنّ العقلية الإسلامية" لم توافق عليه ولا على اعتباره قانونا مسلّما كليّا تتّفق عليه العقول السليمة ،ورأت فيه غثاء فكريا وصورية بحتة لا تؤدّي إلى العلم ،ووضعت منطقا استقرائيا تناولت به الناحية التجريبية واعتبرته القانون الذي يسير به العقل في بحثه عن الأشياء وفي التوصّل إلى العلم".[68]

اعتبر الاستقراء قانونا سليما لأنّ مقدماته يمكن التحقّق من صدقها وذلك عن طريق مقارنتها بالواقع الخارجي ،ونظرا لاعتماده على الملاحظة والتجربة يمكن تطبيقه على الظّواهر الإنسانية كعلم الاجتماع والنّفس والاقتصاد وغيرها.

إنّ الاعتراضات التي تلقّاها المنطق الأرسطي نجملها في النقاط التالية:

-رأى المسلمون قصورا عقيما في المنطق الأرسطي وقالوا بأنّ نظرية القياس "هي استدلال دوري فاسد من حيث احتوائها على المصادرة على المطلوب ،وأنّها عقيمة لا تنتج ،وأنّها لا صلة بينها وبين الحياة الواقعية ".[69]

النّتيجة عند أرسطو ناشئة من ذات المقدّمات المسلّمة وبهذا فهي غير منتجة ولقوّة اعتمادها على شكلها الصّوري فهي لا تطابق الواقع لأنّها في نظر ديكارت تعرقل حركة الذّهن ومعنى أنّها عقيمة أي لا تنتج فالحقيقة الحاصلة منطوية في حقيقة أخرى ،ومثّل ديكارت على ذلك بقوله:كلّ إنسان فان وسقراط إنسان ينتج عندنا أنّ سقراط فان ،فهذا القياس لم نكتسب منه حقيقة جديدة لأنّنا حكمنا بفناء سقراط من معرفة مسبقة ،وهذا ما قال به استوارت مل ،ولا نفهم من هذا الهجوم رفض المنطق الأرسطي كليّة ففي موضوع القياس نلغي الشّكل الصوري الذي لا يتحقّق في الواقع أمّا المتحقّق فلا يمكن إلغاؤه.

كما لم يسلم الاستدلال الاستقرائي هو الآخر من الاعتراضات، من جملتها ما يلي:

[68] السابق ؛ ص : 71.
[69] المصدر نفسه ؛ ص : 73.

-زعم أنصار الاستقراء أنّ فيه غينة عن القياس مع أنّه يحتاج إليه في مرحلة من مراحله لأنّ عملية الاستدلال الاستقرائي عبارة عن "تصفّح وتتبّع جميع الجزئيات واختبارها للوصول منها إلى حكم كلّي كما لو تصفّحنا كلّ معدن من المعادن ووجدناه يتمدّد بالحرارة فنقول كلّ معدن يتمدّد بالحرارة بناء على أنّنا أجرينا التّجارب على كلّ نوع من أنواع المعادن وهذا هو الاستقراء".[70]

التصفّح الأوّلي في الاستقراء شبيه بمقدّمات القياس من حيث الوصول للنّتائج التي هي عبارة عن استنتاج عبّر عنه (بيكون) أو (استوارت مل)بأنّه:القانون العام الذي ينصّ على أنّ كلّ معدن يتمدّد بالحرارة "ولا شكّ أنّ القانون العام يراد لتطبيقه على الجزئيات ولا سبيل لتطبيقه إلاّ باستعمال القياس إذ التّطبيق لا يتمّ إلاّ هكذا ،هذا الشيء حديد وكلّ حديد يتمدّد بالحرارة إذن هذا الشيء يتمدّد بالحرارة ،فإذن ثمرة الاستقراء وتطبيقه كقانون عام على الجزئيات متوقّفان على القياس".[71]

نستنتج أنّ القياس عمليّة فعالّة في الاستقراء لأنّ تحقيق ثمرته لا تكون إلاّ بإجراء القياس.

يتجلّى المنطق الإسلامي السّديد في علم أصول الفقه،ففيه ظهرت العقلية الإسلامية بتركيبها المحكم وأشرنا سابقا إلى أنّ القياس الأصولي عند المناطقة هو القياس التّمثيلي ،فقد وضعت له ضوابط وحدود واهتمّ المسلمون به لأنّه عندهم آلة الاجتهاد ويمثّل الأصل الرّابع من أدلّة الأحكام الشّرعية.

[70] نفسه ؛ ص : 68.
[71] نفسه ؛ ص : 75.

المبحث الثّالث :القياس الأصولي

يأتي القياس في المرتبة الرّابعة بعد القرآن والسنّة والإجماع ،فالحوادث النّازلة التي لم يدلّ عليها حكم من نصوص القرآن والسنّة والإجماع تخضع للقياس فهو من عمل المجتهد الذي يقوم بإثبات حكم لهذه النّازلة فيلحقها بأصولها المعتبرة ،لا يستعمل القياس إلاّ بعد بذل الجهد في تحصيل النّصوص ومن ثمّ يلجأ إليه المجتهد ،كما نصّ الشافعي (ت204هـ) على ضرورة الأخذ به فقال ":ونحكم بالإجماع ثمّ القياس وهو أضعف من هذا ،ولكنّها منزلة ضرّورة لأنّه لا يحلّ القياس والخبر موجود ،كما يكون التيمّم طهارة في السّفر عند الإعواز من الماء ،ولا يكون طهارة إذا وجد الماء ،إنّما يكون طهارة في الإعواز ،وكذلك يكون ما بعد السنّة حجّة إذا عوز من السنّة".[72]

يحرص الشّافعي على عدم العمل بالقياس إلاّ بعد التأكّد من انعدام النّصوص لقولهم "لا اجتهاد مع النصّ "،ويعنى القياس بالأمور الفرعية التي لا نصّ فيها ويراد بقياسها على أصولها معرفة حكم الشّارع فيها ،ولولا القياس لكانت الشّريعة جامدة وغير مواكبة لمتطلّبات الحياة ودوافعها ،وتقرّ الفطرة السّليمة بربط الأشياء المتشابهة والمتناظرة بعضها ببعض متى توافرت الشّروط والأسباب.

اتّفق جمهور العلماء على العمل به ،وخالف الظاهريّة ومعتزلة بغداد فلم يروا العمل به،وسنتحدّث عن هذا الخلاف عند وقوفنا على حجيّة القياس وذلك بعد أن نعرّف القياس ؟ ونذكر أركانه وشروطه ؟وما يتعلّق بمجالاته وبعض مسائله ؟.

تعريف القياس: تقدّم لنا تعريفه اللّغوي في بداية هذا الفصل وقلنا بأنّه يطلق على التّقدير ومنه "قست الثّوب بالذراع أي قدّرته، وشاع في التسوية بين شيئين حسّيين أو معنويين مثال الأوّل قست القضيب بالقضيب، وفلان يقاس بفلان في العلم مثلا".[73]

[72] (الشافعي) محمّد بن ادريس ،الرّسالة ؛ ص :229

[73] وهبة الزحيلي ،أصول الفقه الإسلامي ،دار الفكر ،دمشق ،الطبعة الأولى :1406ه-1989م، ج: 02 ؛ ص : 610.

أمّا تعريفه في الاصطلاح ،فقد أشار إليه الآمدي عليّ بن محمّد بقوله":القياس عبارة عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلّة المستنبطة من حكم الأصل ".[74]

فكلمة الاستواء جامعة لكلّ الضّوابط اللّازم حصولها في العلّة لأنّه بها يتبيّن حكم الأصل المراد إلحاق الفرع به ،ويجري القياس بين مسألتين معلومتين الأولى منصوص على حكمها والأخرى غير منصوص عليها فينظر المجتهد في علّة الأصل ليلحقها بالفرع إذا تحقّقت فيه ،فيعطي حكم الأصل للفرع مثال ذلك : لم نجد في القرآن والسنّة ولا في الإجماع دليلا يبيّن حكم النّبيذ ،بحثنا عن نظير له فوجدنا الخمر والعلّة الّتي حرّم من أجلها هي السكر (ذهاب العقل) وهي نفس العلّة في النّبيذ فألحقنا النّبيذ بالخمر في الحرمة ،فقلنا :النّبيذ حرام كالخمر لأنّ العلّة فيهما متساوية .

نستنتج من تعريف القياس ما يلي :

1_القياس مظهر للحكم وليس منشئا له، فهو يكشف عن حكم الفرع من خلال الأصل.

2_ لا يكون القياس في الأحكام الغير معلّلة أي المسائل الّتي تكون العلّة فيها غير معقولة المعنى كغسل اليدين في الوضوء ثلاثا قبل إدخالهما في الإناء وعدد الرّكعات مثلا.

3_ اشتراك الفرع والأصل في علّة الحكم واستوائها يبيّن لنا أنّ حكم الأصل هو نفس الحكم المضاف إلى الفرع.

4_يتكوّن القياس الأصولي من أربعة أركان هي الأصل والفرع والحكم والعلّة نبيّنها كما يلي:

أركان القياس:

الركن الأوّل:الأصل (المقيس عليه) أو المنصوص على حكمه،واشترطوا فيه أن يكون :

[74] عليّ بن محمّد الآمدي،الإحكام في أصول الأحكام،تحقيق:عبد الرّزاق عفيفي ،دار ابن حزم ،الطبعة الأولى :2003م؛ ج :3؛ص :237

1-حكمه ثابت بالكتاب أو السنّة أو الإجماع ،من ذلك أنّ السنّة حرّمت الرّبا في الذّهب والفضّة والقمح والشعير لقوله صلّى الله عليه وسلّم:{الذّهب بالذهب ،والفضّة بالفضّة ،والبرّ بالبرّ ،والتمر بالتّمر ،والملح بالملح مثلا بمثل ،فمن زاد أو استزاد فقد أربى}.[75]

فمبادلة القمح بمثله لا تجوز إلاّ إذا تساويا في الوزن وكان القبض يدا بيد كما بيّنه الحديث النّبوي ، يقاس عليه الأرز والفول فلا تجوز مبادلة هذه الأجناس بمثلها إلاّ بالتّساوي في الوزن وكان يدا بيد أي التّسليم الفوري ،فالأرز أصل ثابت بالقياس فيقاس عليه الذرّة مثلا،ومثله أيضا فهم الظّاهرية لقوله تعالى (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴿٢٣﴾ [سورة الإسراء آية 23] فقدذهب ابن حزم (ت456هـ) إلى أنّ ضرب الوالدين ليس ثابتا بالقياس بناء على أنّ الآية دلّت على تحريم الإيذاء لهما عموما فتشمل صوره كلّها في التّحريم لدلالة لفظ الآية ،وبالتّالي فلا وجه للقياس عندهم ،بينما قاس الجمهور ضرب الوالدين على عدم التأفّف المنهي عنه في الآية.

2-أن لا يختصّ الحكم بأصله ويكون مقصورا عليه من ذلك زواجه صلّى الله عليه وسلّم بأكثر من أربعة ووجوب التهجّد والضّحى إلى غير ذلك من خصائصه عليه الصّلاة والسّلام فلا يقاس عليه ومثله ما خصّ به خزيمة الأنصاري الذي جعل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم {شهادته شهادة رجلين}[76]،فهذا مقصور عليه ،وحكم العلّة القاصرة "جواز التّعليل بها مع منع القياس بها قولا واحدا".[77]

لا اختلاف بين الأصوليين في عدم القياس عليها، وإن جاز التّعليل بها.

3-اختلفوا إذا كان الأصل المقيس عليه فرعا عن أصل آخر ،أجازه المالكية والحنابلة وقال به بعض المعتزلة ،ومن صوره عند المالكية من قال لزوجته :"أنت طالق رأس الشهر ،ثمّ إنّهم يحتجون على

[75] البخاري ؛ الصحيح ؛ ج : 02؛ ص : 423 (كتاب البيوع ؛ باب : ما يكره في بيع الطّعام والحكرة).
[76] المصادر السّابق ؛ ج :4 ؛ رقم : 1795.
[77] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص :487.

حكم الأصل بقياسه على نكاح المتعة ،والعلّة في ذلك :أنّ المعنى المقصود من النّكاح وهو المودّة وحسن الألفة والعشرة لا يفضي إليه النكاح إلاّ بالتّأبيد ،أمّا مع توقّع الفراق عند حصول الأجل قطعا أو ظنّا فذلك مخلّ لما يقصد من النّكاح ،وهو المودّة وحسن الألفة "[78].

أصل المسألة هو نكاح المتعة وهو فرع عن النّكاح، والعلّة فيهما المعاشرة والألفة على سبيل الدوّام.

4-أن يكون حكم الأصل معقول المعنى أي يمكن إدراك علّته وتعديها ،فعدد الرّكعات أو عدد الضربات في حدّ القذف لا يمكن تعليلها فلا يقاس على الثّمانين جلدة ،بخلاف حرمان القاتل لمورثه فالعلّة ظاهرة فيه وهي استعجال المال فيقاس عليه قتل الموصى له للوصيّ وتبطل بذلك الوصيّة.

5-يجب أن يكون الأصل مستمرا في الحكم غير منسوخ حتّى يمكن تعديته للفرع إذا تحقّقت العلّة.

تنبيه :يجوز القياس على الأصل المختلف فيه بين الفقهاء،وهو كثير في كتب الأصول ، مثاله : قياس المالكية عظام الميتة على لحمها في النجاسة "فيمنع الحنفية وصف العظام بالموت فيجيب أصحابنا بأنّ الحياة تحلّها لقوله تعالى(فَالَ مَنْ يُّحْيِ اِلْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٧﴾)[سورة يس آية 77] (فُلْ يُحْيِيهَا ٱلذِے أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾[سورة يس آية 78] ،وما هو محلّ الحياة فهو محلّ الموت فثبت وصف العظام بالموت".[79]

الركن الثاني: الفرع، ومن شروطه اللاّزمة ليقاس عليه:

1-أن لا يكون حكمه ثابت بالنصّ أو الإجماع لأنّه لا قياس مع النصّ كقياس التفاح على البرّ في الرّبا لأنّ الحكم ثبت في الرّبا لعموم قوله صلّى الله عليه وسلّم:{لا تبيعوا الطّعام}[80]فإنّ هذا يشمل حكم الفرع.

[78]محمّد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول،تحقيق:عبد الوهاب ،دار الكتب ، لبنان،ط:1417-1996م؛ ص :110
[79]المصدر السّابق، ص : 122.
[80]البخاري ؛ الصحيح ؛ ج : 02 ؛ ص : 423؛ رقم : 2133.

2-عدم وجود مانع في إثبات حكم الأصل للفرع، فإذا طالب الابن أمّه القصاص لقتلها لزوجها باعتباره وليّ الدمّ فلن يقتصّ منها لقيام المانع وهو البنوّة حتّى لا تهلك الأمّ بسببه.

3-أن تتحقّق علّة الأصل في الفرع ،النّبيذ محرّم لوجود الإسكار وهو نفس علّة تحريم الخمر ،فإذا انتفت العلّة في الفرع جاز الانتفاع به بخلاف الخمر لورود النصّ على حرمة الانتفاع به.

الركن الثالث:العلّة،وهي أهمّ شيء في القياس وهي عبارة عن اسم لما يتغيّر حكم الشّيء بحصوله مثل المرض الذي يغيّر حالة الإنسان ،عرّفها الشاطبي بأنّها ":المراد بها الحكم والمصالح التي تعلّقت بها الأوامر أو الإباحة والمفاسد التي تعلّقت بها النّواهي فالمشقّة علّة في إباحة القصر والفطر في السفر والسفر هو السّبب الموضوع سببا للإباحة فعلى الجملة العلّة هي المصلحة نفسها أو المفسدة لا مظنّتها كانت ظاهرة أو غير ظاهرة منضبطة أو عدم منضبطة ،وكذلك نقول في قوله عليه السّلام (لا يقضي القاضي وهو غضبان}فالغضب سبب وتشويش الخاطر عن استيفاء الحجج هو العلّة ".[81]

المظنّة هي ما جعله الشّارع سببا في الحكم ومنضبطا به، وتعرّف العلّة أيضا بأنّها "الوصف المعرّف للحكم ".[82]

والمقصود "بالوصف" هو المعنى القائم بالغير،أمّا قولنا "المعرّف للحكم "فالإسكار مثلا علامة للسكر وأطلق الأصوليون على العلّة معنيين :

الأوّل:بمعنى الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ولا تكون إلاّ بتقدير الشّارع لها، وعليه فكلّ أحكام اللّه معلّلة لقوله تعالى (وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧) [سورة الأنبياء آية 106] .

الثّاني:تطلق على الوصف الظّاهر المنضبط ،قال علماء الأصول التّعليل يكون به، أمّا الحكمة فلا يكون بها ،والفرق بينهما هو أنّ الحكمة هي الباعثة على تشريع الحكم ويراد بها تحقيق المصلحة أمّا العلّة فهي الوصف الظّاهر المنضبط المعرّف للحكم وينبني عليه الحكم وجودا وعدما لنصّ القاعدة

[81]أبو إسحاق الشاطبي ،الموافقات في أصول الشريعة ، ج: 01 ؛ص : 216.
[82]وهبة الزحيلي ، أصول الفقه الإسلامي ؛ ج: 02 ؛ ص : 612.

الأصولية "إنّ الحكم يدور مع علّته وجودا وعدما "،فإذا وجدت العلّة وجد الحكم وإذا انعدمت انعدم الحكم ،وقد وضع العلماء للعلّة شروطا نبيّنها كما يلي.

1-أن تكون ظاهرة جليّة ،كالسكر في تحريم النّبيذ ،أمّا إذا كان الوصف خفيّا يستحيل إدراكه فلا يجوز التّعليل به ،من ذلك ما يتعلّق بالقصاص في نيّة العمد فهي أمر خفيّ في ذاتها لكنّها تتّضح بالنّظر إلى آلة القتل والحالة المصاحبة له ،ثمّ نحكم بوجود نيّة العمد ليترتّب القصاص ،ومثله في العقود الرّضا لقوله تعالى(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَاكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بَالْبَـٰطِلِ إِلآَّ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴿٢٩﴾ [سورة النساء آية 29] ،فلا يطّلع عليه إلاّ بالإيجاب والقبول سماعا أو مشافهة.

2-أن يكون الوصف منضبطا غير مضطرب "ومعنى منضبطا أي ذات حقيقة معيّنة محدّدة لا تختلف باختلاف محالّها –إلاّ ما كان منه يسيرا- ذلك لأنّ أساس القياس هو مساواة الفرع للأصل في العلّة فإن فقد هذا الأمر زال سبب القياس وأساسه".[83]

القتل العمد هو وصف منضبط، والسّفر لقصر الصّلاة وصف منضبط، فلا يجوز كون المشقّة هي علّته لعدم انضباطها فيتعيّن سفر أربعة برد، ولا نلحق به أصحاب الصّنائع الشاقّة.

3-أن لا يكون الوصف ملغى فإذا حكم الشّارع بإلغائه وعدم اعتباره لا يجوز التّعليل به ،كفتوى يحي بن يحي اللّيثي في وجوب الإطعام على من أفطر متعمّدا دون تخيير في الكفّارة.

4-أن يكون الوصف مناسبا للحكم وبذلك يكون مظنّة تحقيق المصلحة التي شرّعها الشّارع مثل قتل الوارث لمورّثه فهذا وصف مناسب للحكم ،أمّا إذا علّل تحريم الخمر برائحتها أو لونها أو سيولتها فها الوصف غير مناسب وملغى.

[83] محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ،دار الشهاب ،باتنة ،الجزائر، الطبعة الخامسة :1994م ؛ ص : 180.

5-أن تكون وصفا متعدّيا:فإذا كانت مقتصرة على الأصل لا يجوز القياس ،فالإسكار مثلا علّته متعّدية فلا يمكننا القول بأنّ علّة الخمر العنب المخمّر فهذه لا توجد إلاّ في الخمر فلا يمكن اعتبارها كما اتّفق العلماء على أنّ القياس في الأصل يكون بالعلّة المتعدّية.

6-أجاز جمهور الأصوليين العلّة المركّبة من الأوصاف المتعدّدة خلافا للمعتزلة، مثال ذلك تعليل وجوب القصاص بالقتل العمد عدوانا ففيه ثلاثة أوصاف:القتل والعمد والعدوان فلا تكون الثّلاثة معتبرة إلاّ باجتماعها معا.

7-أن تكون العلّة مطّردة:كلّما وجدت وجد الحكم دون أن يعارضها نقض، ونقصد به أن توجد الحكمة في محلّ ولا يوجد معها حكم، فقصر الصّلاة في السّفر الحكمة منه رفع المشقّة ،وعلّة تشريع القصاص هو القتل العمد وهو وصف ظاهر منضبط، وحكمة تشريعه هو حفظ النّفوس لقوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ [سورة البقرة آية 178] .

إنّ أحكام الشريعة معقولة المعنى لأنّها جاءت لتحقيق مصالح المكلّفين الأخروية والدّنيوية،والفرق بين الحكمة والوصف الظاهر هو أنّ الحكمة باعثة على تشريع الحكم والغاية المقصودة منه جلب المصلحة ،أمّا العلّة فهي الأمر الظاهر المنضبط المعرّف للحكم الذي ينبني عليه وجودا وعدما مثل ما تقرّر في الأصول "الحكم يدور مع علّته وجودا وعدما".[84]

8-أن تكون العلّة معتبرة شرعا فإذا ألغى الشّارع اعتبارها فلا يجوز التّعليل بها مثل الأبناء في الميراث فالشّارع أعطى للذّكر ضعف الأنثى فلا يمكن القول بالمساواة بينهم.

مسالك العلّة : جمع مسلك بمعنى الطّريق المفضية لمعرفة علّة الأصل ،فهي استعارة تصريحيّة ،عرّف الشريف التلمساني (ت771هـ) المسالك بأنّها"الأدلّة الدالّة على أنّ الوصف علّة في الحكم ".[85]

تنقسم هذه الأدلّة إلى خمسة مسالك هي:

[84]الأخضر الأخضاري ،الإمام في مقاصد ربّ الأنام (مقاصد الشريعة الإسلامية)،ص : 101.
[85]محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ؛ ص : 117.

المسلك الأوّل:النصّ ويراد به":وجود دليل من الكتاب أو السنّة يدلّ على أنّ وصفا معيّنا علّة لحكم معيّن دلالة ظاهرة سواء أكانت قطعيّة أو محتملة ".[86]

وينقسم النصّ إلى صريح وإيماء .

أ) الصّريح :هو ما دلّ على صيغة العليّة كقوله سبحانه وتعالى (مِنَ اَجْلِ ذَالِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِي اْلاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً [سورة المائدة آية 34] ،من أجل قتل قابيل لأخيه كتب اللّه أنّ من قتل نفسا بغير حقّ فكأنّه قتل النّاس جميعا ،ومنه قوله عليه الصّلاة والسّلام :{إنّما جعل الاستئذان من أجل البصر}[87]فعلّة الاستئذان هي منع الاطّلاع على عورات النّاس ،فهذه نصوص صريحة أمّا الثاني فهو :

ب) الإيماء :يقصد به الإشارة والتّنبيه ،وهو على مراتب منها :

أ) "أن يذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع الحكم وصفا يبعد أن يأتي به لغير التّعليل ،كقوله صلّى الله عليه وسلّم في الهرّة :{إنّها ليست بنجس إنّما هي من الطّوافين عليكم والطّوافات} فلو لم يكن التطواف علّة لنفي النجاسة لم يكن لذكره مع هذا الحكم فائدة ،لأنّه قد علم بأنّها من الطّوافات".[88]

فبيّن الرّسول عليه السّلام العلّة في كون الهرّة كثيرة التطواف والحكم هو طهارة سؤرها ،وهذا الضرب من الإيماء والتّنبيه "يقرن الحكم بوصف على وجه لو لم يكن علّة لكان الكلام معيبا عند العقلاء".[89]

فقوله عليه الصّلاة والسّلام:{ورضَّ يهوديّ رأس جارية فأمر عليه الصّلاة والسّلام أن يرضّ رأسه بين حجرين}.[90]

لولا أنّ اليهوديّ فعل ذلك ما كان رسول الله يأمر أن يرضَّ رأسه بين حجرين.

---

[86]محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ؛ ص : 181
[87]البخاري ، الصحيح ؛ ج : 3 ؛ ص : 1275 ؛ رقم : 6241.
[88]محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناءا لفروع على الأصول ؛ ص : 117-118.
[89]محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص : 443.
[90]البخاري ؛ الصحيح ؛ ج : 04 ؛ ص : 1371 ؛ رقم : 6730.

ب) الاستنطاق:ويكون "بوصف يعلمه خاليا من التّنازع ليرتّب عليه الجواب، ولم لم يكن للتّعليل لكان استنطاقه عن وصف يعلمه خاليا عن الفائدة".[91]

فالنبيّ حينما سئل عن بيع الرّطب بالتّمر، قال:{أينقص الرّطب إذا يبس قالوا نعم قال:فلا إذا}.[92]

استنطق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم السّائل بأمر ظاهر الوجود ليرتّب عليه الحكم، ولمّا كانت العلّة هي نقصان الرّطب أشار النبيّ عليه السّلام لها، وإلاّ كانت لغوا.

ج) أن يذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حكما على واقعة حدثت فيعلم أنّ الواقعة هي علّة الحكم كالأعرابيّ الذي واقع أهله في رمضان ،فأمره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم {أن يكفّر بعتق رقبة ،أو صيام شهرين متتابعين ،أو إطعام ستّين مسكينا ،فقال :لا أجد فأتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعرق تمر فقال :خذ هذا فتصدّق به فقال يا رسول الله ما أحد أحوج منّي فضحك رسول الله حتّى بدت أنيابه ثمّ قال:كله}.[93]

قصر الشّافعية العلّة على الجماع ولذلك لم يوجبوا الكفّارة على من أكل متعمّدا في رمضان، وقال المالكية بأن العلّة هي الجناية على الصّوم فأوجبوا الكفّارة على الأكل أو الشرب متعمّدا قياسا على الجماع.

د)ما رتّبه الرّاوي بالفاء وذلك عندما ينقل فعلا صدر عن النبيّ عليه السّلام فيرتّب عليه حكما كقول الرّاوي {سها النبيّ صلّى الله وسلّم فسجد}؛[94]عليه فإنّ هذا يشعر بأنّ السّهو علّة السجود "فلذلك لم يرتّب ابن القاسم سجودا على من ترك سنّة من سنن الصّلاة عمدا ،خلافا لأشهب ،فإنّه أوجب السجود قبل السّلام ،نظرا منه أنّ النقصان علّة السجود ،كان عمدا أو سهوا".[95]

[91] محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناءالفروع على الأصول ؛ ص : 118.
[92] البخاري ؛ الصحيح ؛ ج : 02 ؛ ص : 433 ؛ رقم : 2198
[93] المصدر السّابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 385 (كتاب الصّوم ؛ باب : إذا جمع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفّر).
[94] السابق ؛ ج :1 ،ص : 321، رقم : 1956.
[95] محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ؛ ص : 119.

المسلك الثّاني: ثبوت العلّة بالإجماع، ورأى بعض الأصوليين تقديم الإجماع على النصّ "لأنّ النصّ يحتمل النسخ والإجماع لا يحتمله ".[96]

والإجماع المقصود هنا هو القطعي ،ويكون قوليًا بشرط المشاهدة أو النّقل المتواتر ،وأن توجد العلّة في الفرع دون مخالف ، مثل تقديم الأخ الشقيق على الأخ لأب في الميراث فيقاس عليه تقديمه عليه أيضا في ولاية التّزويج ،لأنّ الأمّ لها مدخل في الإرث ،فلذلك قدّم الأشقاء ،بخلاف ولاية النّكاح وانعقد الإجماع أيضا على أنّ الصّغر علّة في نفي الولاية على المال.

المسلك الثّالث:السّبر والتّقسيم، يطلق السّبر في اللّغة على "امتحان غور الجُرح وغيره ".[97]

يقوم المجتهد بامتحان الوصف المناسب للعلّية، أمّا التّقسيم لغة فهو":قسمه يقسمه وقسّمه جزّأه".[98]

فالمجتهد يقوم بتجزئة علل المقيس عليه ،أمّا في اصطلاح أهل الأصول ،يراد بالسّبر والتّقسيم معنيان "أحدهما حصر أوصاف المحلّ وهو المعبّر عنه بالتّقسيم ،وثانيهما:إبطال ما ليس صالحا للتّعليل...فيتعيّن الوصف الباقي ،وهو المعبّر عنه بالسبر".[99]

عندما تجمع أوصاف العلل يحذف منها ما دلّ الدّليل على بطلانه أو ترجيح غيره عليه، وينقسم هذا المسلك إلى نوعين هما :منحصر ،ومنتشر، نبيّنهما كما يلي:

أوّلا المنحصر :وفيه تجمع العلل كلّها المتعلّقة بالمقيس عليه والأساس في الحصر هو الاستقراء ،ثمّ يأتي اختبارها وبحثها في المقيس ،ويتمّ ذلك بالأدلّة التي ترجّح بين الأوصاف ليتوصّل إلى وصف مناسب مثاله :ولاية النّكاح نرجّح تعليلها على عدمه فنقول :هل هي البكارة أو الصّغر فلا ثالث لها "ولا يصحّ كما ذهب الشّافعية أن يكون الصّغر هو العلّة ،وإلاّ لزم أن تكون الثيّب الصّغيرة مجبرة ،وهذا

[96] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص : 445
[97] مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي ،القاموس المحيط ؛ ص : 428 . (باب الرّاء ، فصل الفاء).
[98] المصدر السابق ؛ ص : 1160. (باب :الميم ،فصل :القاف).
[99] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص : 450.

مناف للحديث الأمر الذي جعل الصغر غير معتمد كعلّة ،الشّيء الذي جعل العلّة منحصرة في البكارة عندهم".[100]

بينما ذهب الأحناف إلى أنّ الثيّب الصّغيرة تجبر على النّكاح لأنّهم قاسوه على الصّغر الذي هو علّة في ولاية المال عليها، ورجّح المالكية العلّة في البكارة بنصّ الحديث المشار إليه في النصّ السّابق.

ثانيا :المنتشر وهو "الذي يكون دائرا بين النّفي والإثبات".[101]

مثاله: اختلف في تحريم الرّبا في البرّ هل العلّة فيه الاقتيات أو الطّعم أو الكيل فالاقتيات والكيل "لا تصلح لمشاركة الغير فيها، وهي محرّمة فتعيّن إذا أن يكون الطّعم هو العلّة".[102]

المسلك الرّابع:المناسبة ومعناها الملائمة ،ويعبّر عنها بالإخالة ،ويطلق عليها أيضا"المصلحة والاستدلال ورعاية المقاصد ،قال أبو زيد :والمناسب عبارة عمّا لو عرض على العقول تلقّته بالقبول ،وهذا موافق للمعنى اللّغوي حيث يقال لغة الشّيء مناسب أو ملائم لتفسير كذا أو لوجوده ".[103]

أمّا المناسبة اصطلاحا هي":كون الوصف يتضمّن ترتب الحكم عليه مصلحة ،كالإسكار فإنّ ترتب المنع عليه فيه مصلحة حفظ العقل من الاختلال".[104]

الاسكار مناسب للتّحريم لأنّه مُذهب للعقل وهو مقترن به في النصّ ،وقسّم الأصوليون المناسبة (الوصف الملائم) إلى ثلاثة أنواع :

1-قسم شهد الشّارع باعتباره، غالبا ما يكون باستقراء نصوص التّشريع فهي لا تخلوا من جلب مصلحة أو دفع مفسدة.

[100] محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ؛ ص : 184.
[101] المصدر السابق؛ ص : 148.
[102] السابق ؛ ص : 184.
[103] المصدر نفسه ، ص : 184.
[104] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص : 445-446.

2-قسم شهد الشّارع بإلغائه وعدم اعتباره ،ويمثّلون له غالبا بفتوى يحي بن يحي اللّيثي وذلك "أنّ عبد الرحمن بن الحكم المرواني صاحب الأندلس نظر إلى جارية له في رمضان نهارا ،فلم يملك نفسه أن واقعها ثمّ ندم ،وطلب الفقهاء وسألهم عن توبته ،فقال يحي بن يحي :صم شهرين متتابعين فسكت العلماء فلمّا خرجوا قالوا ليحي :مالك لم تفته بمذهبنا عن مالك أنّه مخيّر بين العتق والصّوم والإطعام ؟ قال :لو فتحنا له هذه الباب لسهل عليه أن يطأ كلّ يوم ويعتق رقبة فحملته على أصعب الأمور لئلاّ يعود إليه".[105]

يطلق بعض الأصوليين على هذا النّوع المناسب الغريب لأنّ جنس الوصف أثّر على الحكم.

3-قسم لم يشهد الشّارع بإلغائه ولا اعتباره ويسمّى بالمناسب المرسل أو المطلق أو المصالح المرسلة التي اشتهر المالكية بالأخذ بها وسمّاها أبو حامد بالاستصلاح،وتنقسم من حيث قوّتها الذّاتية إلى أقسام ثلاثة :

أ)المصلحة المرسلة الضّرورية:هي ما جاءت للحفاظ على أصل من الأصول الخمسة الدّين والنّفس والعقل والنّسل والمال، كجمع القرآن في مصحف واحد، وهذا النوع لا خلاف فيه بين العلماء.

ب)المصلحة المرسلة الحاجية :هي ما جاءت قصد التّوسيع على المكلّفين ودفع الحرج والمشقّة عنهم كتضمين الصنّاع لما أتلفوه من أمتعة أو غيرها نظرا لحاجة النّاس إليهم ،ولذلك قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (ت41هـ) مقولته المشهورة في حقّ تضمين الصنّاع "لا يصلح النّاس إلاّ ذاك".[106]

هذه الحاجيات مفتقر إليها من حيث دفع الحرج والغبن والمشقّة، وهي من قبيل تكميل الضّروريات.

[105] المصدر السابق ؛ ص : 448.
[106] وهبة الزحيلي ، أصول الفقه الإسلامي ؛ ج: 02 ؛ ص : 620.

ج)المصلحة المرسلة الّتحسينية :يراد بها "الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنّب الأحوال المدنّسات التي تأنفها العقول الرّاجحة ،ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق".[107]

من أمثلتها في العبادات أخذ الزّينة والتّقرب بنوافل الخيرات، وفي المعاملات كمنع بيع النّجاسات وفضل الماء والكلأ، وفي العادات كآداب الأكل والشّرب.

تتجلّى فائدة هذا التّقسيم في معرفة المقدّم منها عند التعارض فنقدّم الضّروريات ثمّ الحاجيات فالتحسينات .

المناسب إمّا أن ينصّ الشّارع على اعتباره أو لا ؟ ، والذي نص الشارع على اعتباره ينقسم إلى:

أ)مؤثّر:وحقيقته "أن يكون عينه معتبرا في عين الحكم ".[108]

مثاله قوله تعالى (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم ﴿٣٨﴾[سورة المائدة آية 40] ،فإنّ عين السّرقة معتبر في عين القطع .

ب)الملائم:ونقصد به "ما دلّ فيه الدّليل المذكور على اعتبار عينه في جنس الحكم، أو جنسه في عين الحكم، أو جنسه في جنس الحكم".[109]

مثال الأوّل كما عند الحنفية أنّ الثيّب الصّغيرة تجبر على النكاح لأنّ الصّغر علّة الولاية عليها في المال فيقاس عليه جبرها على النكاح "فعين الصّغر معتبر في جنس الولاية بالإجماع".[110]

ومثال الثّاني تعليل المالكية الجمع بين المغرب والعشاء في الحضر عند شدّة المطر أو الوحل لدفع المشقّة والحرج فجنس الحرج معتبر في عين الجمع.

[107]الشاطبي ؛ الموافقات ؛ ج : 02 ؛ ص:09.
[108]محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ؛ ص :120.
[109]محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص :447-448.
[110]محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ؛ ص :120.

ومثال الثّالث تأثير الجنس في الجنس مثل قولنا":تعليل القصاص في الأطراف بالجناية، التي هي معتبرة في القصاص في النّفس بالإجماع، فإنّ جنس الجناية معتبر في جنس القصاص".[111]

وأمّا القسم الذي لم ينصّ الشّارع على اعتباره فمنه الغريب والمرسل.

أ) الغريب: "منه ما يثبت الحكم على وفقه في صورة من الصّور".[112]

ويكون هذا الحكم غير منصوص عليه ،يقيس المالكية المبتوتة في المرض لحرمانها من الميراث على قاتل المورّث بجامع الحرمان من الميراث ،فلم يدلّ النصّ على القصد الفاسد لكنّه اعتبره في صورة القاتل.

ب)المرسل:وبيانه أنّ منه "ما لا يثبت الحكم على وفقه في صورة من الصّور".[113]

ونمثّل عليه بقول من أجاز طرح بعض من على السفينة بالقرعة إذا خيف غرقهم جميعا لأجل الحفاظ على الآخرين،فهذا مناسب لأنّ فيه استخلاص البقيّة، وليس فيه نصّ على اعتباره، ولم يرتّب حكما على وفقه في صورة من الصور.

المسلك الخامس:تحقيق المناط ،المناط في اللّغة قولنا :"نَاطَهُ نَوْطًا :عَلَّقَهُ ،وانْتَاطَ تعلّق ".[114]

ومنه سمّيت العلّة مناط الحكم لأنّها مكان نوطه أي تعليقه ،وفي اصطلاح أهل الأصول هو"معرفة الحكم وعلّته بنصّ أو إجماع في الأصل ثمّ إرادة تطبيقه في غير محلّ أصله متى وجدت العلّة ،فيتبع في ذلك العلّة وجودا وعدما ،وهذا هو التّحقيق".[115]

مثاله قوله تعالى ﴿وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًىۙ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ ﴿٢٢٠﴾ [سورة البقرة آية 220] ،العلّة المتحقّقة في اعتزال الحائض هي الأذى

[111] المصدر السابق ؛ ص : 120.
[112] السابق ؛ ص : 120.
[113] المصدر نفسه ؛ ص : 120.
[114] مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي ،القاموس المحيط ؛ ص : 712.
[115] محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ؛ ص :186.

فيقوم المجتهد بتحقيقها في النّفاس فيجدها ،فيعطي بذلك حكم الحيض للنّفاس وهو وجوب الاعتزال.

وقد قسّم ابن قدامة المقدسي (ت620هـ) تحقيق المناط إلى قسمين :

القسم الأوّل :"مجمع عليه في كلّ الشّرائع ،وهو أن تكون القاعدة الكلّية منصوصة أو متّفقا عليها فيجتهد في تحقيقها في الفرع كوجوب المثل من النّعَم في جزاء الصّيد ..فيجتهد في البقرة -مثلا-بأنّها مثل الحمار الوحشيّ".[116]

إذا قتل حمارا وحشيا فعليه بقرة لأنّه معلوم من قوله تعالى(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴿٩٥﴾ [سورة المائدة آية 97] حقيق المثلية في البقر معلوم بنوع من الاجتهاد ،وعليه فالمثل واجب والبقرة مثل.

القسم الثاني من تحقيق العلّة في الفرع "ما عرف فيه علّة الحكم بنصّ أو إجماع، فيحقّق المجتهد وجود تلك العلّة في الفرع، كالعلم بأنّ السّرقة هي مناط القطع، فيحقّق المجتهد وجودها في النبّاش لأخذه الكفن من حرز مثله".[117]

ومثله في القياس كثير، كحمل الفأرة وغيرها من الحشرات على الهرّة بجامع الطّواف الذي بيّنه عليه الصّلاة والسّلام حيث قال:{إنّها ليست بنجس،إنّها من الطّوافين عليكم والطّوافات}.[118]

المسلك السّادس :تنقيح المناط ،اعتبره كثير من الأصوليين من مسالك العلّة ،والتنقيح لغة هو التهذيب تقول:"نقح العظم استخرج مخّه ،وتنقيح الشّعر وإِنْقَاحُهُ :تهذيبه".[119]

[116] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص: 429.
[117] المصدر السابق ؛ ص : 430.
[118] البخاري ؛ج: 1 ،ص : 161، رقم (185).
[119] مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي ،القاموس المحيط ؛ج:2؛ ص : 271.(باب : الحاء ، فصل ،النّون).

فمعنى تنقيح العلّة تهذيبها وتصفيتها بإلغاء ما لا يصلح للتّعليل، وهو":النّظر والاجتهاد في تعيين ما دلّ النصّ على كونه علّة من غير تعيين بحذف ما لا مدخل له في الاعتبار ممّا اقترن به من الأوصاف كلّ واحد بطريقه ".[120]

نلغي جميع الأوصاف والأحوال التي تحيط بالنصّ ونبقي ما له اعتبار في العلّة ،فالذي واقع أهله في رمضان فأمره رسول الله عليه السّلام :{أن يكفّر بعتق رقبة ،أو صيام شهريين متتابعين ،أو إطعام ستّين مسكينا ،فقال :لا أجد فأتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعرق تمر فقال :خذ هذا فتصدّق به فقال يا رسول الله ما أحد أحوج منّي فضحك رسول الله حتّى بدت أنيابه ثمّ قال:كله}[121]

فلا عبرة بكونه أعرابيا رجلا يضرب صدره ،وينتف شعره ،وكون الموطوءة زوجته ،فهذه الأشياء تلغى لأنّها لا تصلح للعليّة ،وتنقيح المناط قد يكون بحذف بعض الأوصاف كما ذكرنا آنفا أو بزيادتها كما عند مالك وأبي حنيفة فقد ":ألغيا خصوص الوقاع ،وأناطا الحكم بانتهاك حرمة رمضان فأوجبا الكفّارة في الأكل والشّرب عمدا ،فزادا الأكل والشّرب على الوقاع تنقيحا للمناط بزيادة بعض الأوصاف".[122]

أمّا الشّافعي وابن حنبل فقصرا الكفّارة على الجماع فقط ،دون اعتبار الزيادة على النصّ .

المسلك السّابع :الشّبه وهو "أن يتردّد المسلك بين أصلين مختلفين في الحكم وهو أقوى شبها به".[123]

يمثّل الأصوليون على ذلك بالعبد المملوك فإنّه دائر بين الحرّ والبهيمة ،فمن غلب شبه الآدمي جعله حرّا ،ومن غلب المال جعله كحكم البهيمة ،فأحد الشّبهين يوجب له استحقاقه للملك والآخر لا يوجب له أن يملك وهو الشّبه المالي فنرجّح شبهه بالآدمي من وجهين "أحدهما أنّ الشّبه الآدمي أصلي ،والمالي عارض ،والأصلي أولى من العارض ،وثانيهما أنّ الشّرع غلّب عليه شبه الآدمي في

[120] علي بن محمّد الآمدي ؛ الإحكام في أصول الأحكام ؛ ج : 3 ؛ ص : 380.
[121] البخاري ؛ رقم : 1963.
[122] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص: 431.
[123] محمّد بن أحمد التلمساني ،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ؛ ص :121

أحد نوعي الملك فأثبت له ملك النّكاح الذي لا مدخل للبهيمية فيه،فوجب بهما أن يثبت له ملك اليمين لقوّة الشّبه الموجب له".[124]

هذه أهمّ المسائل المتعلّقة بالعلّة، فإذا توافرت بشروطها صحّ القياس، وللفرع شروط أيضا يجب توفّرها وإلاّ بطل القياس.

الركن الرّابع :الفرع ،واشترطوا فيه أن يكون شرعيا فيقصد به موافقه غرض الشّارع من خلال إعطاء حكم الأصل للفرع لأنّ الغرض من القياس الشّرعي هو معرفة الأحكام الشّرعية للفروع ،واختلفوا هل يثبت القياس باللّغة فالنبّاش هل يعدّ سارقا ؟ فبالقياس هو أخذ مالا خفية إلاّ أنّ السّرقة خاصّة بالأحياء والنّبش خاصّ بالأموات ،ومثله تسمية النبيذ خمرا بالقياس على تسمية عصير العنب خمرا لاشتراكهما في مخامرة العقل.

من شروطه كذلك عدم ثبوت نصّ أو إجماع على الحكم فيه ، فالقياس الذي يعارض نصّا أو إجماعا هو قياس فاسد الاعتبار مثاله:لا يصحّ قياس جواز ترك الصّلاة في السّفر قياسا لفطر المسافر في رمضان.

هذه أركان القياس وشروطه، واختلف العلماء في جواز العمل به إلى مذهبين نبيّنهما ونذكر أدلّة كلّ منهما ثمّ نرجّح بينهما كما يلي.

حكم العمل بالقياس :ذهب جمهور العلماء إلى أنّ القياس حجّة يجوز العمل به ،وخالف في ذلك الظاهريّة ومعتزلة بغداد فلم يقولوا به ،وتمسّك الفريقان بأدلّة نقليّة وعقليّة نشير إليها كما يلي:

أوّلا :أدلّة الجمهور.

[124] المصدر السابق ؛ ص : 122.

أ) الأدلّة النّقليّة :قوله تعالى (فَاعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢) [سورة الحشر آية 2] ،جاءت هذه الآية مبيّنة لما وقع في غزوة بني النضير فأمر اللّه تعالى عباده بمطلق الاعتبار وهو إمعان النّظر في العواقب والقياس الشّرعي جزء منه، وخالف ابن حزم في ذلك وقال المقصود بالاعتبار الاتّعاظ فقط.

أمّا من السنّة فحديث معاذ لما بعثه النّبيّ صلّى اللّه عليه مسلّم إلى اليمن، فقال له:{بم تقضي فقال إذا لم نجد الحكم في الكتاب والسنّة نقيس الأمر بالأمر فما كان أقرب إلى الحقّ عملنا به}.[125]

قال نفاة القياس:إنّه كان قبل نزول الآية (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِيناً) [سورة المائدة آية 4]، هذا الردّ باطل لأنّ القياس يجري في الأمور الحادثة التّي ليس لها حكما مبيّنا، فالقياس لا يكون مع النّص ،واحتجّ الجمهور بقول عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري حين ولاّه البصرة "اعرف الأشباه والأمثال،وقس الأمور برأيك ".[126]

فأمر عمر بالقياس، وأفصح الأدلّة من السنّة قوله صلّى الله عليه وسلّم:{أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِه أَكَانَ يَنْفَعُهُ ؟قَالَتْ:نَعَمْ، قَالَ:فَدَيْنُ اللَه أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى }[127]فالنبيّ عليه السّلام قاس دين الله على دين المخلوق.

وثبت القياس بالإجماع، ومنه قول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حينما سئل عن الكلالة فقال":أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمنّي ومن الشّيطان، الكلالة ما عدا الوالد والولد".[128]

وانعقد الإجماع على رأي الصدّيق وهو قياس.

[125]انظر –هامش- روضة الناظر ص : 264
[126] السّابق ، ص : 433.
[127]البخاري ، الصحيح ج : 01 ؛ ص : 370 ؛ (كتاب الحجّ ؛ باب الحجّ والنّذر عن الميّت) .
[128]محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ؛ ص :183.

ب)الأدلّة العقليّة: يبحث القياس في العلّة المعلومة ، وأحكام اللّه عزّ وجلّ كلّها معلّلة فنحن نقيس الأحكام الحادثة الغير منصوص عليها على الأحكام المنصوصة، قال الإمام الشافعي":إنّ أحكام الشّريعة عامّة تعمّ الأحداث كلّها ".[129]

وصلاح الشّريعة لا يتقيّد بزمان ومكان، فعندما تستجدّ النّوازل يقوم المجتهد بإلحاق الفروع على الأصول المناسبة لها، كما أنّ الفطرة السّليمة تقتضي قياس الأشباه والأمثال.

ثانيا : أدلّة نفاة القياس ،تمسّكوا بأدلّة نقلية وعقلية نبيّها كما يلي:

أ)الأدلّة النّقلية:استدلوا بقوله تعالى ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ [سورة النجم آية 28]،القياس ظنّ وهو مخالف للحقّ ،وردّ المثبتون هذا معتبرين أنّ الظنّ هو الطّرف الرّاجح من الاحتمالات فهو يفيد في الأحكام ومثّلوا له بخبر الآحاد وقبول شهادة الرّجل والرّجلين فإنّها تفيد الظنّ لا القطع .

واستدلّوا من السنّة النّبوية بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم {إنّ اللّه فرض فرائض فلا تضيّعوها وحدّ حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها }.[130]

والقياس يبحث في الأشياء المسكوت عنها ،وردّ هذا بأنّ المجتهد يبحث في العلّة لينظر فيها فهو لا ينشئ حكما وإنّما يبيّنه ، واحتجّوا أيضا بقول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه "أيّ سماء تظلّني وأيّ أرض تقلّني إذا قلت بالقياس " حمله المثبتون على القياس الفاسد الذي يكون بالأهواء.

ب)الأدلّة العقلية:يؤدّي القياس إلى النّزاع وهو مبنيّ على أمارات ومقدّمات ظنيّة ،وردّ قولهم بوجوب إلغاء العمل بخبر الواحد إذن :لأنّه دليل ظنيّ ،ومثّلوا بدليل من الواقع فقالوا الزّراعة مثلا هي ظنّ في الرّبح فهل يجوز لنا تركها اعتمادا على الظنّ ،ورأى الجمهور أيضا بأنّ النّزاع في العقائد والسّياسة هو المذموم .

[129] وهبة الزحيلي ،أصول الفقه الإسلامي، ص : 622.
[130] البخاري ، الصحيح ج : 01 ؛ ص : 415.

- **الترجيح بين الأقوال:**ما ذهب إليه الجمهور من أنّ القياس حجّة وجائز العمل به هو الصّواب ويقبله المنطق السّليم لا سيما وقد قال محمّد الأمين الشنقيطي (1973م) ":من أصرح الأدلّة على إثبات القياس ما ثبت في الصّحيحين من قصّة الذي ولد له ولد أسود يخالف لونه لون أمّه وأبيه فقاسه صلّى اللّه عليه وسلّم على أولد الإبل الحمر يكون فيها الأوْرَقُ،وقال فيه عليه الصّلاة والسّلام {فلعلّه نزعه عرق}[131]". [132]

بعد أن قرّرنا ثبوت القياس، نذكر الآن أقسامه.

أقسام القياس:قسّمه العلماء إلى أقسام باعتبارات متعدّدة منها تقسيمه باعتبار المعنى الجامع بين الأصل والفرع إلى قياس الأولى وقياس المساوي وقياس الأدنى، ونبيّنها كما يلي:

أ)قياس الأولى وحقيقته أنّه"الذي يكون فيه حكم الفرع أولى من حكم الأصل، وهذا لا يكون إلاّ إذا كانت العلّة في الفرع أقوى من علّة الأصل". [133]

مثاله :قياس ضرب الوالدين على النّهي على التأفّف فعلّة الضّرب أقوى من التأفّف ،ومثله قياس الشّاة العمياء على العوراء في عدم الإجزاء فعلّة الفرع أقوى من الأصل.

ب)قياس المساوي :هو الذي تساوت فيع علّة الأصل والفرع فلا دليل على ترجيح أحدهما على الأخرى، مثل نهي الله تعالى عن أكل أموال اليتامى قال الله تعالى ((إِنَّ ٱلذِينَ يَاكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراًۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ۝)) [سورة النساء آية 10] يقاس عليه النّهي عن إحراقه أو إتلافه ،فالعلّة في الأصل والفرع متساوية.

ج)قياس الأدنى: هو الذي تكون فيه علّة الفرع أقلّ منها في الأصل وبذلك تنتفي الأولوية والمساواة بينهما، مثاله النّبيذ يحرم شربه قياسا على الخمر لكنّ الخمر في شربه الحدّ بخلاف النّبيذ.

[131] البخاري ؛الصحيح ؛ ج : 01 ؛ ص : 80 ؛ رقم :327.
[132] محمّد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه ؛ ص: 435.
[133] محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ؛ ص :194.

ويقسّم القياس باعتبار الخفاء والجلاء إلى:

أ)القياس الجليّ وهو ما كان فيه" الفارق بين الفرع والأصل مقطوعا من حيث العلّة ".[134]

كقياس المرأة على الرّجل فيما يشتركان في من أحكام.

ب)القياس الخفيّ :هو"ما ظنّ فيه نفي اعتبار الفارق دون القطع به، وكانت العلّة فيه مستنبطة من حكم الأصل مثل قياس القتل بمثقّل على القتل بمحدّد".[135]

الجامع بين القتل بمحدّد ومثقّل هو العدوان والعمد في إيجاب القصاص.

كما ينقسم القياس باعتبار أصله إلى ثلاثة أقسام هي:

1-قياس علّة وهو الذي تكون علّته صريحة كقياس النّبيذ على الخمر.

2-قياس دلالة وهو "أن لا يذكر فيه العلّة بل وصف ملازم لها، كما لو علّل في قياس النّبيذ على الخمر برائحة المشتدّ".[136]

3-قياس الشّبه :ذكرناه سابقا في مسالك العلّة وقلنا أنّه مسلك والقياس المبنيّ عليه ،وسمّي شبها من باب تسمية الشّيء باسم علّته وقلنا بأنّه هو الذي يتردّد بين أصليين وأقوى أنواعه الشّبه في الأصل والحكم معا كشبه العبد بالمال في كونه يورث ويباع هذه في الحكم ،أمّا في الصّفة فهو تفاوت العبيد في القيمة بحسب جودتهم ورداءتهم .

مجال القياس:اختلف علماء الأصول في القياس على الأسباب والموانع، فقد "ذهب أصحاب أبي حنيفة وجماعة من الشّافعية وكثير من أهل الأصول إلى أنّه لا يجري فيها، وذهب جماعة من أصحاب الشّافعي إلى أنّه يجري فيها"[137]

---

[134] المصدر السابق ؛ ص : 195.
[135] السّابق ؛ ص : 195.
[136] محمّد بن عليّ الشوكاني ،إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ،دار الفكر، لبنان ؛ ص : 222.
[137] المصدر السابق ؛ ص : 222.

مثال ذلك :الزّنا سبب في إيجاب الحدّ ،فيقاس عليه اللّواط في كونه سببا لإيجابه ،فهذا القياس المرتبط بالأسباب جعل الشّارع وصفا سببا لحكم فيقاس عليه وصف آخر فنحكم بكونه سببا ،وقياس النّفاس على الحائض في عدم إيجاب الصّلاة هو من قبيل القياس على المانع.

واختلفوا في القياس على الحدود والكفّارات فمنعه الحنفية وأجازه غيرهم ،واستدلّ الحنفية على مذهبهم بأنّ الحدود"مشتملة على تقديرات لا تعقل كعدد المائة في الزّنا والثمانين في القذف ،فإنّ العقل لا يدرك الحكمة في اعتبار خصوص هذا العدد ،والقياس فرع تعقل المعنى في حكمة الأصل".[138]

واحتجّ القائلون على جوازه بعموم أدلّة إثبات القياس لاشتماله عليها، ومنه قول عليّ رضي الله عنه في قياس الخمر على القذف حيث قال":إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى فأرى عليه حدّ الافتراء".[139]

أمّا القياس في اللّغة فقد اتّفق جمهور أهل الأدب على أنّه "يجري في اللّغات ووافقهم فيه بعض الأصوليين كالإمام الرّازي والبيضاوي ،وخالف فيه جمهور الشّافعية والحنفية والآمدي وابن الحاجب فقالوا:لا تثبت اللّغة بالقياس و لا يكون حجّة فيها".[140]

ومحلّ النّزاع في هذا الخلاف هو القياس على الأسماء الدالّة على ذواتها فهذه المعاني متناسبة مع هذه التّسمية كلفظ الخمر فإنّه موضوع للمتّخذ من عصير العنب إذا اشتدّ وقذف بالزبد ،وسبب الوضع هو اشتماله على مخامرة العقل فلمّا شاركه النّبيذ في ذلك جاز قياسه عليه ومثله جواز قياس النّباش على السّارق.

[138] السّابق ؛ ص : 222.
[139] المصدر نفسه ؛ ص : 222.
[140] وهبة الزحيلي ،أصول الفقه الإسلامي ،ص : 713.

أحكام القياس:

أ)لا يجيز الأحناف القياس في الحدود والكفّارات لأنّ العلّة فيهما غير معقولة المعنى كعدد الثمانين في حدّ القذف ،وذهب الشّافعية وغيرهم إلى جوازه ولذا حكم الصحابة بقياس حدّ الخمر على القذف واستدلوا بقول عليّ رضي الله لأنّه إذا سكر هذى وإذا هذى افترى فجعلوا حدّه حدّ المفتري.

ب)يجوز تخصيص عموم الكتاب بالقياس على مذهب الشافعية ومستندهم في ذلك أنّ القياس دليل شرعي معمول به فجاز تخصيصه قياسا على خبر الواحد وعموم الكتاب فكلا الدّليلين معمول بهما شرعا ولا يجوز إلغاء القياس باعتباره دليلا شرعيا ،وقال الحنفية بعدم التّخصيص لأنّه كالنّسخ في أنّ كلّ واحد منهما (القياس وعموم الكتاب) إسقاط لموجب اللّفظ وحكمه ،فإذا تحصّن القاتل بالحرم مثلا جاز إقامة القصاص عليه طردا للقياس في أنّه اقترف جريمة يطالب فيها بالقصاص ،أمّا الأحناف فقالوا لا يقتصّ منه داخل الحرم لعموم قوله تعالى (فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴿٩٨﴾ [سورة آل عمران آية 98] ،فلا يخصّص ذلك إلاّ بنصّ قطعيّ وبذلك لا يقتصّ منه .

ج)إذا خالف القياس خبر الواحد يقدّم عليه عند الشافعي لأنّ خبر الواحد قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والقياس قول المجتهد ،وقال الحنفية بتقديم القياس عليه عند التعارض "ذهب الشّافعية إلى أنّ ذكاة الجنين ذكاة أمّه لحديث أبي سعيد الخذري أنّ جماعة أتوا رسول الله وقالوا إنّا ننحر الإبل ونذبح الشاة ونجد في بطنها جنينا ميتا أفنلقيه أو نأكله فقال عليه السّلام :{كلوه فإنّ ذكاة الجنين ذكاة أمّه}، وخالف الأحناف في هذا وقالوا بأنّ الجنين لا يتذكّى بذكاة أمّه تقديما للقياس على الخبر المذكور ذلك أنّ القياس يدلّ على أنّ الجنين الذي لم يستكمل يشبه أن يكون دما مستخبثا فلا يحلّ لأنّ كلّ مستخبث لا يكون حلالا فلا يحلّ ما دام لم ينفصل على هذه الحالة فيما هو القياس".[141]

أمّا الرّاجح عند المالكية فهو أنّهم يقدّمون القياس على خبر الآحاد إذا عضّدته القرائن .

[141] محمّد سراج ،أصول الفقه الإسلامي ،منشأة المعارف ،الإسكندرية ،(د،ط) ،1998م ؛ ص : 206-2007.

هذه بعض القضايا المرتبطة بالقياس الأصولي، نذكر الآن أهمّ الفروق بين القياس الأصولي والمنطقي.

الفرق بين القياس الأصولي والمنطقي :

القياس المنطقي صوري لا يهتمّ بصدق النّتيجة في الواقع، وإنّما يعتمد على حدود القضيّة، ويلزم النّتيجة بها ،بينما يعتمد القياس الأصولي على قياس مسألة حادثة لها ارتباط في الواقع بأخرى منصوص على حكمها ،فهو ينشأ من الواقع بخلاف المنطقي الذي لا يخرج عن ذات المقدّمات.

لا يعتمد القياس المنطقي على الاستقراء لأنّ كلّ واحد منهما نوع من الاستدلال في حين يمثّل القياس الأصولي عين الاستقراء العلمي لاشتماله على نوعي الاستدلال، الاستدلال الاستقرائي في المرحلة الأولى أي مرحلة البحث.

أمّا الاستدلال القياسي فيمثّل المرحلة الثانية من البحث التي يبرهن فيها على علّة الفرع وبالتالي إلحاقه بالأصل للوصول للنّتيجة.

هذه بعض الفروق بين القياسين الّذين عرفتهما العقلية البشريّة ،فالقياس المنطقي جاء عقليّا صرفا بينما جاء القياس الأصولي شرعيا وعقليا ،ويمثّل آلة الاجتهاد ،وبه تكيّف مصالح الأمّة المتجدّدة بأصول أحكام الشّريعة الإسلامية حتّى لا تخرج تلك الأحكام من رحم الأهواء والنّزوات فتفقد الشّريعة بذلك مصداقيتها ،ولهذا سعى النّحاة في وضع قواعد للّغة ،رغبة منهم في حفظ لغة القرآن والسنّة مصدرا الوحي.

نطوي صفحة القياس الأصولي لنفتح صفحة جديدة عنوانها القياس النّحوي لنرى العقليّة العربيّة البارعة التي اتّخذت من لغتها سلّما لبلوغ المناصب العالية فأنتجوا للعالم حضارة لا تزال في ذاكرة البشرية ملامحها وفي صفحات العلم آثارها لنكون نحن الخلَف متّبعين لهذا القياس النّحوي ،فلا نستطيع بأيّ حال من الأحوال أن نحيد عنه عندما نتخاطب مع القرآن أو السنّة النّبوية على وجه الخصوص.

المبحث الرّابع: القياس النّحوي

نزل القرآن بلغة العرب قال الله تعالى (إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ [سورة يوسف آية 2] فكان لزاما على المسلمين أن يتعلّموا هذه اللّغة الشريفة لفهم الخطاب الإلهي ،من هنا انطلقت الدّراسة اللّغوية كغيرها من الدّراسات المواكبة لفهم النّص القرآني وبالأخصّ ما يتعلّق بميدان الإعجاز الذي كانت اللّغة مجاله ،وتعتبر ظاهرة اللّحن في البيئة العربية من أهمّ الأمور الّتي فرضت وضع قواعد لمعيرة اللّغة وذلك لسدّ خلل اللّحن من جانب ومساعدة الأعاجم لفهم لغة القرآن وأساليبها من جانب آخركما يقول علماء الأصول "الوسائل تعطى حكم غاياتها".

قام العلماء بجمع اللّغة من البيئات العربية الفصيحة واعتمدوا في البداية على الشّفوية ثمّ انتقلوا إلى التدّوين ،وبدأ العلماء يمعِنون النّظر فيما جمعوه من اللّغة قصد معرفة التّواصل الذي يربط هذه الكلمة بتلك وهذا الاشتقاق بغيره فكانت هذه العملية أشبه بدراسة شجرة كبيرة لها أصول وفروع متعدّدة وتحت كلّ فرع تفريعات تندرج تحت ذلك الأصل أو ذاك ،يحدّثنا ابن سلاّم (ت231هـ) عن ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ) بأنّه "أوّل من بعج النّحو ومدّ القياس والعلل".[142]

وذكر ابن سلام في معرض موازنته مع أبي عمرو بن العلاء":أنّ ابن أبي إسحاق كان أشدَّ تجريدا للقياس ، وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها".[143]

فعالم يهتمّ بالقياس والنّظر في العلل ،وآخر يحفظ ويدوّن ،فقد ساعدته سعة الرّواية على تصويب كثير من الأخطاء وتلحين القرّاء إذا خالفوا بعض قواعد اللّغة من ذلك قراءة نافع في قوله تعالى (فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ۝٥٤[سورة الحجر آية 54]"قرأ نافع بكسر النّون ،وحكي عن أبي عمرو بن العلاء رحمه الله أنّه قال كسر النّون لحن ".[144]

---

[142](ابن سلاّم الجمحي)محمّد ،طبقات فحول الشّعراء ،قرأه وشرحه:محمود محمّد شاكر،شركة القدس للنّشر والتّوزيع،دار المدني ، ص : 14.

[143]المصدر السابق ؛ ص : 14

[144]أبو جعفر بن النحاس؛ إعراب القرآن؛تحقيق:زهير غازي زاهد؛عالم الكتب ؛بيروت؛الطبعة الأولى ؛1426ه-2005م ؛ ص : 473.

ثمّ جاء الخليل بن أحمد (175هـ) وسبويه (ت180هـ) "فبلغ القياس على يديه ويدي تلميذه سبويه ذروة نمائه ...وأظهر ما تميّز به الخليل هو القدرة على التّصور الشّامل لموضوع بحثه وضمّ نشر ما تناثر من جزئياته في كليات جامعة وقوانين لا يكاد يخرج عنها شيء منه".[145]

عاملان مهمّان ساعدا الخليل على تحقيق إبداعه اللّغوي ،العامل الأوّل انتماؤه العربي ومعرفته لذوق اللّغة وخصائصها ،والثّاني هو قدرته العقلية الّتي تجلّت في إبداعه للأوزان الشّعرية،أمّا إسهامات سبويه فتتجلّى في مؤلّفه "الكتاب" وما احتوى عليه من ذخائر ونفائس قام بشرحها ثلّة من العلماء عبر الأجيال المتعاقبة ،ثمّ جاء دور المدارس النحوية (الكوفة ،البصرة، بغداد) وما أنتجته من علماء كبار ورموز عظام أمثال ابن جنّي (392هـ) وابن السراج وابن الأنباري وغيرهم.

تأثّر القياس النّحوي بمنهج علماء الأصول ،فقد اعتمد القياسان على نفس الأركان من حيث إعطاء حكم الأصل للفرع عن طريق استنباط العلّة أو استخراج الحكم ،يقول ابن جنّي (ت392هـ) مبيّنا تأثّر النّحاة بالفقهاء وبالأخصّ الحنفية منهم":ومن كتب محمّد بن الحسن (رحمه الله تعالى) صاحب أبي حنيفة ينتزع أصحابنا العلل،لأنّهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه فيجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرّفق".[146]

إنّ أكثر الفقهاء اهتماما بالقياس هم الحنفية مدرسة الرّأي، وابنُ جنّى حنفيَ المذهب لذا يشير كثيرا لأصولهم الّتي يشاركون فيها النّحاة.

قام النّحاة بوضع قوانين تحفظ اللّغة ،ولم يبيحوا لأحد الخروج عنها إلاّ للضرورة الشّعر ،وكانت تلك القوانين عبارة عن نتاج جهد فكري اهتدى إليه النّحاة ،والقياس هو عماد النّحو وتظهر أهميّته في اعتباره عند تعريفهم للنّحو بأنّه "العلم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب".[147]

[145] منى إلياس ، القياس في النحو ؛دار المطبوعات الجامعية ؛الجزائر ؛الطبعة الأولى ؛1405ه- 1985م ؛ ص : 23.
[146] أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، تحقيق:محمّد عليّ النجار ؛دار الكتاب العربي،بيروت ،لبنان. ج :01 ؛ ص : 163.
[147] السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ،تحقيق :محمّد الشافعي ،دار الكتب العلمية ،بيروت،الطبعة الأولى :1418ه-1988م. ص:38

وهذه المقاييس المستنبطة لا تكون إلاّ بالقياس فهو أساس النّحو ومعتمده الذي يقوم عليه ،نبدأ بذكر ماهية القياس وأركانه وأقسامه وأهمّ القضايا المرتبطة به .

تعريف القياس:

يستعمل القياس النّحوي على ضربين "إمّا من قبيل القياس الإستعمالي ،وإمّا من قبيل القياس النّحوي والأوّل هو انتحاء كلام العرب ..،أمّا القياس الثّاني فهو النّحو كما يراه النحاة ".[148]

من خلال هذه النصّ نوضّح وجهي القياس كما يلي:

الوجه الأوّل :القياس الإستعمالي أو اللّغوي ،عرّفه ابن الأنباري بقوله ":هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه ".[149]

والمنقول هو كلام العرب الذي تكلّمت به ،وغير المنقول كلامنا المستحدث الذي نريد قياسه عليه فكلمة (صحافة) نسوّغ استعمالها بالحمل على المنقول (زراعة) ،وهذا الحمل هو القياس الذي يعنى باستنباط القواعد وصوغ الكلام وفق ما ثبت في طرائق العرب من حذف وزيادة وإبدال وغير ذلك مع مراعاة نظام الكلام وما يعتريه من أحكام كالإعراب والبناء والتّقديم والتّأخير والحذف والذّكر إلى غير ذلك ،ففائدة القياس إذن إنّه "طريق يسهّل به القيام على اللّغة ووسيلة تمكّن الإنسان من النّطق بآلاف من الكلم والجمل دون أن تقرع سمعه من قبل أو يحتاج في الوثوق من صحّة عربيتها إلى مطالعة كتب اللّغة أو الدّواوين الجامعة لمنثور العرب ومنظومها".[150]

وتعمل المجمّعات اللّغوية والمؤسّسات والهيئات المختصّة بدراسة الألفاظ الحادثة قصد إدماجها في المدوّنة اللّغوية وفق معايير خاصّة، هذا ما يتعلّق بالقياس اللّغوي.

[148] محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية،دار الفكر العربي ؛مصر؛ الطبعة الأولى :1415ه-1995م ؛ ص : 20.
[149] السيوطي ، الإقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 70.
[150] محمّد الخضر حسين الجزائري، القياس في اللّغة العربية المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر،(د.ط) ؛(د.ت) ؛ ص : 28.

الوجه الثّاني :القياس كما عرّفه النّحاة بقولهم هو":حمل فرع على أصل بعلّة وإجراء حكم الأصل على الفرع".[151]

مثل قولنا":أعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم على مشابهته له، أو تقول نصبت (لَا) النّافية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياسا على (إنَّ) لمشابهتها إيّاها في التّوكيد، فإنّ (لَا) تأتي لتوكيد النّفي كما تأتي (إنَّ)لتوكيد الإثبات".[152]

نلاحظ أنّ عمليّة القياس تقوم على تعليل الحكم معتمدة على معيارية اللّغة المستنبطة من الاستقراء فالأصل في الأفعال البناء، وهذا باستثناء المضارع، فكانت علّة إعرابه من باب معيرة النّحو واتّخاذه أساسا وضابطا لا يمكن تعدّيه.

يتكوّن القياس من أصل وفرع وعلّة وحكم، هذا ما يعرف بأركان القياس.

أركان القياس:

للقياس أربعة أركان هي "أصل (المقيس عليه) وفرع (المقيس) وعلّة وحكم ،وذلك مثل أن تركّب قياسا في الدّلالة على رفع ما لم يسمّ فاعله فتقول :اسم أسند الفعل إليه مقدما عليه فوجب أن يكون مرفوعا قياسا على الفاعل فالأصل هو الفاعل والفرع هو ما لم يسمّ فاعله ،والعلّة الجامعة هي الإسناد والحكم هو الرّفع والأصل في الرّفع أن يكون للأصل الذي هو الفاعل وإنّما أجري على الفرع الذي هو ما لم يسمّ فاعله بالعلّة الجامعة الّتي هي الإسناد".[153]

هذا تمثيل على القياس النّحوي، أمّا اللّغوي:فكلمة صحافة (الفرع) تقاس على (أصل منقول عن العرب) وهو زراعة، والعلّة هي الاشتراك في الصيغة (فعالة)، والحكم (إعطاء غير المنقول دلالة المنقول) إذا تحقّقت العلّة وهي الاشتراك في المهنة أو الحرفة.

[151] محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص :19.
[152] المصدر السّابق ؛ ص :20.
[153] السابق ؛ ص : 93.

نقوم ببيان هذه الأركان الأربعة وشرحها كما يلي:

1-الأصل (المقيس عليه) :

نقصد به":الكلام العربي الفصيح المنقول بالنّقل الصّحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة".[154]

ونعني بالفصيح ما هو موجود في المصادر اللّغوية فيشمل القرآن الكريم والحديث النّبوي على أرجح الأقوال وكلام العرب قبل الإسلام وبعده إلى أن فسدت الألسنة.

أ)القرآن الكريم :هو أوثق مصدر للّغة ومنبعها الأصلي الذي نشأت في كنفه وترعرعت في ظلّه وقد أجمع النّحاة على الاحتجاج به وبأشكال قراءته ،يقول السيوطي مبيّنا ذلك ":وأجمعوا على الاحتجاج بالقراءات الشاذّة في العربية إذا لم تخالف معروفا بل لو خالفته يحتجّ به في ذلك الحرف بعينه".[155]

يحتجّ بجميع القراءات القرآنية ،ويرى البعض أنّ الشاذّ منها يحفظ في بابه لا يقاس عليه ،وكلام الله هو أقوى حجّة من الشّعر ليبقى"كلامه عزّ اسمه أفصح كلام وأبلغه ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذّه".[156]

لأنّ هذا الكتاب العزيز تكفّل الله بحفظه واعتنى المسلمون به كالحديث النّبويّ، والشّعر الجاهليّ.

ب)الحديث النّبوي :المقصود به أقواله صلّى الله عليه وسلّم التي نقلها الرّواة عنه ،فذهب ابن مالك (ت674هـ) وابن هشام وابن خروف(ت609هـ) إلى جواز الاحتجاج به ومنع أبو حيّان الأندلسي (ت754هـ) وغيرُه من متقدّمي النّحاة الاستشهاد به ،كما توسّطت طائفة في ذلك كالسيوطي الذي يقول ":يستدلّ من كلام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بما ثبت أنّه قاله على اللّفظ المروي وذلك نادر جدّا".[157]

---

[154]السيوطي ، الإقتراح في علم أصول النحو ، ص : 15.
[155]المصدر السابق ؛ ص : 48.
[156]البغدادي ؛ خزانة الأدب ؛ ج : 01 ؛ ص : 32.
[157]السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 16.

مثل ألفاظ الآذان والتّشهّد وكتاباته للملوك وما اختلفت طرق نقله واتّحدّ متنه أو ما رواه ابن سيرين وعليّ بن المديني وغيرهم ممّن كان يمنع رواية الحديث بالمعنى ،ولعلّ المذهب الوسط هو الأسلم لأنّه في اعتقادنا أنّ علماء الشريعة اعتبروا أقواله وأفعاله وتقريراته صلّى الله عليه وسلّم منها تستقى الأحكام الشّرعية وهؤلاء الرّواة اهتموا بنقل روح السنّة أي المعاني الموجودة فيها بينما راع النّحاة جانب الألفاظ والتّركيب الذي نطق به عليه السّلام ،لكن ألا يحتجّ على النّحاة بأنّ رواة الحديث الشّريف هم من عصور الاحتجاج ؟ فيجاب عنهم بأنّ هؤلاء لم يكونوا من العرب المحتجّ بهم لذلك لم يشترطوا العدالة في الرّاوي إذا صحّ نقله عن العرب ،وصدق الجرجاني في قوله "ولكلّ صناعة أهل يرجع إليهم"

ج) كلام العرب :اهتمّ علماء العربية بالرّحلة إلى بوادي الحجاز والطّائف ونجد وغيرها من المناطق التي يسكنها الفصحاء وكان الباعث لهم على ذلك فهم كتاب الله وصيانة لغتهم من الانحراف والانزلاق فقد كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حريصا على العربية واشتهر عنه أنّه قال":أيّها النّاس تمسّكوا بديوان شعركم في جاهليتكم فإنّ فيه تفسير كتابكم".[158]

وديوان العرب كان مخبوءا في قبائل الفصاحة "وإليها كان يرحل الرّواة حتّى إنّ الكسائي لما خرج إلى البصرة ولقي الخليل بن أحمد وجلس في حلقته قال له رجل من الأعراب : تركت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة وجئت البصرة فقال للخليل من أين أخذت علمك قال:من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج إليهم ولم يرجع إليه حتّى أنفذ خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب ".[159]

وقد حدّدها النّحاة مكانا وزمانا، هي:

أ) تحديد المكان :اختلفت القبائل في درجة الفصاحة على بعدها أو قربها من حدود الأعاجم ومخالطتهم "وأفصح القبائل الذين هم مادة اللّغة فيما نصّ عليه الرّواة :قيس وتميم وأسد والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن (وفيهم قال أبو زيد :أفصح النّاس سافلة العالية ،وعالية السّافلة وأهل العالية أهل المدينة ومن حولها) وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر وذلك لقول رسول الله

[158] أبو إسحاق ألشاطبي ؛ الموافقات ؛ ج : 01 ؛ ص : 74.
[159] مصطفى الرافعي ؛ تاريخ الأدب العربي ، دار الكتب العلميّة ؛ لبنان ؛الطّبعة الأولى : 1421ه -2000م؛ ج : 01 ؛ ص : 130

صلّى الله عليه وسلّم أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش وأنّي نشأت في بني سعد بن بكر أمّا عليا هوازن وهم خمس قبائل أو أربع منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف ".[160]

كانت قريش أفصح القبائل لأنّها كانت تنتقي أفصح اللّغات ثمّ تليها من قبائل العرب قيس وأسد وتميم فهؤلاء أخذ عنهم جلّ اللّغة وعليهم اتّكل في الغريب والإعراب ،ثمّ قبيلة هذيل وكنانة وطيء وتوسّع كثير من النّحاة كأبي حيّان (ت754هـ) في الأخذ حتّى قالوا بضرورة الأخذ عن "كلّ ما كان لغة قبيلة يقاس عليه".[161]

وتعتبر مسألة الأخذ عن العرب من أهمّ نقاط الخلاف بين الكوفيين والبصريين ،فالكوفيون توسّعوا في السّماع بخلاف البصريين.

ب)تحديد الزّمان :أشار النّحاة لعامل الزمن وحدّدوه بقولهم":إنّ العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثّاني ،وأهل البدو من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرّابع".[162]

حدّد القرن الثاني بابن هرمة (ت150هـ) وقد "كان الأصمعي يقول :ختم الشّعر بابن هرمة والحكم الخضري (150هـ) وابن ميادة (149هـ) وطفيل الكناني ومكين العذري (160هـ) ".[163]

فمن جاء بعد المائة والسّتين للهجرة لا يحتجّ به، وقسّم النّحاة الشّعراء إلى طبقات هي:

- شعراء جاهليون لم يدركوا الإسلام ،وحدّدوا بمائة وخمسين سنة قبل الإسلام،كامرئ القيس وزهير.

- مخضرمين جاهليون أدركوا الإسلام كحسان بن ثابت والنّابغة الذبياني.

- إسلاميون عاشوا صدر الإسلام كالفرزدق وجرير.

---

[160] المصدر السّابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 131
[161] السيوطي ؛ المزهر في علوم اللّغة ؛ ج : 01 ؛ ص : 153.
[162] عباس حسن ،اللغة والنحو بين القديم والحديث،دارا لمعارف،مصر،الطبعة الثانية،(د،ت) ؛ ص : 24.
[163] أبو الفرج الأصفهاني ؛ الأغاني ؛ ج : 04 ؛ ص : 373.

-الشّعراء المحدثون:يراد بهم من جاء بعد عصر الاحتجاج ،وأطلق لفظ المولّد أيضا على من كان عربيا غير محض ،وأوّل المحدثين بشّار بن برد (167هـ) ،تذكر الرّوايات أنّ سبويه لم يستشهد بشعر مولّد "ووفقا للتّحديد الذي قرّره القدماء نقرّر مطمئنين أنّ سبويه لم يستشهد بشعر مولّد غير بيت نسب إلى مروان النّحوي (190هـ) وهو :

أَلْقَى الصَّحِيفَةَ كَيْ يُخَفِّفَ رَحْلَهُ وَالزَّادَ حَتَّى نَعْلَهُ أَلْقَاهَا.

وفي الكتاب بيتان آخران هما :حذر أمور لَا تَخَافُ وَآمِنٍ مَا لَيْسَ مُنجيته مِنَ الأَقْدَارِ

قيل إنّ أبان اللّاحقي (200هـ) صنعه لسبويه والبيت غير منسوب في الكتاب.

وَمنهَل لَيْسَ لَهُ حواز قول ضفادي جمّه نَقَانق.

وقال الشمنتري :هو مصنوع لخلف الأحمر".[164]

وبعد تفشّي ظاهرة اللّحن في طبقة المولدين امتنع سبويه من الاحتجاج بأشعارهم ،وأجاز البلاغيون رواية شعرهم والاستشهاد به ،أمّا أهل البادية فقد استمرّ الأخذ عنهم حتّى فسدت سلائقهم في القرن الرّابع الهجري ،ويكاد يجمع النّحاة على عدم الاحتجاج بكلام المولّدين والمحدثين في اللّغة العربية.

ومن بين قواعد النّحاة في الاحتجاج عدم اشتراط العدالة في المرويّ عنه وإنّما تشترط في الرّاوي ،ومنها أيضا قبول ما انفرد به الفصيح لاحتمال كونه لغة مسموعة قديمة ،ومن قواعدهم أيضا تقسيم المسموع إلى مطّرد وشاذّ ،يقول ابن جنّي مبيّنا ذلك":أصل موضع (ط،ر،د) في كلامهم التّتابع والاستمرار...وأمّا مواضع (ش،ذ،ذ) في كلامهم فهو التفرّق والتفرّد هذا أصل هذين الأصلين في اللّغة ثمّ قيل ذلك في الكلام والأصوات على سمته وطريقه في غيرها ،فجعل أهل علم العرب ما استمر من

[164] محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية؛ ص : 109-110.

الكلام في الإعراب وغيره من مواضع الصّناعة مطّردا ،وجعلوا ما فارق ما عليه بقيّة بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذّا حملا لهذين الموضعين على أحكام غيرهما".[165]

المطّرد في اصطلاح النحويين بمعنى الثّابت ،والشاذّ ما خرج عن الباب،واختلفوا في حدّ الكثرة هل بالنّظر إلى شيوع استعماله أو غير ذلك ،وقد ذكر التّواتي في محاضراته تقسيما جيّدا بالنّسب المئوية بيّن فيها ما يتعلّق بالكثرة والقلّة فقال ":

أ) المطّرد:وهو الذي عرفه الجميع واستعمله جميع الفصحاء السّليقين وهو الذي تبنى عليه القواعد وهو الأفصح 100%

ب) الغالب:ونسبة استعماله 80% دون المطّرد في الاستعمال أي أكثرية العرب تستعمله وإن كانت بعض القبائل لا تستعمله ويطلق عليه أفصح الأشياء ما.

ج) الكثير:60 %(فصيح) بعض القبائل تستعمله.

د) القليل: 30% دون الفصيح استعمل بقلّة.

هـ) الناذر:05% غير فصيح من الناحية اللّغوية".[166]

هذه النسب تساعد على تحديد الفروق الحاصلة بين الفصيح وغيره ،أمّا ابنّ جنّي فاقتصر في تقسيمه على الاطّراد والشّذوذ وجاء على أربعة أقسام نذكرها كما يلي:

1 - مطّرد في القياس والاستعمال معا:وهذا القسم هو غاية المطلب ونهاية المأرب، نمثل عليه بقولنا:دخل محمّدٌ، ورأيت خالداً، ومررت بزيدٍ.

[165]أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، ج:1 ؛ ص : 96.
[166]التواتي بن التواتي،محاضرات في أصول النحو،دار الوعي للنشر والتوزيع،الرويبة،الجزائر؛(د،ط) ؛(د،ت) ؛ ص : 131- 132.

2 – الشّاذ في الاستعمال ،المطّرد في القياس :يقرّر النّحاة أنّ كلّ فعل مستقبل له فعل ماض ولكنّهم منعوا استعمال (وَدَعَ) استغناءً عنه (بتَرَكَ) لأنّه شاذّ ،مثّل له ابن جنّي"مكان مبقل وهو القياس والأكثر في السّماع باقل ونحو عسى زيدٌ قائما وهو القياس والمسموع عسى أن يقوم زيد ".[167]

هذا التّعارض بين السّماع والقياس أشار إليه ابن جنّي بأنّه من الأشياء الّتي تحفظ ولا يقاس عليها حيث قال ":فإذا كان الشّيء شاذّا في السّماع مطّردا في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله :من ذلك امتناعك من (وَذَرَ) و(وَدَعَ) لأنّهم لم يقولوهما ولا غروَ عليك أن تستعمل نظيرهما نحو (وَزَنَ) و (وَعَدَ) لو لم تسمعهما".[168]

إذا كانت العرب عدلت عن (وَذَرَ) و(وَدَعَ) فيجب ترك ذلك وإن كان القياس يبيحه ،لكنّ ابنَ جنّي عندما عورض بما ورد عن العرب قال بالضّرورة الشّعرية ":واعلم أنّ الشّاعر إذا اضطرّ جاز له أن ينطق بما يبيحه القياس وإن لم يرد به سماع ألا ترى إلى قول أبي الأسود:

لَيْتَ شِعْرِي عَن خَليلِي مَا الذِي غَالَهُ فِي الحُبِّ حَتَّى وَدَعَهْ .

وعلى ذلك قراءة بعضهم (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣) [سورة الضحى آية 3]أي ما تركك".[169]

يؤخذ من قول ابن جنّي أنّ ما لم يرد سماعا يجوز للشّاعر استعماله إذا اطّرد في القياس، أمّا ابن السّراج فذهب إلى أنّ العرب الفصحاء إذا استعملوا الشّاذ فإنْ"كان الشّاذ سمع ممّن ترضى عربيّته فلا بدّ من أن يكون قد حاول به مذهبا ونحا نحوا من الوجوه أو استهواه أمر غلطه".[170]

يخرّج ابن السّراج الشّاذ المطّرد في القياس على طريقة التّأويل موافقا في ذلك رأي ابنَ جنّي الذي يقول":وكيف تصرّفت الحال فالنّاطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ ".[171]

---

[167]أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، ج:1 ؛ ص : 97.
[168]المصدر السّابق؛ج : 1 ؛ ص : 97-98.
[169]السابق : ج :01 ؛ ص : 99.
[170]محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص :22
[171]أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، ج: 1؛ ص : 101.

يرى ابنُ جنّي أنّ المطّرد في القياس الشاذّ في الاستعمال يترك منه ما تركت العرب كترك (ودع) وهو مباح في الشّعر أمّا ما لم يرد عن العرب فيحمل على الصحّة لأنّ الناطق بالقياس موافق للغة من لغات العرب وفاقا لابن السّراج.

3 – الشّاذ في القياس المطّرد في الاستعمال :عكس السّابق ،مثّل له ابنُ جنّي بقوله ":أخوص الرمث واستصوبت الأمر أخبرنا أبو بكر محمّد بن الحسن عن أحمد بن يحيى قال : يقال استصوبت الشّيء ولا يقال استصبت الشّيء ومنه استحوذ وأغيلت المرأة واستونق الجمل واستتيست الشاة وقول زهير:

هُنَاكَ إن يَسْتَخُولُوا المالَ يَخُولُوا.[172]

ومنه استفيل الجمل قال أبو النّجم :يدير عيني مصعب مستفيل ،وقال :إذا سمعت (استحوذ واستصوب) أدّيتهما بحالهما ولم تتجاوز ما ورد به السّمع فيهما إلى غيره ألا تراك لا تقول في (استقام) استقوم ولا في استصاغ استصوغ ولا في استباع استبيع ولا في (أعاد) أعود لو لم تسمع شيئا من ذلك قياسا على قولهم:(أخوص الرمث) فإذا كان الشّيء شاذّا في السّماع مطّردا في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله".[173]

لا يجيز ابنُ جنّي قياس استحوذ واستصوب واستونق لأنّها شاذّة ،لكنّ نحاة الكوفة "قد أجازوا القياس على المثال الواحد المسموع وهم يعتبرون اللّفظ الشاذّ فيقيسون عليه ويبنون على الشّعر الكلام من غير نظر إلى مقاصد العرب ولا اعتبار بما كثر أو قلّ وكذلك كان الإمام أبو زيد الأنصاري –شيخ سبويه ورائده- يجعل الفصيح والشاذّ سواء".[174]

إذا كان ابنُ جنّي قد خالف الكوفيين في القياس على الشاذّ فإنّه وافقهم على استعماله في ضرورة الشّعر،وفي جواز القياس على القليل قال ابن جنّي":المسموع الفرد هل يقبل ويحتجّ به له أحوال:

---

[172] زهير بن أبي سلمى ،الديوان ،أبو العبّاس ثعلب ،تحقيق : فخر الدّين قباوة ،دار الآفاق الجديدة ،بيروت ،الطّبعة الأولى :1402ه-1982م ،ص :93.(رواية الديوان للبيت كاملا :هُنَاكَ إِنْ يُسْتَخْلَبُوا الْمَالَ يُخْبِلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيسِرُوا يُغْلُوا) ،أمّا الرّواية السابقة رواها أبو عبيدة.

[173] أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، ج:01 ؛ ص : 98-99.

[174] عباس حسن ؛ اللّغة والنحويين بين القديم والحديث ؛ ص : 48

أحدهما أن يكون فردا بمعنى أنّه لا نظير له في الألفاظ المسموعة مع إطباق العرب على النطق به فهذا يقبل ويحتجّ به ويقاس عليه إجماعا ،كما قيس على قولهم في (شنوءة=شنئي) مع أنّه لم يسمع غيره لأنّه لم يسمع ما يخالفه وقد أطبقوا على النّطق به الحال وذلك أن يقلّ الشّيء وهو قياس ويكون غيره أكثر منه إلاّ أنّه ليس بقياس مثل قولهم في النّسب إلى (شنوءة=شنئيّ) فلك من بعد أن تقول في الإضافة إلى (قتوبة=قتبيّ) وإلى (ركوبة=ركبيّ) وإلى (حلوبة=حلبيّ) قياسا على (شنئيّ)...وأنّ من قال في حلوبة حلبيّ قياسا على قولك في حنيفة (حنفيّ) فإنّه لا يجيز في النّسب إلى حرورة حروريٌّ ولا صرورة صروريّ ولا في قوولة قوَليٌّ لأنّ باب فعيلة المضاعف نحو جليلة لا يقال فيه جللي استثقالا بل هو جليليّ،وأمّا ما هو أكثر من باب شنئيّ ولا يجوز القياس عليه لأنّه لم يكن على قياس فقولهم في (ثقيف=ثقفيّ) وفي (قريش=قرشيّ) وفي (سليم=سلميّ) فهذا وإن كان أكثر من (شنئي) فإنّه عند سبويه ضعيف في القياس فلا يجيز على هذا في (سعيد=سعديٌّ) ولا (كريم=كرميّ) ..،الثاني : أن يكون فردا بمعنى أنّ المتكلّم به من العرب واحد ويخالف ما عليه الجمهور فإذا كان هذا المنفرد فصيحا ويقبل القياس انفراده إلاّ أنّه خالف غيره فينبغي حسن الظنّ به ".[175]

مذهب ابن جنّي أنّ ثبوت ما لا نظير له في الاستعمال يحتجّ به ويقاس عليه إجماعا كذلك انفراد الفصيح مع ما يقبله القياس فيؤخذ به إعمالا لقول ابنِ جنّي السّابق"وكيف تصرّفت الحال فالنّاطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ "فقد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة طال عهدها وقد قال أبو عمرو بن العلاء":ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير ".[176]

لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، أمّا القسم الرّابع فهو:

4 – ما شذّ عن القياس والاستعمال معا :

[175] أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ؛ ج : 01 ؛ ص : 115-116.
[176] السيوطي ؛ المزهر ، ج :01 ؛ ص : 196.

أشار ابن جنّي لحكم هذا النّوع قائلا ":وكلّ ذلك شاذّ في القياس والاستعمال فلا يسوغ القياس عليه ولا ردّ غيره إليه ولا يحسن أيضا استعماله ".[177]

كنصب المبتدأ أو بناء المضارع ، ويفهم من قول ابن جنّي "لا يحسن أيضا استعماله " في غير الضّرورة الشّعرية ، هذا بعض ما يتعلّق بالأصل (المقيس عليه).

2 - **الفرع (المقيس)** :هو الرّكن الثاني في القياس وتظهر أهميّته في كونه سيصبح لغة صحيحة بالقياس ،يقول ابن جنّي في باب ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ما نصّه ":ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ولا مفعول ،وإنّما سمعت البعض فقست عليه غيره ،فإذا سمعت قام زيد أجزت ظَرُفَ بِشْرٌ ،وكرم خالد ".[178]

هذه أصول العربية في الاستعمال ،كلّ فعل له فاعل والفاعل مرفوع والمفعول منصوب ،والمقيس نوعان : أن يكون حكما نحويا استنبط من أصل مسموع كما في رفع نائب الفاعل على رفع الفاعل أو حمل (ما) على إعمال (ليس).

الثّاني : أن يكون استعمالا يتحقّق القياس فيه ويختصّ باللّغة حيث نبيّن الجمل الغير مسموعة على نمط المسموع ولا يصحّ الحمل في القياس إلاّ بتحقّق العلّة الموجبة للحكم.

3 –**العلّة**:نقصد بها الشّيء الذي جاء الحكم من أجله أو "هي الأمر الباعث على الحكم ".[179]

يجب أن تكون واضحة لأنّها دليل الحكم والمعرّفة له ، وعلل النّحاة غير مدخولة و لا متسمح فيها بل هي علل مبنية على أصول وضوابط انتزعها النّحاة باستقراء اللّغة ،يرى ابن جنّي أنّ علل النحاة أقرب إلى علل المتكلّمين منها إلى علل المتفقهين وذلك لاحتجاجهم بثقل الحال أو خفّتها على النّفس وهذا جانب من أثر الملاحظة الصّوتية في تقويم العرب وملاحظتهم لتركيب اللّغة وأساليبها وتقوم هذه الملاحظات اعتمادا على التّأمل والفكر،أمّا علل الفقهاء فهي أمارات وضعها الشّارع يستنبطها

[177]أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، ج:01 ؛ ص : 98.
[178]المصدر السّابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 358.
[179]السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 18

المجتهد في إجرائه للقياس "فإذا عجز الفقيه عن تعليل الحكم قال هذا تعبّدي وإذا عجز النّحوي عنه قال :مسموع".[180]

التعبدي غير معقول المعنى كعدد الرّكعات أو الغسلات في الوضوء ،والمسموع يخرَّج بمنزلة النصّ الذي لا يعدل النّحوي عنه كما في نصوص الشّارع الّتي تتّضح فيها العلّة دون كنه حقيقتها ،يشير ابن جنّي لعلل النّحاة بقوله ":قال أبو إسحاق في رفع الفاعل ونصب المفعول إنّما فعل ذلك للفرق بينهما ثمّ سأل نفسه فقال :فإن قيل فهلاّ عكست الحال فكانت فرقا أيضا قيل الذي فعلوه أحزم وذلك أنّ الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد وقد يكون له مفعولات كثيرة فرفع الفاعل لقلّته ونصب المفعول لكثرته وذلك ليقلّ في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما يستخفون ".[181]

فهذه علل صوتيّة مرتبطة بالنّطق فأعطيت المفاعيل النصب لخفّته وأعطيت الضمّة للفاعل لقلّة، والضمّة أقوى من الفتح لأنّها تنشأ عن الواو ،والواو أقوى من الألف الذي تنشأ عنه الفتحة لأنّ الواو أضيق مخرجا ،ومخرج الحرف كلّما اتّسع ضعف الصّوت الخارج منه وإذا ضاق المخرج صلب الحرف وقوي ،وتندرج هذه العلّة ضمن العلّة الجدلية وهي أحد أقسام العلل النّحوية عند أبي القاسم الزجاجي (ت337هـ) والعلّة الأخرى هي القياسية مثل حمل إعراب المضارع على الاسم لمشابهته إيّاه في قبول لام الابتداء وفي الإبهام والتّخصيص ،ومنه أيضا عمل إنّ وأخواتها حملا على (كان) للزومهما المبتدأ والخبر والاستغناء بهما فعملت النصب ثمّ الرّفع معكوسة من باب تقديم المفعول وتأخير الفاعل تشبيها على الفرعية ،والعلّة الثّالثة في تقسيم الزجاجي هي التعليمية كقولنا الأصل في الفاعل أن يتّصل بفعله لكونه جزءا منه ولذلك يتقدّم على حركة الإعراب في الأفعال الخمسة ومثله تعليل بناء الحروف لعدم تعلّق المعاني به.

إذا كان الظّاهرية قد أنكروا القياس في الفقه والنّحو فإنّ ابن مضّاء الذي يعتبر أحد رموزهم لم ينكر من العلل إلاّ ما تعلّق بالعلل الثواني والثّوالث "وهو في هذا يخرج عمّا عمل به النّحاة القدماء إذ العلل

[180] المصدر السابق ؛ ص : 7
[181] أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، ج:01؛ ص :48-49.

عندهم على ثلاثة أضرب علل تعليمية وعلل قياسية وعلل جدلية نظرية وإنّما قسّموا العلل ليولوا العلّة التّعليمية الاهتمام الأوّل لتصير صناعة ورياضة يتدرّب بها المتعلّم ويقوى بتأمّلها المبتدئ ".[182]

كما أقرّ ابن مضاء بالعلّة الأولى لفائدتها التّعليمية فهو يعلّل مثلا رفع زيد من قولنا:قام زيد بأنّه فاعل وكلّ فاعل مرفوع فإذا قال السائل ولم رفع الفاعل ؟ الصّواب أن يقال:لأنّ العرب تكلّمت به هكذا.

أنواع العلل في النّحو عديدة نذكر منها بعض ما أشار إليه السيوطي (ت911هـ) في الاقتراح[183]على سبيل الاختصار فمنها :

أ)علّة تشبيه:لـمّا أشبه الفعل المضارع الاسم أعطي الرّفع، ولزم بعض الأسماء البناء لمشابهتها الحروف.

ب)علّة استغناء:ترك العرب استعمال (وَدَعَ) استغناءً عنها بترك.

ت)علّة فرق:كرفع الفاعل ونصب المفعول، ولذلك أوجبوا تقديم الفاعل عند عدم أمن اللَّبس مثل ضرب موسى عيسى.

ث) علّة سماع :سُمع عن العرب امرأة ثدياء فلا يقال رجل أثدى .

ج) علّة توكيد:إدخال النّون الخفيفة والثقيلة على فعل الأمر لتأكيد إيقاعه.

د)علّة مجاورة:مثّل بعضهم على ذلك بقوله"هذا جحرُ ضَبٍّ خَرِبٍ " فخربٍ بالجرّ حملا على ضبٍّ".

ر)علّة معادلة:مثل جرّهم ما لا ينصرف بالفتح حملا على النّصب ثمّ عادلوا بينهما فحملوا النّصب على الجرّ في جمع المذكّر السالم.

ز)علّة دلالة حال:كقول المستهلّ الهلال أي هذا الهلال فحذف المبتدأ لدلالة المقام عليه.

[182]بكري عبد الكريم ،أصول النحو العربي في ضوء ابن مضاء القرطبي ،دار الكتاب الحديث ،الجزائر،الطبعة الأولى : 1999م؛ ص : 77.
[183]ينظر ؛السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 77.

ذهب النّحاة إلى جواز تعليل الحكم الواحد بعلّتين من ذلك قولهم ":هؤلاء مُسْلِمَيَّ فإنّ الأصل مُسْلِمُوْيَ فقلبت الواو ياء لأمرين لكلّ منهم موجب للقلب أحدهما :اجتماع الواو والياء وسبق الأوّل منهما بالسكون ،والثاني أنّ ياء المتكلّم أبدا يكسر الحرف الذي قبلها فوجب قلب الواو ياء وإدغامها ليمكن كسر ما تليه ومن ذلك قولهم سيٌّ في لا سيما أصله سِوْيٌ قلبت الواو ياء وإن شئت لأنّها ساكنة غير مُدْغمة وبعد كسرة وإن شئت لأنّها ساكنة قبل ياء فهاتان علّتان ".[184]

هاتان العلّتان خاضعتان لثقل الحال فوجب مراعاة خفّة اللّسان،أمّا مسالك العلّة عند النّحاة هي:

أ-الإجماع: يراد به اتّفاق أهل العربية على حكم معيّن مثل تقدير الحركات في المقصور للتعذّر وفي المنقوص للاستثقال ثمّ يليه في الرتبة النص.

ب-النّص:هو أن يشير العربي للعلّة ويحدّدها قال أبو عمرو ":سمعت رجلا من اليمن يقول :فلان لَغُوبٌ جاءته كتابي فاحتقرها فقلت له:أتقول جاءته كتابي فقال نعم أليس بصحيفة ".[185]

هذا جانب من تصرّف العربيّ بلغته واعتناءه بالمعاني.

ج-السّبر والتّقسيم :هو جمع عدد معتبر من الجزئيات ثمّ ننظر في العلاقة بينها لتحديد العلل ،يقول ابن جنّي":إذا سئلت عن وزن "مَرْوَانَ " فتقول لا يخلوا إمّا أن يكون (فَعْلَانَ أو مِفْعالاً أو فَعْوالاً هذا ما يحتمله ثمّ يفسد كونه مِفْعَالاً أو فَعْوَالاً بأنّهما مثالان لم يجيئا فلم يبق إلاّ فَعْلاَنَ ".[186]

تعتمد العلّة التّعليمية على الاشتقاق فهو يساعد على فهم تركيب اللّغة.

د- المناسبة : وتسمّى الإخالة بمعنى الظنّ الرّاجح في الوصف ،ويطلق على هذا العمل قياس علّة وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

[184]المصدر السّابق ؛ ص : 78.
[185]السيوطي ، الإقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 78.
[186]المصدر السّابق ؛ ج :2 ؛ ص : 130

1-قياسا لمساوي:وهو حمل نظير على نظير كحمل ما لم يسمّ فاعله في الرّفع على الفاعل بعلّة الإسناد.

2-قياس الأولى :أشار له السيوطي بقوله ":حمل أصل على فرع"[187] ،من أمثلته حمل اسم الفاعل في إضافته إلى ما بعده وعمله الجرّ فيه وهو معرّف بـ(أَلْ) على الصّفة المشبّهة ،يقول سبويه":هذا الضارب الرّجل شبّهوه بالحسن الوجه وإن كان ليس مثله في المعنى ولا في أحواله إلاّ أنّه اسم وقد يجرّ كما يجرّ وينصب أيضا كما ينصب".[188]

فالعلّة في اسم الفاعل أقوى منها في الفرع.

3-قياس الأدْون :وحمل ضدّ على ضدّ ،وذلك بأن تكون العلّة في الفرع أضعف منها في الأصل مثاله قول السيوطي":لم يضرب الرّجل حمل الجزم على الجرّ"[189]،العلّة ظاهرة الضعف في الفرع والأصل،من النّحاة من يطلق على العلّة اسم الجامع ليشملها ويشمل الشّبه والطّرد ،والفرق بين العلّة والشّبه أنّه إذا ثبت الحكم في الطّرفين لسبب واحد وفي درجة واحدة كان علّة وإن كان حاصلا في أحدهما فقط فهو شبه والثالث الطّرد.

و- الطّرد : قال ابن الأنباري ":هو الذي يوجد معه الحكم وتفقد الإخالة في العلّة ".[190]

وهو ما نسمّيه المطّرد في السّماع فيبقى الاحتجاج به قائما ،وللعلّة قوادح منها فساد الاعتبار ،وهو أن يستدلّ بالقياس في مقابلة النّص فعند تعارض السّماع والقياس يقدّم السّماع ،نمثّل على ذلك بما يلي :كأن يقول البصريّ "الدّليل على أنّ ترك صرف ما لا ينصرف لا يجوز لضرورة الشّعر أنّ الأصل في الاسم الصرف فلو جوّزنا ترك صرف ما لا ينصرف لأدّى ذلك إلى أن نردّه عن الأصل إلى غير الأصل فوجب أن لا يجوز قياسا على مدّ المقصور فيقول المعترض له : هذا استدلال منك بالقياس في

[187]السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 101
[188]سبويه عمرو بن عثمان بن قنبر،الكتاب ،تحقيق:عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة،الطبعة الثالثة:1408ه-1988م؛ ج :1 ،ص :182
[189]السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 106.
[190]المصدر السّابق ؛ ص : 107.

مقابلة النّص عن العرب وهو لا يجوز فإنّه قد ورد النّص عنهم في أبيات تركوا فيها صرف المنصرف للضّرورة ".[191]

وجواز صرف المنصرف مذهب الكوفيين محتجين له بالسّماع ،ومن قوادحها أيضا عدم التّأثير وذلك بأنّ يكون الوصف الموجود في الفرع والأصل لا مناسبة فيه ،ومنها أيضا المنع للعلّة فهو من مبطلاتها فإذا احتجّ البصريّ بأنّ "المضارع ارتفع لقيامه مقام الاسم وهو فاعل معنويّ فأشبه الابتداء في الاسم المبتدأ أو الابتداء يوجب الرّفع فكذلك ما أشبهه فيقول له الكوفيّ :لا نسلّم أن الابتداء يوجب الرّفع في الاسم المبتدأ ".[192]

أسقط الكوفي علّة البصريّ في رفع المبتدأ بالابتداء فلا وجه للاحتجاج بها عند الكوفيين ،هذه بعض الأحكام المتعلّقة بالعلّة وتعتبر أهمّ ركن في القياس لأنّ الحكم ينشأ عنها.

4 –الحكم :

يقاس على الحكم الثّابت استعماله ،وعلى الحكم الثابت بالقياس أو الاستنباط من ذلك اسم الفاعل على قوّة تحمّله للضمير لم يعط ذلك لأنّ الضمير لا يتحمّله إلّا الفعل فمن باب أولى أن تتحمّل الصفة المشبّهة باسم الفاعل للضمير نحو قولنا :زيدٌ هندٌ شديد عليها هو إذا أجرينا شديدا خبرا عن هند ،واختلف في الحكم هل يثبت بالنصّ أم بالعلّة ؟ وذهب الأكثر إلى ثبوته بالعلّة لما يقتضيه مفهوم القياس ،واختلفوا في القياس على الأصل الذي هو فرع عن أصل آخر كما اختلفوا في الأصل المختلف في حكمه ،فالجواب عن الأوّل هو من قال بمنعه رأى أنّه فرع لغيره فكيف يمكن اعتباره أصلا ،وقد أجاب السيوطي عن ذلك بقوله ":يجوز أن يكون فرع لشيء أصلا لشيء آخر فإنّ اسم الفاعل فرع على الفعل في العمل وأصل للصّفة المشبّهة وكذلك (لات) فرع على (لا) و(لا) فرع على (ليس) ولا تناقض في ذلك لاختلاف الجهة".[193]

[191] السّابق ؛ ص : 92
[192] المصدر نفسه ؛ ص : 95
[193] نفسه ، ص : 69.

ومن أمثلة القياس على الأصل المختلف فيه "أن تستدلّ على أنّ (إلّا) تنصب المستثنى فتقول (إلاّ) حرف قام مقام فعل يعمل النصب فوجب أن يعمل النّصب كـ (يَا) في النّداء فإنّ (يَا) في النّداء مختلف فيه فمنهم من قال :إنّه العامل ،ومنهم من قال فعل مقدّر ".[194]

نلاحظ أنّ قياس إلاّ (الفرع) على (يَا) في النّداء وهو (الأصل) لا يكون صحيحا إلاّ باعتبارنا إعمال حرف النّداء النصب، وهذا القياس باطل عند من يرى أنّ العامل هو الفعل المقدّر كما عند البصريين.

أقسام القياس:

قسّمه ابن الأنباري إلى ثلاثة أقسام هي: قياس العلّة ،وقياس الشّبه ،وقياس الطّرد.

1-قياس العلّة:وهو"أن يحمل الفرع على الأصل بالعلّة الّتي علّق عليها الحكم في الأصل".[195]

ثبوت العلّة في الفرع والأصل يعطيه حكم الأصل،فعلّة رفع ما لم يسمّ فاعله الإسناد،وهو متحقّق في الفاعل فنعطيه الرّفع مثله ،من أمثلته أيضا تمسّك من منع تقديم خبر ليس قياسا لها على عسى والعلّة الجامعة بينهما عدم تصرّف الفعليين ،إذا كانت العلّة عند الفقهاء تدور مع معلولها وجودا وعدما فإنّها في النحو لا تنقضها الشواذّ فهي"لا تورد نقضا على القواعد المطّردة ألا ترى أنّ الأصل في كلّ وَاوٍ تحرّكت وانفتح ما قبلها أن تقلب أَلِفًا نحو(باب ودار) والأصل فيهما (بَوَب ودور) فلمّا تحرّكت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فلا يجوز أن يورد (القود) والحوكة جمع حائك نقضا لشذوذه في بابه"[196]

فلو كانت علّة النّحاة شبيهة بعلّة الفقهاء لانخرمت العلّة ولم تنقضها الشّواذّ.

[194]التواتي بن التواتي،محاضرات في أصول النحو ؛ ص : 237.
[195]السيوطي ، الإقتراح في علم أصول النحو ؛ ؛ ص :21
[196]محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص :22

2-قياس الشّبه:هذا القياس معتمد كثيرا فهو قائم على المشابهة بين المقيس والمقيس عليه في اللّفظ وهو "أن يحمل الفرع على الأصل بضرب من الشّبه غير العلّة الّتي علّق عليها الحكم في الأصل".[197]

يمثّل النّحاة على ذلك بترخيم المركّب المزجي وذلك بحذف الجزء الثّاني منه قياسا على ترخيم المؤنّث بحذف تاء التأنيث فالتّشابه حاصل بينهما من حيث اللّفظ ،وقد يكون منقبيل المعنى وذلك كحمل أسماء الأفعال في البناء على الأفعال،مثل (عليك وأمامك) معانيهما (إلزم،تقدّم) ،وحكم هذا القياس"صحيح يجوز التمثّل به في أوجه الوجهين كقياس العلّة لأنّ قياس العلّة يوجب غلبة الظنّ وكذلك قياس الشّبه ولأنّ مشابهة الفرع للأصل تقتضي أن يكون حكمه مثل حكمه".[198]

تقدّم معنا أنّ الشّبه مسلك من مسالك العلّة المعتبرة فإذا وجود بين الفرع والأصل أعطي حكمه.

3-قياس الطّرد:يعرّف هذا النّوع بأنّه :"هو الذي يوجد معه الحكم وتفقد الإخالة (المناسبة) في العلّة واختلفوا في كونه حجّة فذهب قوم إلى أنّه ليس حجّة لأنّ مجرّد الطّرد لا يوجب غلبة الظنّ ألا ترى لو أنّك علّلت بناء (ليس) في عدم التّصرف لاطّراد البناء في كلّ فعل غير متصرّف فلمّا كان ذلك الطّرد لا يغلب على الظنّ أنّ بناء (ليس) لعدم التّصرف بل نعلم يقينا أنّ ليس إنّما بني لأنّ الأصل في الأفعال البناء ...وإذا أثبت بطلان هذه العلّة مع اطّرادها علم أنّ مجرّد الطّرد لا يكتفي به فلا بدّ من إخالة أو شبه".[199]

المقصود بالإخالة العلّة حيث يكون فيها الوصف راجحا فهي أقوى ثمّ يليها في المرتبة الشبه فالاطّراد.وضع النّحاة طرائق ومناهج في تعاملهم مع ما يخالف المطّرد من كلام العرب نشير إليها كما يلي:

1) الضّرورة الشّعرية:هي مجموعة المستثنيات الّتي أبيحت للشّاعر نظرا لما يتطلّبه الشّعر ،وهو معذور في استعمالها غير مؤاخذ عليها ،قال سبويه في شأن تلك الضّرورات ":اعلم أنّه يجوز في الشّعر ما لا

[197] المصدر السّابق ؛ ص : 22.
[198] السّابق ؛ ص : 22.
[199] المصدر نفسه ؛ ص : 23.

يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف يشبهونه بما ينصرف من الأسماء لأنّها أسماء كما أنّها أسماء وحذف ما لا يحذف يشبّهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا".[200]

ومن جملة الأمثلة الّتي ساقها في الكتاب بيانه لصرف ما لا ينصرف في النّداء كقول الشّاعر:

سَلَامُ اللَّهِ يَا مَطَرٌ عَلَيْهَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ يَا مَطَرُ السَّلَامُ.

وحذف ما لا يحذف كقول الشاعر : قَوَاطِنَا مَكَّةَ مِنْ ورْقِ الحَمِى (أي الحمام).

والتّقديم والتأخير قال الشاعر :صَدَدْتَ فَأَطْوَلْتَ الصُّدَودَ وَقَلَّمَا وِصَالٌ عَلَى طُولِ الصُّدُودِ يَدُومُ.

وإنّما الكلام وقلّما يدوم وصال ،ومن الضّرورة أيضا زيادة المدّ مثل قول الفرزدق :

تَنْفِي يَدَاهَا الحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيَ الدَنَانِيرِ تَنقاد الصَّيَارِيفِ[201].

وفكّ المضعّف مثل : مَهْلًا أَعاذِلُ قَدْ جَربت مِنْ خُلُقِي إِنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضنِنُوا.

أصلها ضنّوا،إلى غير ذلك من الضّرورات الّتي أشار إليها سبويه[202].

انقسم النّحاة في استعمال الضّرورة إلى مذهبين :

الأوّل: قول جمهور النّحويين الضّرورة ما يقع في الشّعر خاصّة اضطرّ إليه الشّاعر أم لا،فعلى هذا يجوز استعمالها دون قيد، يقول ابنُ جنّي":باب هل يجوز لنا في الشّعر من الضّرورة ما جاز للعرب أو لا؟ سألت أبا عليّ رحمه الله عن هذا فقال :كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم فما أجازته الضّرورة لهم أجازته لنا وما حظرته عليهم حظرته علينا".[203]

[200] سبويه عمرو بن عثمان بن قنبر،الكتاب ؛ ج : 1 ؛ ص : 26.
[201] (الفرزدق)همام بن غالب،الديوان،شرح مجيد طرّاد ،دار الكتاب العربي ، لبنان ،(د.ط) 1427ه-2006م ،ص : 32.
[202] سبويه عمرو بن عثمان بن قنبر،الكتاب ؛ ج : 1 ؛ ص : 31.
[203] أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج:01 ؛ ص : 333.

يفهم منه أنّ الضّرورة صنفان حسنة بمعنى أنّ النّفس لا تستوحشه والذّوق لا يستثقله كقصر الممدود أو مدّ المقصور على مذهب الكوفيين وأبي الحسن الأخفش من البصريين ،ومثله إشباع الحركات الّتي هي الضمّة والفتحة والكسرة فتنشأ عنها الواو والألف والياء ،وما حضرته الضّرورة فاستعماله سيّء و محضور علينا ونطلق على هذا النّوع الضّرورة المستقبحة فمن قبيح الضّرورة تأنيث المذكّر لأنّه خروج أصل عن فرع .

المذهب الثاني:يمثّله ابن مالك وهي "ما يضطرّ إليه الشّاعر ولا يجد عنه مندوحة أي مخلصا ".[204]

الفرق بين مذهب ابن مالك والجمهور هو أنّ الضّرورة جائزة في الشّعر احتاج إليها الشّاعر أم لا بينما يراها ابن مالك على التّعيين وفقدان المخلص وردّ قوله بأنّه ما من ضرورة إلاّ ويمكن تغييرها وعلى هذا فلا ضرورة أصلا.

طريقة ابن مالك بالنّسبة للتّأويل يكن أن توصف بأنّها "وسط بين البصريين الذين يتكلّفون التّأويلات البعيدة ،وبين الكوفيين الذين يعتبرون القياس على الشاذّ ".[205]

كثيرا ما يشير ابن مالك في ألفيته لهذه النّظرة الوسطية حيث يقول في مواضع من الألفية:والفعل ذو التصريف نزرا سبقا، والعكس في شعر يقع.

2) نسبة الاستعمال إلى لهجة من اللّهجات:

تقسّم اللّغة إلى لغة فصيحة وأخرى غير فصيحة ،والأولى مقدّمة في الاستعمال "والنّظرية الشّائعة عن الفصحى أنّها خليط مختار من لهجات شرق الجزيرة وغربها أي لهجات نجد والحجاز وهي المنطقة المعروفة بسافلة العالية وعالية السافلة قاعدتها -عند أغلب النّحاة – قريش لأنّهم كانوا يسمعون لغات

[204] محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص: 34.
[205] السيوطي ، الإقتراح في علم أصول النحو ؛ ص : 116.

العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلّموا به ولهذا خلت لغتهم من مستبشع اللّغات ومستقبح الألفاظ".[206]

إنّ ما يميّز لغة قريش عن غيرها هو التّنقيح وتخيّرها لأفصح الكلمات وهذه الميزة لم تنقل عن لغة غيرها ولا يقال إنّ الشّذوذ في الكلمة أو الاستعمال يخرجها عن كونها لهجة مستعملة عند العرب فمن أسباب الاختلاف في القراءات القرآنية ما يتعلّق بلهجات العرب من ذلك ما ذكر أبو جعفر النّحاس من "أنّ يحي بن وثاب وروي عن الأعمش أيضا أنّهما قرآ قول الله تعالى ((قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ [سورة يوسف آية 11] بكسر التاء على لغة تميم ".[207]

وقرأ الجمهور بفتح التّاء على الفصيح المشتهر ، ومثله خبر إنّ وأخواتها يجب رفعه،وقد نقل عن جماعة من الرّواة النّصب لقول الشّاعر :يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا رَوَاجِعَا.

وردّ الشّاهد بأنّ الجمهور أوّله "بحذف الخبر أي أقبلن رواجعا "وبالتالي فلا وجه للاحتجاج".[208]

ذهب ابن جنّي (392هـ) إلى أنّ لغات العرب كلّها حجّة والنّاطق على قياس لغة منها مصيب غير مخطئ فقال":اعلم أنّ سعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم ألا ترى أنّ لغة التميميين في ترك إعمال (مَا) يقبلها القياس ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك لأنّ لكلّ واحد من القوميين ضربا من القياس يؤخذ به ويخلد إلى مثله وليس لك أن تردّ إحدى اللّغتين بصاحبتها لأنّها ليست أحقّ بذلك من رسيلتها لكن غاية مالك في ذلك أن تتخيّر إحداهما فتقويها على أختها وتعتقد أنّ أقوى القياسين أقبل لها وأشدّ أنسا بها فأمّا ردّ إحداهما بالأخرى فلا هذا حكم اللّغتين إذ كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين".[209]

---

[206] السيوطي ؛ المزهر ؛ ج : 1 ؛ ص : 221.
[207] ابن النحاس ؛ إعراب القرآن ؛ ص : 322.
[208] الخضري ،حاشية الخضري ابن عقيل ،تحقيق:يوسف الشيخ محمّد البقاعي،دار الفكر،لبنان،1415ه-1995م ؛ ج:01 ؛ ص :187.
[209] أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج:02 ؛ ص : 10

نلاحظ عدم ترجيح أحد الاستعمالين على الآخر ،لأنّ الشّواهد عليهما قويّة والنّقل يجوّز العمل بهما كما يؤخذ من كلام ابن جنّي أنّه عند اتّحاد اللّغتين في القياس أو الاستعمال ننظر إلى قوّة القياس وكثرة الاستعمال في تقديم أحدهما هذا منهج النّحاة في تأصيل القواعد ، أمّا إذا اختلفت اللّغتان فنرجّح بينهما بكثرة الاستعمال وقوّة القياس مع إقرارنا بأنّ المستعمل للمرجوح مصيب أيضا مثال ذلك "تقول قضاعة :المالُ لِه ومررت بَه لا يمكن قياس قولنا مررت بَك ولا المالُ لِك ".[210]

وإذا كان القياس لا يبحه ليس معناه أنّ استعماله خطأ وإن كنّا نرى في مثل لغة قضاعة استثقالا وانفرادها عن القبائل الأخرى ،أمّا ما يتعلّق بالجيّد والأجود فضابطه القوّة أو الضّعف في القياس والقلّة أو الكثرة في الاستعمال ويستثنى من هذا الضابط ما تبيحه الضّرورة "إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنّه مقبول منه غير منعيّ عليه وكذلك إن قال يقول على قياس من لغته كذا كذا ويقول على مذهب من قال كذا كذا وكيف تصرّفت الحال فالنّاطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ وإن كان غير ما جاء به خيرا منه".[211]

يرى ابن جنّي أنّ لغات العرب كلّها حجّة،جيّدها ما كثر استعماله وعضّده القياس ،أمّا توظيف الشّاعر لبعض ما يخالف القياس فهو لاعتماده على لغة مسموعة كما قرّره ابن جنّي فلا تعارض إذن بين منع ابن جنّي القياس في المطّرد والشّاذ على لغات حكاها الرّواة عن العرب أو نسبت إلى من ترضى عربيّته لأنّه باعتبار ما تقتضيه ضرورة المحافظة على القواعد النحوية "ولو أبيح القياس على ما روي من لغات العرب لاضطربت القواعد والأقيسة ،فقد نقل عن تميم نصب خبر ليت ولعلّ وكأنّ وإنّ ،ونقل عن بني الحارث بن كعب لزوم المثنّى الألف رفعا ونصبا وجرّا ،وقد نقل عن ربيعة الوقوف بالسّكون على الأسماء في حالة النّصب،ونسب إلى بني عديّ أنّهم ينصبون جمع المؤنّث بالفتحة وروي

[210] محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص: 39.
[211] أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، ج:02 ؛ ص : 12

رفع اسم كان وخبرها ونسب إلى بني عبس وبني أسد وبني قيس ،حكى اللّحياني أنّ بني صباح من بني ضبّة يجزمون بلن ،وحكى الكوفيون وأبو عبيدة أنّ بعض العرب يجزم بأن".[212]

فهذه السّماعات هي من قبيل الشواذّ تحفظ وتباح في ضرورة الشّعر خاصّة لرفع الحرج والإثم عن الشّاعر ،أمّا أن تستعمل بإطلاق فهذا ما يمنعه القياس لكي لا تنخرم القواعد الذي يؤدّي لفساد اللّغة .

3) تخطئة العربي :المشهور عن العرب أنّهم يخطئون في المعاني لا في الألفاظ فألسنتهم لا تطاوعهم على اللّحن ،وقد حسم الرّافعي هذه المسألة فقال ":نقطع بأنّ اللّحن لم يكن في الجاهلية البتّة وكلّ ما كان في بعض القبائل من خور الطّباع وانحراف الألسنة فإنّما هو لغات لا أكثر".[213]

وتقدّمه قول ابن جنّي أنّ اللّغات كلّها حجّة وإن اختلفت لأنّ كلّ ما تكلّمت به العرب هو من قبيل لغتها وإن تباينت أمّا إذا قصد الرافعي عصمتهم من الخطأ فهذا أمر لا نوافقه عليه لأنّ سبويه والفرّاء من النّحاة قالا بجواز وقوع الشّعراء المحتجّ بهم في الخطأ،وهو ما تبنّاه من النقاد القاضي الجرجاني حيث قال ":ودونك هذه الدّواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة لم تسلم من بيت أو أكثر لعائب القدح فيه إمّا في لفظه ونظمه ،أو ترتيبه وتقسيمه ،أو معناه أو إعرابه ؟".[214]

لم يقصر الجرجاني أخطاء القدماء في الإعراب فقط ولا يقصد بذلك التماس العذر للمتنبي لأنّه يقرّر حقيقة علمية مفادها عدم الاعتقاد بعصمة أحد[215] عن الخطأ ولو كانوا أهل الجاهلية فضلا عن غيرهم ممّن جاء بعدهم فهذا اعتقاد المتعصّبين للقديم،وساق الجرجاني شواهد احتجّ بها على قوله منها قول امرئ القيس :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ[216].

[212] محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص:40.
[213] مصطفى الرافعي ،تاريخ الأدب العربي ، ج :1 ،ص :93.
[214] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 4.
[215] ويستثنى من هذا القول النبيّ صلوات الله وسلامه عليه لأنّ الله عصمه من الخطأ بعد النبوّة قطعا وقبلها على أرجح الأقوال.
[216] امرؤ القيس ، الديوان ؛ ص : 132.رواية الديوان (فاليوم أُسْقَى..).

سكّن الفعل المضارع من غير موجب لذلك ،وكثيرا ما يحاول النّحاة إيجاد المخارج لأخطاء الشّعراء من ذلك قول زهير :

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى وَلَا سَابِقٍ شَيْئًا إِذَا كَانَ جَائِيَا.[217]

قال ابن هشام :إنّ عطف سابقٍ "بالخفض على توهّم دخول الباء في الخبر".[218]

هذا العطف من قبيل التوهّم ،ويكثر دخول الباء على خبر ليس ويقلّ في خبر كان ويستقبح ،وللبيت روايات أخرى لا وجه فيها للخطأ.

4) التّأويل :حقيقته صرف اللّفظ عن ظاهره وهو من مناهج العرب في تعاملها مع ما يخالف المطّرد،فما خرج عن القاعدة شاذّ يحفظ ولا يقاس عليه وعند تعارضه مع القياس يجب تأويله والتماس المخارج المناسبة له ،هذا ما يعرف بالتّخريج أو التّأويل وهو أولى من تخطئة الشاذّ وعدم اعتباره ،ومن أمثلة تخريج النّحاة وتأويلاتهم أنّ الأصل في خبر إنّ وأخواتها الرّفع يقول ابن مالك :

لِإِنَّ أَنَّ لَيْتَ لَكِنَّ لَعَلْ كَأَنَّ عَكْسُ مَا لِكَانَ مِنْ عَمَلْ

لكن نقل عن بعض العرب نصب اسم إنّ وخبرها ،وعند اصطدام النّحاة بهذه الشواذّ عدلوا إلى تأويلها حفاظا على قواعدهم حيث قالوا :إنّ خبر ليت محذوفا ورواجعا حال من ضميره ،ونقل سبويه هذا المثال وغيره وأشار لهما قائلا":أَلَا مَاءً بَارِدًا ،كأنّه قال أَلَا مَاءَ لنا باردًا وكأنّه قال :ليت لنا أيام الصبا وكأنّه قال :يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِبَا أَقْبَلَتْ رَوَاجِعُ ".[219]

ويمكن أن يقال إنّه أضاف الألف لإقامة الوزن فناسبها فتح ما قبلها،ومثله في الصّرف صيغة (فواعل) في جموع التكسير شاذّة في جمع فاعل لأنّه صفة لمذكّر عاقل كفارس وفوارس وهالك وهوالك قال الأشموني ":وتأوّل بعضهم ما ورد من ذلك على أنّه صفة لطوائف فيكون على القياس فيقدّر على

[217] زهير بن أبي سلمى ،الديوان ،أبو العبّاس ثعلب ، ص : 208. (صدر البيت في الديوان : وَلَا سَابِقِي شَيْءٌ إِذَا كَانَ جَائِيَا)
[218] ابن هشام ، مغني اللّبيب ،ص : 447.
[219] سبويه ، الكتاب ، ج : 02 ؛ ص : 142.

قولهم :هالك في الهوالك في الطّوائف الهوالك فيكون جمع (فاعلة) لا جمع(فاعل) قيل :وهو ممكن إن لم يقولوا رجال هوالك".[220]

إنّ ما يلفت الانتباه في تأويل هذه الشواذّ هو تكلّف النّحاة من أجل الحفاظ على قياسهم الذي جعلوا اللّغة خاضعة له، تغليبا لضابط المصلحة ودفعا للمفسدة.

5)اختلاف الرّوايات:من أسباب الخلاف بين البصريين والكوفيين قضيّة الشّواهد وبالخصوص طرق روايتها ،نجد الكوفيين يستدلون بشّاهد واحد في مسألة نحويّة أو لغوية بل قد يكون صدر بيت أو عجز ،نفس الشّاهد يستدلّ به البصريون برواية مغايرة ينقضون به رأي الكوفيين،وقد جمع ابن الأنباري كثيرا من هذه الاختلافات بين المدرستين في كتابه الشهير "الإنصاف في مسائل الخلاف"من الأمثلة التي ساقها على ما نقول ،هو أنّ الكوفيين يجيزون تقديم التّمييز إذا كان العامل فيه متصرّفا محتجّين بقول الشّاعر :

أَتَهْجُرُ سَلْمَى بِالْفِرَاقِ حَبِيبَهَا وَمَا كَانَ نَفْسًا بِالفِرَاقِ تَطيبُ.

ردّه نحاة البصرة وحكوا بأنّ روايته: وَمَا كَانَ نَفْسِي بِالْفِرَاقِ تَطِيبُ

ومن ذلك لا حجّة فيه".[221]

وللكوفيين شاهد آخر يعضّد ما ذهبوا إليه من جواز تقديم التّميز على عامله وهو قول الشّاعر:

ضَيَّعْتُ حَزْمِيَ فِي إِبْعادِي الأَمَلَا وَمَا ارْعَوَيْتُ وَشَيْبًا رَأْسِيَ اشْتَعَلَا.

إنّ اختلاف النّقل عن العرب تختلف معه الأحكام ،يحدّثنا سبويه أنّ البصريين لا يقولون في (مقول مقوول) ولا في (مصوغ مصووغ)"ولا نعلمهم أتمّوا في الواوات لأنّ الواوات أثقل عليهم من الياءات ومنها يفرّون إلى الياء فكرهوا اجتماعهما مع الضمّة ".[222]

[220] حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك،دار الفكر بيروت ،الطبعة الأولى ، 1419ه -1999م ، ج : 3 ؛ ص : 693.
[221] الأنباري ؛الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين ؛تحقيق :حسن ؛دار الكتب ،بيروت ؛الطبعة الأولى 1988؛ج : 2 0 ؛؛ ص : 284.

ويعلّل البصريون منع الإتمام في الواوات بالثّقل ولعدم ثبوته،بينما قال الكوفيون بثبوت سماعه"وحكي عن الكسائي مصووغ وأجاز فيه كله أن يأتي على الأصل (أي الإتمام)".[223]

ما ثبت بالسّماع يحتجّ به ولو كان شاذّا عند الكوفيين، والبصريون لا يقيسون إلاّ على الكثير الغالب وهذه المسألة أحد أهمّ ما يفرّق بين المدرستين من حيث المنهج، وقد كان محمّد بن يزيد المبرّد يقول":إذا جعلت النوادر والشّواذ غرضك واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زلاّتك".[224]

ميزة هذه الشواذّ أنّها غير مطّردة، وإعمالها يقتضي فساد القواعد، قد يستدلّ نحاة الكوفة بجزء من بيت مجهول قائله على صحّة مذهبهم في مسألة مَا كاستدلالهم على جواز دخول اللاّم في خبر لكنّ بقول الشاعر: وَلَكِنَّنِي مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ.

يعلّق ابن الأنباري على هذا الشاهد قائلا ":هو شاذّ لا يؤخذ به لقلّته وشذوذه ولهذا لا يعرف له نظير في كلام العرب وأشعارهم ولو كان قياسا مطّردا لكان ينبغي أن يكثر في كلامهم وأشعارهم كما جاء في خبر إنّ ".[225]

نلاحظ أنّ مسألة الشّاهد في القياس النّحوي يتنازعه عاملان،إفراط البصريين وتفريط الكوفيين.

6)الشّعر الذي جهل قائله :جوّزه النّحاة بشرط أن يرويه العدل الثّقة أو ينسب إلى رجل مشهور بالضّبط والإتقان ،وقد اعتمد سبويه على أبيات مجهولة لا يعرف قائلها وتلقّوها بالتّسليم ولم يطعن فيها أحد - فيما نعلم - ،قال الجرمي ":نظرت في كتاب سبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا فأمّا الألف فعرفت قائليها فأثبتها ،وأمّا الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها ".[226]

وقد تعقّب العلماء قول الجرمي فوجدوا شواهد سبويه كذلك ،هذه الأبيات الغير منسوبة نقلت عن طريق الرّواة الثّقاة وهي أشبه برواية الثّقاة للحديث النّبوي بالمعنى فكلاهما اعتمد على السّماع فينبغي

[222]سبويه ، الكتاب ، ج : 04 ؛ ص :349.
[223]محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية ؛ ص: 51.
[224]السيوطي ؛ الأشباه والنظائر ؛ ج :3 ؛ ص : 43.
[225]ابن الأنباري ؛ الانصاف في مسائل الخلاف ؛ ج : ؛ ص : 131.
[226]البغدادي ؛ خزانة الأدب ؛ ج :1 ؛ ص : 16

أن يتنبّه لذلك ،وقد ذكر صاحب الوساطة أنّ من العلماء من لا يعتبر الشّاهد المجهول مبيّنا سبب ذلك بأنّه"خوف أن يكون لمولّد أو من لا يوثق بفصاحته ولهذا نبّهوا إلى الحاجة إلى معرفة أسماء شعراء العرب وطبقاتهم ".[227]

ويرجّح القول بالمنع إذا قوي الظنّ ودلّت القرائن على وضعه فيسقط الاحتجاج به ،كإسقاط ابن الأنباري حجّة الكوفيين في جواز تأكيد النّكرة مستندين على بيت مجهول :

قَدْ صرّت البكرة يَوْمًا أَجْمَعَا

قال ابن الأنباري ":هذا البيت مجهول لا يعرف قائله فلا يجوز الاحتجاج به".[228]

فإذا كان البيت مجهولا وتمالأت القرائن على وضعه سقط الاحتجاج به فالشّاهد عند العلماء هو مدار تأسيس القواعد وضبط الأصول .

يمثّل القياس في النّحو غاية ما وصل إليه العقل العربيّ من رؤية ثاقبة وعمل جبّار سعى النّحاة من خلاله لوضع سياج محكم يحفظ العربية من اضطراب الاستعمال وتداخل اللّهجات لتبقى اللّغة العربية لغة القرآن أوّلا لأنّه صاحب الفضل عليها فقد تحقّق وعده الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[سورة الحجر آية 9]،ثمّ تتجلّى غايتها الثّانية كونها الرّوح الذي يحلّ جسد الأمّة الإسلامية فتحافظ على بقاءه وتضمن سلامته ،أمّا هدفها الثّالث فهي اللّسان المتواصل مع بقيّة الأجناس لما تمتاز به من مسايرتها للبيئات المختلفة ومتطلّباتها وهذا من أسرار بقاءها لذا قام علماء اللّغة الأوائل بجمع مادّتها وضبطوا أساليبها ونبّهوا على خصائصها ومميّزاتها لحفظ أصالتها ومنع تغيّرها وكان القياس هو قلبها النّابض الذي حافظ على حياتها وربط فروعها بأصولها ،كما كان أيضا سلاح المجتهد في استنباط أحكام الشّريعة الإسلامية وإلحاق المسائل الغير منصوص عليها بالمنصوص عليه ومع كلّ هذه فالقياس هو آلة الاجتهاد في المسائل التي يمكن فيها ربط الفروع بالأصول .

[227] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص : 18.
[228] ابن الأنباري ؛ الإنصاف في مسائل الخلاف ؛ ج : ؛ ص : 267.

وإذا أراد القاضي الحكم في النازلة الغير منصوص عليها فيستعين بالقياس ليجعل من اجتهاده طريقا علميا تتّفق عليه العقول السّليمة ،وهذا بالفعل ما قام به القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه .

إنّ مجال مقايستنا هو النقد الأدبي في القرن الرّابع الهجري ،فكما بيّنا قياس الأشباه والنّظائر وذكرنا أنواع القياس الثلاثة (القياس المنطقي والأصولي والنّحوي) سنحاول في الفصل الموالي أن نعطي نظرة عامّة عن أهمّ خصائص النقد في القرن الرّابع ونؤكّد على رؤية الجرجاني من خلال كتابه الوساطة فنقوم بذكر ملامح المؤلِّف والمؤلَّف ونوسّع قليلا من دائرة الموضوع حيث نذكر موقف الآمدي من خصومة الطّائيين ونشير أيضا للخصومة بين القدماء والمحدثين وبالأخصّ ما دار حول المتنبي من خصومة حادّة وشديدة أثرت السّاحة النقدية وأمدّتها بالكثير من الأفكار والمعطيات.

المبحث الأوّل :ملامح النقد في القرن الرّابع الهجري وتجليّات خصومة المتنبي.

يمثّل القرن الرّابع المرحلة الثّانية من مراحل الخلافة العبّاسية ابتداء من حكم المتوكّل سنة (232هـ) إلى ما قبل دخول السلاجقة بغداد سنة (447هـ).

ويمثّل هذا القرن العصر الذّهبيّ الذي تطوّرت فيه العلوم وبلغت فيه رتبة النّضج والكمال ،ذلك لأنّ الصّراع السّياسي المتمثّل في تنافس الخلفاء والأمراء ألقى بظلاله على المجال العلمي ،فكثيرا ما يكون ضعف الجوّ السّياسي دافعا على النّهوض بالمستوى الثّقافي أو غيره من المستويات الأخرى حيث يحاول كلّ خليفة أو وزير أن يثبت وجود دولته ويسعى لتشيدها وبنائها بالعلم الذي يحفظ سلامتها وأمنها ويحافظ على استمرارها وبقائها كما كان الحال في بلاد الأندلس.

تأسّست دولة الحمدانيين بالشّام ،والفاطمية بمصر ،وغيرهما من الدّول والإمارات التي أعطت نظرة سلبيّة على الحالة السّياسيّة في ذلك القرن فلقّب بعصر الانحطاط السّياسي أو عصر الدويلات والإمارات.

أمّا الحالة الاجتماعية فقد شكّل المسلمون السواد الأعظم ،متفرّقين في المذاهب منهم السنّيون وهم بكثرة ،ويليهم الشّيعة ،وكان للأشراف (آل النبيّ عليه السّلام)مكانة خاصّة من التّقدير والاحترام وبلغ العلماء منزلتهم اللّائقة من التّعظيم والتبجيل لأنّ تنافس الأمراء في استمالتهم وجلبهم لحضرتهم جعل للعلماء قداسة كبيرة في ذلك العصر ،فتطوّرت العلوم وظهر رموزه الأكفاء في مختلف الفروع العلمية ،وانقسم المجتمع إلى طبقات متنوّعة مختلفة في المستوى المعيشي ،وانتعش المجتمع في جميع مجالات الحياة ،وكثرت مجالس اللّهو والخمر ،كما فشي الانحلال الخلقي بفعل اختلاط العرب مع غيرهم من الأجناس الفارسيّة والتركية والزّنجية وغير ذلك ،وتوسّع دعاة التنسّك والتصوّف آنذاك .

اشتغل النّاس بالتّجارة والصّناعة والفلاحة ،وكانت مراكز تجارية مشهورة مثل مصر وحلب وبغداد وبلاد ما وراء النّهريين ،فقد أدّى تنافس الدويلات فيما بينها إلى إثراء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في كثير من الأحيان .

أمّا في الجانب الثّقافي والعلمي فكثرت المؤلّفات والكتب العلميّة في مختلف الفنون ففي علم اللّغة ألّف الجوهري (392هـ) "معجم الصّحاح" وألّف ابن فارس (392هـ)كتاب "المقاييس"وابن جنّي

(392هـ) "الخائص"وغيرها من المصنّفات ،وفي التّاريخ ألّف ابن جرير الطبري(ت310هـ) "تاريخ الرّسل والملوك"وكتابه الحافل "جامع بيان التّفسير"وغير ذلك من الكتب المهمّة في مجالات الطبّ والجغرافيا والفلسفة والمجالات الأخرى .

نوسّع الحديث في الجانب العلمي خصوصا مجال الأدب والنقد ،ونتحدّث عن أهمّ الأغراض الشّعرية والقضايا النقدية التي نراها ذات صلّة بموضوعنا.

الحالة الأدبية والنقدية في القرن الرّابع الهجري.

تنوعّت الاتّجاهات الفنيّة في العصر العبّاسي الثّاني ،فمدرسة عمود الشّعر وصفاء الديباجة التي مثّلها البحتري ،وابن المعتزّ (296هـ) وبشار بن برد مثّلا الاتّجاه البديعي (الصورة الفنيّة الشعرية) وهناك إجماع بين الأدباء على أنّ "بشار بن برد أوّل من ذهب مذهب الابتداع هذا لكنّ أحدا لم يعب مبتدعاته وكلّ من سمّوا بشعراء البديع بعد ذلك إنّما كانوا يقتفون أثره ولكنّهم لم يلزموا حدّ الاعتدال الذي التزمه فاكتسب شعره روعة خاصّة ".[1]

لم يغرم بالبديع كما أغرم به أبو تمام في حين مثّل ابن الرّومي (284هـ) الاتّجاه العقلي ثمّ مثّل الاتّجاه الفنّي كلّ من أبي تمام والمتنبي.

امتاز هذا العصر بالتّجديد في الموضوعات التّقليدية، واستمدّ الشّعراء من بيئتهم وعصرهم معاني مرتبطة به وصورا معبّرة عنه، وظهر شعر التصوّف والزهد الذي كان أحد رموزه الإمام الحلاّج (ت309هـ)، كما عني الشّعر بالفضائل والأخلاق، وشاع وصف الحدائق والقصور والجواري والغلمان.

أمّا بالنسبة للتّجديد في الموضوعات فشاع الشّعر التعليمي ،والشّعر الذي يعبّر عن الذات كشعر أبي الطيّب المتنبي الذي جاء في صورة صادقة وعزيمة قويّة مثل قوله :

أَنَا الذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ.[2]

[1] عزّ الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللّغوية في التراث العربي، دار المسيرة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1424ه-2003م ،ص : 405.
[2] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ،دار الكتاب العربي ،لبنان،(د،ط)،1407ه-1986،ج: 4 ص: 83.

وامتلأ فكر الشّاعر بالمنطق وعلم الكلام والتصوّف ،وأصبحت له إسهامات في جميع المجالات السّياسيّة والفكريّة والإنسانيّة كما هو الحال عند أبي تمام والمتنبي ،وامتاز التجديد في هذا العصر في عمود الشّعر (نهج القصيدة) واستنجد الشّاعر بألفاظ عصره ومعاني خاصّة ذات دلالات مرتبطة بالواقع البيئي مراعيا في ذلك مشاعر المتلقّين وأذواقهم.

يقول طه إبراهيم مبيّنا الحالة الأدبية والنقدية في هذا القرن ":إذا صحّ أنّ الشّعر العربيّ في المشرق قد بلغ أوجّه في القرن الرّابع ،وإنّ كلّ عناصره الفنيّة قديمها ومحدثها قد تحدّد واتّضح في العهد ما بين أبي تمام وأبي الطيّب المتنبي ،فصحيح كذلك أنّ نقد الشّعر في المشرق وصل إلى ذروته في هذا القرن ،وأنّ أكثر ما يمكن أن يقال فيه قد قيل ".[3]

نلاحظ أنّ النقد ينشط عندما يصيب الأعمال الأدبيّة تجديدا في موضوعاتها أو في طريقة تناولها أي منهج القصيدة ،ولم يسلم الشّعر والنقد كغيرهما من العلوم من تأثير تلك الأجناس المكونّة للمجتمع في القرن الرّابع فألقت بظلالها على مجاليْ الشّعر والنقد وأعملت ثقافتها الموروثة في تعاملها وتقويمها.

من أجل ذلك يمكن اعتبار القرن الرّابع حلبة الصّراع بين الثقافة العربيّة والمعارف الغربيّة ،ومن ثمّ انصهرت تلك الثّقافات المتنوّعة كما كان في ذلك القرن روّاد بارزون لهذه الثّقافة أو تلك "لذلك اتّجهت الكتابة إلى الأخذ بمناهج وأساليب غريبة عن الأسلوب العربيّ التقليدي سواء في هذا البديع الثقيل أو في المعاني الفلسفيّة الدقيقة وحدث هذا بالنسبة للشّعر ،وكان طبيعيّا أن يشجّع أنصار كلّ مذهب من يمثّلهم من الكتّاب والشّعراء ،وقد ظهر الاتّجاه الغريب أوضح في شعر أبي تمام منه في شعر البحتري ،بينما احتفظ البحتري لشعره بالرّوح العربيّ".[4]

قبل أن نتحدّث عن قضيّة القدم والحداثة في القرن الرّابع وما أبرزته من محاور أثْرت النقد القديم نشير إلى أثر الترجمة التي نقلت آراء المجتمع اليوناني إلى الفكر العربي والتي اعتبرها إحسان عبّاس أحد المعالم البارزة في نقد القرن الرّابع حيث قال ":يمكن أن يدرس معظم النقد في القرن الرّابع في ثلاثة فصول

[3]طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،ص :135.

[4]محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، الطّبعة الثّالثة:(د،ت)،ص :207.

هي :الصّراع النقدي حول أبي تمام ،والنقد في علاقته بالثقافة اليونانية ،ومعركة النقد التي دارت حول المتنبي".[5]

فمنذ أن قام أبو بشر متى بن يونس القنائي (ت328هـ) بترجمة كتاب الشّعر لأرسطو من السرياني إلى العربيّ وما أعقبه من النّقل الجديد لتلميذه يحيي بن عديّ (ت364هـ)بالإضافة إلى وجود فلاسفة كبار كأبي نصر الفارابي(ت339هـ) وأبي حيّان التّوحيدي الذي يمكن وصف عمله في ثلاثة مظاهر هي ":إرسال الأحكام الموجزة حول الشّعراء والكتّاب المعاصرين ،وتقرير أصول البلاغة نظريّا وتطبيقها عمليّا ،واستثارة المعاصرين إلى الإجابة عمّا يتعلّق بالمشكلات النقدية ".[6]

وتلك الأعمال كانت موجّهة بنظرة منطقية معتمدة على التّقسيمات كالّتي اعتمدها قدامة بن جعفر وتوغّل بها في مجال النقد من خلال كتابه "نقد الشّعر" ناسيا قيمة الذّوق والحاسّة الفنيّة فيه ما دفع الآمدي إلى الردّ عليه وتبيين غلطه في كثير من القضايا المرتبطة بالنقد .

من جملة النقاد الذين رفضوا طرح قدامة المنطقي القاضي الجرجاني الذي ردّ هذا المنهج قائلا "إنّ الشّعر لا يحبّب إلى النّفوس بالنّظر والجدل ،وإنّما يعطفها عليه القبول والطلاوة ،وقد يكون الشّيء محكما ولا يكون مقبولا ،ولكلّ صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ،ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ،وكثير من شؤون النقد تمتحن بالطّبع لا بالفكر".[7]

هذا ما جعل الجرجاني يؤكّد على أهميّة الذّوق وضرورة إخضاع النّصوص لتقويمه ،لكنّنا في الأخير نعتبر أنّ ما قام به قدامة عملا جبّارا وفاعلا في النقد ،لأنّه أسهم في تحديد كثير من المصطلحات النقدية والبلاغية.

كما لا ننس فكرة الإعجاز التي اهتمّ بها علماء هذا القرن ،وما أولوه لها من الاهتمام في دراساتهم اللّغوية وإفرادها بكتب مستقلّة مثل "النكت في إعجاز القرآن "لعليّ بن عيسى الرّماني (ت384هـ)

[5] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب:نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، بيروت، الطبعة الأولى:2006م، ص : 127.
[6] المصدر السّابق ، ص : 299.
[7] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 97.

فقد أجمل وجوه إعجاز القرآن وهي عنده "ترك المعارضة مع توفّر الدواعي وشدّة الحاجة ،والتحدّي للكافّة والصرفة والبلاغة والأخبار الصادقة من الأمور المستقبلة ،ونقض العادة وقياسه بكلّ معجزة".[8]

نلاحظ أثر الفكر الاعتزالي في قوله بالصّرفة التي دان بها النّظام قبله ،وألّف في هذا المجال أيضا أبو سليمان الخطّابي (388هـ) كتابه "بيان إعجاز القرآن" ،ثمّ ظهر أبو بكر الباقلاني بكتابه "إعجاز القرآن" حيث قام بتأليفه على أصول أهل السنّة من المتكلّمين.

عرفت قضيّة القدم والحداثة المرتبطة بالنقد في القرن الرّابع خصومات نقدية لم يعد يمثّلها كبار النّحاة واللّغويين كأبي بكر الأنباري على كثرة حفظه وتضلعه في اللّغة وروايته للشّعر فلم يكن له أثر ظاهر في النقد ،ومثل أبي القاسم الزّجاجي صاحب كتاب الجمل وأحمد بن فارس فهؤلاء لم يتدخّلوا في الخصومة بين الشّعراء إلاّ بعض الإشارة الخاطفة التي لا ترق إلى المستوى المطلوب كما هو الحال عند بعض النّحاة أمثال أبي عليّ الفارسيّ وتلميذه ابن جنّي الذي كان معجبا بأبي الطيّب منافحا عنه وفي المقابل ابن خالويه الذي كان خصما للمتنبي ،وبذلك خلا ميدان النقد للأدباء "فهم الذين عنوا بدراسة الشّعر وتقدير رجاله ،وتحاوروا فيه وتخاصموا ،وهم يمتازون عن أدباء القرن الماضي بأنّ غورهم أبعد ،ونظرتهم أعمق ،وأفقهم أفسح ،وبأنّهم حلّلوا الظّواهر الأدبية وعلّلوها وأخرجوا كلّ شيء إلى أصل وسبب ،هم أدباء علماء ذوقهم عربيّ سليم ،وثقافتهم عربيّة غزيرة".[9]

نمثّل على النقاد الأدباء بأبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني والصاحب بن عباد وابن العميد وغيرهم كثير.

ومن أشهر المؤلّفات النقدية في هذا القرنّ "عيار الشّعر" لابن طباطبا العلوي ،و"الموازنة" للآمدي و"الوساطة" للجرجاني ،وأشهر مسائل النقد انتشارا في القرن الرّابع معظلة السّرقات الشّعرية وكثرة المآخذ على الشّعراء وتلمّس أخطائهم وتتبّعها بدافع الأهواء أو ما تفرضه متطلّبات السّياسية والأحكام الذّاتية ،هذه المعظلة التي عانى منها المتنبي كثيرا ،حيث سعى خصومه لطمس محاسنه والتّشهير بمساوئه ،وقبل أن نحطّ الرّحال عند هذه الخصومة بالذّات،نقف وقفة مختصرة مع خصومة الطّائيين البحتري وأبي تمام ونبيّن موقف الموازنة منهما.

[8] (الرّماني)عليّ بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)،دار المعارف ،مصر ،(د،ط) ؛(د،ت)،ص :69.

[9] طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،ص : 139.

موقف الآمدي من خلال كتابه الموازنة:

نشأت هذه الخصومة في بدايتها حول أبي تمام الذي لفت أنظار النقاد بمذهبه الشعري الجديد ، وكان البحتري آنذاك شابا يأخذ فنّ الشعر عن أبي تمام ،يقول البحتري :"كنت في حداثتي أروم الشّعر وكنت أرجع فيه إلى طبعي ،ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ،ووجوه اقتضابه حتى قصدت أبا تمام وانقطعت فيه إليه ،واتّكلت في تعريفه عليه ".[10]

يقرّ البحتري بأستاذية أبي تمام ،فقد وجد فيه صفة المعلّم الخبير بصناعة الشعر وضروبه ، وبعد أن تطوّرت ملكته الشّعرية فضّل البحتري طريقة القدماء والتزم مذهبهم ، فأنصار القديم وجدوا ضالّتهم في البحتري ،وجنح أصحاب المعاني والبديع لشعر أبي تمام الذي كان مليئا بالمعاني الفلسفية فوجدوا فيه كمّا هائلا من الثقافات المختلفة والمعاني الدقيقة التي لا يقف على كنهها إلاّ أصحاب العقول الفلسفية بالإضافة إلى جمال الصياغة وحسن التصوير ،هذا التباين بين طريقة أبي تمام والبحتري جعل النقاد يتنافسون في التأليف حول هذه الخصومة ،فكتب أبو بكر الصولي (ت335هـ) كتابه (أخبار أبي تمام) أشاد فيه بفضل أبي تمام وبراعته ،وكتب قبله ابنُ المعتز رسالة في(محاسن أبي تمام ومساوئه) وكتب ابنُ عمار(ت219هـ) في أخطاء أبي تمام ،وألّف ابنُ أبي طاهر (ت280هـ) كتابا عن سرقات أبي تمام ،ثمّ كتب أبو الضياء بشر بن تميم عن سرقات البحتري .

يأتي بعد ذلك الناقد الكبير الآمدي ليكتب لنا كتابه القيّم (الموازنة بين الطّائيين) مشاركا بذلك في ميدان هذه الخصومة معتمدا على أسس النّقد البنّاء "يعدّ كتاب الموازنة نقطة البدء المهمّة في نشأة النقد المنهجي التحليلي وخروج الذوق من حيّز العموم إلى المنهجية الواضحة في التطبيق والحكم ".[11]

إنّ الدّراسة النقدية التي قام بها الآمدي أخرجت النّقد من واقع الذاتية إلى فضاء النقد المعلّل ،إنّ "الموازنة بين الطائيين " لمؤلّفه الحسن بن بشر الآمدي (ت371هـ) يعتبر من أمّهات كتب النقد ،لأنّ صاحب الكتاب الآمدي "كان حسنَ الفهم ،جيّدَ الدراية والرواية ،سريعَ الإدراك ...وله شعر حسن واتساع تام في الأدب وحفظ وكتب مصنفة ".[12]

---

[10] ابراهيم الحصري ،زهر الآداب ،تحقيق :زكي مبارك ومحيي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ،بيروت،لبنان ، الطبعة الرّابعة ، (د،ت)؛ج:1 ص:152.

[11] نجوى صابر،الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري ،ص:184.

[12] ياقوت بن عبد الله الحموي ،معجم البلدان (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،الطّبعة الأولى ،(د،ت)، ج:3،ص : 199.

ظهر كتاب (الموازنة بين الطائيين) زمن اشتداد الصّراع حول أبي تمّام والبحتري أي أواخر القرن الثّالث وبداية القرن الرابع الهجري ،و قد اطّلع الآمدي على جميع ما كُتب حول هذه الخصومة ليلخّص لنا أهمّ تلك الآراء التي تضمنتها معظم المؤلفات التي عالجت ذلك الموضوع قبله ،مع العلم أنّ الآمدي جمع مقوّمات الناقد المميّز يبدوا ذلك واضحا من خلال مؤلّفاته القيّمة في النقد والأدب "منها كتاب (المختلف والمؤتلف) في أسماء الشّعراء ،وكتاب (نثر المنظوم)،وكتاب (ما في عيار الشّعر لابن طباطبا من الخطأ) ،وكتاب (تبيين غلط قدامه بن جعفر في كتاب نقد الشعر)، وكتاب (معاني شعر البحتري)".[13]

تدلّ هذه المؤلّفات على مكانة مؤلّفها وسعة اطّلاعه في مجال النقد والأدب وممارسته الطّويلة لهما وحرصه الشديد على التحصيل قبل الشرح والتحليل.

وقف الآمدي أوّلا على ذكر احتجاج أنصار أبي تمام والبحتري فأثبت أصحاب أبي تمام لشاعرهم فضل السّبق وبراعة المعاني وعمق مأخذها بينما رأى أنصار البحتري في صاحبهم سهولة طبعه وحلاوة لفظه ووضوح معانيه ،بعد ذلك انتقل لبيان محاسن ومساوئِ الشّاعريين فقال":وأنا أبتدئ بذكر مساوئ الشّاعريين لأختتم بذكر محاسنهما ،وأذكر طرفا من سرقات أبي تمّام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ، ومساوئ البحتري فيما أخذه من أبي تمّام ،وغير ذلك من غلط في بعض معانيه ثم أوازن بين شعريهما ...وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من التّشبيه وبابا للأمثال ".[14]

من خلال هذا النّص يمكننا تقسيم طريقة الآمدي في الموازنة إلى خمسة أقسام ،الأوّل ذكر فيه حجج الفريقين وفي الثّاني أشار إلى أخطاء أبي تمام في اللّفظ والمعنى والأسلوب ،وفي القسم الثّالث ذكر عيوب البديع والاستعارة وأخطاء الوزن والقافية ،أمّا الرّابع فخصّصه لعيوب شعر البحتري ،وختم القسم الخامس بالموازنة بين الشّاعريين في المعاني الّتي اتّفقت موضوعاتها.

يرى الآمدي أنّ أخطاء اللّفظ والنّحو أهون من أخطاء المعاني "فأمّا ما بوبّه النّحويون من عيوب الشّعر في الإقواء والأكفاء والسناد وغير ذلك مما هو عيب في اللّفظ دون المعنى فليست بنا حاجة إلى ذكره لكثرته وشهرته ،وكذلك ما أخذته الرّواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللّحن أشهر

[13] المصدر السابق ، ج :3،ص :205.
[14] الحسن بن بشر الآمدي،الموازنة بين أبي تمام والبحتري،ص: 51.

أيضا من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو أن ندلّ على ذلك ،فلم يكن أحد من متقدّم ولا متأخّر في خطئه ولا سهوه وغلطه مجهول الحقّ ،ولا مجحود الفضل ".[15]

وقوع الشّاعر في الخطأ لا يسقط من قيمته عند الآمدي لأنّه –في نظره- لم يسلم منه أحد ،وأبو تمام بإفراطه في البديع الذي أقحمه في الكثير من الأخطاء المرتبطة بالتجنيس والاستعارة وركاكة الألفاظ ووعورة المعاني تظلّ معظم معانيه الرائعة الأخرى تخاطب النّفوس بأثرها العميق حتى اشتهر عند البعض بأنّ أبا تمام هو المقدّم على غيره في هذا الشأن "وغزارة معاني أبي تمام هي التي حدت بالحاتمي على مناظرة المتنبي واتّهامه له بأنّ معانيه عيال على أبي تمام ".[16]

نمثّل في هذه الإشارة الخاطفة لإسراف أبي تمام في البديع فنقول:

يمكن اعتبار الاستعارة من الفنون البديعية التي أفرط أبو تمام في استعمالها ،ويرجع الآمدي سبب ذلك لمخالفته مذاهب العرب ،يقول الآمدي ":القبيح من استعاراته والمستكره المتعقد من نسجه ونظمه على ما رأيت -الآمدي- المتذاكرين بأشعار المتأخرين يتذاكرونه وينعونه عليه ويعيبونه به وعلى أنّي وجدت لبعض ذلك نظائر في أشعار المتقدّمين فعلمت أنّه بذلك اغترّ وعليه في العذر اعتمد طلبا منه للإغراب والإبداع وميلا إلى وحشيّ المعاني والألفاظ ".[17]

لكنّ الآمدي أهمل شيئا مهمّا يرتبط بثقافة الشّاعر والتّطور الكبير الذي وصل إليه المجتمع العباسي فأبو تمام لم يبتعد كثيرا في المقاربة بين المستعار منه والمستعار له ،فقول الآمدي في بيت أبي تمام ":

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكَ[18]

إنّ أبا تمام خرج عن المنهج المألوف في الاستعارة ".[19]

لأنّه جعل للدّهر أخادع ،ووصفه بالطّيش والحمق ،صوّره في صورة كائن حي ونسب له بعض أوصافه فيصفه مرّة بالتكبّر والتّعالي وأنّ له يدًا تقطع من الزند ،إنّ الصّورة المثلى للتّشبيه أو الاستعارة تبنيان على أساس المقاربة والملائمة لكن بمفهومين جديدين عند أبي تمام "فالمقاربة عنده تعني وجود وجه

[15] المصدر السابق ، ص:123.
[16] محمّد الربداوي،الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام (تاريخها وتطورهاوأثرها في النقد العربي القديم) ،دار الفكر ،دمشق ،سوريا ،ص :334.
[17] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ص : 227
[18] (أبو تمام)حبيب بن أوس ،الديوان ،شرح الخطيب التبريزي ؛تحقيق :راجي الأسمر ،دار الكتاب العربي،لبنان ،(د،ط) ؛ 1427ه-2007م، ج : 1 ، ص:440
[19] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، ص :228

شبه ما بين المشبّه والمشبّه به ،سواء أكان ذلك واضحا يلتمس بسهولة أم خفيا يحتاج إلى إعمال الفكر والخيال ،وتعني الملائمة عنده كذلك وجود مناسبة ما بين المستعار منه والمستعار له ،سواء أكانت واضحة للعيان أم غير واضحة وتحتاج إلى شيء من التأمّل العقلي والإحساس الوجداني".[20]

عند التأمّل ندرك أنّ وجه المقاربة بين المستعار والمستعار منه صحيح نسبيّا لأنّه شاع عند النّاس إقامة الدّهر في صورة إنسان يعاملنا ونعامله فعندما يقسوا علينا نلومه، أين المانع من ذلك؟ خصوصا ونحن نريد بالدّهر أهله وأوصافهم"لا يخفى ما تحمله لوحة الدّهر-على هذا النّحو- من قدرات فنيّة استطاع بها أبو تمام أن يمنطق الموقف ويفلسفه في كلّ خطواته من ناحيته ثمّ استطاع أن يتعامل مع اللّوحة من منطلق التّجريد الذهني التامّ من ناحية أخرى فليس ثمّة للمحسوسات رصيد يكاد يذكر إلاّ كأداة تصويرية يأتي بها لتشخيص الدّهر تحت أي مصطلح من مصطلحاته فحسب ".[21]

لكنّ "مفهوم الإبداع في قاموس الآمدي كما لاحظنا سابقا هو ضلالة وكلّ ضلالة حرام وكلّ حرام مرفوض بالشّرع والعرف".[22]

لم يغرم شاعر بمثل هذه الصور الفنيّة المرتبطة بالاستعارة كأبي تمام، واقتفى إثره المتنبي حتّى اشتهرا بهذا اللّون من الإبداع، أمّا أخطاؤه في الجناس فمنها قول أبي تمام:

إِنَّ مَنْ عَقَّ وَالدَيْهِ لَمَلْعُو نُ وَمَنْ عَقَّ مَنزِلًا بِالعقُوقِ.[23]

فهذا كلّه تجنيس في غاية البشاعة والرّكاكة والهجانة ".[24]

وهو سيّء المبنى قليل المعنى لا يطرب السّامع ولا يؤثّر في النّفس ،أمّا أخطاء البحتري فجاءت قليلة بالنّسبة لأخطاء أبي تمام يرجع الآمدي سبب ذلك"لشدّة تحرّزه وجودة طبعه وتهذيب ألفاظه".[25]

بخلاف أبي تمام الذي كان لا يتحرّز منها ،بنى الآمدي تصوّره هذا من قول البحتري نفسه عندما سُئِل عن شعره وشعر أبي تمّام فقال":جيّده خير من جيّدي ،ورديئي خير من رديئه ".[26]

---

[20] عثمان موافي،الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم،ص :83.
[21] عبد الله التطاوي ، الموقف الفكري والنقدي في إبداع أبي تمام ؛،دار غريب ،القاهرة ،2003م ؛ ص : 133.
[22] عبد الله حمّادي ،الشعرية العربية بين الاتباع والابتداع ،منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين ،الجزائر،الطبعة الاولى :2001م،ص :51.
[23] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج : 1 ، ص :453
[24] ،(الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،ص :251.
[25] السابق ، ص : 51.
[26] السابق ، ص : 51.

وممّا استوقف الآمدي من أخطاء البحتري في المعاني قوله :

ضَحِكَاتٌ فِي إِثْرِهِنَّ الْعَطَايَا وَبُرُوقُ السَّحَابِ قَبْلَ الرُّعُودِ.[27]

قال الآمدي ":أقام البرق مقام الضحك ،والرّعد مقام العطايا ،وإنّما كان يجب أن يقيم الغيث مكان العطايا ،لا الرّعد ".[28]

يربط الآمدي في نقده بين الذّوق والقيّم الثقافية لكنّ الرّعود كما قال المرزباني (ت384ه) ":ليس لذكرها في هذا الموضع معنى بل الرّعود مكروهة لا يؤمن من الآفات فيها بالصّواعق والبرد وما علمنا أحدا وصفها فأقامها مقام المطر غيره".[29]

لم يوفّق البحتري في إصابة معناه وأخفق في وصفه فالرّعود يصاحبها غالبا الخوف والهلع ،أمّا الموازنة بين الشّاعرين فكانت كما يلي:

نبيّن أوّلا مفهوم الموازنة ،ثمّ نذكر طريقة توظيفها عند الآمدي.

الموازنة في اللّغة بمعنى "وازنت بين الشّيئين موازنة ووزانا وهذا يوازن هذا إذا كان على زنته أو كان محاذيه ،وَزَنَ الشيءَ إذا قدّره ،والميزان :العدل ،ووازنه عادله وقابله".[30]

نستخلص من ذلك أنّ الموازنة هي المقابلة بين شيئين وتقديرهما نقل المعنى اللّغوي إلى الاصطلاحي فأصبحت تطلق على "إقامة مقاربة بين أدبيين، أو أثرين أدبين، أو فكرتين ".[31]

وتعتمد هذه المقاربة على مجموعة من العناصر من أهمّها الزّمان والمكان والغرض الشّعري المحدّد كما فعلت أمّ جندب حيث قامت بتحديد الموضوع وهو وصف الفرس ،والزّمن مهيأ وكان الشّاعران حاضرين أمامها امرؤ القيس وعلقمة ،وقامت بتحديد الوزن والقافية ،كما يشترط في الموازنة إتّحاد اللّغة مع مراعاة فضل السّابق على اللاحق ،أمّا المقارنة فمن شروطها اختلاف اللّغتين مع اعتبار الاتّصال الزّمني الذي يثبت تأثّر المتأخّر بالسّابق كما هو الحال في الأدب المقارن.

---

[27] البحتري ، الديوان ،تحقيق: حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ،ج :01 - ص :306. (جاء في الديوان : قبل رعوده).
[28] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،ص : 51
[29] المرزباني ،الموشّح (مآخذ العلماء على الشّعراء في عدّة أنواع من صناعة الشّعر)؛تحقيق:عليّ البجاوي؛ مصر ؛(د،ط) :1965م ؛ص:554
[30] ابن منظور ؛ لسان العرب ؛ ج : 15 ؛ ص : 280 – 281.
[31] أيميل يعقوب وبسام بركة ،قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية،دار العلم للملايين، بيروت ، ط: 01 -1987م ؛ ص : 379

أشار الآمدي لطريقته في الموازنة قائلا ":ثمّ أوازن من شعْرَيْهِمَا بين قصيدتين إذا اتّفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ،ثمّ بين معنى ومعنى فإنّ محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك وتنكشف ".[32]

اعتمد على نوعيين من الموازنة الأولى موازنته بين قصيدتين اتّفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية والثّانية موازنته بين المعاني معنى معنى.

قام أوّلا بتحديد المعاني المتّفقة ليوازن بينها فقال ":وأنا أبتدئ بإذن اللّه من ذلك بما افتتحنا به القول من ذكر الوقوف على الدّيار والآثار ،ووصف الدّمن والأطلال ،والسّلام عليهما ،وتعفية الدّهور والأزمان والرّياح والأمطار إيّاها ،والدّعاء بالسقيا لها ،والبكاء فيها ،وذكر استعجامها عن جواب سائلها ،وما يخلف قطينها الذين كانوا حلولا بها من الوحش ،وفي تعنيف الأصحاب ولومهم على الوقوف عليها ونحو هذا ممّا يتّصل به من أوصافها ونعوتها ،وأقدّم من ذلك ابتداءات قصائدها في هذه المعاني إن شاء اللّه ".[33]

نلاحظ أنّ هذه المعاني الجزئية متعلّقة بمقدّمة القصيدة واستهلالها وذلك موقوف على مدى لزوم طريقة العرب ،فممّا استوقف الآمدي من مطالع أبي تمّام الرّائعة قوله ":

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ نَقْضِي ذِمَامَ الأربعِ الأَدَارِسِ.[34]

هذا ابتداء جيّد بالغ وقوله:الأدارس جمع دارس وقلّما يجمع فاعل على أفعال ومنه شاهد وأشهاد وماجد وأمجاد وصاحب وأصحاب ".[35]

ومن جيّد مطالع أبي تمام قوله(من الكامل) ":

قِفْ نُؤَبِّنْ كِنَاسَ هَذَا الْغَزَالِ إِنَّ فِيهِ لَمَسْرَحًا لِلْمَقَالِ .[36]

التّأبين مدح الهالك ،والكناس هنا الرّبع ،وإنّما يريد الخيمة أو البيت من بيوتهم سمّاه كناسا لأنّه جعل المرأة غزالا :أي قف بنا نندبه فإنّ المقال يتّسع فيه وهذا أيضا بيت جيّد ومعنى حسن مستقيم ".[37]

[32] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري،ص : 376
[33] المصدر السابق ، ص : 380.
[34] أبو تمام ،الديوان ،الخطيب التبريزي، ج :01 ، ص : 325
[35] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،ص :384
[36] أبو تمام ،الديوان ،الخطيب التبريزي، ج: 01 ؛ ص : 358
[37] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،ص :385

إنّ استحسان الآمدي لهذين المطلعين راجع لأثر الطّبع كما نلاحظ تدفّق مشاعره ومشاكلة الألفاظ لمعانيها ،لا أثر للتكلّف في هذين المطلعين الرّائعين.

من مطالع البحتري الجيّدة الّتي استوقفت الآمدي وأعجبته قوله في مدح اسماعيل بن شهاب":

مَا عَلَى الرَّكْبِ مِنْ وُقُوفِ الرِّكَابِ فِي مَغَانِي الصِّبَا وَرَسْمِ التَّصَابِي.[38]

وقال البحتري (من الخفيف) :

ذَاكَ وَادي الأَرَاك فَاحبس قَليلَا مُقَصِّرًا مِنْ مَلَامَتي أَوْمُطِيلَا.[39]

وهذان ابتداءان في غاية الجودة ".[40]

جمع البحتري في هذين البيتين روعة البديع وقوّة الطّبع مع سهولة العبارة ووضوح المعنى ،ثمّ وازن بين الشّاعرين في الموضوعات الّتي حدّدها ،وانتصر كثيرا للبحتري لأنّه التزم طريقة العرب ولم يخرج عنها وما يمكن قوله عن عمل الآمدي في النقد هو أنّه استطاع أن يعطي للنقد بعده الموضوعي والفنّي ويعتبر كتابه الموازنة من بين أهمّ الكتب في مجال النقد وذلك لأنّ الآمدي امتاز بتنوع الثقافة وسعتها فشخصية الآمدي الناقد تتجلّى بوضوح تام في جميع فقرات الموازنة "فكأن الآمدي كان يحسّ أنّه النّاقد الذي اجتمعت له الدّلالات الضّرورية للنقد ،وأنّه قد آن الأوان لتصبح لهذا النّاقد شخصيته المميّزة وحكمه الذي يؤخذ بالتسليم ".[41]

ويعود هذا التّسليم لاعتماده على تعليل الأحكام بموضوعيّة ووقوفه على الأخطاء والمحاسن بروح فنيّة وأخلاقيّة ،ورأى أنّ الناقد الحصيف من استجمع المؤهّلات وتوفّر لديه الذّوق المدرّب مؤكّدا على"أهميّة طول المعاشرة للنّصوص الأدبية لتتكوّن لدى النّاقد الدّربة والخبرة ويستطيع بطبعه وذوقه أن يحكم على الأثر الأدبي".[42]

نكتفي بهذا القدر المختصر المتعلّق بالآمدي وموازنته ،ونعود للحديث عن خصومة أبي الطيّب وذلك من خلال ذكرنا لبوادر الخصومة النقدية في القرن الرّابع الهجري ،وما هي أهمّ المظاهر المصاحبة لها.

[38]البحتري ، الديوان ،ج:01 ؛ ص :62.
[39]المصدر السابق ، ج: 01 ؛ ص : 282.
[40] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،ص :387
[41]إحسان عباس،تاريخ النقد الأدبي عند العرب،دار الشروق عمان،الطبعة الأولى،2006،ص:143.
[42]نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري دار الوفاء الإسكندرية ط:01_2006م ، ص :145

بوارد الخصومة في القرن الرّابع الهجري:

نقصد بالخصومة ما دار من نقاش فنّي أثار حركة النّقد في القرن الرابع ،وتجلّت مظاهر هذه الخصومة في الصّراع بين الشّعر المحدث والقديم حيث تعصّب فريق القديم وفريق آخر للمحدثين ووقفوا في وجه كلّ محاولة تسعى للحطّ منه ،ويعتبر ابن قتيبة من أوائل النقاد الذين عالجوا هذا الصّراع بموضوعية،وقام بإنصاف المحدثين في كتابه "الشّعر والشّعراء"وذكر في مقدّمته قائلا ":فكلّ من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخّر قائله أو فاعله ولا حداثة سنّه كما أنّ الرّديء إذا أورد علينا للمتقدّم أو الشّريف لم يدفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدّمه ".[43]

وضع بين أيدينا مقياسا فنّيا عادلا مردّه إلى أنّ العبرة بالجودة الفنيّة ،فلا قيمة لعامل الزّمن والأسبقية فالعمل الأدبي إنّما يرفع من قيمته جودته ومحاسنه ،هذه الرّؤية نفسها نجدها عند المبرّد أحد النحاة المتعصّبين للقديم لكنّه قال في المقابل":وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطى كلّ ما يستحقّ".[44]

هذه الرّؤية أيضا تفطن لها النّاقدان الآمدي والجرجاني وقبلهما ابن طباطبا الذي ألف"عيار الشّعر" ليصبح الشّعر فيما بعد خاضعا لتلك المعايير وفق مقتضيات عمود الشّعر ،نحن نؤمن بعظمة الشّعر القديم من حيث الكليّة ،وفي المقابل لا ننكر الجودة عند المحدثين من حيث الجزئية.

إنّ أثر الإسلام والعوامل الاجتماعية والسّياسية والفكرية التي طرأت على العرب غيّرت من أساليب الشّعر وقالبه وأهدافه وأوجدت شعرا جديدا يستلهم من البيئة الجديدة معارف يعبّر بها الشّعراء عن أذواقهم وأفكارهم ومن نتائجه ذلك الشّعر السّياسي والمذهبي والتّعليمي، كما خضع المديح لمتطلّبات الخلفاء الذين كانوا يسعون دائما لاستمالة القلوب والرّفع من شأنهم تماشيا مع الجوّ السّياسي آنذاك.

لا بدّ من التّأكيد على مسألة هامّة أشار لها ابن قتيبة وهي أنّ الشّاعر لا يجوز له الخروج عن أعراف العرب وتقاليدهم حيث يقول ":وليس لمتأخّر الشّعراء أن يخرج عن مذهب المتقدّمين فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان ،لأنّ المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي ،أو يرحل على

[43] (ابن قتيبة) ،الشعر والشعراء،تحقيق:أحمد محمد شاكر،دار المعارف ،مصر،(د،ط)،1966م، ج :1 ،ص : 63.
[44](المبرد)محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان؛(د،ط) (د،ت)،ج :1 ، ص: 18.

حمار أو بغل ويصفهما لأنّ المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ،أو يقطع إلى الممدوح منابت النّرجس والأس والورد لأنّ المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة".[45]

هذه الرّؤية الملزمة بنهج العرب اعتنقها الآمدي واحتضنها وجعلها أساس حكمه بين الطّائيين .

من بين الشّعراء الذين جدّدوا بعض الشّيء في ذلك الجانب أبو نواس قبل ظهور مذهب أبي تمّام،لكنّه مع ذلك لم تنشأ الخصومة حول مذهبه ،ونرجع أسباب ذلك إلى ما يلي:

أ)اشتهر أبو نواس بعصبيته السّاقطة ضدّ العرب ودعوته الشّعوبية وانحلاله الأخلاقي هذه الأشياء كانت سببا غير مباشر في الحطّ من شعره عند أرباب الصّناعة والمتذوّقين من المحافظين العرب.

ب) لم يخرج أبو نواس عن هيكل القصيدة العربية القديمة فقد سلك طريقة القدماء "ومن ثمّ لم يجد بعض نقّاد العصر بأسا من الإعجاب بأشعار المحدثين إذا وافقت النموذج القديم والتزمت أصول الفنّ الموروثّ".[46]

ج)الأغراض الشّعرية التي طرقها أبو نواس كالتوسّع في وصف الخمر وذكر مجالس اللّهو معروفة عند القدماء ،أمّا التغزّل بالمذكّر فهو شيء لم يألفه العرب ،يرى محمّد مندور أنّ":دعوة أبي نواس لم تكن من النّاحية الفنيّة ضرورة حتمية ،وبخاصّة وأنّها لم تعد أن تكون محازاة للشّعر القديم والمجازاة أكثر من التّقليد ،وذلك لأنّنا كنّا نفهم أن يدعو إلى نوع جديد من الشّعر ،وأمّا أن يحافظ على الهياكل القديمة للقصيدة مستبدلا ديباجة بأخرى وأن يدعوا إلى الحديث في موضوعات لا تستطيع أن تحرّك نفوس الجميع فذلك ما لا يمكن أن يعتبر خلقا لشعر جديد".[47]

أمّا الذي جاء به أبو تمام فكان خروجا على قواعد عمود الشّعر فهو لم يغيّر في الأغراض الشّعرية المعروفة وطريقة بنائه للقصيدة هي طريقة القدماء،ومعاني الشّعر هي معاني القدماء فالشّعراء قبله لم يكن لهم إلّا التجويد الفنّي ،فشعرهم دلّ على مهاراتهم في الصّياغة ،لأنّهم حبسوا أنفسهم في قوالب شعرية محدّدة ،لكنّ أبا تمام أغرم بالبديع وتعمّق في الاستعارة أو لنقل إنّ شعره جاء على طريقة المفكّرين يتطلّب مجهودا عقليا واسعا لفهمه ،إنّ إفراطه في البديع لم يكن القصد منه إلاّ الإبداع وإن

[45]المصدر السّابق،ج :1 ،ص : 82.
[46]محمّد مصطفى أبو شوارب،إشكالية الحداثة (قراءة في نقد القرن الرابع الهجري)،دار الوفاء ،الإسكندرية ،مصر،ط:01، 2003م،ص:53.
[47] محمّد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب،نهضة مصر،(د،ط):2003 م ، ص: 297

خرج في بعض المرّات عن هدفه المسطور ،هذا الرّأي تؤكّده الدّراسات الحديثة المهتمّة بتحليل الخطاب الشّعري فهي تلمس تجليّات روح الإبداع عنده بغضّ النّظر عن اللّغة الموروثة والمعاني المتداولة ،يحمل إبداع أبي تمام في طيّاته شعورا وإحساسا وتفاعلا مع المخاطبين ،سأله رجلٌ في مجلس حافل "وأراد تبكيته لمّا أنشد :يا أبا تمام لما لا تقول من الشّعر ما يفهم ؟ فقال له :وأنت لم لا تفهم من الشّعر ما يقال ؟ ففضحه".[48]

فمن رام المعاني الدّقيقة وأراد أن يسرح في الخيال وجد بغيته في أبي تمام ،ومن شغف بروعة الموسيقى وجمال النّسيج وانفعال النّفس وجد ضالّته في أبي عبادة الذي":كان أملحَ صنعة وأحسن مذهبا في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصّنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقّة ".[49]

لخصّ عثمان موافي تلك الخصومة بين الطّائيين وما سبقها من خصومة قائلا ":مهما تكن طبيعة الخلاف النقدي بين أبي نواس ومسلم أو بين أبي العتاهيّة والعبّاس فإنّه لم يتحوّل إلى خصومة نقدية تقوم على التّحليل النقدي الدّقيق لشعر كلّ منهما وبيان محاسنه والموازنة بينه وبين ما يماثله من شعر الخصم الآخر وتكتب فيها الرّسائل وتؤلّف لها الكتب كتلك التي حدثت بين أبي تمام والبحتري".[50]

وقد أشرنا سابقا لموقف الآمدي من الطّائيين من خلال موازنته بينهما في ذلك ،أمّا مظاهر الخصومة عموما فكانت حول أخطاء الشّعراء وما عابه المحافظون عليهم من أخطاء متعلّقة بالمعنى والمبنى مع تكلّف المحدثين وشدّة إغرابهم ،من بين أهمّ المآخذ على المحدثين احتذاؤهم معاني القدماء وعجزهم عن ابتكار معاني جديدة فاتّهموهم بالسّرقة والاتّكال ،وبالتالي يمكن اعتبار قضيّة السّرقة من أكبر القضايا النقدية وأعقدها.

[48] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ،تحقيق:محمّد أحمد ،دار الكتب،لبنان ،الطبعة الأولى ،1422ه-2001م،ج:1 ،ص : 140.

[49] الحسن بن بشر الآمدي،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ،ص : 138.

[50] عثمان موافي ،الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم،دار المعرفة الجامعية ،مصر،الطبعة الرّابعة :2000م،ص :66.

لقد "حملت معركة القديم والجديد في شعرنا العربي منذ أوّليّتها إلى يومنا هذا هاجس حبّ التّدمير للطّرف المضّاد أو المتمرّد عن القيم العرفية ولم تقبل أبدا محاولة لإيجاد صيغة للتفاوض والتّقارب أو وسيلة للتّعايش والتزامن في جوّ سلمي مفعم بتبادل التّجارب والمعاناة".[51]

لذلك كانت محاولة الوساطة والموازنة تضييق الجفوة وتقريب الآراء عند من يريد العدل ويسعى للإنصاف ،أمّا أصحاب التعصّب والإفراط فلن يؤمنوا ولو جاءتهم كلّ آية .

لقد حمل كتاب موازنة الآمدي ووساطة الجرجاني نقدا فنيّا وموضوعيّا لا يزال يلقي بظلاله على مجال النقد حتّى في عصرنا الحديث وذلك لما تضمنّه الكتابان من رؤى وأفكار نقدية وأدبيّة قيّمة كما مثّل الناقدان المنهج الفنّي "وسار كلاهما على مراعاة القيم التّعبيريّة والقيم المعنويّة في حدود نعدّها اليوم ضيّقة محدودة ولكنّها كانت إذ ذاك أوسع وأشمل من سائر الحدود التي بلغ إليها النقد قبلهما وقد شملت كلّ ما سبقها وزادت تناولا الألفاظ ومحاسنها ومعايبها وتناولا المعاني وما يستجاد منها وما يستكره ،وتطرّقا إلى مباحث تعدّ إلى حدّ ما داخلة في المنهج التّاريخي لأنّها تتعلّق بالسّرقات الشّعرية والسّابق في المعاني والتّعبيرات واللّاحق ولكنّهما لم يوسّعا في التّعليل عن الاستحسان أو الاستقباح".[52]

يقوم المنهج الفنّي على مواجهة النصوص بالقواعد والمعايير الفنيّة والنّظر في مستوى الإبداع ومدى تقبّله وهو أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب على وجه العموم.

نقوم الآن بالحديث عن خصومة المتنبي ودوافعها وأسبابها لنكون على بصيرة بالنقد الذي دار حولها.

الخصومة النقدية حول المتنبي:

[51] عبد الله حمادي،الشعرية العربية بين الإتباع والابتداع ،منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين،الجزائر،الطّبعة الأولى:2001م،ص :14.
[52] سيّد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشّروق ،مصر ، الطّبعة السادسة :1410ه-1990م ،ص:122.

مثّل الخصومة النقدية ثلاثة من الشّعراء كان تأثيرهم ملفتا للنّظر بما أحدثوه من تغيير فعّال في ساحة الأدب والنّقد، فأبو نواس الذي حاول الخروج عن بعض تقاليد العرب الفنّية وما اعتادوه من أشياء لها علاقة بأخلاقهم وطباعهم ،وأبو تمّام الذي أفرط في البديع والاستعارة فانقسم النّقاد حول مذهبه الفنّي ما بين مؤيّد ومعترض ،ثمّ ظهر المتنبّي[53] فلفت الأنظار وأخذ بالأبصار ،وتكفيه شهادة الناقد الكبير والبصير ابن رشيق (ت456ه) الذي قال في المتنبي بأنّه :"ملأ الدّنيا وشغل النّاس".[54]

لم يشغل المتنبّي أهل عصره وحسب بل ملك قلوب النّاس جميعا عبر الدهور وافتخرت بحمل شعره الصّدور ،هذا من جانب أمّا الجانب الآخر فهو شدّة الخصومة الّتي تلقاها ومدى اهتمام النّاس بها فصرفوا همّتهم لدراستها واستجمعوا أمرهم للنّظر فيها ،باعتبارها حركة شعرية مثيرة وغريبة كان موردها شعر المتنبي وروّادها نقاد كثيرون.

يحدّثنا تاريخ الأدب عن ثلاثة نقّاد بارزين حاولوا الوقوف موقفا وسطا من المتخاصمين ،من بينهم ابن قتيبة الذي أنصف المحدثين كما سبقت الإشارة لذلك ،والناقد الثاني هو الآمدي الذي وازن بين شاعريين مثّلا اتّجاهين فنّيين (الطّبع والصّنعة) ،ثمّ ظهر القاضي الجرجاني(ت392ه) بكتابه (الوساطة بين المتنبّي وخصومه).

لم تكن خصومة المتنبّي حول مذهبه الشّعري كالطّائيين ،وإنّما كانت حول شاعر أصيل ،فعلماء عصره لم يلحقوه بالقدماء ولم يسلكوه في دائرة المحدثين ،وهذا ما دفع الجرجاني لتأليف وساطته والعدل في محاكمته ،وقسّم شعر المتنبي إلى قسمين :

القسم الأوّل :التزم فيه طريقة أبي تمّام، في بداية مشواره الفنّي ،أمّا الثاني :فتفرّده بمذهب فنّي خاص أشار له الجرجاني بقوله ":إنّه كان وسطا بين صنعة مسلم وأبي تمّام وبين طبع البحتري ".[55]

يمثّل أبو تمام الدرجة القصوى في التّصنع ،ودونه مسلم بن الوليد ،بينما مثّل البحتري الطّبع ،وفنّ المتنبي وسط بين الجميع لأنّه حمل في طياته محاسن الطّبع وجمال البديع دون تكلّف في ذلك ،وقد بيّن الجرجاني خصوم الرّجل ورآهم فريقين حيث قال ":إنّ خصم هذا الرّجل فريقان أحدهما يعمّ بالنّقص

[53] أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصّمد الجعفي الكندي الشّاعر الكبير ،ولد سنة :303ه وتوفي مقتولا سنة :354ه،لد ديوان شعري كبير ،شرحه جمع من العلماء ،اشتهر بمدحه لسيف الدولة ابن حمدان ،وكان كثير السّفر والتجوال زار بغداد ومصر والشّام ،(ابن خلكان) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:محمد عبد الرحمن المرعشلي ،دار إحياء التراث ،لبنان،(د،ط) ؛(د،ت)، ج : 01،ص : 67.

[54] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، ج :1 - ص : 105

[55] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص :129

كلّ محدث ،ولا يرى الشّعر إلاّ القديم الجاهلي وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطّريقة ويزعم أنّ ساقة الشّعراء رؤية وابن هرمة وابن ميادة والحكم الخضري ،فإذا ما انتهى إلى من بعدهم كبشّار وأبي نواس وطبقتهم سمّى شعرهم ملحا وطرفا ،واستحسن البيت منه استحسان الباردة وأجراه مجرى الفكاهة ،فإذا نزلت به إلى أبي تمّام وأضرابه ،نفض يده ،وأقسم واجتهد أنّ القوم لم يقرضوا بيتا قط ،ولم يقفوا من الشّعر إلاّ بالبعد".[56]

لا يرى أنصار القديم للمحدثين فضلا ولا إبداعا فهم لا يقرّون بشعر المتنبي وأبي تمام وأبي نواس بل رفضوا حتّى شعر البحتري ،وضرر هؤلاء أخفّ لتعميم حكمهم على الجميع ،أمّا الخصم المتشدّد فهم الذين وصفهم الجرجاني بقوله":ومخالفك المعاند الذي صمدت لمحاكمته ،وابتدأت بمنازعته ومحاجّته من استحسن رأيك في إنصاف شاعر ثمّ ألزمك الحيف على غيره ،وساعدك على تقديم رجل ثمّ كلّفك تأخير مثله ،فهو يسابقك إلى مدح أبي تمّام والبحتري ،ويسوّغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرّومي ،حتّى إذا ذكرت أبا الطيّب ببعض فضائله وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ،ونفر نفار المضيم ،فغضّ طرفه ،وثنّى عطفه ،وصعّر خدّه ،وأخذته العزّة بالإثم".[57]

هؤلاء الخصوم أصحاب الأهواء يؤمنون ببعض الشّعراء المحدثين وينكرون بعضهم كالمتنبي ،فتحديد هويّة الخصوم لابدّ منها في القضاء لأنّ "الموقف يقتضي قبل النّظر في شعر المتنبي أن تصحّح القيم ويخلص ميدان النقد من تلك الدعاوى الّتي يشيعها علماء اللّغة والمتزمّتون حول الشّعراء المحدثين ،وأن ينظر إلى الشّعر المحدث نظرة عدل ،ومراعاة لظروفه دون التحكّم أو تغليب مقاييس الشّعر القديم عليه ،فيشلّ ميزانه ".[58]

إنّ تصحيح القيم يراد به تحقيق الموضوعيّة في النقد،فهذه غاية النقاد المعاشرين للنّصوص دون مراعاة القدم والحداثة ،بعد أن حدّد الجرجاني ملامح الخصوم انتقل للحديث عن الدّعوى باعتبارها المقصود الأهمّ في القضاء والنّظر في مدى قبولها أو ردّها عملا بقاعدة :(الأصل براءة الذمّة) ومعنى هذه القاعدة أنّ:"من ادّعى على غيره شيئا لزمه الدّليل ،لأنّه يدعي خلاف الأصل ،ولا يطالب الطّرف

[56]المصدر السابق ؛ ص :185.
[57] السابق ؛ ص :2.
[58]محمد زغلول سلّام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري؛ ص : 361.

الآخر بالدّليل لأنّه متمسّك بالأصل وهو أنّ ذمّته بريئة فلا تشغل إلاّ ببيّنة شرعية ثابتة كالشّهود والوثائق الدالّة على صحّة الدّعوى ،ومن هنا كلّف المدعي البيّنة دون المدّعى عليه ".[59]

فيلزم الخصوم تقديم الحجّة للنّظر فيها ومن ثمّ تقبل دعواهم في نفي شاعريّة المتنبي ،هذه الدّعوى أفصح الجرجاني عنها بقوله":وعائب يروم إزالته عن رتبته ،فلم يسلّم له فضله ويحاول أن يحطّه عن منزلة بوّأه إيّاها أدبه ،فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معايبه ،وتتبّع سقطاته وإذاعة غَفَلَاتِهِ ،وكلا الفريقين إمّا ظالم له أو للأدب فيه ".[60]

بيّن الجرجاني موقفه الحازم من هذين الخصمين ورآهما ظالمين للمتنبي وللأدب عموما ،وفي المقابل وجّه خطابه الحادّ لأولئك المغالين والمتعصّبين له حيث قال في شأنهم":من مطنب في تقريظه منقطع إليه بجملته ،منحط في هواه بلسانه وقلبه ،ويتلقّى مناقبه إذا ذكرت بالتّعظيم ،ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتّفخيم،ويعجب ويعيد ويكرّر ويميل على من عابه بالزّراية والتّقصير ،وتناول من يقصّره بالاستحقار والتّجهيل ،فإذا عثر على بيت مختل النّظام ،أو نبّه على لفظ ناقص عن التّمام،التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ،ويتجاوز به مقام المنتصر".[61]

وقف الجرجاني موقفا وسطا من المتخاصمين ،وسلك الثعالبي (ت429هـ) السّبيل نفسه مع المتنبي كما اقتفى أثرهما يوسف البديعي منتهجا منهج التوسّط والاعتدال.

أمّا اتجاه التحامل وتتبّع العثرات فبدأ مع مراحل زمنية متعاقبة ومتقاربة منها ما حدث في مجالس سيف الدّولة [62]الّتي تألّق فيها نجم المتنبي ،يحدّثنا بلاشير عن بعض ما لاقاه المتنبي في بلاط الحمدانيين من المنافسة قائلا ":وأخذت تتكوّن حول المتنبّي شيئا فشيئا حلقة من المعجبين به ووجد الشّاعر في تكوينها رضى لكبريائه ولربّما اطمئنّ إليها ليتّخذ منها درعا ضدّ خصومه فالشّاعر عليّ بن دينار والزّاهي والفقيه وابن نباته قد درسوا -كما تشهد المصادر-شعره تحت إشرافه،كما يلوح أنّ الخوارزمي كاتب الرّسائل قد تأثّر به أيضا ".[63]

---

[59]القواعد الفقهية داودي ؛ ص :98.

[60](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 04.

[61]المصدر السّابق ؛ ص : 6.

[62]أبو الحسن عليّ بن عبد الله ،كانت ولادته سنة ثلاث وثلثمائة وقيل سنة إحدى وثلثمائة ،كان أديبا شاعرا محبّا لجيّد الشّعر شديد الاهتزاز له توفيّ يوم الجمعة سنة ستّ وخمسين وثلثمائة.(ابن خلكان) ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج:2 –ص : 191.

[63]ريجيس بلاشير، المتنبي، ،ترجمة إبراهيم الكيلاني،دمشق؛(د،ط)؛1975م ،ص:141/ عن محمد مندور؛ النقد المنهجي ؛ ص : 139.

فقد كان مجلس سيف الدّولة عامرا بالمناقشات والمناظرات وفيه بلغ المتنبي ذروة الشّهرة ممّا أثار حوله نيران الحسد أجّج لهيبها أمثال أبي فراس الحمداني وابن خالويه النّحوي ،واستطرد البديعي في كتاب "الصبح المنبي" في ذكر كثير من تلك المناظرات والمناقشات التي دارت بين المتنبي والنقاد .

اختلف النقاد في خصومة المتنبي هل بدأت شخصيّة ثمّ أصبحت فنيّة ؟ أو العكس ؟ .

فذهب للقول الأوّل محمّد مندور وذلك بناءً على كبرياء المتنبي وترفّعه ،بينما رأى عثمان موافي خلافه حيث قال":إنّ المتتبّع لمراحل تطوّر هذه الخصومة النقدية يلحظ أنّ فنّ هذا الشّاعر هو الذي أثار عليه في البداية حقد بعض معاصريه من الشّعراء والأدباء فاتّخذوا من ذلك ذريعة لتجريحه ،ثمّ تناول شخصه بعد ذلك ".[64]

لا ينتج عن هذا الخلاف أثر معتبر فمهمّة النقد الموضوعي هي التّعامل مع النّصوص الفنيّة لتقويمها أمّا ما يرتبط بموضوعية الناقد فذلك أمر يتّصل به شخصيا لأنّ الموضوعية تعني الابتعاد عن الأحكام الشّخصية والتحرّر من المعتقدات والمذاهب والأهواء الذّاتية وهذه الأمور لم نولها اهتماما بالغا وإن كنّا لا ننكر أثر العوامل النّفسية في النقد لكنّنا اكتفينا بالحجج العلمية والفنيّة وإسقاطها على النصّ الشّعري كما فعل الجرجاني.

هذا جانب من جوانب جوّ الخصومة الذي ذكره صاحب الوساطة لأنّ هذا التحامل الشّديد لم يكن "ليمرّ بسهولة وقد أحدث دويّا جعل من أبي الطيّب علما من أعلام العصر وبالتّالي من أعلام التّاريخ فاكتسح اسمه جميع الأسماء وبلغت شهرته الملوك وأدرك النقاد والمفكّرون وما أكثرهم في ذلك الزّمن أنّ الموقف يحتاج إلى صون الحياة الأدبية عن الابتذال والمهاترة ويستدعي إعمال الرويّة والإنصاف فهب عليّ بن عبد العزيز الجرجاني مات سنة (392هـ) لأداء هذه المهمّة ووضع كتابه الشّهير الوساطة بين المتنبي وخصومه".[65]

وبالتّالي فإنّ خير من يحدّثنا عن تلك الخصومة من ندب نفسه للوساطة لذلك اقتصرنا على ما ذكره الجرجاني من تصنيف الخصوم وذكر ماهيتهم ،ونرى أنّ الأمر يتطلّب مزيدا من البيان لنعرف بعض الجوانب الأخرى المتعلّقة بالمتنبي وخصومه .

[64] عثمان موافي ؛ الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص93-94.
[65] عبد اللّطيف شرارة، معارك أدبية قديمة ومعاصرة،دار العلم للملايين ،لبنان ،الطّبعة الأولى :1984م،ص :100.

ضاق المتنبي ذرعا ممّا لقيه من خصومات في مجلس سيف الدّولة الذي توانى عن نصرة أبي الطيّب وإنصافه في بعض المواقف ممّا دفع المتنبي إلى مغادرته فترك حلب قاصدا لقاء كافور الإخشيدي[66] وكانت البيئة العلمية بمصرَ مليئةً بالأدباء والنقّاد فواجه المتنبي إعصارا نقديا عنيفا من قبل ابن وكيع التنسي(ت393هـ)من خلال كتابه"المنصف للسّارق والمسروق من شعر المتبني"وكان ذلك بتحريض من الوزير ابن حنزابة المصري "وكان هذا الوزير الكاتب يحقد على المتنبّي ككثيرين غيره في مصر وغيرها من البلاد الّتي حلّ بها الشّاعر الكبير ".[67]

نلاحظ أثر الانفعالات الذّاتية السيّئة اتّجاه المتنبي وكيف كان يسعى خصومه لخدمة الأغراض بدل الأعمال النبيلة التي يتطلّبها النقد ،يقول ابن رشيق (ت456هـ) منتقدا كتاب ابن وكيع ":وأمّا ابن وكيع فقد قدّم في صدر كتابه على أبي الطيّب مقدّمة لا يصحّ لأحد معها شعر إلاّ الصدر الأوّل إن سلم ذلك لهم ،وسمّاه كتاب المنصف مثل ما سمّي اللّديغ سليما ،وما أبعد الإنصاف منه ".[68]

وأمثال ابن وكيع كثيرون مثل العميدي(433هـ) صاحب "الإبانة عن سرقات المتنبّي لفظا ومعنى".

رحل المتنبي إلى بغداد بعد أن طار اسمه في الآفاق،وبلغت شهرته عنان السّماء ليلقى فيها أشدّ الخصومة وأعنفها ،فقد أكنّ له العداوة معزّ الدّولة ووزيره المهلبي ،وفي هذه المرّة لم تلعب الأحقاد نغمتها وحسب بل غذتها مطالب السّياسة والحكم ،لأنّ سيفيات المتنبي الخالدة في مدح الحمدانيين أزعجت أعدائهم وولّدت حسدا لا يطفأ نيرانه إلاّ مدحا يضاهي ذلك المدح لمعزّ الدولة ووزيره المهلبي لكنّ أبا الطيّب رفض الطلب لأنّه-في اعتقادنا- لم ير في هؤلاء ما ملأ عينه من صفات النّخوة العربيّة التي رآها في سيف الدولة ونفاذ بصره بالشّعر"فلم يكن فارسا فقط ،وإنّما كان شاعرا رقيقا لا يخلوا شعره من عاطفة وحساسية ،وهو بعد ذلك كله صاحب نظرات نفاذة ومعايير فنيّة في نقد الشّعر".[69]

بالإضافة للاهتمام الذي كان يوليه للشّعراء والعلماء ،يحدّثنا الثعالبي عن إقامة المتنبي ببغداد وما لاقاه بها قائلا":ولمّا استقرّ بدار السّلام ،وترفّع عن مدح الوزير المهلبي ذاهبا بنفسه عن مدح غير الملوك

[66] هو كافور بن عبد الله الأخشيدي ،توفي سنة (356ه) ،كانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر ،مدحه المتنبي بقصائد متعدّدة ،(ابن خلكان) ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج:2 –ص : 82.

[67] محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي ؛ ص : 344.

[68] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:02 – 217.

[69] مصطفى الشكعة،فنون الشّعر في مجتمع الحمدانيين ،مكتبة الأنجلوالمصرية،مصر،(د،ط) ،(د،ت) ، ص : 115.

شقّ ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء العراق حتّى نالوا من غرضه وتباروا في هجائه ،فلم يجبهم ولم يفكّر فيهم فقيل له في ذلك ،فقال:إنّي فرغت من إجابتهم بقولي لمن هو أرفع طبقة في الشّعر منهم :

أَرَى المُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ العُضَالَا

وَمَنْ يَكَ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا.[70]

وقولي : أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ.

لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ

وَمَا التِيهُ طَبْعِي فِيهِم غَيْرَ أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى الْجَاهِلِ المُتَعَاقِلِ.[71]

وقولي :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ سَقَى اللَّهُ أمواها عرفت مَكَانَهَا.[72]".[73]

هذه الكبرياء تصدّى لها ناقد بإغراء من الوزير المهلبي فكان ذلك الناقد محمّد بن الحسن بن المضفّر الحاتمي[74](320هـ-388هـ) وكان هو الآخر متحاملا على المتنبي ،يقول طه إبراهيم مشخصا حالة هذا الناقد":وآخرون كثيرون كأبي عليّ الحاتمي وأبي الحسن بن لنكك البصري من المتحاملين المتعصّبين الذين لا يريدون إلاّ يتّبعوا العثار ،ويطفئوا النّار ،ويهتكوا الأستار ،ويقلّموا الأظفار ،ويشفوا نفوسهم ممّا بها من الإحن والأظغان".[75]

إنّ الاعتناء بالسّرقات كمظهر من مظاهر الخصومة حول المتنبي توحي بمدى انبهار العلماء بمعاني المتنبي الفائقة الّتي لم يجد الطّاعنون سبيلا لردّها إلاّ رميها بالسّرقة ليظهر الحاتمي هو الآخر بمؤلّف يصبّ في هذا المضمار وهو "الرّسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيّب المتنبّي وساقط شعره"كتبها في حالة انفعال وغضب شديد لأنّ "المتنبي عندما قدم إلى بغداد ترفّع وتاه على أدبائها وشعرائها

[70](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج:03 ، ص: 344.
[71] المصدر السابق ؛ ج : 03، ص :237.جاء في الديوان : وَمَا التِيهُ طِبِّي فِيهِم غَيْرَ أَنَّنِي.
[72] السابق ؛ ج : 04، ص : 302.
[73]الثعالبي،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر،تحقيق :مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية لبنان،الطبعة الاولى :1420ه-2000م.ج: - ص :
[74]أبو عليّ محمّد بن الحسن المظفّر الكاتب اللّغوي المعروف بالحاتمي ،أخذ الأدب عن أبي عمر الزّاهد تلميذ ثعلب ، له الرّسالة الحاتمية وله كتاب حلية المحاضرة ،توفيّ سنة ثمان وثمانين وثلثمائة رحمه الله. (ابن خلكان) ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج:2 –ص : 401-402.
[75]طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص : 143.

جميعا ولم يحسن استقبال الحاتمي عند زيارته إيّاه ورغبته في مناظرته ،وكان المتنبي قد بلغ ذروة المجد بعد مصاحبته لسيف الدّولة ."[76]

هذا جانب من تجنّي المتنبي على نفسه لأنّه لو أحسن استقبال الحاتمي لأثنى عليه بعبارات التّبجيل والتّعظيم ولأصبح المتنبي كغيره من الشّعراء الذين تطوى مساوئهم وتنشر فضائلهم هذه حقيقة خصومة المتنبي ننبّه عليها لنقرّر صدق قول الجرجاني بأنّ هؤلاء الخصوم ظالمون للأدب وللمتنبي معا فالنقد البنّاء كفيل بكشف مدى صدق الحاتمي أو غيره من النقاد في نقدهم للمتنبي.

تمثّل هذه "الرّسالة "مناظرة جرت بينه وبين المتنبّي ،بدأها بانتقاصه له وازدرائه ،يقول الحاتمي مشيرا لذلك ":لمّا قدم بغداد كان التحف برداء الكبر والعظمة ،يخيل إليه أنّ العلم مقصور عليه وأنّ الشّعر لا يغترف عذبه غيره،ولا يرى أحدا إلاّ ويرى لنفسه مزيّة عليه ،حتّى ثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام وطأطأ كثير منهم رأسه ....."."[77]

يُظهر الحاتمي شخصية المتنبي المترفّعة بأسلوب ساخر ليرفع في المقابل من شأنه ويصف نفسه بكثرة الفهم وسعة الاطّلاع ،ثمّ يوجّه للمتنبي هذا السّؤال قائلا له ":خبّرني عن قولك:

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لهَا وَطُبُولُ ."[78]

أهكذا تمدح الملوك "."[79]

يعجز المتنبي عن الإجابة ويسلّم له بصمت جميع ما قاله، ولكن هل يعقل أن يسكت أمام كثرة تهجّم الحاتمي عليه ؟ لعلّه فطن لسؤالنا فغيّر من لهجة الخطاب قليلا لينقل لنا خروج المتنبي عن صمته مخاطبا الحاتمي قائلا ":أين أنت منّي من قولي:

كَأَنَّ الهَامَ فِي الْهَيْجَا عُيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ

وَقَدْ صُغْتَ الأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ فَـــمَـــا يَخْـطُرْنَ إِلاَّ فُـــؤَادِ."[80]

[76]محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي ؛ ص : 337.
[77]أبو علي الحاتمي الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي ، ص : 98
[78] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي؛ج: 03 ؛ص: 229 أنشدها في سيف الدولة سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة .
[79]أبو علي الحاتمي الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي ،ص : 111.
[80](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02، ص : 80.

...أما يلهيك إحساني في هذا عن إساءتي في تلك ".[81]

وبدل أن ينتقد الحاتمي قول المتنبي اتّهمه بسرقة المعاني وعدم ابتكارها ،إنّ ما يلفت انتباهنا في هذه الرّسالة موقف المتنبّي منها حيث قال":والمعاني تعتلج في الصّدور وتخطر للمتقدّم تارة وللمتأخّر أخرى والألفاظ مشتركة مباحة ،وهذا أبو عمرو بن العلاء سئل عن الشّاعريين يتّفقان في اللّفظ والمعنى مع تباين ما بينهما وتقاذف المسافة بين بلادهما ،فقال :تلك عقول رجال توافت على ألسنتها وبعد فمن هذا الذي تعرّى من الإتّباع وتفرّد بالاختراع والابتداع ،لا أعلم شاعرا جاهليّا ولا إسلاميّا إلاّ وقد احتذى واقتفى واجتذب واجتلب ".[82]

يشير المتنبي لأثر التوارد بين الشّعراء كما أنّه يسلّم بسرقته بدعوى أنّ الشّعراء جميعا فعلوا ذلك ، لكنّ الحاتمي اتّهمه بأخذ المعاني من غيره وعدم ابتكاره شيئا منها ،هذا الموضوع سنبيّنه بوضوح في الفصل الثّالث من رسالتنا عند حديثنا عن المقايسة في هذا الجانب.

نواصل رحلة الحاتمي مع المتنبي لنقف هذه المرّة على سؤاله له عن قضايا شعرية فيُظْهِرُ المتنبّي عجزه ويسلّم للحاتمي بالتفوّق في كلّ ما يتعلّق بصناعة الشّعر ومسائل اللّغة ،يهدأ الحاتمي بعد ذلك ويطلعنا على ما وصل إليه من نتائجَ محمودة أذهبت علّته وشفت غيظه ،يقول الحاتمي:"كنت قد بلغت شفاء نفسي وعلمت أنّ الزّيادة على الحدّ الذي انتهت إليه ضرب من الغيّ لا أراه في مذهبي ،ورأيت له حقّ التّقدمة في صناعته ،فطأطأت له كنفي واستأنفت جميلا من وصفه ،ونهضت فنهض لي مشيعا إلى الباب حتّى ركبت وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ،وتشاغلت بقيّة يومي بشغل عن لي تأخّرت معه عن حضرة الوزير المهلبي ،وانتهى إليه الخبر وأتتني رسله ليلا ،فأتيته فأخبرته بالقصّة على الحال فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدّولة قائلا له:أعلمت ما كان من فلان والمتنبّي ؟ قال :نعم قد شفا منه صدورنا ".[83]

[81] أبو علي الحاتمي ،الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي ؛ ص : 112.
[82] المصدر السابق ؛ ص: 113
[83] السابق ، ص : 98.

هذا ملخّص ما جاء في رسالة الحاتمي ممّا يدلّ على أنّه قصد بها إيذاء المتنبي ،وتدارك فعله وأعاد كتابة "الرّسالة الموضحة في ذكر عيوب شعر المتنبّي في أخريات حياته ،وندم على ما صدر منه من عبارات جارحة عزاها لفورة الشباب ".[84]

أثْرت هذه الرّسالة ساحة النقد بما أبدت من ملاحظات قيّمة سنقف عندها في الفصل الثالث من بحثنا إن شاء الله ،أمّا من حيث القيمة الإجمالية لهذه الرّسالة فإنّها :"محدودة إذ أنّ الخصمين لم يناقشا جمال الأبيات أو قبحها ،فإذا عاب الحاتمي بعض أبيات المتنبّي لم يناقشه الشّاعر فيما ادّعى بل أسمعه أبياتا جيّدة لتشفع لما عابه ".[85]

وكان من نتائج هذه الرّسالة أنّها قد شجّعت "كثيرا من الأدباء والنقاد على التصدّي لنقد شعر هذا الشّاعر، والإعلان عن ذلك صراحة، وإذاعته بين النّاس رواية أو كتابة ".[86]

ومن جملة الأدباء الذين شجّعهم الحاتمي وفتح لهم الباب وسهّل لهم طريقه الصاحب بن عباد[87] (ت385هـ) صاحب "الكشف عن مساوئ المتنبّي" هذه الرّسالة هي مظهر من مظاهر التحامل الذي نلحظه من خلال العنوان ،يعود سبب تأليفها لتحقير المتنبي إيّاه قائلا ":إنّ غليّما معطاء بالريّ يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك ،فصيّره الصّاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبّع عليه سقطاته في شعره وهفواته ،وينعى عليه سيّئاته وهو أعرف النّاس بحسناته وأحفظهم وأكثرهم استعمالا لها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته".[88]

لكنّ الصاحب أغفل الحسنات وشهّر بالسّيّئات رغم ادّعائه الإنصاف حيث قال ":أمّا بعد أطال اللّه مدّتك ،وأدام في العلوم رغبتك ،فالهوى مركب يهوي بصاحبه ،وظهر يعبر براكبه ،وليس من الحزم أن يزري على نفسه بالمعصية ،ويضع من علمه بالحميّة ،فالنّاس على اختلافهم وتباين أصنافهم متّفقون على أنّ الأهواء طمس أعين الآراء ،وأنّ الميل عن الحقّ يبهم سبل الصّدق ،وكنت ذاكرتك

[84] محمد زغلول ،تاريخ النقد الأدبي ، ص : 339.
[85] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي عند العرب ، ص : 199.
[86] عثمان موافي ،الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص :102.
[87] هو الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن ،كان مولده سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة بإصطخروقيل بالطّالقان الوزير الكاتب الأديب الناقد توفيّ سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالريّ ثمّ نقل إلى أصبهان رحمه الله تعالى، (ابن خلكان) ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ج:2 –ص : 124.
[88] يوسف البديعي ؛ الصبح المنبي ، ص : 82.

ببعض من يوسم بالأدب والأشعار وقائليها والموجودين فيها ،فسألني عن المتنبّي فقلت:إنّه بعيد المرمى في شعره كثير الإصابة في نظمه ،إلاّ أنّه ربّما يأتي بالفقرة الغرّاء مشفوعة بالكلمة العوراء ".[89]

يتّهم الصاحب المتنبي بتفاوت مستواه الشّعري، وجمعه بين البراعة والشّناعة في بيت واحد، من ذلك قول المتنبي:

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرب خَاتَمُهْ.[90]

قال الصاحب في عجز هذا البيت إنّه":من أرذل ما يقع لصبيان الشّعراء وولدان الأدباء ".[91]

لكنّنا نقرّر أنّ التّفاوت في الصيغة الفنيّة لا يكون مقبولا إلاّ إذا كان ظاهرة عامّة عند الشّاعر"فإذا سلّمنا جدلا بصحّة وجود هذه الظّاهرة الفنيّة في شعر المتنبي فلا ينبغي أن نتّخذ من وجودها دليلا على ضعف فنّه الشّعري ،وقبح صياغته ".[92]

لأنّ كثرة إحسانه وجودته غطّت على مساوئه ،كما لا يجوز الحكم بالأقلّ على الأكثر لأنّ المستويات متفاوتة عند كلّ شاعر فنفسيتّه وما يحيط بها من مؤثّرات تنعكس على إنتاجه الفنّي ،أمّا بالنسبة للنقاد فهو"يرجع في الواقع إلى عدم إدراك هؤلاء النقاد لطبيعة الإبداع الفنّي الذي يعدّ في الحقيقة مزيجا من الواقع والخيال ،وكثيرا ما يفقد الفنّان في أثنائه السّيطرة على مشاعره وأحاسيسه الدّاخلية فتثب ألفاظه ومعانيه من داخله وثبا تلقائيا مختلطة بهذه المشاعر والأحاسيس الّتي غالبا ما تكون متباينة في ألوانها ومتنافرة في أمزجتها ".[93]

فالفرق واضح بين الشّاعر الذي يبدع والناقد الذي يقرأ ذلك الإبداع فلا بدّ من مراعاة الموقفين وما يتطلّبانه من أمور ،إنّ التّشابه واضح بين خصوم المتنبي فقد جسّدوا لنا صورة المتنبي وقد أنكر الطّائيين(أبا تمام والبحتري) وهل يعقل أن يجهل المتنبي هذين الشّاعرين ؟ليقول مخاطبا الحاتمي":من

[89] الصاحب بن عباد ؛ الكشف عن مساوئ المتنبي ، ص : 122.
[90] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04؛ص: 46 مدح بها سيف الدّولة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.
[91] الصاحب بن عباد ؛ الكشف عن مساوئ المتنبي ، ص : 22.
[92] عثمان موافي ، الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص : 103
[93] المصدر السابق ، ص : 104

أبو تمّام والبحتري؟ما أعلم أنّي سمعت بذكرهما إلاّ من هذه الحاضرة فقلت :أبو تمّام والبحتري اللّذين أختلبت ألفاظهما واستلحقت معانيهما ووقّعت دونهما وقوع السّهم المقصّر عن رميّته".[94]

إنّ ما نستخلصه من نقد الصاحب والحاتمي وغيرهما هو سعيهم لتحقيق هدف مشترك يتمثّل في طمس محاسن المتنبي ورمي درر معانيه بالسّرقة لتكون النّتيجة إبرازه في صورة شكلية يشترك فيها جميع الشّعراء وأنّه لا فضل له يذكر ،ومن خصومه أيضا العميدي (ت433ه) صاحب "الإبانة عن سرقات المتنبي" وابن فورجّه (ت455ه) مؤلّف "التجني على ابن جنّي" وغيرهم ،هذه الملاحظات والانتقادات الّتي أثارها هؤلاء الخصوم سنكشف عن مدى صحّتها في الفصل الثالث من هذا البحث وذلك من خلال إجرائنا للمقايسة انطلاقا من تصوّر القاضي الجرجاني لها.

وكان للمتنبي أنصار يذودون عنه ويحفظون كرامته ويشهّرون بفضائله ،وهم كثيرون جدّا لا يسع المقام ذكرهم ،من جملتهم ابن جنّي(ت392ه) وأبي العلاء المعرّي فقد كان شديد الإعجاب بأبي الطيّب قال ابن الأثير ":بلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعرّي أنّه كان يتعصّب لأبي الطيّب حتّى أنّه كان يسمّيه الشاعر ويسمّي غيره من الشّعراء باسمه ،وكان يقول :ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها فيجيء حسنا مثلها".[95]

لكنّ ابن الأثير كان من المتحاملين بعض الشّيء على المتنبي.

يحدّثنا النقد الأدبي عن الاهتمام البالغ الذي أولاه العلماء لديوان المتنبي فلم يعرف ديوان بلغ من الاهتمام والشّرح ما بلغه ديوانه، ومن أشهر شروحه ما يلي:

1)شروح ابن جنّي (392ه-1002م) : من بينها

أ) الفتح الوهبي على مشكلات شعر المتنبي ،وهو الشرح الصغير.

ب) الفسْر :وهو الشرح الكبير على ديوان المتنبي.

ج) كتاب الصبر في شرح شعر المتنبي ،ذكره ابن خلكان.[96]

---

[94] أبو علي الحاتمي ،الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي ، ص : 106

[95] (ابن الأثير)ضياء الدين ،المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر،تحقيق :أحمد الحوفي وبدوي طبانة ،الطّبعة الأولى : 1379ه-1959م،ص:411.

[96] ابن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج : 02 ،ص : 117.

وألّف ابن فورجّة (455ه) كتابان في الردّ على ابن جنّي ،هما :"الفتح على أبي الفتح" و "التجنّي على ابن جنّي" ،ومن شروح الدّيوان أيضا :

2)شرح أبي الحسن الواحدي النيسابوري (418ه).

3)التبيان شرح الديوان لأبي البقاء العكبري (611ه).

4)ابن سيدة الأندلسي (458ه) شرح المشكل من شعر المتنبي.

5)سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسّام أبي الحسن علي النّحوي (542ه-1147م)، قام بتحقيقه الشيخ المرحوم الطّاهر بن عاشور.

6)شرح ديوان المتنبي لعبد الرّحمن البرقوقي (1393ه-1973م) ؛إلى غير ذلك من الشّروح المتنوعّة التي كشفت لنا عن أهميّة ما يحمله الديوان من كنوز معرفيّة وذخائر علميّة هائلة في مختلف الفنون اللّغوية والبلاغية ،ليس كما قال طه حسين منقصا من قيمته قائلا ":ديوان المتنبي إن صوّر شيئا فإنّما يصوّر لحظات من حياة متنبي لا أكثر ولا أقلّ".[97]

ولكن ما أجمل تلك اللّحظات التي صوّرت لنا قيمة النّضج العربي والإنساني وصدق المتنبي حيث قال: أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ[98]

يقول ":أنا أنام ملء جفوني عن شوارد الشّعر لا أحفل بها لأنّني أدركها متى شئت بسهولة ،أمّا غيري من الشّعراء فإنّهم يسهرون لأجلها ويتعبون ويختصمون ".[99]

وشاع ديوان المتنبي في أرجاء المغرب العربي وأعجبوا به "واختصر شرح ابن جنّي في القرن السّادس عيسى بن عبد العزيز الجزولي (المتوفّى سنة 610ه) وألّف عبد العزيز القشتالي (المتوفى سنة 1031ه) كتابا سمّاه مقدمة لترتيب ديوان المتنبي ،ويقال عنّ الشّيخ عبد القادر الفاسي(المتوفّى سنة1090ه)كان يحفظ ديوان أبي الطيّب كلّه ،وكذلك يقال عن أبي عليّ اليوسي (المتوفى سنة 1102ه)".[100]

[97] طه حسين ؛ مع المتنبي ؛ دار المعارف ؛ مصر ؛ الطّبعة العاشرة ؛ (د،ت) ؛ ص : 379.
[98] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :04 ؛ ص :84.
[99] المصدر السّابق ، ج : 04 ،ص : 84.
[100] عبد الوهاب عزّام، ذكرى أبي الطيّب بعد ألف عام، دار المعارف، مصر، الطّبعة الثّانية:1375ه-1956م، ص : 275-276.

هذه بعض المسائل المتعلّقة بخصومة المتنبي وما أعقبها من نظرات نقدية هنا وهناك ،وكما قال إحسان عبّاس فإنّ خير ما يمثّل نقد القرن الرّابع الهجري هما موازنة الآمدي ووساطة الجرجاني .

حاولنا في هذا المبحث أن نعطي صورة متجليّة لأهمّ المعالم النقدية المتواجدة في القرن الرّابع وبالخصوص ما تعلّق بالمتنبي باعتباره الخلفيّة التي أسّس عليها القاضي الجرجاني وساطته .

ننتقل الآن للوقوف على كتاب الموازنة للآمدي ونستعرض من خلاله أهمّ الآراء التي جاء بها هذا الناقد الكبير ثمّ نذكر بعد ذلك عمل الجرجاني في وساطته ،فالكتابان يمثّلان حلقة علميّة مترابطة ليس في نقد القرن الرّابع فحسب بل حتّى في عصر النقد الحديث.

المبحث الثّاني:الأفكار النقدية في كتاب الوساطة وقيمتها العلميّة.

يعتبر هذا الكتاب أحد أمّهات كتب النقد والأدب ،ألّفه القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني (ت392هـ) ،وذكره الثعالبي (ت429هـ) بعنوان "الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره ".[101]

تناول أهمّ قضايا النقد والأدب بموضوعيّة وفنيّة عالية،مع تواضع ميّز جميع مراحل الكتاب ،ظهرت فيه شخصيّة الجرجاني الواسعة ثقافيا وعلميا مع براعة الفهم وحسن المناقشة.

تمثّل فكرة الوساطة الاتّجاه المعتدل في نقد شعر المتنبي ،وقف صاحبها موقفا الاعتدال والإنصاف فلم يتعصّب للمتنبي ولم يكن متحاملا عليه ،وقبل أن نقف على معالم الكتاب ونذكر سبب تأليفه وأهمّ موضوعاته نعطي أوّلا مفهوما لغويا واصطلاحيا لكلمة الوسطية.

مفهوم الوسطية :

الوسطيّة مأخوذة من "الوسط: محرّكة، من كلّ شيء أعدله ،قال تعالى(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[سورة البقرة آية 142]،أي عدلا خيارا والوسيط:المتوسّط بين المتخاصمين ".[102]

وقال ابن فارس":الواو والسّين والطّاء ،بناء صحيح ،يدلّ على العدل والنّصف ،وأعدل الشّيء أوسطه ووسطه".[103]

كما تطلق على طرفين متقابلين أحدهما ممدوح والآخر مذموم أو طرفين يمكن المقاربة بينهما،هذا في اللّغة أمّا اصطلاحا فهي:"سلوك محمود - مادي أو معنوي - يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين مُتقابلين-غالبًا-أو مُتفاوتين، تتجاذبهما رذيلتا الإفراط والتفريط، سواء في ميدان ديني أم دنيوي".[104]

---

[101]أبو منصور الثعالبي،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر،تحقيق :مفيد محمد ،دار الكتب العلمية ،لبنان،الطبعة الأولى :1420ه؛ ج:3،ص :33.

[102] الفيروز آبادي ،القاموس المحيط ،ص : 712-713،(باب : الطّاء ،فصل : الواو).

[103] (ابن فارس) أبو الحسن أحمد؛ معجم مقاييس اللّغة؛ تحقيق:إبراهيم شمس الدّين؛ ،(باب الواو والسّين وما يثلّثهما) ،ج:2،ص :411.

[104](الجرجاني) عليّ بن محمّد ،التّعريفات ، ص : 311.

وهي تعتمد على "منهج الشدّة والإرخاء والتوسّط بين طرفي الإفراط والتّفريط تعلّقا بميزان المصالح والمفاسد".[105]

وتكمن المصلحة في النقد على تأمّل النّصوص ومن ثمّ تقويمها وفق ما تحمله من إبداع، أمّا المفسدة فتتمثّل في التّنبيه على الأخطاء قصد اجتنابها، فهي تحاول الوقوف موقفا يتجنّب إفراط خصوم المتنبي وتفريط أنصاره، والاعتدال يقتضي أن ننظر بعدالة ونقوّم بموضوعيّة.

يعود سبب تأليف الكتاب إلى ما ذكره الثعالبي بقوله":ولـمّا عمل الصاحب رسالته المعروفة "في إظهار مساوئ المتنبي"عمل القاضي أبو الحسن كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره"فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصّواب واستولى على الأمر في فصل الخطاب ،وأعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد ،فسار الكتاب مسار الرّياح وطار في البلاد بغير جناح ،وقال فيه بعض العصريين من أهل نيسابور (من بحر المتقارب)

أَيَا قَاضِيًا قَدْ دَنَتْ كُتْبُهُ وَإِنْ أَصْبَحَتْ دَارُهُ شَاحِطَة

كِتَابُ الْوَسَاطَةِ فِي حُسْنِهِ لِعِقْدِ مَعَاليك كَالوَاسِطَة ".[106]

تمثّل الوساطة جانبا مهمّا ممّا نسمّيه بالتحرّر الفكري الذي يساعد على إنتاج نقد فنّي وموضوعي في آن واحد ،الرّجلان جمعتهما رابطة المودّة وفرّقهما النّظرة العلميّة المتباينة ،إنّ معرفة الأسباب طريق مهمّ لفهم المقاصد والغايات فكثير من الأحكام الشّرعية بنيت على هذا الأساس كقاعدة "الأمور بمقاصدها" بمعنى أنّ "الحكم الذي يترتّب على أمر يكون على مقتضى المقصود من ذلك الأمر".[107]

[105]الأخضر الأخضاري ،الإمام في مقاصد ربّ الأنام (مقاصد الشريعة الإسلامية) ،ص : 149.
[106]:أبو منصور الثعالبي،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ج :3 ؛ ص؛ :34
[107] عبد القادر داودي ، القواعد الفقهية ؛ ص : 48

فغرض الجرجاني الإنصاف ،أمّا الصاحب فمراده ردّ الاعتبار لأنّ المتنبي خاطبه مترفّعا عن مدحه قائلا ":إنّ غليّما معطاءً يريد أن أزوره و أمدحه ولا سبيل إلى ذلك ،فصيّره الصاحب غرضا يرشقه بالسّهام ويتتبّع عليه سقطاته في شعره وهفواته ،وينعى عليه سيّئاته ".[108]

وبناء على هذه الرّواية فإنّ هذا هو السّبب المباشر في ظهور الوساطة التي سعى صاحبها لمناقشة الصاحب وردّ الكثير من اتّهاماته للمتنبي ،أمّا السّبب الغير مباشر فيتمثّل في كثرة الخصومات النّقدية الّتي ميّزت القرن الرّابع الهجري وبالأخصّ مشكلة السّرقات وارتباطها بشعر المتنبي.

لا يمكننا الجزم بتحديد السّنة التي ألّف فيها الجرجاني كتابه بينما "تشير القرائن إلى أنّه ألّفه بعد وفاة المتنبي (ت354ه) لأنّ النيسابوري صاحب بيتيْ الشّعر يخاطبه بالقاضي وهو لم يصر قاضيا إلاّ بعد سنة (366ه) وهي السّنة التي أصبح فيها الصاحب وزيرا ".[109]

و لا يمكننا الجزم أيضا بظهور الوساطة هل كان في حياة الصاحب أم بعد وفاته، أشار أحمد بدوي لهذا الأمر بقوله ":ليس فيما لديّ من المراجع ما يجعلني أقطع في ذلك برأي ".[110]

لو قدّرنا حصول ذلك لما أغفل هذا الأمر لأهميّته ،من بين الأمور التي لفتت أنظارنا في منهاج الكتاب هي عدم تصريح الجرجاني بأسماء الخصوم وإنّما يشير إليهم غالبا بقوله ":قال المعترض أو الخصم" وهذا الأسلوب يدفع بعض الذّاتية عن صاحبه لأنّه في –اعتقادنا-أسلم وأنسب لفكرة التوسّط بين فئتين ترجى المقاربة بينهما ،واللّفظ العامّ يشمل جميع أفراده بخلاف اللّفظ الخاصّ .

من العوامل المساعدة والمحافظة على بقاء كتاب الوساطة-في نظرنا- اشتماله على جانبين مهمّين الأوّل :ارتباطه بشعر المتنبي ،والآخر ما تميّز به من الطّرح الموضوعي والتأمّل الفنّي في كلّ ما يتّصل بالنقد والناقد معا من الشروط والمؤهّلات .

[108] يوسف البديعي ؛ الصبح المنبي ، ص : 82
[109] محمود السمرة ؛ القاضي الجرجاني الأديب الناقد ؛منشورات المكتب التجاري ؛بيروت ؛الطبعة الثانية؛ 1979م ؛ص :112
[110] أحمد بدوي ؛ القاضي الجرجاني ؛ دار المعارف ؛ مصر ؛(د ،ط) ؛(د،ت) ؛ ص:50

طبع الكتاب ثلاث مرّات"الأولى:نشره أحمد عارف الزّين بصيدا 1331هـ -1912م معتمدا على مخطوطتين إحداهما عراقية وثانيهما موجودة في المكتبة الأزهرية .

المرّة الثّانية :طبع في مطبعة محمّد علي صبيح بالقاهرة ،وهي كثيرة الأخطاء.

المرّة الثالثة :حقّقه وشرحه محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي ونشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ".[111]

اعتمدنا في هذا البحث على الطّبعة التي حقّقها أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي وحصلنا على الطّبعة الرابعة الصّادرة عام :1386 هـ-1966 م.لأنّ فيها زيادة شرح وتحقيق.

يقع الكتاب في خمسمائة وستة وثلاثين صفحة (536)، يتصدّر الكتاب مقدّمة المحقّقين وتشمل سبع صفحات مرقّمة بالحروف الأبجدية (أ-خ)،والكتاب ملحق بفهارس الموضوعات والأعلام والقبائل والأماكن وأسماء الشّعراء وقوافي شعرهم وأسماء الكتب المعتمدة في التّحقيق ،نشير إلى أنّ آخر صفحة من الكتاب فيها تصويب واستدراك لبعض الأخطاء المطبعية الموجودة في الكتاب.

محتويات الكتاب:

تضمّن مجموعة هامّة من المعارف المتصّلة بالنّقد والأدب "وليس كتاب الوساطة مختصّا بشعر المتنبي كما يفهم من عنوانه ،بل إنّه عرض للأصول الأدبية الّتي عرفت في عصره ،وحلّل أشعار القدماء والمحدثين ،وأورد كثيرا من محاسنهم وعيوبهم ،وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض وأخذٍ وسرقة واستعارة حسنة أو رديئة ".[112]

للوقوف على موضوعات الكتاب قسّمناه إلى ما يلي :القسم الأوّل هو عبارة عن مقدّمة بيّنت موقف المؤلِّف من النقد والأدب عموما ،والقسم الثّاني يتمثّل في دفاع الجرجاني عن المتنبي معتمدا

[111] محمود السمرة ؛ القاضي الجرجاني الأديب الناقد ؛ ص : 62.
[112] محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي ؛مقدّمة تحقيق الوساطة ؛ ص : (ج - د).

على المقايسة ،أمّا الثّالث فهو عبارة عن نقد تطبيقي في مناقشة مآخذ الخصوم بموضوعية علمية ،نبدأ الحديث عن هذه الأقسام بإسهاب وتفصيل مصدّرين الحديث بالمقدّمة.

1 - مقدّمة الكتاب.

تبدأ من الصّفحة الأولى إلى غاية الصّفحة الثامنة والأربعين (01-48) ،بيّن فيها الجرجاني موقفه من النقد وما يفرضه التّرابط والتّواصل على أهل الأدب من المودّة والإنصاف ،مستهلاّ حديثه بحقيقة إنسانية هامّة مفادها أنّ "أهل النّقص رجلان:رجل أتاه التّقصير من قبله ،وقعد به عن الكمال اختياره ،فهو يساهم الفضلاء بطبعه ،ويحنوا على الفضل بقدر سهمه ،وآخر رأى النّقص ممتزجا بخلقته ،ومؤثّلا في تركيب فطرته ،فاستشعر اليأس من زواله ،وقصّرت به الهمّة عن انتقاله،فلجأ إلى حسد الأفاضل ،واستغاث بانتقاص الأماثل ".[113]

ليست غاية النقد ازدراء الشّعراء والتّشنيع عليهم لذلك ذمّ القرآن من كتم العلم وستر الحقّ لئلاّ يظهر قال الله تعالى(وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [سورة البقرة آية 41] ،فخصومة المتنبي نشأت من مرتع الحسد ،وأنصاره رفعوه إلى ذروة المجد ،وقف الجرجاني موقفا وسطا من الطّرفين أشار له بقوله":فضل المتنبي ظاهر ولكن له أخطاؤه أيضا فإن عثر على واحد منها قيل :زلّة عالم ،وأيّ إنسان كامل لا يزل ؟ وأيّ شاعر لم يهف ولم يسقط ؟ وهذه دواوين شعراء الجاهلية و الإسلام لا تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه إمّا في لفظه ونظمه ،أو ترتيبه وتقسيمه ،أو معناه أو إعرابه".[114]

هذا هو المنطق السّليم فكلّ شاعر يجيد ويخطأ،قرّر الجرجاني هذه الحقيقة وراح يدلّل عليها بجملة من أخطاء فحول الشّعراء مهاجما المتزمّتين المتعصّبين للقديم ،ومنتصرا للمحدثين متعاطفا معهم ،لأنّ

[113](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص :01.
[114] المصدر السابق ؛ ص : 4.

القدماء أغلقوا أبواب المعاني وسبقوا المحدثين إليها لقرب عهدهم باللّغة "ولو أنصف أصحابنا هؤلاء –يعني المحدثين...وعذره يكذب".[115]

لذلك اتّهم المحدثون بالسّرقة من هذا الجانب واعتذر لهم الجرجاني بما ذكره في النصّ السّابق ،ومن أهمّ الأمور التي أشار إليها ذكره لمقوّمات الإبداع الأدبي(الطبع،الرّواية،الذكاء،الدربة) ،ورأى أنّه على قدر الإجادة فيها يكون التفاضل ،ملغيا بذلك عامل الزّمن أو ما يسمّى بالمقياس التّاريخي فلم يجعل للمتقدّم من الشّعراء فضلا على من جاء بعده ،فالعصبية القبلية والمذهبيّة لعبت أدوارها ،يقول ابن سلاّم وقد أخبره يونس بن حبيب بأنّ"علماء البصرة كانوا يقدّمون امرأ القيس بن حُجْر ،وأهل الكوفة يقدّمون الأعشى وأنّ أهل الحجاز والبادية كانوا يقدّمون زهيرا والنّابغة ".[116]

نلاحظ أثر العصبيّة في المفاضلة بين الشّعراء ،لكنّ تقويم الإبداع إنّما يقوم على المعايير الفنيّة التي رأت في شعر المحدثين بعض الالتفاتة الحسنة من خلال إجادتهم في المعاني وصياغتها لتواكب متطلّبات البيئة والزّمن ،هذا ما نبّه عليه الجرجاني في أنّ عمليّة الإبداع تستلهم طاقاتها وعناصرها من بيئة المبدع ليتدفّق وجدانه وتقوى عاطفته وانفعالاته ،اعتمد الجاهلي على طبيعة بيئته فصاغها وقام بتصوير هيئته ومشاعره ممزوجة بالفضاء المحيط به ،والشّعر المحدث جاء نابعا من ثقافة العصر ومن رحم الشّاعر الذي أصبح متلقّيه متكوّنا من أجناس مختلطة وثقافات متنوعّة ألزمته أن يتعرّف إليهم من خلال قناة الاتّصال ،فشت الصنعة اللّفظية والمعاني البعيدة المستغلقة لأنّ البيئة الجديدة تطلّبت ذلك ،أمّا عندما يريد الشّاعر الإفصاح عمّا هو مكنون في خلده وممزوج بطبعه يسترسل هذا الطّبع الذي يروق الجرجاني ويستعذبه ،أمّا التّصنع في نظره فليس ممقوتا من جميع جوانبه لأنّه يحمل في دوافعه محاولة الإجادة وإبراز المقدرة الفنيّة وهو مستحسن إذا حافظ على صلته بالطّبع أمّا إذا استقلّ عنه فالذّوق يرفضه ويمجّه لما يحمله من اضطراب يقول الجرجاني مبيّنا ذلك ":لأنّ مع التكلّف المقت ،والنّفس عن التّصنع نفرة وفي مفارقة الطّبع قلّة الحلاوة وذهاب الرّونق وإخلاف الديباجة ،وربّما كان ذلك سببا

[115] السابق ؛ ص : 29.
[116] (ابن سلاّم الجمحي) محمّد ،طبقات فحول الشّعراء ،قرأه وشرحه:محمود محمّد شاكر،شركة القدس للنّشر والتّوزيع،دار المدني ؛(د،ط) (د،ت) ص:52.

لطمس المحاسن كالذي نجده كثيرا في شعر أبي تمّام فإنّه قد حاول بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه فحصل منها على توعير اللّفظ ،فقبح في غير موضع من شعره ".[117]

يتدفّق الشّعر المطبوع من نفسيّة الشّاعر فيأتي معبّرا ومؤثّرا ،بخلاف التكلّف فيأتي منفصلا عن الذّات والعواطف ،وقد بيّن فرق ما بين الطّبع والتصنّع حيث قال ":ومتى أردت أن تعرف ذلك عيانا وتستثبته مواجهة فتعرف فرق ما بين المصنوع و المطبوع وفضل ما بين السمح المنقاد و العصي المستكره فاعمد إلى شعر البحتري ودع ما يصدر به الاختيار ويعدّ في أوّل مراتب الجودة ويتبيّن فيه أثر الاحتفال وعليك بما قاله عن عفو خاطره وأوّل فكرته كقوله:

أُلَامُ عَلَى هَوَاكِ وَلَيْسَ عَدْلًا ... إِذَا أَحْبَبْتُ مِثْلِكِ أَنْ أُلَامَا

أَعِيدِي فِيَّ نَظْرَةَ مُسْتَثِيبٍ ... تَوَخَّى الأَجْرَ أَوْ كَرِهَ الأَثَامَا

تَرَيْ كَبِدًا مُحَرَّقَةً وَعَيْنًا ... مُؤَرَّقَةً وَقَلْبًا مُسْتَهَامَا

تَنَاءَتْ دَارَ علْوَةَ بَعْدَ قُرْبٍ ... فَهَلْ رَكْبٌ يُبَلِّغُهَا السَّلَامَا

وَجَدَّدَ طَيْفُهَا عتبًا عَلَيْنَا ... فَمَا يَعْتَادُنَا إِلاَّ لِمَامَا

وَرُبَّتَ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّ أُسْقَى ... بِعَيْنَيْهَا وَكَفَّيْهَا المَدَامَا

قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا واعْتِنَاقَا ... وَأَفْنَيْنَاهُ ضَمًّا وَالْتِزَامَا [118] ".[119]

ويعرض شواهد أخرى من جيّد شعره ثمّ يقول":أنظر هل تجد معنى مبتذلا ولفظا مستعملا ،وهل ترى صنعة وإبداعا أو تدقيقا أو إغرابا ؟ ثمّ تأمّل كيف تجد نفسك عند إنشاده وتفقد ما يتداخلك من الارتياح و يستخفك من الطّرب إذا سمعته ،وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثّلة لضميرك ومصوّرة

[117] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 105.
[118] البحتري ؛ الديوان ؛ ج:2 ، ص :389.
[119] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 25- 26 .

تلقاء ناظرك ،فإن قلت هذا نسيب والنّفس تهش له والقلب يعلق به والهوى يسرع إليه فأنشد له في المديح قوله :

بَلَوْنَا ضَرائبَ مِنْ قَدْ نَرَى فَمَا أَنْ وَجَدْنَا لِفَتح ضَرِيبَا

هُوَ المرْءُ أَبْدَتْ لَهُ الحَادِثَاتُ عَزْمًا وَشِيكًا وَرَأْيًا صَلِيبَا

تنقَّلَ فِي خلقي سودد سَمْحًا مُرجى وَبَأْسًا مَهِيبَا[120] ".[121]

يحافظ البحتري على طبعه في جميع الأغراض الشّعرية وهذه السمة غالبة على جميع شعره.

اتّخذ الجرجاني من الذّوق المدرّب مقياسا في الحكم على الطّبع والتصنّع في الجودة ،وقال بتفاوت مستويات الطّبع وذلك من خلال الموازنة الّتي أقامها بين أبيات رائعة لأبي تمّام مليئة بالطّبع المتدفّق وقابلها بأبيات لبعض الأعراب استساغها الذّوق وامتزجت بها مشاعر النّفس ،يقول الجرجاني ":وقد تغزّل أبو تمّام فقال (من البسيط):

دَعْنِي وَشُرْبَ الْهَوَى يَا شَارِبَ الْكَأْسِ فَإِنّني لِلَّذِي حَسيّته حَاسِي

لَايُوحِشَنَكَ مَا اسْتَعْجَمْتَ مِنْ سَقَمِي فَإِنَّ مَنْزِلَــهُ مِنْ أَحْسِنِ النَّاسِ

مَنْ قَطَعَ أَلْفَاظَهُ تَوْصِيلَ مَهْلَكَتِي وَوَصْلَ أَلحَاظِهِ تَقْطِيعَ أَنْفَاسِي

مَتَى أَعِيشُ بِتَأْمِيلِ الرَّجَــاءِ إِذَا مَا كَانَ قَطْعُ رَجَائِي فِي يَدَيْ يَاسِي.[122]

فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة ،طابق وجانس ،واستعار فأحسن،وهي معدودة في المختار من غزله ،وحقّ لها فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن ،وأصنافا من البديع ،ثمّ فيها من

[120] البحتري ؛ الديوان ؛ج : 01، ص : 56.
[121] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :26
[122] الخطيب التبريزي ؛ شرح ديوان أبي تمام ؛ ج: 02 ؛ ص : 274.

الإحكام والمتانة والقوّة ما تراه ،ولكنّني ما أظنّك تجد له من سورة الطرب،وارتياح النّفس ما تجده لقول بعض الأعراب:

أَقُولُ لِصَاحِبِي والعِيسُ تَهْوي بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

أَلَا يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ وَرَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ القِطَارِ

وَعَيْشُكَ إِذْ يَحُلَّ الْقَوْمُ نَجْدًا وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ

شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِ

فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ وَأَقْصَرُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

فهو كما تراه بعيدا عن الصّنعة، فارغ الألفاظ، سهل المأخذ، قريب التناول ".[123]

علّل إعجابه بأبيات الأعرابيّ لخلوّها من التصنّع وسهولة مأخذها وقرب تناولها لكنّه أغفل دور الذّوق الذي طالما أكّد عليه سابقا بقوله":ولكنّني ما أظنّك تجد له من سورة الطّرب،وارتياح النّفس ما تجده لقول بعض الأعراب ".[124]

أبيات أبي تمام والأعرابيّ صادرة عن الطّبع والتّفاوت بينهما يجب أن يكون مردّه للذّوق أمّا قوله ببعد أبيات الأعرابيّ عن الصّنعة وسهولة مأخذها ففيه نظر وهو ما لاحظه عثمان موافي ونبّه عليه مشيرا في الوقت نفسه للصّنعة الظّاهرة في شعر الأعرابيّ ،وذكر البواعث الّتي راقت الذّوق في استحسانه لهذه الأبيات قائلا":لعلّ من أوضحها أنّها أصدق تصويرا لمشاعر صاحبها ونفسه من تلك ،وأكثر صراحة منها في التّعبير عن انفعالات الرّجل البدائي ،الذي يمثّل طفولة الإنسان وفطرته النّقيّة الصّافية ".[125]

[123] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص :32 – 33 (وقد نسبه في النوادر للصمّة بن عبد الله القشري (ينظر النوادر صفحة :(265).

[124] المصدر السابق ؛ ص : 33

[125] عثمان موافي ، الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص : 189

يؤكّد هذا النصّ على مدى تجاوب الذّوق في الحكم وقيمة الأثر الذي يتركه في النّفوس حيث استطاع أن يدرك المستوى المنحطّ قليلا عند أبي تمام ،ولا يعود سبب تفضيل الأعرابيّ لبعده عن التصنّع كما علّل الجرجاني ذلك سابقا "فالقول إذن بخلوّ هذه الأبيات من الصّنعة الفنيّة فيه مغالطة كبيرة ".[126]

تستّرت ملامح الصّنعة خلف طبع الأعرابيّ وعاطفته القويّة ،فالطّباق مثلا (بين اللّيل والنّهار) والجناس اللّفظي بين عرار في شطريْ البيت الثّاني ،بالإضافة إلى جمال الموسيقى في تقارب الحروف مثل الصاد والضّاد والسين والشين في البيت الأوّل والرّابع وتكرار الشّاعر لفظة (نجد) في ثلاثة أبيات متتالية ليعبّر عن مكنون حبّه لهذا الموضع ،واختيار الأعرابيّ الرّاء المكسورة قافية لهذه الأبيات ليربط بين انكسار الشّاعر النّفسي وشكل الرّاء المكسورة.[127]

من أبرز الأمور الملفتة في الوساطة الإشارة الواضحة لعمود الشّعر "وكانت العرب إنّما تفاضل بين الشّعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحّته ،وجزالة اللّفظ واستقامته ،وتسلّمُ السّبق فيه لمن وصف فأصاب ،وشبّه فقارب،وبده فأغزر ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته،ولم تكن تعبأ بالتّجنيس والمطابقة ،ولا تحفل بالإبداع و الاستعارة إذا حصل لها عمود الشّعر ،ونظام القريض ".[128]

سنبيّن هذه العناصر بوضوح ونمثّل لها في الفصل الثّالث من هذا البحث ونذكر المعايير الخاصّة بكلّ عنصر ونذكر أيضا تأسيس المرزوقي لنظريّة عمود الشّعر انطلاقا من تصوّر الجرجاني وإشارته الواضحة فهذا الإسهام الكبير الذي قدّمه الجرجاني للسّاحة النقدية والأدبية يعتبر عملا جبّارا يوحي بقيمة الأفكار النقدية التي حملها الوساطة في طيّاته ،وتلك النّظريات البلاغية الهامّة منها ما يتعلّق بألوان البديع الذي جاء في شعر القدماء عن عفو خاطر دون تقصّد ،يقول الجرجاني مبيّنا ذلك":وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ،ويتّفق لها البيتان بعد البيت على غير تعمّد وقصد ،فلمّا أفضى الشّعر

[126]المصدر السابق ؛ ص :190
[127]ينظر كتاب الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ عثمان موافي ؛ ص : 189 – 190 .
[128](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص :33 – 34.

إلى المحدثين ،ورأوْا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ،وتميّزُها عن أخواتها في الرّشاقة واللّطف تكلّفوا الاحتذاء عليها فسمّوْهُ البديع،فمن محسن ومسيء،ومحمود ومذموم،ومقتصد ومفْرط ".[129]

عندما يخضع البديع لسلطان الطّبع يأتي منسجما وجيّدا ومستساغا في الذّوق ،وكلّما ابتعد عنه ازداد اضطرابا ،من جملة الألوان البيانية التي ذكرها في الوساطة فنّ التّشبيه والاستعارة والتّجنيس بنوعيه (التّام والناقص) ،كذلك ما ذكره في حديثه عن الاستهلال والتخلّص والخاتمة وطريقة العرب في ذلك من المعاني اللّائقة بتلك الأقسام المكوّنة لشكل القصيدة ،مبيّنا مدى التزام البحتري لطريقة العرب في التخلّص والخاتمة مع ما اتّفق له محاسن في الاستهلال ،أمّا أبو تمام والمتنبي"فقد ذهبا في التخلّص كلّ مذهب ،واهتمّا به كلّ اهتمام ،واتّفق للمتنبي فيه خاصّة ما بلغ المراد ،وأحسن وزاد ".[130]

هكذا جاءت مقدّمة الكتاب عبارة عن محطّات أدبية ونقدية تميّزت بالوضوح والاعتدال مع تسلسل في الأفكار وإنصاف في الأحكام حتّى في دفاعه عن المتنبي.

القسم الثاني: دفاع الجرجاني عن المتنبي.

استهلّ هذا القسم بقوله ":ثمّ نعدل إلى ما تكلّفناه في هذه الوساطة فنقول:إنّ خصم هذا الرّجل فريقان:أحدهما يعمّ بالنّقص كلّ محدث ".[131]

وهؤلاء المتعصّبون للقديم ،أمّا الخصوم الأشدّ فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ،ينكرون شعرية المتنبي محتجّين بكثرة سرقاته حينا وبتفاوت شعره حينا آخر فيحاججهم الجرجاني بعرض نماذج من تفاوت شعر أبي نواس وأبي تمام ليقيم الحجّة من جنسها مشيرا للأمور الّتي أجادوا فيها أو أخفقوا مفيضا القول في بيانها ومقيما الشّواهد على تبيينها منبّها لغايته النّبيلة في عدم النّعي على أبي تمام وأبي نواس وإنّما غرضه الاعتذار لأبي الطيّب ،وخصّ هذين الشّاعرين بالذّكر ليجمع بين سيّدي المطبوعين وإمامي أهل الصّنعة ،يقول الجرجاني في تفاوت شعر أبي نواس":ولو تأمّلت شعر أبي نواس

[129] المصدر السابق ؛ ص : 34.
[130] السابق ؛ ص :48.
[131] المصدر نفسه ؛ ص :49

حقّ التّأمل ثمّ وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ،وعددت منفيّه ومختاره لعظّمت من قدر صاحبنا ما صغّرت ولأكبرت من شأنه ما استحقرت ".[132]

إنّ تفاوت المستوى الشّعري لا يصلح مقياسا فنيّا لتقويم العمل الفنّي، فهذا لم يسلم منه أحد، فأبو نواس مع جلالة قدره في الشّعر جمع بين الجودة والرّداءة فمن جيّد شعره قوله:

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الذِي نُثْنِي

وَإِنْ جَرَتِ الأَلْفَاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إنسانا فَأَنْتَ الذِي نَعْنِي.[133]

تأخذ هذه الأبيات بمجامع ذوق الجرجاني فيعبّر عنها بقوله":ومن سلك هذا المسلك من شعره فقد صافح السّماء وتناول النّجوم ".[134]

ثمّ يثنّي برديء شعره مثل قوله :

مَا لِرِجْلِ الْمَالِ أَضْحَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ الكَلَالا

مَا لِأَمْوَالِكَ مَنْ جَا ءَ احْتَثَى مِنْهَا وَكَالَا.[135]

لم ترق هذه الأبيات ذوق الجرجاني لركاكة ألفاظها وسوء صياغتها وقلّة معانيها فقال":ونحو هذا ممّا يملّ النّاظر ،ويضيع وقت الكاتب ".[136]

يمهّد الجرجاني بهذا الحديث المتعلّق بأبي نواس ليجعله فيما بعد طرفا يقيس عليه ما أشبهه من شعر المتنبي والوصف الجامع بينهما هو تفاوت مستوى الجودة والرّداءة لتكون نتيجة ذلك عدم غضّ الطّرف عن أبي نواس وأبي تمام وتفتّحه لرؤية كلّ شاردة وواردة من شعر أبي الطيّب ،هكذا حاجّ الجرجاني خصوم المتنبي من خلال هذا الإجراء للقياس ليضع النقاد أمام عتبة الحقّ ،ويحكم به ، لم

[132] نفسه ؛ ص : 55.
[133] (أبونواس) ،الديوان ؛شرح :عليّ فاعور دار الكتب العلمية؛ لبنان؛ الطبعة الثانية: 1423ه-2002م ، ص : 555.
[134] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 56.
[135] أبو نواس ؛ الديوان ؛ ص : 417.
[136] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 61.

يكتف الجرجاني بمسألة تفاوت المستوى الشّعري بل توسّع في ذكر شواهد كثيرة على عيوبهم في اللّحن والخطأ في الوزن أو حتّى فساد العقيدة كما نقل عن أبي نواس وأبي تمام واتّهم بها المتنبي فوجد الطّامعون مطمعا في تجريحه وإسقاط شعره فواجههم القاضي صاحب الفقه والأصول بفتوى جريئة جراءة الشّجعان متضمّنة في طيّاتها شجاعة الفحول وإفصاح أرباب الفصاحة والبيان ،لأهميّة هذه المسألة نفردها بجانب من الاهتمام والبيان لنقف على مدى صداها في النقد.

علاقة الدّين بالشّعر:

إنّ موقف الجرجاني واضح وصريح في فصل الدّين عن الشّعر يتجلّى ذلك في قوله":فلو كانت الدّيانة عارا على الشّعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخّر الشّاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدّواوين ويحذف ذكره إذا عدّت الطّبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمّة عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبَعرى وأضرابهما ممّن تناول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبِكَاء مفحمين،ولكنّ الأمرين متباينان،والذين بمعزل عن الشّعر".[137]

تقويم الفنّ لا يخضع للمقياس الدّيني أو الأخلاق بل يكون الاحتكام فيه للمعايير التي تحدّد الجودة أو الرّداءة،نفس الرّأي قاله ابن سلاّم وذهب إلى رفض المقياس الدّيني جاعلا امرئ القيس في أوّل الطّبقات، فمن غلّب جانب الفنّ لم يقيّد حرّية الإبداع ،أمّا من راعى جانب قداسة الدّين ومحلّ الأخلاق فقيّد حريّة الإبداع وأخضعها لما يعرف بالالتزام الأدبي.

نعرض الآن بعض الحجج التي—نرى الجرجاني قد تمسّك بها -في عزله الدّين عن الشّعر ونناقش في المقابل أيضا قول المخالف بروح علمية وموضوعية ،ونقسّم هذا النّقاش إلى قسمين:

[137]المصدر السابق ؛ ص : 64.

الأوّل :نبيّن فيه موقف الإسلام من الشّعر أي الفتوى المعتبرة عند فقهاء المسلمين ،وفي الثاني: نبيّن موقف النقاد بين من يرى فصل الدّين عن الشّعر وبين من يرى خلاف ذلك لنخرج بعد ذلك بنتيجة حتمية لا نلزم غيرنا بها وإن كنّا نؤمن بها.

أوّلا:موقف الفقهاء من عزل الدّين عن الشّعر.

قال الله تعالى(وَالشُّعَرَآءُ يَتْبَعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ [سورة الشعراء آية 223](أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ [سورة الشعراء آية 224](وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ [سورة الشعراء آية 225](إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً ﴿٢٢٧﴾[سورة الشعراء آية 226] ،قال الزمخشري في الكشّاف":والقول فيه أنّ الشّعر باب من الكلام ،فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام".[138]

فمن قذف غيره بالشّعر أو النّثر أقيم عليه الحدّ لأنّهما من جنس الكلام ،والحسن منه ما تعلّق به النّفع ولم تكن فيه مفسدة ،كما أنّ المعاني مباحة ما لم يتلطّخ أصحابها بذنب كما قال الزمخشري أيضا "ولا يتلبسون بشائبة ولا منقصة ،وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممّن يهجوهم ،قال الله تعالى(لاَّ يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِالسُّوۤءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴿١٤٧﴾ [سورة النساء آية 147]وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى(فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١٩٣﴾ [سورة البقرة آية193] ".[139]

ولذلك هجا شعراء النبيّ مشركي قريش من قبيل دفع الضّرر ،ولأنّ الاعتداء يحمد في بعض المواطن إذا لم يتعدّ صاحبه المثل ،وآية الشّعراء لا ينبغي أن تؤخذ على إطلاقها لأنّه غلط وسوء تأويل"لأنّ المقصودين بهذا النّص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم بالهجاء

[138]أبو القاسم جار الله الزمخشري ،الكشف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ،دار المعرفة ،بيروت ؛ج:03 ؛ص :131.
[139] المصدر السابق ؛ج:03 ؛ص :131.

ومسّوه بالأذى ،فأمّا من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك ،ألا تسمع كيف استثناهم الله عزّ وجلّ ونبّه عليهم فقال(إِلاَّ ٱلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴿٢٢٧﴾ [سورة الشعراء آية 226]يريد شعراء النبيّ عليه السّلام الذين كانوا ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه ،كحسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وقد قال فيهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هؤلاء النّفر أشدّ على قريش من نضح النبل وقال لحسّان بن ثابت :{أهجهم –يعني قريشا- فو الله لهجاؤك عليهم أشدّ من وقع السّهام في غلس الظّلام ،أجهم ومعك جبريل ،روح القدس ،والق أبا بكر يعلّمك تلك الهنات}،فلو أنّ الشّعر حرام أو مكروه ،ما اتّخذ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم شعراء يثيبهم على الشّعر ،ويأمرهم بعمله ،ويسمعه عنهم "[140].

فهذه الآية صريحة في ذمّ الشّعر الذي حارب الدّعوة الإسلامية ،والله تعالى سمّاهم شعراء يقولون ما لا يفعلون وفي هذا دليل على أنّ الشّعر شعر لا يقوّم بالجانب الدّيني ،وعلى ذلك جاء الاستثناء في الآية ،وإذا اعترض المحتجّ بذمّ الله لهم بهذا الوصف أي أنّهم يقولون ما لا يفعلون فالقرآن ذمّ أيضا المؤمنين الذين قعدوا عن الجهاد يوم أحد فقال تعالى(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ [سورة الصف آية 2] .

وفي هذا المعرض يقول عبد القاهر (ت471هـ) منبّها على الوجه السّليم لآية الشّعراء حيث قال ":ما أرى عاقلا يرضى به أن يجعله حجّة في ذمّ الشّعر وتهجينه ،والمنع من حفظه وروايته ،والعلم بما فيه من بلاغة ،وما يختصّ به من أدب وحكمة ذاك لأنّه على قود هذا القول أن يعيب العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهليّة في تفسير القرآن ،وفي غريبه وغريب الحديث

[140] (ابن رشيق القيرواني) أبو علي الحسن ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ،تحقيق:محمّد أحمد عطا دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،الطبعة الأولى ،1422ه-2001م ،ج :2 ؛ ص : 22-23.

وكذلك يلزمه أن يدفع سائر ما تقدّم ذكره من أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالشّعر وإصغائه إليه واستحسانه له".[141]

وأمّا قوله عزّ وجلّ(وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ [سورة يس آية 68] ،استدلّوا بهذه الآية على إنكار الشّعر وذمّه مع أنّ الأمر ليس كذلك لأنّ المعنى "وما علّمناه بتعليم القرآن الشّعر على معنى أنّ القرآن ليس بشعر ،وما هو من الشّعر في شئ ،وأين هو عن الشّعر والشّعر إنّما هو كلام موزون مقفّى يدلّ على معنى فأين الوزن وأين التّقفية وأين المعاني الّتي ينتجها الشّعراء عن معانيه وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه فإذا لا مناسبة بينه وبين الشّعر إذا حقّقت اللّهمّ إلّا أنّ هذا لفظه عربيّ كما أنّ ذلك كذلك".[142]

نفي الشّاعرية عنه عليه السّلام تحقيقا لمقصد الشّارع في دفع الريب عن الوحي إنّ "هذا الإلحاح في نفي الشّاعرية عن الرّسول لا يعني أنّ الإسلام عادى الشّعر وأنكره وإنّما هو بيان لرسالة المصطفى ودفع للوهم الذي خلطوا به بين القرآن والشّعر ومن واديه تماما تأكيد القرآن لأميّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم دفعا للاتّهام بأنّه قرأ الكتب السّماوية وأخذ عنها(وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾[سورة العنكبوت آية 48]،ولم تعن أميّة الرّسول وتقرير القرآن لهذه الأميّة أنّ الدّين الإسلامي يحضّ على الأميّة ويعادي العلم".[143]

لم يُعَلَّم صلّى الله عليه وسلّم الشّعر فهذا دليل على أنّ الشّعر علم والقرآن مدح العلم ورفع من قدر أهله قال تعالى(يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ [سورة المجادلة آية 11]، فهذا دليل على شرف الشّعر وأنّه علم ينبغي تعلّمه إذا ثبت أنّ الشّعر علم فلكلّ علم أصوله ومناهجه، أمّا اعتبار الوازع الدّيني فهو من قبيل الغاية النّبيلة التي يراد تحصيلها منه ومن غيره من العلوم الأخرى .

[141] عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز،تحقيق ؛محمود محمّد شاكر ،مطبعة المدني ،مصر ،الطبعة الثالثة ؛1413ه-1992م؛ ص : 27.
[142] أبو القاسم جار الله الزمخشري ،الكشف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ؛ج:03 ؛ص : 292.
[143] عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، مصر ،1970؛ ص : 72.

ما ورد من أحاديث في ذمّ الشّعر مع تسليمنا بصحّتها نجيب عنه بما ذكره أبو إسحاق الشاطبي (790هـ) في حديثه عن الاقتداء بفعل النبّي صلّى الله عليه وسلّم إذا صاحبه القول فهو أبلغ حجّة من قوله إذا لم يطابقه الفعل فهذا الأمر لا يدلّ على أفضليّة ولا مفضوليّة ،ومن جملة المسائل التي نصّ عليها في هذا المحلّ ما يتعلّق بحكم الشّعر حيث قال ":وأمر عليه الصّلاة والسّلام حسّان وغيرَه بإنشاد بالشّعر وأذن لهم فيه ،ومع ذلك فقد منعه عليه الصّلاة والسّلام ولم يعلّمه وذلك يدلّ على مرجوحيته ولقوله(وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥ)وقال لحسّان أهجهم وجبريل معك فهذا إذن في الهجاء ،ولم يذمّ عليه الصّلاة والسّلام أحدا بعيب فيه خلاف عيب الدّين ولا هجا أحدا بمنثور كما لم يتأتّ له المنظوم أيضا ،ومن أوصافه عليه الصّلاة والسّلام أنّه لم يكن عيّابا ولا فحاشّا".[144]

هذا أقوى دليل نتمسّك به في موافقتنا لرأي الجرجاني ،فلا ينبغي حمل الشّعر على الذمّ من جميع الوجوه فقد أذن عليه الصّلاة والسّلام لحسّان بالشّعر وخصّ من الهجاء، فقال عليه السّلام لحسّان بن ثابت:{اهجهم وروح القدس معك}.[145]

وإذا وقفنا على نقد الرّسول عليه السّلام والخلفاء الراشدين نلاحظ بأنّه كان مقصورا على الجوانب الفنيّة فلو كان الدّين معتبرا لنبّهوا عليه ،مع علمنا القطعي بمكانة عمر رضي الله عنه وأنّه لا يسكت على منكر مهما كان وأنّه أشدّ هذه الأمّة في دينها ،أثر عنه قوله لأبي موسى الأشعري":مُرْ من قبلك بتعلّم الشّعر فإنّه يدلّ على معالي الأخلاق وصواب الرّأي ومعرفة الأنساب".[146]

واهتمّ الصحابة بالشّعر وروايته مع ما فيه من المجون والخروج عن الدّين دليل على أنّهما منفصلان كما نقل عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنّه قال":إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشّعر فإنّه ديوان العرب".[147]

---

[144] أبو اسحاق الشاطبي ؛ الموافقات ؛ ج : 03؛ ص : 59.
[145] البخاري ؛ الصحيح ؛ (رقم : 1176.).
[146] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:01 ؛ ص : 29.
[147] (القلقشندي) أبو العبّاس أحمد بن عليّ ،صبح الأعشى في صناعة الإنشا،الهيئة المعرفيّة للكتاب (د،ط) : 1405ه-1985م ،ج:01 ،ص :23.

جمع هذا الديوان شعر المجون والاستهتار بالأخلاق وغيرها من المساوئ فلو كان المقياس الديني معتبرا لتفطّن إليه من هم أحرص على الدّين منّا وهم سلفنا الصّالح رضوان الله عليهم ولكنّ الأمر بخلاف ذلك، فالمطلوب من الشّعر التّجويد والتّحرّر من القيود التي تحطّه عن مستواه.

من جملة الأدلّة الّتي تؤيّد ما ذهب إليه الجرجاني في فصل الدّين عن الشّعر ما وقع عليه الإجماع على حجّية الشّعر الجاهلي في فهم نصوص التّشريع مع أنّهم كفّار وعنهم أخذت اللّغة التي تعتبر مفتاح فهم نصوص الوحي،قال السيوطي(911ه)":قال الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام من كبار أصحابنا الشّافعية اعتمد في العربية على أشعار العرب وهم كفّار لبعد التدليس فيها كما اعتمد في الطبّ وهو في الأصل مأخوذ عن قوم كفّار كذلك ،فعلم أنّ العربي الذي يحتجّ بقوله لا يشترط فيه العدالة نعم تشترط في راوي ذلك".[148]

فهل ردّ النحاة شاهدا شعريا على أساس أخلاقي؟ يقول أحد أقطاب النقد واصفا ما يجب أن يكون عليه فنّ الشّعر ":الشّعر نكد بابه الشرّ فإذا دخل في الخير ضعف ،هذا حسّان بن ثابت فحل من فحول الجاهليّة فلمّا جاء الإسلام سقط شعره ،وقال مرّة أخرى :شعر حسّان في الجاهليّة من أجود الشّعر فقطع متنه في الإسلام لحال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم".[149]

من ذلك مراثيه في النبيّ عليه السّلام وحمزة وغيرهم من الشّهداء رضوان الله عليهم ،والأخلاق أو غيرها إذا تقيّد الشّاعر بها انحطّ مستواه قليلا ،فالشّعر له طريقته بيّنها المرزباني بقوله":وطريق الشّعر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الدّيار والهجاء والمديح والتشبيب بالنّساء ووصف الخمر والخيل والحروب والافتخار فإن أدخلته في باب الخير لان".[150]

طريقة الفحول لها معالم فنيّة وجمالية متعلّقة بالعاطفة والأفكار والخيال والموسيقى وجمال الألفاظ وروعة المعاني وحسن التّصوير وغيرها من عناصر التذوّق الفنّي الموجودة في شعر حسّان قبل الإسلام.

[148]السيوطي،الاقتراح في علم أصول النحو،تحقيق :محمّد الشافعي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الأولى1418ه-1988م؛ ص : 36.
[149] ابن قتيبة ؛ الشّعر والشّعراء ؛ ج : 01 ؛ ص : 305
[150]المرزوقي أحمد بن محمّد ،شرح ديوان الحماسة،نشره:أحمد أمين وعبد السّلام هارون، الطبعة الأولى : 1371ه-1951م ؛ ص : 62.

من الأدلّة أيضا قول الفقهاء بجواز الاستعانة بالكافر في بناء المساجد طلبا للجودة والإتقان لكنّهم لم يجيزوا ولايته عليها ومثل هذه الوجوه في الفقه كثيرة ،فالقاضي الجرجاني الفقيه لم يكن يهمّه أن يدهش النّاس أو لا؟ مثلما قال مندور":وهذا قول يدهشنا من قاضي القضاة الشّافعي الراسخ القدم في الإسلام وها نحن اليوم قد لا يستطيع أحدنا أن يجهر برأي كهذا".[151]

الجرجاني أدرى بأصول الفقه وقواعده ففتواها مبنيّة على تلك القواعد والأصول الّتي اجتهدنا في تحصيلها هذا ما أراد الجرجاني –في نظرنا-الإفصاح عنه في المجال الدينّي،أمّا النقاد فلهم رأي آخر في المسألة.

ثانيا:موقف النقاد من فصل الشّعر عن الدّين.

يعتبر ابن قتيبة من أوائل النقاد الذين أخضعوا الشّعر للمقياس الأخلاقي وتبعه خلق من النقاد كابن وكيع وابن بسّام الشنتريني والباقلاّني (403هـ) الذي وقف عند معلّقة امرئ القيس ناقدا ومحلّلا لأبياتها فانتقد قول امرئ القيس :

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعِ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفت لَهُ بِشِقٍّ وَتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ[152]

قال أبو بكر":البيت الأوّل غاية في الفحش ونهاية في السخف وأيّ فائدة لذكره لعشيقته ،كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد إنّ هذا ليبغضه كلّ من سمع كلامه ويوجب له المقت ،وهو لو صدق لكان قبيحا فكيف ويجوز أن يكون كاذبا".[153]

نلاحظ اعتماد الباقلاني على المقياس الأخلاقي في نقده لأبيات امرئ القيس ،كما استدلّ أصحاب هذا الرّأي بما كان شائعا عند الغرب من صلة الدّين القويّة بالشّعر وبالأخصّ الإغريق "فقد طرد

[151] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي ؛ ص : 281.
[152](امرؤ القيس) ،الديوان، ص :96.
[153] الباقلاني ؛إعجاز القرآن (ضمن شرح الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي) ،دار الفكر ،لبنان ،(د،ط) ،(د،ت) ، ج:02،ص :24.

أفلاطون الشّعراء من جمهوريّته المثالية لما ينشرون من أخلاق سيّئة وجاء أرسطو فأفاض في تحليل الشّعر والتراجيديا ولم ير رأي أستاذه وجاء بنظريّة التّطهير (catharsis)أي الفنّ بطبيعته يطهّر النّفس الإنسانية من العواطف الشّريرة والخبيثة ولكنّه في الوقت نفسه فصل بين الخطابة (أو الأدب) والأخلاق لأنّه رأى السفسطائيين يستطيعون بقوّتهم في الجدل والخطابة أن يحقّقوا باطلا ويبطلوا حقّا وقال إنّ للفضيلة حدودا وجعل الأدب منطقة محايدة فلا يوصف بفضيلة ولا رذيلة".[154]

واشتدّت قبضة الكنيسة في القرون الوسطى على الفنّ حيث وجّهته لخدمة أغراضها الدّينية ،وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ظهر دعاة الفنّ للفنّ البرناسية (Lart pour lart)ويعرّف هذا الاتّجاه بأنّه "مذهب أدبي وفنّي يقول:إنّ غاية الفنّ إنّما هي الجمال واللذّة بغضّ النظر عمّا إذا كان يوافق المبادئ الأخلاقية والدّينية أم لا يوافقها".[155]

كما أكدّ أصحاب هذا المنهج على أنّ الشّاعر لن يكون له طابع خاص"ولن يستطيع أن يصلنا بالكون إلاّ إذا كان صادقا ولكن أيّ صدق ؟لسنا نريد الصّدق الواقعي فذلك مبحث يهمّ الأخلاق وإنّما نعني صدق الشّعور بالحياة وصدق التّأثير بالمشاعر أي الصّدق الفنّي".[156]

يقوم هذا المنهج على خطاب النّصوص بالقواعد والأصول ومن ثمّ يعمل على تقويمها دون إقحام عوامل خارجة عن النصّ ،عمل شبيه بالبنيوية التي تقوم على تحليل الأنساق الداخليّة والمكوّنات التّركيبية للنّص وفق أنساقه الدّاخليّة المكوّنة له ،وهو أكثر المناهج ارتباطا بالأدب ،بينما تنصبّ غاية المنهج الأخلاقي على تحقيق غاية الأدب التي يصبوا المجتمع إليها وذلك من خلال الصّدق الواقعي لا ما تحمله نفسيّة الشّاعر ،ويخضعه هؤلاء للمطالب الاجتماعية فارضين عليه قضيّة ما يسمّى بالالتزام.

وفي الأخير نقرّر ضرورة تقويم الإبداع الفنّي وفق مقاييس علمية وفنيّة مع مراعاة الإحساس النّفسي والمعرفي للشّاعر ،فقد يكون الشّعر رديئا من حيث الصّياغة التي تتطلّبها صناعة الشّعر فلا يرفعه

[154] محمود السّمرة ؛ القاضي الجرجاني ؛ ص: 164.
[155] أيميل يعقوب وبسام بركة،قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية،دار العلم للملايين، بيروت ، ط:01-1987م ؛ ص : 352.
[156] سيّد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشّروق ،مصر ، الطبعة السادسة :1410ه-1990م،ص : 31

الصّدق أو الاعتقاد إلى درجة الكمال ،فمقياس البراعة عند أهل الصناعة "هو جودة الكلام وحسن الصّياغة ،حسن النّظم والوصف كما فصل النقاد بين العمل الأدبي وبين الصّدق فعلى المبدع أن يلتزم في عمله بالصّدق الفنّي لا الصدق الواقعي".[157]

يعتمد الصّدق الفنّي على مقوّمات لفظية ومقوّمات خيالية والمقوّمات التّصويرية والموسيقية هذه التي تنتج لنا فنيّة الإبداع الأدبي.

وقفنا مع الوساطة عند أعقد مسألة نقدية وهي عزل الدّين عن الشّعر ننتقل الآن للوقوف على دفاعه عن المتنبي فيما يتعلّق بالأخطاء النّحوية وما يتّصل بأبيات المعاني ويعتذر له الجرجاني بأنّه "ليس من شرائط النّصفة أن تنعي على أبي الطيّب بيتا شذّ وكلمة ندرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ولفظة قصرت عنها عنايته ،وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع وروائعه وقد بهرت ولا من العدل أن تؤخّره الهفوة المنفردة ولا تقدّمه الفضائل المجتمعة وأن تحطّ الزلّة العابرة ،ولا تنفعه المناقب الباهرة ".[158]

سنرى في الفصل الثالث أشكال تلك المواضيع وكيف تعامل الجرجاني معها من خلال مقايسته في هذا الجانب .

من بين المواضيع المهمّة التي اهتمّ الجرجاني بها موضوع السّرقات نظرا لاتّهام خصوم المتنبي له بأنّه سارق مختلس لمعاني غيره ما الشّعراء ،هذا ما دفع الجرجاني لمناقشة هذا الموضوع بداية من صفحة (183 إلى 411صفحة) نلاحظ اتّساع مساحة السّرقات في الكتاب وذلك لأهميّتها.

السّرقات الشّعرية في كتاب الوساطة:

شمل هذا الموضوع مائتين وعشرين صفحة من الكتاب،أعجب ابن رشيق بطريقة الجرجاني وتناوله لهذا الموضوع حيث وصفه بأنّه "أصحّ مذهبا ،وأكثر تحقيقا من كثير ممّن نظر في هذا الشّأن ".[159]

---

[157] ماهرشعبان،التذوق الأدبي (طبيعته ،نظرياته ،مقوماته ،معاييره ،قياسه)،دار الفكر ،الأردن،الطبعة الثالثة:1432ه-2011م ؛ ص : 210.
[158] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص :31.
[159] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:02 ؛ ص : 216.

لأنّ الجرجاني تناول الموضوع محذّرا من الإفراط والتّفريط فقال منبّها على ذلك":ومتى أحكمت هذا الباب حقّ الإحكام وأوليته حسن التّمييز فقد ألقيت عن نفسك ثقلا وكفيتها مؤونة ولم يبق عليك إلاّ أن تحترس من التّفريط كما احترست من الإفراط ،فلا تكن كمن يرى السّرق لا يتمّ إلاّ باجتماع اللّفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تماما ".[160]

رؤية السّرقة في المعاني المتداولة إفراطا كما أنّ قصرها على أخذ اللّفظ والمعنى معا تفريطا كلاهما مذمومان يقول الجرجاني ":ولو سمعت قائلا يقول إنّ فلانا الشّاعر أخذ عن فلان قوله:لا مرحبا بالشيب ،وحبّذا الشباب وكيف لو عاد ويا أسفى لفراق الأحبّة وما لَذَذْتُ العيش بعدهم وفاضت عيني صبابة لذكرهم لحكمت بجهله ولم تشكّ في غفلته".[161]

لا سرقة في المعاني المتداولة لقرب مأخذها وسهولة تناولها ،وموضوع السرقات قد لا يسلم الناقد فيه من الانتقاد لدقّة مسالكه وصعوبة تناوله فهذا"باب لا ينهض به إلاّ الناقد البصير ،والعالم المبرّز،وليس كلّ من تعرّض له أدركه ،ولا كلّ من أدركه استوفاه واستكمله ".[162]

ويعود ذلك لعدم استقراء النّصوص كلّها وصعوبة نسبة المعاني لأصحابها ،فهي أكبر من أن يحاط بها كما أنّ القدماء استغرقوها وتناولوها وما تركوه فهو شيء يسير في نظر الجرجاني لأنّها "إمّا أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذّر الوصول إليها ،ومتى أجهد أحدنا نفسه ،وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنّه غريبا مبتدعا ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ،ثمّ تصفّح عنه الدّواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ،أو يجد له مثالا يغضّ من حسنه ،ولهذا السّبب أحظر على نفسي ،ولا أرى لغيري بتّ الحكم على شاعر بالسّرقة ".[163]

---

[160] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 192.
[161] المصدر السّابق؛ ص: 186.
[162] السّابق: ص: 183.
[163] المصدر نفسه ؛ ص : 215.

هذا وجه اعتذاره عن المحدثين في جانب المعاني ،وللوقوف على فهم الجرجاني للسّرقات نعتمد على التّقسيم الذي ذكره محمود السّمرة حيث قال":تناول (الجرجاني) الموضوعات التّالية : أنواع السّرقات المواضع الّتي تمتنع فيها السّرقة ،السّرقة المحمودة ،السّرقة المذمومة".[164]

نبدأ الحديث بالقسم الأوّل وهو أنواع السّرقات ،ثمّ نذكر بعده بقيّة الأقسام الأخرى.

1-أنواع السّرقات: لا بدّ من فهم أقسام السّرقة ليكون الناقد على بصيرة ودراية بموضوعها ولا تكون أحكامه رجما بالغيب ،أمّا أقسامها فأشار إليها الجرجاني قائلا ":ولست تعدّ من جهابذة الكلام ونقاد الشّعر حتّى تميّز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علما برتبه ومنازله فتفصل بين السّرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإلمام من الملاحظة وتفرّق بين المشترك الذي لا يجوز ادّعاء السّرق فيه والمبتذل الذي ليس أحد أولى به وبين المختصّ الذي حازه المبتدئ فملكه ،وأحياه السّابق فاقتطعه ،فصار المعتدي مختلسا سارقا ،والمشارك له محتذيا تابعا ،وتعرف اللّفظ الذي يجوز أن يقال فيه :أُخذ ونقل والكلمةَ الّتي يصحّ أن يقال فيها :هي لفلان دون فلان".[165]

هذه أنواع السّرقات عند الجرجاني وأسوأها السّرق وهو كما ":قال بعض الحذّاق من المتأخرين:من أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقا ".[166]

يختصّ هذا النّوع من السّرقة بالبديع المخترع المختصّ بصاحبه فيعدّ متناوله سارقا ،أمّا الغصب فهو أن يأخذ بيت غيره قهرا مثلما فعل الفرزدق مع الشَّمَرْدَلِ اليربوعي في قوله (من الطّويل):

فَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعًا وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرُ حَزِّ الحَلَاقِمِ.[167]

قال له الفرزدق":والله لتدعنّه أو لتدعنّ عرضك ، فقال:خذه لا بارك الله لك فيه".[168]

[164] محمود السّمرة ؛ القاضي الجرجاني ؛ ص: 194.
[165] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 183.
[166] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:02 ؛ ص : 217.
[167] الفرزدق ؛ الديوان ص : 615.(قاله في مدح سليمان بن عبد الملك).
[168] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:02 ؛ ص : 220.

ومثل الغصب الإغارة وهي أن يبتدع الشّاعر معنى رائعا فيتناوله من هو أكثر شهرة منه فيروى له دون قائله ،ومن أنواعها الاختلاس أو نقل المعنى وهو أن يحوّل الشّاعر المعنى من غرضه الأصلي إلى غرض آخر ،أمّا الملاحظة فيقصد بها تساوي المعنيين واختلاف اللّفظ ممّا يؤدي إلى خفاء الأخذ ،والمعنى البديع المخترع المسمّى بالمختصّ من استعمله يعدّ سارقا ،والمشترك والمبتذل يرتفع أخذهما بإجادة الآخذ للمعنى وتحسينه للّفظ ،وقد أضاف الجرجاني نوعيين من السّرقة هما النّقض والنّقل ،بيّن النّوع الأوّل بقوله ":ومن لطيف السّرق ما جاء به على وجه القلب ،وقصد به النّقض ".[169]

ومثّل للقلب في ثوب النّقض بقول المتنبي :

أُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ.[170]

إنّما نقض به قول أبي الشُيص :

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ.[171]

نقل المتنبي المعنى وجعل المحبّة والملامة منفصلين على سبيل النّقض، فسرقة المتنبي خفيّة لكنّها أجمل.

النوع الثاني:النّقل أي استعمال المعنى في غرض ثمّ نقله لآخر بقصد التّمويه ،أشار له الجرجاني بقوله ":كأن ينقل شاعر بيتا من المديح إلى النّسيب أو من الفخر إلى الهجاء أو غير ذلك ،فإذا مرّ بالغبيّ الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين وإذا تأمّلهما الفطن الذكيّ عرف قرابة ما بينهما والوصلة الّتي تجمعهما ".[172]

وقد مثّل على هذا النّوع بقول كثيّر (من الطويل) :

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تُمَثَّلُ لِي لَيلَى بِكُلِّ سَبِيلِ.

---

[169] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 206.
[170] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج:01 ؛ ص : 129..
[171] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص : 206.
[172] المصدر السّابق ؛ ص : 207.

وقال أبو نواس (من الكامل):

مَلكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ كَأَنَّهُ لمَ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ. [173]

علّق الجرجاني عليهما قائلا ":فإذا نظر العالم فيهما لم يشكّ في أنّ أحدهما من الآخر وإن كان الأوّل نسيبا والثاني مديحا ". [174]

نلاحظ أنّ المعنى في النّسيب أصدق منه في المديح، فالمحبوبة خيالها لا يفارق المحبّ بخلاف الممدوح الذي يعظم الإحساس عند رؤيته ويقلّ عند غيبته.

2-المواضع الّتي تمتنع فيها السّرقة:

من بينها المعاني المشتركة المبتذلة والّتي سمّاها عبد القاهر(ت471هـ) بالمعاني العقلية لاشتراك العقلاء فيها لا يعدّ متناولها سارقا ،مثّل في الوساطة على بعض هذه المعاني العقليّة وذكر منها "حسن الشّمس والقمر ومضاء السّيف وبلادة الحمار وجود الغيث وحيرة المخبول ونحو ذلك مقرّر في البداية وهو مركّب في النّفس تركيب الخلقة". [175]

فهذه معاني عقليّة متداولة ،ومثلها الألفاظ المشتهرة لا سرقة فيها كقول الشّاعر:

تَرَى العَيْنَ تَسْتَعْفِيكَ مِنْ لمَعَانِهَا وَتحسر حَتَّى مَا تَقِلَّ جُفُونُهَا.

فقد زعم أنّه مسروق من قول الأبيرد:

وَكُنْتُ أَسْتَعْفِي الإِلَهَ إِذَا اشْتَكَى مِنَ الأَمْرِ لِي فِيهِ ،وَإِنْ عَظُمَ الأَمْرُ.

[173] أبو نواس ؛ الديوان ؛ ص : 529.
[174] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 205.
[175] المصدر السّابق ؛ ص : 185.

ردّ الجرجاني سرقتهما قائلا":ولا أراهما اتّفقا إلاّ في الاستعفاء وهي لفظة مشهورة مبتذلة فإن كانت مسترقة فجميع البيت مسروق بل جميع الشّعر كذلك لأنّ الألفاظ منقولة متداولة".[176]

لا تقصر السّرقة على مثل هذه الألفاظ ،كما نبّه الجرجاني على الوسط الثقافي وانعكاساته على المستويات التّجريبية لدى الشّاعر فقد يمكنه تصوير المعاني المبتذلة بأساليب مختلفة "كتشبيه العرب الفتاة الحسناء بتريكة النّعامة ولعلّ في الأمم من لم يرها ،وحمرة الورود والتفاح وكثير من الأعراب من لم يعرفهما ،وكأوصاف الفلاة وفي النّاس من لم يصحر ،وسير الإبل وكثير منهم من لم يركب".[177]

السّرقة إذن :لا تكون كما قال الجرجاني إلاّ في "المبتدع المخترع ".[178]

الابتداع يخصّ اللّفظ ،والاختراع يتعلّق بالمعنى ،يقول ابن رشيق مبيّنا ذلك "خصّ الاختراع بالمعنى أي خلق المعاني التي لم يسبق إليها، وخصّ الإبداع باللّفظ أي المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله ثمّ لزمته هذه التّسمية حتّى قيل له :بديع ".[179]

لا سرقة أيضا في أسماء المواضع والأشخاص ،فقد ردّ الجرجاني السّرقة في هذين البيتين :

حيا رِبَابَ جلهتي مَلْحُوبُ فَالْقُطْبِيَاتُ إِلَى الذُّنُوب

من قول عبيد : أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ ملحوب فَالقطْبِيَاتُ فَالذَنُوبُ .

قال الجرجاني :"هذه أسماء مواضع لا معنى للسّرقة فيها".[180]

لاندراجها ضمن الألفاظ المشتركة ،فأدنى السّرقات سرقة اللّفظ وأعلاها سرقة المعنى.

إذا تواردت خواطر الشّعراء فلا سرقة فيها، قد ينشد الشّاعر قول غيره مع أنّ ذلك البيت"لم يقرع قطّ سمعه ولا مرّ بخلده كأنّ التوارد عندهم ممتنع واتّفاق الهواجس غير ممكن ".[181]

---

[176] السّابق ؛ ص : 211.
[177] المصدر نفسه ؛ ص : 187.
[178] نفسه ؛ ص : 184.
[179] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:01؛ ص : 266.
[180] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 211.

هذا ما حرص المتنبي على ذكره فعندما اتّهمه الحاتمي بالسّرقة أجابه المتنبي قائلا ":الشّعر جادّة وربّما وقع الحافر على موضع الحافر".[182]

هذا ما دفع الجرجاني والآمدي إلى لزوم التأنّي في الحكم على الشّاعر بالسّرقة.

3 –السّرقة الممدوحة:

إذا أحسن الآخذ تجويد المعنى المشترك وصياغته فهذا يعدّ من السّرقة الممدوحة ،ويتفاوت الشّعراء في صياغة تلك المعاني وإبداعها و"يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشّعر فتشترك الجماعة في الشّيء المتداول ،وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب ،أو ترتيب يستحسن ،أو تأكيد يوضع موضعه،أو زيادة اهتدى لها دون غيره فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع ".[183]

امتاز المتنبي بتجويده لكثير من المعاني المتداولة وأخرجها في قالب المخترع حتّى نسبت إليه دون غيره ومن جملة ما مثّل له الجرجاني في هذا الباب "قول بعضهم :

وهنَّ إِذَا وسَمْتَ بِهِنَّ قَوْمًا كَأَطْوَاقِ الحَمَائِمِ فِي الرِّقَابِ

أبو الطيّب : أَقَامَتْ فِي الرِّقَابِ لَهُ أَيَادٍ هِيَ الأَطْوَاقُ والنَّاسُ الحَمَامُ[184]

وهذا من المبتذل الذي لا يعدّ سرقة إلاّ بزيادة تلحقه، وزيادة أبي الطيّب فيه حسنة بديعة، ولأجلها ذكرت الأبيات".[185]

زيادة أبي الطيّب هي تشبيهه نعم الممدوح وإحاطتها برقاب النّاس كإحاطة الأطواق لأعناق الحَمَامِ نقل المعنى من غرض لآخر أو نقضه بزيادة فيه وإبداع يصنّف ضمن السّرقة المحمودة أو"التّحوير الفنّي" كما اقترح شوقي ضيف حيث قال ":هذا النّوع من السّرقة الحسنة أطلق عليه النقاد الغربيون

[181] المصدر السّابق ؛ ص : 52.
[182] ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ، ج:02؛ ص : 222.
[183] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 186.
[184] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 04 ؛ ص : 196 ؛قاله في مدح المغيث العجلي.
[185] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 243.

كلمةImitationتميزا له عن السّرقة المذمومة الّتي أطلقوا عليها هي كلمة أخرى هي Plagiarism ".[186]

4 – السّرقة المذمومة:هذا النّوع لا يكون فيه توليد المعاني ولا حسن صياغة وتصوير ،قسّمه الجرجاني إلى قسمين هما:

أ –سرقة قبيحة :تكون في نقل اللّفظ والمعنى أو نسخهما دون إجادة فنيّة ،من ذلك ما حكاه أبو عبيدة وغيرُه "أنّ عبد الله بن الزّبير دخل على معاوية فأنشده لنفسه :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ

وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيفِ من أَنْ تَضيمه إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شفرة السَّيْفِ مزحل

فقال له معاوية :لقد شعرت بعدي يا أبا بكر ولم يفارق عبد الله المجلس حتّى دخل معن بن أوس المزني ،فأنشده كلمته الّتي أوّلها :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وإِنّي لَأَوْجَلُ عَلَى أَيِّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ.

حتّى أتى عليها ،وهذه الأبيات فيها ،فأقبل معاوية على عبد الله بن الزّبير فقال :ألم تخبرني أنّها لك ؟ فقال : المعنى لي واللّفظ له ،وبعد فهو أخي من الرّضاع وأنا أحقّ النّاس بشعره".[187]

هذا النّوع من السّرقة شبيه بالغصب إلاّ أنّه لا تهديد فيه .

ب–سرقة خفيّة :يصعب تحديدها والتفطن لها ،يستنبطها أرباب النقد من خلال التمعّن في الصّيغ والمقاصد لا الوقوف على الألفاظ والظّواهر على حدّ تعبير الجرجاني "ولن تكمل ذلك حتّى تعرف تناسب قول لبيد : وَمَا الْمَالُ وَالأَهْلُونَ إِلاّ وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تَرُدَّ الْوَدَائِعُ.[188]

[186] محمود السمرة ؛ القاضي الجرجاني ؛ ص : 202.
[187](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 193.
[188](لبيد بن ربيعة) ،الديوان،دار صادر ؛بيروت ،(د،ط) ،1386ه-1966م ، ص : 89.

وقول الأفوه الأودي :

إِنَّمَا نِعْمَةُ قَوْمٍ مُتْعَــة وَحَيَاةُ المَرءِ ثَـوْبٌ مُسْتَعَارُ.

وإن كان هذا ذكر الحياة وذلك ذكر المال والولد، وكان أحدهما جُعل وديعة، والآخر عارية ".[189]

عالج الجرجاني السّرقات بموضوعية مؤكّدا على ضرورة الحيطة والحذر في إصدار الأحكام المتعلّقة بها وبيّن أنواعها ومثّل عليها بشواهد كثيرة أثبت من خلالها كفاءته ومهارته النقدية التي تجلّت بوضوح في نقده التّطبيقي وممارسة الفعلية في الدّفاع عن المتنبي في القسم الأخير من الوساطة.

القسم الثالث: النقد التطبيقي.

تجلّى في هذا القسم منهج الجرجاني القائم على قياس الأشباه والنّظائر فقاس أخطاء المتنبي على أخطاء غيره من الشّعراء،يقول محمّد مندور مشيرا لمنهج الجرجاني ":أساس منهج الجرجاني في النقد يمكن أن نلخصه في جملة واحدة هي أنّه رجل يقيس الأشباه والنّظائر ،وعلى هذا الأساس بنى معظم وساطته بين المتنبي وخصومه".[190]

كما وظّف القياس النّحوي في الذّود عن لغة المتنبي واستعمالاته اللّغويّة، لا نريد المكوث طويلا في هذا القسم لأنّنا سنرتع في رحابه العلمية وأجوائه النقدية في الفصل الثّالث من بحثنا إن شاء الله.

قسّم المعترضين على أبي الطيّب إلى فئتين أشار لهما بقوله ":إنّ المعترضين عليه أحد رجلين إمّا نحويّ لغويّ لا بصر له بصناعة الشّعر فهو يتعرّض من انتقاد المعاني لما يدلّ على نقصه ويكشف عن استحكام جهله ".[191]

[189] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 201.
[190] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي ؛ ص : 256.
[191] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص :438.

وهؤلاء في نظر الجرجاني لا يمتون للنقد بصلة ،لأنّ صناعة الشّعر لها متطلّباتها ومقتضياتها فهي أكبر من الوقوف على المخالفات النّحوية واللّغوية ،أمّا الصّنف الآخر فهم أصحاب المعاني"أو معنويّ مدقّق لا علم له بالإعراب ولا اتّساع له في اللّغة فهو ينكر الشّيء الظّاهر وينقم الأمر البيّن".[192]

ثمّ يأخذ في مناقشة آرائهم ودفع مآخذهم بقواعد القياس الذي ردّ به كثيرا من الدّعاوى والأخطاء فكتاب الوساطة جمع مجموعة هامّة ومتنوعة من المقاييس النقدية والمعارف الأدبية لا يستغني الناقد الموضوعي عنها لما فيها من النّظريات والاجتهادات .

المقاييس النقدية في كتاب الوساطة :

نجمل الحديث عنها في النقاط الآتية:

أ)مقاييس شعرية تقليدية متمثّلة في عمود الشّعر ،أكّد الجرجاني على أنّ لكلّ معنى غرضه الخاص فالمدح يكون بالصّفات النّفسية كالعقل والعفّة والشّجاعة والعدل ،وليس بجمال الوجه أو صورة الجسم والهجاء ينصبّ على الصّفات المعنوية لا الخَلْقية ،كما أنّ قيمة الألفاظ الرّشيقة والمعاني الشّريفة من مقاييس الجودة عند الجرجاني فمن خلالها يتمّ تقويم الإبداع وتتمّ عمليّة الابتداع .

ب)مقياس الطّبع والصّنعة ،اعتمد عليهما الجرجاني في الموازنة بين المتنبي وغيره ،والنتيجة الّتي توصّل إليها هي انفراد المتنبي بطريقة فنيّة ومتميّزة تجمع بين محاسن الطّبع والصّنعة وهذه هي المعادلة الصّعبة.

ج)مقياس تفاوت الذّوق بين ما تستحسنه الحواس وما يقع في القلب، ويرجع هذا لأرباب الذّوق من النقاد الذين سبروا أغواره وتولّدت لديهم ملكة ذوقية أهّلتهم لذلك.

د)مقياس الدقّة في إصدار الحكم :حيث بيّن ما يجب أن يتمتّع به النقد والناقد في آن واحد من آليات لسدّ الطّريق أمام أدعياء النقد من اللّغويين والنّحويين وتعصّبهم للقواعد مثل الذي حكاه القاضي عن بعضهم"إنّ أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ،فإذا نسب

[192] المصدر السّابق ؛ ص : 438-439.

إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذّب نفسه ونقض قوله ،ورأى تلك الغضاضة أهون محملا وأقلّ مرْزأة من تسليم فضيلة لمحدث والإقرار بالإحسان لمولّد ،حكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنّه قال أنشدتُ الأصمعي:

هَلْ إِلَى نَظْرَةٍ إِلَيْكِ سَبِيلُ فَيُبَلُّ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيلُ

إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكِ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تحِبُّ الْقَلِيلُ

فقال :والله هذا الدِّيباج الخُسْرَوَانِيُّ ،لمن تنشدني ؟فقلت :إنّهما لليلتهما ،فقال :لا جرم والله إنّ أثر التكلّف فيهما ظاهر".[193]

إذا صحّت هذه الرّواية صحّت معها مقولة "المعاصرة حجاب"، وبذلك تحجب الموضوعية في النقد.

هـ)مقياس الإبداع في المعاني المتداولة، على قدر تجويدها وصياغتها تحمد السّرقة في أخذها.

و)مقاييس بيانية خاصّة بالاستعارة والتّشبيه والبديع ،الاستعارة عند الجرجاني إنّما تصحّ وتحسن"على وجه من المناسبة وطرف من الشّبه والمقاربة".[194]

ومقياس البديع هو عفو الخاطر والبعد عن التكلّف.

ف)مقياس الجودة يكون في بعد الألفاظ عن الابتذال، والمعاني عن الاستغلاق وبذلك تستكمل الصّورة الفنيّة ملامحها.

ق)مقياس تحكيم الرّؤية الجمالية وإلغاء كلّ ما هو من قبيل المتعارف أو الموروث ،وهذا المقياس يتّفق مع الاتّجاه الأدبي الحديث مذهب الفنّ للفنّ (البرناسيّة lart pour lart) .

ك)مقياس ردّ المسائل إلى أصولها وقواعدها استند الجرجاني على قياس النّحاة واللّغويين في الدّفاع عن المتنبي .

[193] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 50.
[194] المصدر السّابق ؛ ص :428.

قيمة الوساطة في النقد :

من خلال ما مرّ معنا من محطّات تحليلية لأنساق الوساطة فقد تجلّت لنا بعض ملامح الكتاب بوضوح وما اشتمل عليه من أفكار نقدية ألقت بأطيافها على ساحة الأدب والنقد معا لتعطينا رؤية جديدة فيه ليست مقصورة على المتنبي وحده من خلال ما يتبادر من عنوان الكتاب بل"هو معرض للأفكار النقدية الّتي تبلورت في القرن الرّابع وخلاصة للنقد الذي تفوّه به النقاد السّابقون لعصر الجرجاني ،ففيه تحليل لأشعار القدامى والمحدثين ".[195]

قام الجرجاني ببيان المفارقات النقدية بين النصوص الشّعرية المتنوعة فجاء كتابه غزيرا بالشّواهد التي قد بلغ مجموعها "أربعا وسبعين وتسعمائة وألف (1974شاهد) شعري ممّا يدلّ على خصوبة الكتاب وقدرة مؤلّفه على اكتساح مساحة شاسعة من شعرنا العربي القديم عبر أزمنته المتعاقبة ،وكذا انفتاحه على الجديد والمحدث في الشّعر سواء أتعلّق الأمر بالمشهور من شعراء المحدثين كأبي تمام (259شاهد) والبحتري (97شاهد) وأبي نواس (58شاهد)".[196]

أمّا أشعار المتنبي فبلغت ثلاثة عشر وثمانمائة (813شاهدا)، بحذف المكرّر الذي عددناه فوجدناه قد بلغ ثلاثا وأربعين شاهدا، هذا الكمّ الهائل من الشّواهد فرضه توسيع دائرة الاستقراء في الدّفاع عن المتنبي وطبيعة منهج المقايسة تقتضي ذلك الكمّ الهائل من الاستقراء.

إنّ الإبداع الفنّي الذي قام به الجرجاني والآمدي نال إعجاب النقاد مع بعض الانتقاد والمؤاخذات على بعض مواقف الناقدين ،فقد نوّه محمّد زغلول بعمل الناقدين حيث قال":نستطيع بذلك أن نضع كتاب الجرجاني موضعه اللّائق في تاريخ النقد العربي ونقول :إنّه وكتاب الموازنة توءمان يقيمان منهجا واضحا لدراسة الشّعر ونقده ،وإن كان الموازنة يزيد عليه بالموازنة بين النّصوص تفصيلا إلاّ أنّ الجرجاني أوسع أفقا وأكثر مرونة وأرحب صدرا في تقبّل شعر المحدثين وعدم الخضوع لضغط الحكم

[195] محمّد الربداوي،الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام ؛ ص : 257.
[196] عبد الرّزاق صالحي ،الشاهد الشّعري في النقد والبلاغة ؛عالم الكتب الحديث،ابد ،الأردن ، الطبعة الاولى ،1431ه-2010م ؛ ص :70.

الأخلاقي أو العقدي متحرّرا من سيطرة الرّؤية السّلفية الّتي تزكّي وتقف متعصّبة إلى جانب القديم وتشكّك في كلّ جديد مبتدع".[197]

إنّ تقبّل الجرجاني للمحدثين دفعه لإقامة دراسة منهجيّة خاضعة للذّوق المدّرب بخلاف نظرة الآمدي القاصرة اتّجاه تجديدهم متمسّكا بعمود الشّعر فشلّ بذلك ميزان النقد غير آبه بشاعر كأبي تمام ،فقد حوي شعره ملاح فنيّة ونفسية أملتها عاطفته وفرضتها ثقافته وعصره ،بينما أدرك الجرجاني جيّدا حسنات المتنبي المتمثلّة في براعته الفنيّة وقوّته التّصويرية فاتّخذ المقاييس النقدية شاهدة على محاكمته وجعل الذّوق المدرّب قاضيا على تقويم فنّه الشّعري ،ولتصفّح شخصية الجرجاني أكثر أفردناه بمبحث خاصّ بيّنا فيه مفهومه للشّعر وإنتاجه وكيف رسم ملاح النقد وضبط معاييره التي خطّها في كتابه الحافل الوساطة بين المتنبي وخصومه.

[197] محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري؛ ص : 371.

المبحث الثالث :المشروع النقدي لدى القاضي الجرجاني (دراسة في الذّوق والرّؤية).

هو القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ،أحد الفقهاء الأعلام ،والأدباء الكرام ،والنقاد العظام ،لا يعرف مولده على وجه التحديد ،وترجمته في كتب الأعلام قليلة بالنظر لمقامه الكبير ،ولد بجرجان وجال الأقطار في طلب العلم ،ولقي مشايخ عصره في الفقه والحديث والأدب والشّعر ،ترجم له أبو إسحاق الشيرازي (ت476هـ) في طبقات الفقهاء ،وأثنى عليه الثعالبي قائلا ":حسنة جرجان ،وفرد الزمان ونادرة الفلك وإنسان حدقة العلم ودرة تاج الأدب وفارس عسكر الشّعر ،يجمع خطّ ابن مقلّة إلى نثر الجاحظ ،ونظم البحتري ،وينظم عقد الإتقان والإحسان في كلّ ما يتعاطاه ،وفيه يقول الصاحب بن عبّاد (ت385هـ):

إِذَا نَحْنُ سَلَّمْنَا لَكَ الْعِلْمَ كُلَّه فَدَعْنا وهذي الْكُتْبَ نحْسن صُدُورَهَا

فَإِنَّــهُم لَا يَرْتَضُون مَجِيئَنــا بِجَزْعٍ إِذَا نَظَّمتَ أنتَ شذورَها".[198]

هذا دليل على غزارة علمه وحسن نظمه،ووصفه ياقوت بقوله ":كان أديبا أريبا كاملا ".[199]

ألّف مجموعة من التآليف منها كتاب في "تفسير القرآن" ،وآخر في "أحكام القرآن" ،وله "تهذيب التاريخ" نقل الثعالبي منه فصلين في اليتيمة وذكر أنّه "تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحّة الرّوايات وحسن التصرّف في الانتقادات ".[200]

أشار الثعالبي لسبب تأليف كتاب التهذيب حيث قال إنّه":سعى لتحصيل حسنة دنيوية وأخرى أخروية فقد أراد التقرّب من بساط الصاحب بن عباد يتجدّد به ذكره بحضرته ،أمّا حسنة الآخرة فهي ذكره لجملة صالحة من أحوال الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم وغزواته وبعض ما يتعلّق بسيرته ".[201]

---

[198]أبو منصور الثعالبي،يتيمة الدهر ،تحقيق :مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ،لبنان،الطبعة الاولى :1420ه-2000م ؛ ج :4 - ص : 3

[199]ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ،ج:1-ص: 477.

[200]أبو منصور الثعالبي ،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،ج:1 -ص : 477..

[201]المصدر السابق ، ج :1، ص: 4.

يعتبر الثعالبي من المصادر الأساسية التي ترجمت للقاضي الجرجاني ،وذكر في اليتيمة جملة صالحة من تآليفه منها كتاب في الوكالة جمع فيه أربعة آلاف مسألة ،وللأسف فهذه الكتب مفقودة لم يصلنا منها سوى كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ،هذا الكتاب توارثته الأجيال ويرجع سبب ذلك - في اعتقادنا–إلى قيمة ما يحمله هذا الكتاب من أفكار نقدية وأدبية بالإضافة لتعلّقه بشخص المتنبي لا سيما وأنّ غاية مؤلّفه الدّفاع عنه كما بيّنا ذلك في المبحث السّابق.

للجرجاني ديوان شعري رائع جمعه الأستاذ سميح إبراهيم صالح ،نختار من حدائقه هذه الغرر الرّائعة المتمثلّة في قصيدته الميمية الّتي يقول الجرجاني في مطلعها (من الطّويل):

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُلِّ أَحْجَمَا

أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَهُمْ هَانَ عِنْدَهُم وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِيَ جَانِبًا مِنَ الذَمِّ أَعْتَدُّ الصِيَانَةَ مَغْنَمَا

إِذَا قِيلَ هَذَا مَشْرَبٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى وَلَكِنَّ نَفْسَ الحرِّ تَحْتَمِلُ الضَّمَا

وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي وَلَا كُلُّ أَهْلِ الأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كُلَّمَا بَدَا مَطْمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي لِأخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَ أَجْنِيهِ ذِلَّةً إِذًا فَابْتِيَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمُ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ تَعَظَّمَا "[202]

[202] (الجرجاني)عليّ بن عبد العزيز ؛الديوان ؛تحقيق :سميح إبراهيم صالح؛إشراف:إبراهيم صالح ؛دارالبشائر؛مشق؛الطبعة الأولى :2003م ؛ ص : 127

نأمل أن تحمل صدور العلم هذا الشّعر الطيّب لما حواه من فضائل، خصوصا في زماننا الذي تزاحمت فيه الماديات مع القيم الأخلاقية.

اختلف العلماء في السنة الّتي توفيّ فيها،فنقل ابن خلكّان ما ذكره"الحاكم أبو عبد الله بن البيع في (تاريخ النيسابوريين) أنّه توفي في سلخ صفر سنة ستّ وستين وثلاثمائة بنيسابور وعمره ستّ وسبعون سنة رحمه اللّه تعالى ،وقال غيره إنّه كان حسن السيرة في قضائه ...ومات بالريّ وهو قاضي القضاة في سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة ،وحمل تابوته إلى جرجان ودفن بها ،ونقل الحاكم أثبت وأصحّ ".[203]

وافق ابن خَلكان نقل الحاكم في أنّ وفاة الجرجاني هي سنة (366ه) ،واختاره ابن العماد في"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ،وقال غيرهما بأنّ سنة وفاته (392ه) ومن بين هؤلاء محمود السمرة الذي قال معقّبا على اختيار ابن خلكان بأنّه خطأ "لأنّه توفيّ بعد وفاة الصاحب (358ه) كما ذكر ياقوت ،ولو كان قد مات في حياة الصاحب لكان بين من مشوا في جنازته وصلّوا عليه ".[204]

وما يعضّد هذا الرأي-الذي نختاره- هو أنّ الجرجاني عاش بعد وفاة الصاحب سنة (385ه) يقول الثعالبي":وتصرّفت به أحوال في حياة الصاحب وبعد وفاته من الولاية والعطية ".[205]

إنّ هذه المناقشة التي أثرناها حول اختلاف العلماء في سنة وفاة الجرجاني يمكن توظيفها في محاولة الإجابة عن هذا السّؤال المهمّ وهو هل تأثّر الجرجاني بالآمدي أم لا ؟.

نذكر أوّلا آراء المثبتين ذلك وعلى طليعتهم محمّد مندور ،فقد نقل في معرض تعليقه على فهم الجرجاني لمعنى (الأيم) ما نصّه"وهو يردّد (الجرجاني) دون أن يورد اسم الآمدي،وإنّما يصفه ببعض من اعترض على أبي تمّام ،وهذا يقطع بأنّ الجرجاني قد اعتمد على الموازنة في نقده لأبي تمّام ".[206]

---

[203](ابن خلكّان) أحمد بن محمّد ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تحقيق: المرعشلي ورياض ،دار إحياء التراث ،لبنان ،ج: 2-ص:134.
[204]محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ،منشورات المكتب التجاري ،بيروت،الطبعة الثانية :1979م ،ص :108.
[205]أبو منصور الثعالبي ،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،ج: 4-ص : 8.
[206]محمّد مندور النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب،نهضة مصر، 2003م ، ص:281.

ممّن ذهب إلى هذا القول أحمد بدوي حيث قال":قد قرأ القاضي كتاب الموازنة بين الطّائيين للآمدي وهناك أشياء قد اتّفق فيها الناقدان ،فمن ذلك تمجيد الناقدان للشّعر المطبوع ".[207]

مجّده قبلهما ابن سلاّم وابن طباطبا وغيرهما من النقاد فلا دليل في توافق الجرجاني والآمدي على الأخذ ،أمّا الذين نفوا ذلك فعلى رأسهم محمّد زغلول الذي قال":ولا نبخس الجرجاني حقّه في أنّه أقام دراسة منهجية مناظرة لدراسة الآمدي في الموازنة ،ولا ننكر تشابههما في كثير من اتجاهاتهما وآرائهما كما ذكرنا ،ولا يرجع أغلب الظنّ إلى اعتماد أحدهما على الآخر لأنّهما متعاصران ".[208]

المعاصرة ليست دليلا على أنّ الجرجاني أخذ من الآمدي ،ولم لا يكون العكس؟ فعلى اعتبار سنة وفاة الآمدي (371هـ)وأنّ الجرجاني مات سنة (366هـ) مع العلم بأنّ الموازنة ألّفت على مراحل زمنية متباعدة فالقول بأنّ الجرجاني أخذ منه احتماله بعيد ،أمّا على اعتبار القول الثاني وهو أنّ الجرجاني توفّي سنة (392هـ) فهو قد عاش تسعة عشرة سنة بعد الآمدي قد يحتمل وجها من قريبا من الصحّة.

والقول بالوقف أسلم -في نظرنا- لنقص الأدلّة وعدم الترجيح بينها ،أمّا بالنّسبة لاتّفاق الناقدين في بعض المسائل فذلك راجع إلى ما كان شائعا في القرن الرّابع الهجري واللّه أعلم.

لا نرَ في إطّلاع الجرجاني على الموازنة أو العكس مذمّة أو نقيصة تحطّ من الآخذ لأنّ تشابه القضايا مردّه إلى البيئة الثقافية والنّقدية الّتي عاصرها الناقدان.

أبدى الجرجاني مهارة ثقافية عالية في مناقشة آراء المعترضين على المتنبي كما أبدى قدرة علميّة عالية في طرحه لأفكاره المتصلة بالنقد والأدب ،فكلّ ناقد له آراؤه وذوقه وأسلوبه الخاص ،هذا ما سنوضّحه من خلال النقاط التّالية:

أوّلا :آراء الجرجاني في النقد الأدبي.

[207]أحمد أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ،ص :82.
[208]محمد زغلول سلاّم ، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، ص:370.

نظر في حقيقة الخصوم ورآهم مضطربين في نقدهم للمتنبي ،فإذا سَلِمَ من الأخطاء نسب للسّرقة وإذا سلم منها اتّهم بغموض المعنى ،ولمناقشة هؤلاء وغيرهم من أدعياء النقد قام الجرجاني بالحديث عن مقوّمات الشّعر وعناصر تكوينه مبيّنا أسباب الجودة والرّداءة فيه،وذكر العوامل المساعدة في إنتاجه ليثبت صحّة أهليته للقضاء ومقدرته المؤهلّة له في التوسّط بين المتنبي وخصومه فبضاعته النقدية غير مزجاة ،نقف أوّلا عند عناصر إنشاء الشّعر وما يتعلّق بلغته وفق ما رآه الجرجاني في ذلك.

1)إنتاج الشّعر :يقوم على أربعة أمور أشار لها الجرجاني بقوله":إنّ الشّعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطّبع والرّواية والذّكاء ،ثمّ تكون الدّربة مادة له ،وقوّة لكلّ واحد من أسبابه،فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز ،وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ".[209]

يعتبر الطّبع من العناصر الأساسية المكوّنة للشّعر،ولا بدّ من اتّصاف الشّاعر به ليتمّ ذلك الإنتاج.

أ-الطّبع :هو أساس العملية الإنتاجية في الشّعر،وقد ظهر الطّبع في القرن الرّابع الهجري بمفهومين :

الأوّل :بمعنى الموهبة والملكة الفطرية ،يقول الجرجاني":وأنت تعلم أنّ العرب مشتركة في اللّغة واللّسان وأنّها سواء في المنطق والعبارة ،وإنّما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة،ثمّ تجد الرّجل منها شاعرا مُفْلقا ،وابن عمّه وجار جنابه ولصيق طُنُبِه بكيئا مفحما ،وتجد فيها الشّاعر أشعر من الشّاعر والخطيب أبلغ من الخطيب ،فهل ذلك إلاّ من جهة الطّبع والذّكاء وحدّة القريحة والفطنة ".[210]

لا يقصد بالطّبع عمومه بل المهذّب"ولست أعني بهذا كلّ طبع بل المهذّب الذي صقله الأدب وشحذته الرّواية وجلّته الفطنة وألهم الفصل بين الرّديء والجيّد، وتصوّر أمثلة الحسن والقبح ".[211]

يربط الجرجاني الطّبع بالفطنة لتكون له القدرة على تمييز جيّد الشّعر من رديئه ،ولا يتصوّر تهذيبه إلاّ إذا صقله الأدب ونمّته الرّواية ،والطّبع المهذّب أحد المقاييس الأساسية في تقويم الشّعري ،وأشار حازم القرطاجني (ت684هـ)لمفهومه حيث قال":النّظم صناعة آلتها الطّبع هو استكمال للنّفس في فهم

[209](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص:15.
[210]المصدر السابق ، ص:16.
[211]السابق ، ص:25.

أسرار الكلام والبصيرة بالمذاهب والأغراض الّتي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها، فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام عملا ".[212]

مفهوم الطّبع عند حازم هو الاستعداد النّفسي بمعنى ما يضيفه الإنسان الموهوب من قدرات معرفية ومهارات إبداعية تؤهّله على توظيف الطّبع في عمليّة الإبداع.

المفهوم الثاني للطّبع هو قرب المأخذ، وسهولة التّأني ،قال أبو هلال مبيّنا ذلك ":هو أن تأخذ عفو الخاطر وتتناول صفو الهاجس ولا تكدّ فكرك، ولا تتعب نفسك ".[213]

الطّبع عند أبي هلال هو عدم حمل النّفس على التكلّف ومشقّة البذل ،لا يسبق إلى الفهم أنّنا نقصد سرعة الارتجال وسبق البديهة فلا بأس أن يعيد الشّاعر النّظر في شعره بشرط عدم الخروج عن العاطفة فالمزاوجة بين الفنّ والعاطفة ضرورية في الفنّ الشّعري،والجاحظ (ت255هـ) من أوائل النّقاد الذين اهتموا بوصف الفكر العربي واعتماده على ما تجيش به قرائحهم وما هو مكنون في خلدهم ،حيث يقول":وكلّ شيء للعرب فإنّما هو بديهية وارتجال وكأنّه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ،وإنّما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدوا ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو في حرب فما هو إلاّ أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انتثيالا ثمّ لا يقيّده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده".[214]

الارتجال من دلائل الطّبع عند الجاحظ لأنّ صاحبه يعبّر عن أفكاره بقريحته دون تردّد أو إعمال فكر في انتقاء المعاني والألفاظ ،والبدويّ حين يستعمل ما استغرب من الألفاظ فذلك راجع لطبعه وقريحته فالمطبوع "ينحصر في السّهولة والوضوح والترابط بحيث يتجنّب الشّاعر استخدام الألفاظ المستكرهة

---

[212] حازم القرطاجيني ؛منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛تحقيق:محمّد الحبيب ابن الخوجة ؛تونس (د،ط) ؛1966م ؛ ص : 199.

[213] (العسكري) أبو هلال، الصّناعتين (الكتابة والشّعر)، مطبعة محمّد بك الأستانة،(د،ط) 1319ه، ص :65.

[214] الجاحظ (عمرو بن بحر) ،البيان والتبيين ،دار الكتب العلمية ؛بيروت ؛لبنان ؛(د،ط) ؛(د،ت) ؛ ج :3 ؛ ص : 13

والوحشية ،والمعاني المعقّدة الغامضة ،ويحرص على اتّصال أجزاء قصيدته ويريك في صدره عجزه وفي أوّله آخره ،فضلا عن سهولة القوافي وسلامة الأوزان من الاضطراب ".[215]

وفي الطّبع تكون الألفاظ سليمة من التّعقيد ،والمعاني بعيدة من الغموض ،والأوزان خالية من الاضطراب ،والقوافي سالمة من الخطأ ،وضدّ الطّبع التكلّف أو التصنّع ،فهناك فرق بين الصّنعة والتّصنع فالأولى محمودة باعتبار أنّ الشّعر صناعة لها آلاتها ،أمّا الثّانية فهي مذمومة لخروجها عن الطّبع وبعدها عن العاطفة ،كما بيّن الجرجاني التّفاوت في شعر أبي تمّام وأرجعه إلى"الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكّن من بعض ما يرويه إلاّ بأشدّ تكلّف وأتمّ تصنّع ،ومع التكلّف المقت وللنّفس عن التصنّع نفرة وفي مفارقة الطّبع قلّة الحلاوة وذهاب الرّونق وإخلاق الديباجة ".[216]

لا يقصد من نقده له الحطّ من قدره فقد نبّه الجرجاني على ذلك بقوله ":ولست أقول هذا غضًّا من أبي تمّام ،ولا تهجينا لشعره ،ولا عصبيّة عليه لغيره ،فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ،وأنتحل موالاته وتعظيمه ،وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع لكن ما سمعتني أشترطه في صدر هذه الرّسالة أنّه يحظر إلاّ إتّباع الحقّ وتحرّي العدل ،والحكم به لي أو علي".[217]

هذا جانب من جوانب انعكاس الرّوح العلميّة المتخلّقة عند الجرجاني لأنّ خروج أبي تمام من الطّبع إلى التصنّع يصاحبه قلق الألفاظ واضطراب المعاني وبعد عن العواطف النّفسية الكامنة في ذات الإنسان،التصنّع لا يمت للطّبع والعاطفة بصلة لأنّه لا يمثّل مطلبا فنيّا ،هذا ما أقرّه موافي قائلا":ولكنّ الإلحاح على طلب ذلك في الشّعر ،دون حاجة فنيّة أو نفسيّة باعثة عليه هو التكلّف بعينه ".[218]

أمّا الصّنعة التي تراد للحاجة الفنيّة أو النّفسية أو تستدعى لتنقيح القصيدة كما قال بعضهم ":خير الشّعر الحولي المنقّح ،وكان الحطيئة يعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ،ثمّ يبرزها"[219].

---

[215] محمّد مصطفى أبو شوارب،إشكالية الحداثة(قراءة في نقد القرن الرابع الهجري) ، ص :25.

[216] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :19.

[217] المصدر السابق ، ص:20.

[218] عثمان موافي ،الخصومة بين القدماء والمحدثين في النّقد العربي القديم ،ص:193.

[219] (العسكري) أبو هلال، الصّناعتين (الكتابة والشّعر)، مطبعة محمّد بك الأستانة،(د،ط) 1319ه، ص : 135.

هذا التربّص بالقصيدة لا يخرج صاحبه عن الطّبع، بخلاف التصنّع فهو"ما بعد عن الطّبع ".[220]

رأى الجرجاني أنّ الطّبع المصقول بالأدب والمشحوذ بالرّواية غير كاف فأضاف إليه الذكاء ،وأدرجه ضمن عمليّة الإبداع الأدبي.

ب-الذّكاء :إنّ تفاوت أفراد القبيلة الواحدة في الإبداع مردّه لاختلاف مستوى الذّكاء ،فليس كلّ الأفراد باستطاعتهم قول الشّعر مع أنّهم يعيشون في بيئته ،نبّه الجرجاني على هذه المسألة قائلا "ثمّ تجد الرّجل منها شاعرا مفلقا وابن عمّه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئا مفحما ،وتجد فيها الشّاعر أشعر من الشّاعر والخطيب أبلغ من الخطيب ،فهل ذلك إلاّ من جهة الطّبع والذكاء وحدّة القريحة والفطنة ؟وهذه أمور عامّة في جنس البشر لا تخصيص لها بالأعصار،ولا يتّصف بها دهر دون دهر".[221]

يقارب في هذا النص بين الذّكاء والموهبة ويجعلهما متكاملان لأنّهما يسرعان بالفهم ،وعند الاستعانة بالذّكاء"يلمح الشّاعر ما لا يلمح غيره من النّاس ،ويدرك من الصّلات والمفارقات ما لا يدركه سواه وبذلك يتميّز عن غيره ،ويتفرّد بألوان من الإحساسات والمشاعر".[222]

هذه الألوان من المشاعر تقوم بتهذيب الطّبع وتجعله أرضيّة للإبداع،لا يقدر الطّبع والذّكاء على استكمال الضّرورة الفنيّة في غياب عنصر ثالث وفعّال هو الرّواية التي تساعد على تنميتهما.

ج-الرّواية عند الجرجاني هي معرفة دروب الشّعر وكثرة حفظه ،ليتمّ صقل الطّبع والذّكاء ،وحاجة المحدثين للرّواية أشدّ ،فقد نقل عن أبي تمّام والمتنبي كثرة حفظهما للدّواوين الشّعرية ،يقول الأصمعي مبيّنا أثر الرّواية في الشّعر":لا يصير الشّاعر في قريض الشّعر فحلا حتّى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ،ويعرف المعاني وتدور في مسامعه الألفاظ ".[223]

---

[220]الحسن بن رشيق ،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج :1، ص :295.
[221](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص:15-16.
[222]أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ،ص :51.
[223]الحسن بن رشيق ،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج :1، ص :197.

الفحولة عند الأصمعي أساسها الرّواية بها يكون التّوظيف الجيّد للمعاني والألفاظ ،والرّواية لا بدّ لها من مستند وهو الموهبة الشّعرية ،ولا طريق لتحصيلها إلاّ السّماع والمشافهة ،وأثر الرّواية في الشّعراء قويّة "وقد كانت العرب تروي وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض كما قيل إنّ زهيرا كان راوية أوس ،وأنّ الحطيئة راوية زهير ،وأنّ أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جؤيّة فبلغ هؤلاء في الشّعر حيث تراهم وكان عبيد راوية الأعشى ،ولم تسمع له كلمة تامّة كما لم يسمع لحسين راوية جرير ومحمّد بن سهل راوية الكميت والسّائب راوية كثيّر غير أنّها بالطّبع أشدّ ثقة ،وإليه أكثر استئناسا ".[224]

لم يكن هؤلاء الرّواة موهوبين ذلك لأنّ الرّواية تغذي الموهبة فالعلاقة بينهما تكاملية ،فحسين راوية جرير لم يكن شاعرا لقلّة موهبته وكثير من الرّواة غيره لم يتأتّ لهم الشّعر لانعدام مواهبهم ،كما أنّه لا بدّ للطّبع والرّواية والذّكاء من عنصر رابع مكمّل وهو الدّربة.

د-يرجع مفهوم الدربة في القرن الرّابع الهجري لنفس المفهوم الشّائع في النّقد الحديث ،فيراد بها التدرّب على العمل الفنّي ،ومن خلالها يظهر الطّبع الكامن ،ويوظّف الذّكاء ،ويستعان بالرّواية فالدربة هي عمليّة إحيائية للطّبع والذكاء ومنمّية للرّواية ،كما أنّها آخر عنصر في الإبداع الفنّي،هذا ما دفع بعض فحول الشّعراء للاستعانة بنظرائهم من أجل تصويبهم وتوجيهم لأدائه ،مثل "القصّة المشهورة عن زهير وابنِه كعب فقد كان يخرج به إلى الصّحراء حيث المنظر مثير للموهبة ثمّ يقول له صدر بيت ويطلب منه أن يجيزه ،وبالدّربة أو التدريب تنشط حوافز الفنّ الثّلاثة الأخرى".[225]

تعتبر الدّربة عمليّة استنطاق للطّبع المصقول وللذّكاء والرّواية ،ولم يعتبر الجرجاني العروض والقافية عناصر مهمّة في إنتاج الشّعر،ونرجع سبب ذلك إلى أنّ النقاد قد استغنواْ عنهما بصحّة الطّبع والذّوق ،يقول قدامة بن جعفر (ت337هـ)في أثر الطّبع والاستغناء به عن تعلّم الوزن ":وعلما الوزن والقافية -وإن خصا الشّعر وحده- فليست الضّرورة داعية إليهما لسهولة وجودهما في طباع أكثر

[224](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص: 16.
[225]محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص :134.

النّاس من غير تعلّم ممّا يدلّ على ذلك أنّ جميع الشّعر الجيّد المستشهد به إنّما هو لمن كان قبل واضعي الكتب في العروض والقوافي".[226]

الأوزان والقوافي مخبوءة في مضامين الطّبع لذا استغني عنها كما أنّها موجودة في سليقة العربي قبل أن يجمعها الخليل (ت175ه) في فنّ مستقلّ ويعطيها تلك المسمّيات والتّقسيمات ،لا تتوقّف عمليّة الإنتاج الفنّي على علم العروض والقافية فقد كان رأي القدامى"أن تعلّم العروض لا يخلق شاعرا،وأنّه ليس ضروريا للشّاعر لقول الشّعر لكن لا بأس بمعرفته ".[227]

لكنّنا نؤكّد على ضرورة تعلّمهما في زماننا لأنّه ما عاق النّاس عن الشّعر إلاّ جهلهم العروض والقوافي

هذه عناصر إنتاج الشّعر التي ذكرها الجرجاني وبيّنها ،أمّا ما يختصّ بلغة الشّعر من حيث رقّته وصلابته فيرجع الجرجاني سبب ذلك إلى الأمور الآتية:

أ-البداوة: إنّ اعتبار عامل البيئة في الشّعر فكرة عبّر عنها ابن سلاّم ،ومثّل عليها بعديّ بن زيد فقد لان لسانه لأنّه"كان يسكن الحيرة ويراكن الرّيف فلان لسانه وسهل منطقه ،فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف الأحمر".[228]

هذه الفكرة نفسُها نجدها عند النحاة فكلّما ابتعد الشّاعر عن مواضع البداوة قلّت فصاحته ،لا ننسى كذلك أثر الإسلام الذي ألقى بضلاله على اللّغة وألزمها بمواكبة متطلّبات المجتمع المدني الجديد فقلّت الألفاظ الغريبة والوحشية ومال النّاس لسّهولة الألفاظ والمعاني ولبست اللّغة ثوب الوضوح لتلائم متطلّبات البيئة الجديدة ،وآمن بأثر البيئة وتطوّرها على جميع الأصعدة فقال ":ومن مظاهر هذا التّطوّر اقتصار العرب على الألفاظ السلسة الخفيفة على اللّسان ،اللّطيفة الوقع في القلب بسبب لين الحضارة وسهولة طباع النّاس ".[229]

---

[226]قدامة بن جعفر ، نقد الشّعر ، ص : 14.

[227]يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ،دار الأندلس،بيروت ،لبنان ، الطبعة الثالثة:1403ه-1983م،ص :60

[228](ابن سلاّم الجمحي)محمّد ،طبقات فحول الشّعراء ،قرأه وشرحه:محمود محمّد شاكر،شركة القدس للنّشر والتّوزيع،دار المدني ؛ ص : 140.

[229](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص: 17.

أعطى للبيئة دورها ومهمّتها وبيّن مدى انعكاسها على الشّعر ممّا جعل نقّاد العصر الحديث يردّدون رؤيته هذه ويهتمون بضرورة إقحام عامل البيئة في الأثر الفنّي ،ومن بين هؤلاء مدام دي ستيل التي توصّلت بعد أبحاث عديدة إلى أنّ "الجماعة المتحضّرة أدبها متحضّر والجماعة المهذّبة الذّوق أدبها مهذّب العبارة وهذا ما قاله الجرجاني قبلها بتسعة قرون من الزمان ".[230]

ونبّه أيضا إلى أثر التغيّر الاجتماعي الذي نقل العرب من البداوة للحضارة وما صاحب ذلك من تغيّر في الطّباع والإبداع واللّغة وكيف انعكس ذلك على الشّعر يقول الجرجاني مبيّنا أثر ذلك التغيّر ":فلمّا ضرب الإسلام بجرّانه واتّسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التّأدب والتظرّف اختار النّاس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كلّ شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا وألطفها من القلب موقعا ... واحتذوا بشعرهم هذا المثال ".[231]

لم يدم هذا الحال طويلا لأنّ عصر الترجمة فرض أفكارا فلسفيّة ومعاني عميقة ألقت بضلالها على المحدثين فواكبوا عصرهم وانتسبوا لبيئتهم، ولكلّ زمان أبناء، فبأيّ حقّ نلزم الخلف بإتباع السّلف ونحرمهم من الإبداع ونفرض عليهم بيئة أسلافهم وإلاّ رفضنا إبداعهم؟هذا ما انتقده الجرجاني لما فيه من إجحاف في حقّ المحدثين لا سيما وأنّ البيئة لها أثرها الفعّال في تنوّع الطّبائع واختلاف القرائح.

ب-اختلاف الطّبائع:نقصد بها مجموعة من المميّزات الانطباعات التي ترجع إلى نفسية كلّ أحد و"في هذا المقام تعني شيئا آخر غير ما عرفناه، إنّها تعني المزاج النفسي ".[232]

ويخضع هذا المزاج النّفسي إلى تركيب الخلقة فلكلّ إنسان طبيعة خاصّة تميّزه عن سواه ،سواء في طريقة كلامه أو سلامة ألفاظه أو معانيه ،كما أنّ دماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ،وقد تنبّه الجرجاني إلى

[230]محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص : 142.
[231]المصدر السابق ، ص : 18 .
[232]أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ،ص : 13.

اختلاف الشّعراء أنفسِهم حيث قال ":فيرقّ شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ،ويسهل لفظ أحدهم ويتوعّر منطق غيره ".[233]

ويرجع الجرجاني سبب هذا الاختلاف إلى تنوّع الطّبائع واختلافها "وتركيب الخلق فإنّ سلامة اللّفظ تتبع سلامة الطّبع ،ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ،وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلق منهم كزّ الألفاظ ،معقّد الكلام ،وعر الخطاب ،حتّى أنّك ربّما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولهجته ..وترى رقّة الشّعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيّم والغزل المتهالك فإن اتّفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطّبع إلى الغزل فقد جمعت لك الرّقة من أطرافها ".[234]

نأخذ من هذا النص ضرورة تناول الظّواهر النّفسية ودلالاتها مع مراعاة الأغراض الشّعرية وتنوّع لغاتها إنّ غاية الجرجاني من الإشارة لأثر اختلاف الطّباع في الشّعر هو الردّ على من زعم أنّ لغة القدماء فخمة الألفاظ وعرة الخطاب ،وأنّ المحدثين لم يبلغوا تلك الغاية ولا يقدرون على مجاراة القدماء في مستوى ذلك الإبداع الذي حقّقوه ،وعندما يصدّقون هذا الادّعاء يواجههم الجرجاني بما قاله العلماء في حمّاد عجرد وخلف الأحمر وأضرابهم ممّن نحلوا أشعار القدماء حتّى عسُرَ على أرباب النقد الفصل في مسألة الانتحال التي كانت أحد أهمّ المحطّات التي حطّ فيها ابن سلام زاده وأناخ فيها ركابه وتكلّف عناء البحث فيها لشدّة خطرها وعظم جرمها ،من أسباب اختلاف لغة الشّعر تنوّع موضوعاته وأغراضه.

ج-الموضوع الشّعري :يمكن اعتبار هذا العنصر سببا مباشرا في اختلاف لغة الشّعر ،يرى الجرجاني أنّ ألفاظ المدح رقيقة جياشة موحية برقّة العاطفة حيث يقول":ولا آمرك بإجراء أنواع الشّعر كلّه مجرى واحد ،ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ،فلا يكون غزلك كافتخارك ،ولا مديحك كوعيدك ،ولا هجاؤك كاستبطائك ،ولا هزلك بمنزلة جدّك ،ولا

[233](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :16
[234]المصدر السابق ، ص : 17

تعريضك مثل تصريحك ،بل ترتّب كلاّ مرتبته وتوفيه حقّه فتلطف إذا تغزّلت ،وتفخّم إذا افتخرت وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه ،فإنّ المدح بالشّجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللّباقة والظّرف ووصف الحرب والسّلاح ليس كوصف المجلس والمدام ،فلكلّ واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه ".[235]

يؤكّد الجرجاني على ضرورة مواكبة الألفاظ للمعاني الخاصّة بها ،وتختلف هذه المعاني من غرض شعري لآخر ،فالمدح بالشدّة والبأس ليس كالمدح باللّباقة والظّرف ،ووصف الحروب والأسلحة ليس كوصف الخمر ومجالسها ،فلكلّ حال معنى يتعلّق به ولفظ يطلبه،لا يختصّ هذا بالشّعر بل لا بدّ من مراعاته في النّثر فرسالة الوعيد ألفاظها فخمة تحمل في طياتها التّهديد والتّهويل بخلاف كتب الوعود ورسائل التهاني والمواصلة ،من الأمور التي نبّه إليها الجرجاني في هذا الجانب اجتناب الأمور التي تفسد الشّعر وتحطّ من قيمته كالحشو والإغراق والتصنّع ،ومن أمثلة الحشو التي ساقها الجرجاني ما ذكره من أنّ الشّعراء أكثروا من ذكر عيون الجآذر ونواظر الغزلان ،يقول امرؤ القيس:

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ .[236]

ويقول عدي بن الرّقيع : وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النَّاسِ أَعَارَهَا عينيه أَحْوَرَ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ .

انتقدهما الجرجاني مبيّنا فسادهما قائلا "تخلّل كلّ واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغنى عنه وما لا فائدة من ذكره لأنّ امرئ القيس قال ":من وحش وجرة" وعديّا قال ":من جآذر جاسم" ولم يذكر هذين الموضعين إلاّ استعانة بهما في إتمام النّظم وإقامة الوزن ولا تلتفتنّ إلى ما يقوله المعنويون في وجرة وجاسم فإنّما يطلب به بعضهم الإغراب على بعض وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلاّ كغيرها من الظباء وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا".[237]

[235] السابق ، ص: 24
[236] امرؤ القيس ، الديوان ، ص :104.
[237] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :25.

نقد الجرجاني قائم على مدى مطابقة الشّاعرين للواقع فلو صحّ وقوف امرئ القيس وعدي بن الرّقاع لجاء وصفهما مقبولا وجميلا ،فنقد الجرجاني هو "نقد عقلي فيه تجرّد وموضوعية حتّى إنّه رأى ظباء جاسم بنفسه وسأل العدد العديد من الأعراب عن وحش وجرة ليرى إن كان فيها ميزة على غيرها تستوجب أن يخصّها الشّاعر بالذِّكْرِ ".[238]

هذا جانب من صورة الجرجاني النّاقد الباحث الذي يسعى لتأصيل المعايير النقدية من الواقع الثّقافي والاجتماعي ،وأشار بذوقه المرهف إلى أثر الأسلوب في الإبداع الشّعري وهو ما سنبيّنه الآن.

2 - أسلوب الجرجاني ومميّزاته :

لكلّ مؤلّف أسلوبه الخاصّ يعرف به، عرّف ابن خلدون الأسلوب بأنّه"المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي تفرغ فيه".[239]

المنوال أو الطّريقة التي يصوغ فيها المؤلّف أفكاره ويظهر فيها انفعالاته وعواطفه ،ومن بين الأمور التي تثير الإعجاب لدى الأدباء طريقة الجرجاني المتميّزة في تناول المواضيع وطرح الأفكار ومناقشتها والاهتمام بالمعاني للكشف عن وجه جمالها وسرّ تأثيرها ،يظهر اهتمام الجرجاني جليّا بالأسلوب حيث قال":وإذا أردت أن تعرف موقع اللّفظ الرّشيق من القلب وعظم غنائه في تحسين الشّعر فتصفّح شعر جرير ودي الرُمّة في القدماء والبحتري في المتأخرين وتتبّع نسيب متيمي العرب ومتغزّلي أهل الحجاز كعمر وكثيّر ونصيب وأضرابهم وقسهم بمن هو أجود منهم شعرا ،وأفصح لفظا وسبكا ثمّ انظر واحكم وأنصف ،ودعني من قولك هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلاّ ما قاله فلان فإنّ روعة اللّفظ تسبق بك إلى الحكم وإنّما تقضي إلى المعني عند التّفتيش والكشف ".[240]

تظهر ملامح الأسلوب الجيّد عند الجرجاني في حسن الألفاظ وانسجامها وبعدها عن التّعقيد والإغراب وفساد التّرتيب واضطراب النسج لتؤدي المعنى في غايته ويظهر في أجمل حلّته ،وقد ربط بين

[238] محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص :146.
[239] (ابن خلدون)عبد الرّحمن؛ تاريخ ابن خلدون المسمّى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، دار الكتب العلميّة،لبنان ،الطّبعة الثّاني : 1424ه-2003م ؛ص : 660.
[240] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :25

تنوّع الأسلوب الفنّي واختلاف لغة أداء الشّاعر باختلاف الطّبائع والبيئة الاجتماعية ،رأى الجرجاني أنّه لابدّ من الاعتماد على سلامة الطّبع المهذّب الذي صقله الأدب وغذّته الرّواية لتحصيل القدرة على تميز الجيّد والرّديء ،وممّا يثير الإعجاب في ذوقه وقدرته على تحديد الفكرة بوضوح تام هو اعتماده على الأسلوب السّهل الرّشيق المرتفع عن الرّكيك المبتذل ،لا يريد بالرّشيق الخنث المؤنّث بل يريد النّمط الأوسط وهو"ما ارتفع عن السّاقط السوقي ،وانحطّ عن البدوي الوحشي ".[241]

إنّ من أصعب المعادلات الجمع بين مقياس السّهولة والصّعوبة سواء عند الشّاعر أو الناقد ،فمن بين خصائص الإبداع لدى المتنبي قدرته على تطويع الشّعر فلم يأت شعره بدويّا جلفا ،ولا سوقيا منحطا كما جاء أسلوب الجرجاني أيضا وسطا بعيدا عن التّعقيد والتّكلّف ،ورأى أنّ الشّاعر مهما أفرط في البديع فقد جانب الصّواب لاعتقاده بأنّ "مع التكلّف المقت ،وللنّفس عن التصنّع نفرة ،وفي مفارقة الطّبع قلّة الحلاوة ،وذهاب الرّونق ،وإخلاف الدّيباجة ".[242]

الأسلوب الحسن ينبع من الطّبع لأنّ صاحبه يسترسل في الخطاب ويصاحبه العواطف والانفعالات التي تبعث فيه روح التّواصل ،هكذا كان أسلوب الجرجاني مسترسلا واضحا شغوفا بالاستطراد ،يطرق الفكرة من أبوابها المتعدّدة ،ويحدّد المعنى بدقّة دون لَبْسٍ أو غموض ،لا إفراط ولا تفريط ،ورأى الجرجاني أنّ الغموض في أبيات المعاني يكسب الشّعر حلاوة وطلاوة يعرفها أهل الصّناعة فأبيات المعاني"هي التي يوهم ظاهرها خلاف معانيها أو اختلال معانيها فإذا أجيد تأمّلها عرف مقصود قائلها وظهرت له معانٍ صحيحة".[243]

يعود إكثار المتنبي لاستعمالها وشغفه بها لعلمه بحسن موقعها ،فمن جملة الأفكار التي عنى الجرجاني بطرحها وشرحها ونقدها ما يتّصل بأبيات المعاني في شعر المتنبي حيث قال ":وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلاّ ومعناه غامض مستتر ولولا ذلك لم تكن إلاّ كغيرها من الشّعر ولم تفرد فيها الكتب المصنّفة وتشغل باستخراجها الأفكار الفارغة".[244]

---

[241] المصدر السابق ، ص : 26.
[242] السابق ، ص : 26.
[243] عبده عبد العزيز قلقيلة ،أبيات المعاني في شعر المتنبي،دار الفكر ،القاهرة ؛(د،ط) ؛1999م ، ص: 9.
[244] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :388.

إنّ اهتمام النّقاد بهذه المعاني وإفرادها بالتّأليف دليل على عمق الأثر الذي تتركه في النّفوس المتذوّقة.

لم يسلك الجرجاني مسلك المولعين بالسّجع كالصاحب وغيره من الكتّاب فجاء سجعه سمحا لطيفا لا تصنّع فيه ،يسترسل مع طبعه المهذّب المشحون بالرّواية ،نتمعنّ في هذا النّص الذي يصف فيه شأن المتنبي بين ناقديه حيث يقول ":يتلقّى مناقبه إذا ذكرت بالتّعظيم ،ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتّفخيم ،ويعجب ويعيد ويكرّر ،ويميل على من عابه بالزّراية والتقصير ،ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتّجهيل ،فإن عثر على بيت مختلّ النّظام ،أو نبه على لفظ ناقص عن التّمام التزم من نصرة خطئه ،وتحسين زلَلَه ما يزيل عن موقف المعتذر ،ويتجاوز به مقام المنتصر ".[245]

انظر إلى روعة التّصوير وجمال الصّياغة والتّعبير ،قوّة طبع وتماسك أفكار وسلاسة أسلوب ،كما أرشدنا لتوخّي العدل والإنصاف ومراعاة حرمة العلم بين أهله حيث قال":ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف ،أو تخرج في بابه إلى الإسراف ،بل تتصرّف على حكم العدل كيف صرفك ،وتقف على رسمه كيف وقفك ،فتنتصف تارة وتعتذر أخرى ".[246]

أسلوب الجرجاني بعيد عن تكلّف الجناس وغيره من المحسّنات "ولم يكن القاضي وحده في عصره هو الذي تحرّر من ربقة السجع بل كان من المتحرّرين كذلك المرزباني صاحب الموشّح والأصفهاني صاحب الأغاني ".[247]

ومن نظر في الوساطة تبيّن له انسجام الأسلوب في جميع مراحل الكتاب ،كما أنّ للجرجاني قصائد رائعة أنبأت عن تبحّره في النّظم والنّثر وجاءت بأسلوب الشّعراء البارعين ،نختار من عيون قصائده ما قاله في حنينه إلى بغداد (من الطويل):

أَرَاجِعَةٌ تِلْكَ اللَّيَالِي كَعَهْدِهَا إِلَى الْوَصْلِ أَمْ لَا يُرْتَجَى لِي رُجُوعُهَا

[245] السابق ، ص : 3
[246] السابق ، ص : 2
[247] أحمد أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ؛(د،ت) ؛(د،ط) ،ص : 171

وَصُحْبَةُ أحْبَابٍ لَبِسْتُ لِفَقْدِهِم ثِيَابَ حِدَادٍ يُسْتَـجَدُّ خَـلِيـعُـهَـا

إِذَا لَاحَ لِي مِنْ نَحْوِ بَغْدَادَ بَارِقٌ تَجَافَتْ جُفُونِي واسْتُطِيرَ هُجُوعُهَا

سَقَى جَانِبَيْ بَغْدَادَ كلّ غَمَامَةٍ يُحَاكِي دُمُوعُ المُسْتَهَامِ هُمُوعُهَا

مَعَاهد من غِزْلَانِ أُنْسٍ تَحالفتْ لَوَاحظُهَا أَلَاّ يُـدَاوَى صَـرِيعُـهَا

يَـحِنُّ إِلَيْهَا كُـلُّ قَـلْـبٍ كَـأَنَّمَا يُشَـادُ بِحَبّاتِ الْقُلُوب رَبِيـعُهَا

فَكُلُّ ليَالي عَيْشِها زَمَنُ الصِّبَا وَكُلُّ فُصولِ الدَّهْرِ فِيهَا رَبِيعُهَا."[248]

وله قصائد أخرى في مختلف الأغراض ،أجاد فيها وأصاب .

عبارات القضاء واضحة في أسلوبه،أكثر من توظيفها لما تطلّبه المقام من ذلك كقوله ":عجّلت بالحكم قبل استفاء الحجّة ،وأبرمت القضاء قبل امتحان الشّهادة ".[249]

وقوله":قد وفّينا لك بما اقتضاه شرط الضّمان وزدنا، وبرئنا إليك بما يوجبه عقد الكفاية وأفضلنا ".[250]

من بين الأمور العمليّة الخاصّة بسلك القضاء التي انتهجها في الإلزام بالحكم أو عند الأخذ بالمقاصة ما أشار له بقوله ":فيسقطون ما على الخصم مقابل ماله ".[251]

يقول مندور في هذه الاصطلاحات القضائية ":روح القضاء واضحة في كتاب الوساطة واضحة في المنهج ،وواضحة في الأسلوب ،روح القضاء هي العدل والتواضع والتثبّت ،روح قريبة النّسب إلى الرّوح العلمية بل نحن لا نرى بين الرّوحين فرقا ،فهما من معدن واحد ،كما أنّ مظاهرهما واحدة ".[252]

[248](الجرجاني) عليّ بن عبد العزيز ؛الديوان ؛تحقيق :سميح إبراهيم صالح ، ص : 61.
[249] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 62.
[250]المصدر السابق ، ص : 177
[251]السابق ، ص : 117.
[252]محمّد مندور النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب ، ص : 250

نضيف إلى هذه الرّوح القضائية سعة العلم وغزارة الاطّلاع والتفنّن في الأدب والنقد ،وممّا نلمحه في قاموسه من المصطلحات كقوله :"طريقة العدل في المحاكمة".[253]

هذه عبارات أصحاب القانون الذين يعطون للقارئ حرّية التصرّف في انتقاء الأحكام ،كما لا يتوانى الجرجاني في الإفصاح عمّا يراه صوابا لكن بتواضع وعدم ادّعاء ،في أسلوب أخلاقيّ رفيع أعجب به مندور وأثنى عليه قائلا ":هذه لغة ناذرة المثال عند المؤلّفين من قدماء العرب أين هي مثلا من لغة رجل كالصولي أو قدامة أو أبي هلال أو ابن الأثير أو غيرهم من المدلّين المعجبين المسرفين في الثّقة بأنفسهم ،هذه لغة عالم ثبت متواضع حذر دقيق ،لغة جديدة بين النقاد ،لغة رجل اتّسعت معرفته فأدرك حدودها ".[254]

هذه عدالة الناقد وتحرّيه للحقّ ،أمران مهمّان ينتج عنهما الصّدق في الأحكام وبالأخصّ ما تعلّق منها بالذّوق الذي يحتكم إليه ،عُرف الجرجاني بذوقه الرّفيع ومعرفته العميقة بأسرار النقد ومراتب النقاد ،وهذا ما سنبيّنه في المحطّة الموالية.

3- مركزيّة الذّوق في مشروع الجرجاني.

تحدّث عن النقد وبيّن مراتب النقاد ومستوياتهم في القسم الثّالث من الوساطة ،وقام بتحديد موقفه منه فقد أصبح في القرن الرّابع الهجري مهنة من لا مهنة له ودعوى من لا حجّة له خاضعا للأهواء والعصبيات النّفسية بمعنى "الانحياز كليّة إلى ما نتعصّب له فلا ترى فيه إلاّ الخير ونقلب سيّئاته إلى حسنات مسوقين بالهوى متحمّلين الأسباب لتجميل القبيح والمبالغة في غيمة الحسن ".[255]

مهمّة النقد عند هذا الصّنف تصيّد العيوب والتّشهير بالعورات التّي لم يسلم منها شاعر قديم ولا محدث وقد أعطى الجرجاني معايير فنيّة يجب على الناقد الالتزام بها وبيّن مراتب النقاد من خلال تقسيمهم إلى مراتب متفاوتة أدناهم من يهتمّ باضطراب الأوزان وإقامة الإعراب وأداء اللّغة وهذه

[253](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 18.
[254]محمّد مندور النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب ، ص : 252
[255]المصدر السابق ، ص : 101

أحكام شكليّة ،يقول الجرجاني مبيّنا مجال النّقد عند هؤلاء واصفا إيّاهم بأنّ "من كان همّه وبغيته أن يجد لفظا مروّقا وكلاما مزوّقا قد حشي تجنيسا وترصيعا ،وشحن مطابقة وبديعا أو معنى غامضا قد تعمّق فيه مستخرجه وتغلغل إليه مستنبطه ثمّ لا يعبأ باختلاف التّرتيب واضطراب النّظم وسوء التّأليف وهلهلة النّسج ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ،ولا يسبر ما بينهما من نسب ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب لا يرى اللّفظ إلاّ ما أدي إليه المعنى ولا الكلام إلاّ ما صوّر له الغرض ولا الحسن إلاّ ما أفاده البديع ولا الرّونق إلاّ ما كساه التّصنيع ،وقد حملني حبّ الإفصاح عن هذا المعنى إلى تكرير القول فيه وإعادة الذّكر له ولو احتمل مقدار هذه الرّسالة استقصاؤه واتّسع حجمها للاستيفاء له لاسترسلت فيه ولأشرفت بك على معظمه".[256]

إنّ مهمّة هؤلاء الوقوف على ظواهر النّصوص كالغلط في الإعراب والانكسار الواضح في الأوزان واستحسانهم تكلّف البديع ،أمّا أصحاب المرتبة الثّانية فيقفون على المعنى الغامض واللّفظ المستهجن وهذا النّوع من النقد "يُوصل إلى بعضه بالرّواية ،ويوقف على بعض بالدّراية ،ويحتاج في كثير منه إلى دقّة الفطنة وصفاء القريحة ،ولطف الفكر وبعد الغوص ".[257]

الناقد الحصيف عند الجرجاني من استجمع الفطنة والذّكاء والرّواية ثمّ غذّاها بالطّبع أي الموهبة ليتولّد لديه أساس النقد وهو الذّوق المقياس الفنّي الذي لابدّ منه سواء عند الناقد أو الشّاعر المبدع الذي يقوم بالتّعبير عن ذوقه مصحوبا بموهبته وثقافته ،والناقد يتذوّق ذلك الفنّ مستعينا هو الآخر بموهبته وثقافته ووفق هذين الاتجاهين يكون الانسجام التّام بين الفنّ الإبداعي والعمل النقدي ،قد يعجز الناقد في بعض الحالات عن تعليل حكمه الخاضع للذّوق المدرّب ،كما يتفاوت مستوى الذّوق بين ما تستحسنه الحواس وما يؤثّر في النّفس ،يقول الجرجاني مشيرا لذلك ":إنّ الكلام أصوات محلّها من الأسماع محلّ النّواظر من الأبصار".[258]

[256](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 413
[257]المصدر السابق ، ص : 73.
[258]السابق ، ص :68 .

إنّ ما تستلذّه العين من المناظر وما يقرع الآذان من المحاسن تتأمّله النّفس ويتقبّله الذّوق وربّما فاضل بين المحاسن في ذاتها ففي الصورة المرئية مثلا "قد ترى الصّورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال وتذهب في الأنفس كلّ مذهب وتقف من التمام بكلّ طريق ،ثمّ تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن والتئام الخلقة وتناصف الأجزاء ،وتقابل الأقسام وهي أحظى بالحلاوة وأدنى إلى القبول وأعلق بالنّفس وأسرع ممازجة للقلب ثمّ لا تعلم – وإن قايست واعتبرت ونظرت وفكّرت – لهذ المزيّة سببا ولما خصّت به مقتضبا ".[259]

وحينما يعترض أحد على هذا النصّ يناقشه الجرجاني قائلا ":ولو قيل لك كيف صارت هذه الصّورة وهي مقصورة عن الأوّل في الأحكام والصّنعة وفي ترتيب الصّيغة وفيما يجمع أوصاف الكلام وينتظم أسباب الاختيار أحلى وأرشق وأحظى وأوقع لأقمت السّائل مقام المتعنّت المتجانف ورددته ردّ المستبهم الجاهل ،ولكان أقصى ما في وسعك وغاية ما عندك أن تقول :موقعه في القلب ألطف وهو بالطّبع أليق ،ولم تعدم مع هذه الحال معارضا يقول لك:فما عبت من هذه الأخرى وأي وجه عدل بك عنها ألم يجتمع لك كيت وكيت وتتكامل فيه ذيه وذيه ؟وهل للطاعن إليها طريق؟ وهل فيها لغامز مغمز ؟ يحاجّك بظاهر تحسّه النّواظر ،وأنت تحيله على باطن تحصّله الضّمائر".[260]

تمسّك الجرجاني بالذّوق المصقول بصفاء القريحة وشدّة الفطنة رأي لم يستأثر به دون النقاد بل "يكاد نقاد العرب يجمعون على أنّ الذوق المهذّب المثقّف هو الفيصل في الحكم على النّصوص الأدبية وإلى هذا الحدّ يقف القاضي الجرجاني حتّى إذا جاء عبد القاهر لم يقف عند هذا الحدّ بل رأى أنّه لابدّ لكلّ كلام تجده حسنا من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم وعلّة معقولة ،وأن يكون هناك سبيل إلى التّعبير عنه ودليل على صحّة ما ادّعيته ".[261]

لكنّ عبد القاهر (ت471هـ) لم يرض بمبدأ عدم التّعليل في النقد ،وجعل من هذه الإشكالية منطلقا واتّخذها كعامل مساعد في تأسيس فكرة النّظم محاولا بذلك وضع رؤية جديدة لآلية التأليف الشّعري

[259] السابق ، ص : 62
[260] السابق ، ص : 63.
[261] أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ،ص : 66

فلا بدّ من الوقوف على النصّ لأنّه "أراد للنقد أن يكون وصفيا ينطلق من النصّ لا استدلاليا ينطلق من معايير جاهزة سابقة للنصّ".[262]

تقوم فكرة النّظم على بحث العلاقة بين المعنى باعتباره غاية ،والألفاظ تابعة له ،فالمعنى هو كيفية النّظم عكس ما كان يعتقد من أنّ المعنى يوجد ما قبل النّظم،سعى عبد القاهر لتجريد النصّ من تلك القيود المتمثلة في الأحكام المسبقة أو المعايير المسلّطة على النصّ بل دعى لدراسة خصائص الكلام واحدة واحدة مشيرا إلى أنّه"لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا ما وأن تصفها وصفا مجملا وتقول فيها قولا مرسلا بل لا تكون من معرفتها في شيء حتّى تفصل القول وتحصل وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام وتعدّها واحدة واحدة وتسمّيها شيئا فشيئا".[263]

ما يلفت النّظر في نصّ عبد القاهر هو ضرورة تحديد جمالية النصّ والتدليل عليها بالحجّة المقنعة لكنّ السّؤال المطروح هو كيف يمكننا أن نفاضل بين جنسين أدبيين متقاربان من حيث النّظم؟ إنّ ما نؤيّد به رأينا في ضرورة تحكيم الذّوق المدرّب ما أشار إليه الآمدي مبيّنا تعليل الأحكام تارة والعجز عنها تارة أخرى حيث قال ":إنّهم يَرَوْنَ من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ،ولا تؤديها الصّفة".[264]

وأعطى على ذلك مثالا ممثّلا بالفرسين أو الجاريتين حيث قال الآمدي":ألا ترى أنّه قد يكون فرسان سليمين من كلّ عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنّجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلاّ أهل الخبرة والدّربة الطّويلة ،وكذلك الجاريتان البارعتان في الجمال ...فإذا قيل له وللنّخاس من أين فضّلت هذه الجارية على أختها ؟ ومن أين فضّلت هذا الفرس على صاحبه ؟لم يقدر على عبارة توضّح الفرق بينهما وإنّما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته".[265]

فقوله ":لا يعلمه إلاّ أهل الخبرة والدربة الطويلة" فيه إشارة واضحة إلى الذّوق المدرّب الذي مردّه لأهل الخبرة ،ثمّ يواصل الآمدي حديثه مبيّنا أثر الذّوق في الشّعر قائلا":وكذلك الشّعر قد يتقارب

[262] جودت فخر الدّين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي ؛دار الآداب بيروت ، الطبعة الأولى ؛ 1984م ؛ ص : 50.
[263] عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز،تحقيق ؛محمود شاكر ،مطبعة المدني بمصر ،الطبعة الثالثة ؛1413ه-1992م ؛ ص :31.
[264] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، ص : 397
[265] المصدر السابق ؛ ص : 397.

البيتان الجيّدان الناذران فيعلم أهل العلم بصناعة الشّعر أيّهما أجود إن كان معناهما واحدا أو أيّهما أجود في معناه إن كان معناهما مختلفا ".[266]

إنّ ما ذهب إليه أقطاب النقد كابن سلاّم والآمدي والجرجاني من تحكيم الذّوق المدرّب حتّى لو كان خاليا من التّعليل هو ما نراه ونقبله عندما تتساوى الأعمال الفنيّة في الإبداع فنفاضل بينها ونرفع بعضها فوق بعض عندما تعجز المعايير فالنقاد"جعلوا للذّوق المقام الأوّل في الحكم على الأثر الفنّي عندما تفشل القواعد والنّظريات ولكن هذا الذّوق لا يكون ذا جدوى إلاّ بعد أن يمرّ بتربية فنيّة طويلة وعسيرة تهذبه وتصقله وتوجّهه وبهذا كان الناقد الفنّي بحاجة إلى توفّر الموهبة أوّلا ثمّ الخضوع لإعداد شاقّ طويل ومن ثمّ كان النقد الفنّي من عمل المتخصصين الذين أعدوا لذلك ".[267]

أمّا إذا رفض النقد نصّا فنيّا فنطالبه بالدّليل وإلاّ رغبنا عن حكمه ،لأنّنا نرى أنّ القواعد والنّظريات لا تعجز عن تبين الخطأ ،كما أنّ المنطق السّليم يأبى أمثال هذه الأحكام لأنّها من نتائج الجهل وسمات أهل الأهواء ،إنّ مقياس الدقّة في صناعة النقد وبيان ما يجب تحصيله من آليات دفع بالجرجاني إلى الردّ على من زعم بأنّ الناقد البصير هو من قال الشّعر وعرف ضروبه ووقف على أسراره ،وعند هؤلاء أنّ الناقد الشّاعر يفضل الناقد غير الشّاعر ،والجرجاني كان شاعرا وناقدا في آن واحد فهذه الميزة تدفع عنه تهمة الانحياز لغير الشّعراء.

إنّ من فضّل مقولة "الشّعراء أعلم من غيرهم بنقد الشّعر"تمسّك بهذه الحادثة التي دارت "في مجلس عبيد اللّه بن طاهر وقد سأل البحتري أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال البحتري:أبو نواس لأنّه يتصرّف في كلّ طريق ويبرع في كلّ مذهب إن شاء جدّ وإن شاء هزل ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتعدّاه ويتحقّق بمذهب لا يتخطاه ،فقال له عبيد اللّه:إنّ أحمد بن يحي ثعلبا لا يوافقك على هذا فقال :أيّها الأمير ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممّن يحفظ الشّعر ولا يقوله ،فإنّما يعرف الشّعر من دفع إلى مضايقه فقال:وريت بك زنادي يا أبا عبادة إنّ حكميْك في عمّيك أبي نواس ومسلم وافق

[266] السابق ، ص : 391
[267] محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 159

حكم أبي نواس في عمّيه جريرا والفرزدق فإنّه سئل عنهما ففضّل جريرا فقيل:إنّ أبا عبيدة لا يوافقك على هذا فقال:ليس هذا من علم أبي عبيدة فإنّما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر".[268]

إنّ العلم بمسالك الشّعر ليس دليلا على صدارة المعرفة بالنقد،هذا ما قرّره الجرجاني لأنّ الشّاعر يبدع إبداعا فنيّا خاضعا لقوانين الشّعر ومقتضياته بينما يقوم الناقد بتقويم ذلك الإبداع وفق معايير وأسس خاصّة بنقد الشّعر"ولا يساورنا شكّ في أنّ إهمال الجرجاني الحديث عن النقاد الشّعراء متعمّد لأنّه أدرك بموهبته النقدية أنّ ميدان النقد غير ميدان الإبداع،وقد يكون الشّاعر موهوبا وعاجزا في الوقت نفسه عن نقد شعره ،وعلى هذا جلّ النقاد المعاصرين".[269]

نوافق الجرجاني على فكرة عدم إعطاء الأولوية في النقد للشّعراء فهم لا يمثّلون الوجه التّام للعملة النقدية المرغوبة ،ونسوق على ذلك مجموعة من الأدلّة –نراها –معضّدة لرأي الجرجاني الذي تبنيناه.

1-الجرجاني شاعر وناقد في آن واحد ،وهذه الخصوصية تزيل عنه شبهة التعصّب ضدّ الشّعراء .

2-الشّعر صناعة ومعاناة ،لذلك كان بعض الشّعراء يلجئون إلى الاحتكام إلى الرّأي الآخر ،فالنابغة الذبياني تحدّثنا مصادر الأدب أنّه كان يفصل بين الشّعراء ،فلو كان كلّ الشّعراء يحسنون النقد كما يحسنون الشّعر لقوّم كلّ شاعر عمله ولم يحتج للاحتكام إلى غيره ،وأبلغ من ذلك قصّة أمّ جندب وتفضيلها لشعر علقمة على امرئ القيس وفي هذا دليل على أنّ مجال النقد مغاير للشّعر.

3-الأخطاء الفنيّة التّي وقع فيها الشّعراء نبّههم إليها غيرهم ممّن لا يتعاطون الشّعر مثل إقواء النابغة نبّهه إليه أهل المدينة إلى غير ذلك من الأخطاء التّي وقعوا فيها ونبّههم غيرهم ،فهذه جملة الأدلّة -في نظرنا - الّتي دفعت الجرجاني لإهمال ذكر الشّعراء النقاد.

يمثّل الاعتماد على الذّوق المدرّب أساس فنّي ومرجع أساسي بشرط أن يكون صاحبه موضوعيا لا هذا ما أقرّه أيضا نقاد العصر الحديث فقد"شغلت موضوعية النقد النقاد الغربيين وكان من المتحمسين

[268] الحسن بن رشيق ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ؛ ج : 02 ؛ ص : 54-55.
[269] محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص : 154

لها الناقد الفرنسي (سانت بيف) الذي اشتهر بما عرف باسم (نظرية النقد المحايد) وهي نظرية تقوم على ثلاثة أسس :الحيدة التامّة في النقد ،وعدم التقييد بمذهب معيّن ،وعدم الادّعاء الفنّي ".[270]

نستخلص في الختام :أنّ الأحكام النقدية عند الجرجاني نوعان:

أ)حكم نقدي يعتمد في إصداره على القواعد والأسس الّتي تعرف بها الأخطاء وهو نقد موضوعي لأنّه يستند إلى قيم ومعايير متّفق عليها لا على ذوق الناقد وعواطفه.

ب)نقد يعتمد على الذّوق المدرّب، يمتاز هذا النّوع بصعوبة التّحديد لأنّه لا يمكن تعليله كما مرّ معنا ويشترط فيه أن يكون خاليا من الذّاتية والرّؤية الفردية المنعدمة فيها ملاحظة جمالية الأثر الأدبي ،يقول الجرجاني مبيّنا هذين النّوعين من النقد ومحتجّا بهما للمتنبي":فإن توسّعت في الدّعاوي فضل توسّع وملت مع الحيف بعض الميل حتّى تناولت طائفة من المختار فجعلته في المنفيّ وأخذت صدرا من الجيّد فجعلته مع الرّديء - ولسنا ننازعك في هذا الباب - فهو باب يضيق مجال الحجّة فيه ويصعب وصول البرهان إليه ،وإنّما مداره على استشهاد القرائح الصافية والطّبائع السّليمة الّتي طالت ممارستها للشّعر فحذقت نقده وأثبتت عياره وقويت على تمييزه وعرفت خلاصه وإنّما نقابل دعواك بإنكار خصمك ونعارض حجّتك بإلزام مخالفك إذا صرنا إلى ما جعلته من باب الخطأ واللحن ونسبته إلى الإحالة والمناقضة فأمّا وأنت تقول :هذا غثّ مستبرد وهذا متكلّف متعسّف فإنّما تخبر عن نبوّ النّفس عنه ، وقلّة ارتياح القلب إليه ".[271]

يؤكّد الجرجاني على ضرورة أن يكون النقد عصارة العقول الصّافية والمواهب السّليمة الممارسة للشّعر فالنقد عنده وسط بين العلم الذي تحكمه المعايير ،والفنّ الذي يمتزج فيه الذّوق بالإبداع ،ولا بدّ من المزاوجة بينهما"كان القاضي يمثّل النقد العربي الخالص الذي يعني أنّ الأدب أدب والعلم علم وهو

[270]المصدر السابق ، ص : 169
[271](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 99-100.

أمر يرنوا إليه ناقدنا المعاصر في حديثه عن ضرورة الاتّصال بالتّراث والاحتكام إليه في دعوته إلى أن يكون الأدب أدبا لا أن يكون فرعا عن علم الاجتماع أو علم النّفس أو غيرهما من العلوم".[272]

عندما يستقلّ الأدب والنقد بنفسيهما يعطيان صورة تكوينيّة لوجودهما ،لقد خلّف الجرجاني ثروة فكريّة هائلة في مجال النقد ،فكما تأثّر بأسلافه النقاد أثّر فيمن جاء بعده وبالأخصّ تلك الاختيارات التي انفرد به والآراء التي اهتمّ بدراستها والتي كان لها أثرها الفعّال فيما وصل إليه النقد الحديث .

تأثير الجرجاني وتأثّره في النقد والأدب:

اطّلع الجرجاني على ما كتبه النقاد السابقين أمثال ابن سلاّم الجمحي (ت231هـ) وتأثّر به في قوله بتأثير البيئة في الشّعر وضرب المثال بعدي بن زيد لأنّه"كان يسكن الحيرة ويراكن الرّيف فلان لسانه وسهل منطقه ،فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف الأحمر".[273]

كما تأثّر بنظريته الشّعرية في أنّ الشّعر صناعة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات، يقول ابن سلاّم مشيرا لذلك ":وللشّعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم ".[274]

وقال الجرجاني مقتفيا قوله ":ولكلّ صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ".[275]

واتّفق الناقدان على أنّ الذّوق المدرّب هو فيصل الحكم على الفنّ الشّعري حتّى وإن لم يعلّل فهو معتبر ،يقول ابن سلاّم":يقال للرجّل والمرأة في القراءة والغناء إنّه لنديّ الحلق طلّ الصّوت طويل النّفس مصيب للّحن ويوصف الآخر بهذه الصّفة وبينهما بوْن بعيد يعرف ذلك العلماء عند المعاينة

[272]السيّد فاضل ،تراثنا النقدي (دراسة في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني) ،دار المعارف ،الإسكندريّة،(د،ط) ،(د،ت) ،ص :11.
[273](ابن سلاّم الجمحي)محمّد ،طبقات فحول الشّعراء، ص: 140.
[274] المصدر السّابق ، ص : 05
[275](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 97

والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها ولا علم يوقف عليه وإنّ كثرة المدارسة لتعدي على العلم به فكذلك الشّعر يعلمه أهل العلم به". [276]

أمّا الجرجاني فردّ إدراك الجمال إلى بواطن الضّمائر في تحصيله يقول مبيّنا ذلك ومخاطبا المعترض في آن واحد":ولو قيل لك كيف صارت هذه الصّورة وهي مقصورة عن الأوّل في الأحكام و الصّنعة وفي التّرتيب والصيغة وفيما يجمع أوصاف الكلام ،وينتظم أسباب الاختيار أحلى وأرشق وأحظى وأوقع لأقمت السّائل مقام المتعنّت المتجانف ،ورددته ردّ المستبهم الجاهل ،ولكان أقصى ما في وسعك وغاية ما عندك أن تقول :موقعه في القلب ألطف ،وهو بالطّبع أليق ،ولم تعدم مع هذه الحال معارضا يقول لك:فما عبت من هذه الأخرى وأيّ وجه عدل بك عنها أ لم يجتمع لك كيت وكيت وتتكامل فيه ذيه وذيه ؟وهل للطّاعن إليها طريق ؟وهل فيها لغامز مغمز ؟يحاجّك بظاهر تحسّه النّواظر ،وأنت تحيله على باطن تحصّله الضمائر". [277]

من جملة الأمور التي نبذها الجرجاني فكرة إعظام المتقدّم والتعصّب له متأسيّا في ذلك بقول ابن قتيبة ":ولا نظرت إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدّمه ،ولا لمتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخرّه بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ،وأعطيت كلاّ حقّه ،ووفّرت عليه حظّه". [278].

المقياس المعتبر عند ابن قتيبة هو الجودة الفنيّة الفكرة نفسُها قال بها الجرجاني مدافعا عن المحدثين حيث قال":لو أنصف أصحابنا هؤلاء –يعني المحدثين- ...وعذره يكذب". [279]

اتّفق الجرجاني والآمدي على تفاوت المستوى الشّعري لدى أبي تمّام وكثرة استعاراته القبيحة ،وأجمع الناقدان على أنّ المعاني المشتركة وما يجري وفق طباع البشر لا سرقة فيه ،وقصرا السرقة في البديع الذي ليس للنّاس فيه اشتراك ،والسّرقة عند الآمدي ليست من كبير المساوئ حيث قال":إنّ من

[276] (ابن سلاّم الجمحي) محمّد ،طبقات فحول الشّعراء ، ص: 6-7
[277] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :63.
[278] ابن قتيبة ،الشعر والشعراء ص : 02.
[279] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :29.

أدركت من أهل العلم بالشّعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشّعراء خاصّة ولا لمتأخرين إذا كان هذا بابا ما تعرى منه متقدّم ولا متأخّر".[280]

كما هوّن الجرجاني من أمرها وشأنها لعدم الجزم بها ،ولو بحث الناقد على سرقة معنى لم يقدر على الوصول إليه ":ولهذا السّبب أحظر على نفسي ،ولا أرى لغيري بتّ الحكم على شاعر بالسّرقة".[281]

واتّفق الناقدان على أنّ من الذّوق ما لا يمكن تعليله ،وسبق لنا تمثيل الجرجاني على ذلك بمحلّ الأصوات من الآذان ،ومثّل الآمدي بالفرسين الجيّدين والجاريتين الجميلتين ،فيحصل التّفاضل بينهما لمعنى يدركه الذّوق ولا يمكن تحديده.

أمّا بالنّسبة لتأثيره في النقاد فيظهر جليّا في أفكاره النقدية وآرائه الأدبية المبسوطة في الوساطة خصوصا ما يتّصل بالشّاعر الكبير أبي الطيّب المتنبي.

من أشهر تلامذته عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي استلهم من أستاذه عبد العزيز الجرجاني مجموعة من الآراء منها رأيه في أنّ الاستعارة ملاكها تقريب التّشبيه ومناسبة المستعار له للمستعار منه ونقل في أسرار البلاغة كلام القاضي الجرجاني في نقده لبيت ابن المعتز:

بَيَاضٌ فِي جَوَانِبِهِ احْمِرَارٌ كَمَا احْمَرَّتْ مِنَ الخَجَلِ الخُدُودُ.

قال في الوساطة":ولو اتّفق له أن يقول حمرة في جوانبها بياض لكان قد طبّق المفصل وأصاب الغرض ووافق شبه الخجل لكن أراد أنّ البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار في جوانب البياض".[282]

علّق عبد القاهر على هذا النصّ قائلا ":لعلّه وجد الأمر كذلك في الوردة فشبّه على طريق العكس فقال :هذا البياض حوله الحمرة ههنا كالحمرة حولها البياض هناك..والقصد إلى جنس من الورد مخصوص وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة".[283]

[280] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، ص : 131.
[281] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 194.
[282] المصدر السابق ؛ ص : 182.

كما آمن بفكرة أستاذه في أنّ المعاني المتداولة لا سرقة فيها يقول عبد القاهر في هذا المعنى":إن كان ممّا اشترك النّاس في معرفته وكان مستقرّا في العقول والعادات لا يكون الاشتراك فيه داخلا في الأخذ والسّرقة".[284]

وتأثّر ناقدنا ابن رشيق بمقولة القاضي الجرجاني ورؤيته للشّعر بأنّه"علم من علوم العرب يشترك فيه الطّبع والرّواية والذكاء ثمّ تكون الدربة مادة له وقوّة لكلّ واحد من أسبابه".[285]

نقل ابن رشيق كلام الجرجاني هذا بحذافيره في حديثه عن حدّ الشّعر وبنيته.[286]

وعندما تحدّث ابن خلدون عن الدّربة كعنصر فعّال في العملية الإنتاجية للشّعر نراه يردّد مقولة الجرجاني في ذلك ،يقول ابن خلدون":ثمّ بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النّظم وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ".[287]

أمّا تأثير الجرجاني في مجال الدّراسات المتعلّقة بالمتنبي فكثيرة جدّا ،من ذلك مطابقة الثّعالبي لرأي الجرجاني وتأكيدهما على ضرورة مراعاة المحاسن والمساوئ في شعر المتنبي يقول الثعالبي":وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه في الشّعر وطرائقه ...والتّنبيه إلى عيونه وعيوبه".[288]

وسّع الثعالبي من دائرة السّرقات وأورد كثيرا ممّا أغفله الجرجاني ،وانتفع يوسف البديعي بكتاب الوساطة ونقل منه نصوصا كثيرة وذكر بعض ما انتقاه الجرجاني من عيون شعر المتنبي .

لم يسلم الجرجاني كغيره من النقاد من مآخذ واعتراضات نبيّنها في النقطة الموالية بشيء من التّفصيل.

---

[283] عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة ،تحقيق :محمود شاكر ،مطبعة المدني ؛مصر؛الطبعةالأولى :1412ه-1991م ؛ ص : 197-198.
[284] المصدر السابق ؛ ص : 116.
[285] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 15.
[286] الحسن بن رشيق ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ؛ ج :01 ؛ ص : 129.
[287] (ابن خلدون)عبد الرّحمن؛ تاريخ ابن خلدون المسمّى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، ص : 664
[288] الثعالبي ؛ يتيمة الدّهر في محاسن أهل الدّهر ؛ ج :1 ،ص: 141.

مآخذ العلماء على الجرجاني:

من بين الاعتراضات عليه استعماله كلمة الصّنعة بدل التصنّع فهما مفترقان نبّه على ذلك محمود السمرة قائلا ":ولو قال الجرجاني (التصنع) بدلا من الصنعة لكان التّعبير أدقّ،فهذا هو ما يعنيه إنّه (ونحن معه) نكره التصنّع في الشّعر وبالتصنّع يفقد الأثر الأدبي قيمته أمّا الصنعة فلا بدّ منها في العمل الأدبي وفي كلّ ضرب من ضروب الفنّ ونعني بالصنعة إتقان العمل ،فالشّعر الجيّد هو المطبوع المصنوع كما قال الجرجاني نفسُه".[289]

وكانت مدرسة المنقّحين التي يمثّلها زهير والأعشى والأخطل معتبرة عند النقاد لأنّ التنقيح لم يخرج عن الطّبع بخلاف التصنّع الذي يفتقد فيه عاطفة الشّاعر وشخصيته خلف ذلك التصنّع لذا كان معيبا.

اعترض على الجرجاني عندما نسب شعر المتنبي في صدره الأوّل وألحقه بأبي تمّام وجعل ما بعده واسطة بينه وبين مسلم أو البحتري ،يقول الجرجاني في ذلك التّقسيم ":لا تدّعي لأبي الطيّب طريقة بشار وأبي نواس ولو ادّعيته فإنّما كنت تخادع نفسك أو تباهت عقلك ،وإنّما أنت أحد رجلين :إمّا أن تدّعي له الصّنعة المحضة فتلحقه بأبي تمّام وتجعله من حزبه أو تدّعي له فيه شركا وفي الطّبع حظا فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيّرته في جنبة مسلم وإن وفرت قسطه من الطّبع عدلت به قليلا نحو البحتري".[290]

انتقد هذا النصّ أحمد بدوي قائلا":عندما قال ذلك لم يزدنا علما بمكان أبي الطيّب ولكنّه شكّكنا في موضعه الحقيقي أين يكون".[291]

لكنّ المتأمّل في شعر المتنبي يجده مزيجا من الأذواق المختلفة فهو وسط بين صنعة أبي تمام وطبع البحتري، فجاء شعره مملوءا بالمعاني والحكم التي راقت العقول وطربت النّفس لسماعها.

[289] محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص : 148.
[290] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه،ص :48.
[291] أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ،ص : 93.

لم تكن غاية الجرجاني الدّفاع عن المتنبي بالطّريقة التي دافع بها أنصاره والمتعصّبين له لأنّه لو كانت تلك غايته ما سلك سبيل الوسطية ولما اعتمد على مبدأ قياس الأشباه والنّظائر ،وللإجابة عن هذه الإشكالية بوضوح ندعو إخواننا الباحثين أن يمعنوا النّظر في حديثنا عن مقايسة الجرجاني التي خصصناها في المبحث الثّالث من هذه الرّسالة فهي سترّد كثيرا من الانتقادات الموجّه للقاضي الجرجاني ،وأنّه بحقّ وقف موقف الوسطيّة والاعتدال.

منزلة القاضي الجرجاني في النقد والأدب.

أثّر الجرجاني في العلماء والنقاد ونال إعجاب الكثيرين بما أبداه من آراء نقدية وبالأخصّ ما له صلة بالمتنبي وبالنقد عموما ،فالوساطة تعتبر من ذخائر النقد وموروث الأدب عبّر فيها صاحبها بما جادت به قريحته العلمية ،نلخصّ أبرز إسهامات الجرجاني في النقد والأدب والفكر ونحدّدها في النقاط الآتية.

1-يمثّل كتاب الوساطة نقلة نوعية في مجال النقد فهذا الكتاب وكتاب الموازنة قد جسّدا النقد الموضوعي،يقول مندور مبيّنا أثر الكتابيين وقيمتهما"أمّا النقد العربي الصّحيح فلم يوضع فيه غير كتابين هما الموازنة والوساطة وقد وضعا لأنّ خصومة نشأت حول أبي تمام والبحتري وأخرى حول المتنبي وتحمّس لكلّ من الطّائيين نفر من الأدباء كما تحمّس للمتنبي أو ضدّه نفر على نحو ما يتحمّس الأدباء اليوم في أوربا لهذا المذهب الأدبي أو ذاك وتلك هي الظّاهرة التي تولّد النقد".[292]

أكدّ الجرجاني على الفنيّة في جانبيْ النصّ والناقد معا ،كما أنّه دعى إلى العدالة في النقد وعدم إخضاعه للأهواء بينما أغفل الآمدي كثيرا من المقوّمات المرتبطة بالناقد والّتي نبّه الجرجاني عليها كثيرا.

2-شدّة إعظام المتقدّم هذه العصبية الّتي حلّ الجرجاني عقدتها وأعلن صراحة بأنّ شعراء الجاهلية يخطئون ويقعون في اللّحن كغيرهم ،وأنّ النّحاة واللّغويين يركبون الصّعب ويلتمسون لهم المخارج لتأويل أخطائهم فهذا التّصريح الجريء النابع من شخصية القاضي الذي يتبع الحقّ ويجهر به كما جهر بفتواه في عزل الشّعر عن الدّين.

[292] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي ؛ ص : 229.

3-رأى الجرجاني خيْرَ الشّعر الذي توسّط بين المطبوع والمصنوع ،وشعر المتنبي –في نظره- يمثّل هذا النّوع من الشّعر ،ووافق الجرجاني غيره من النقاد بأنّ الشّعر الخالي من التصنّع والتكلّف هو المقبول عند أرباب الأذواق الصافية والجرجاني واحد من هؤلاء.

4-تركيزه على الطّبع المهذّب الذي صقله الأدب وشحذته الرّواية ،ومن غير هذا الطّبع لا يمكن للنقد أن يتبوّأ مقعده الصّحيح في تقويم النّصوص الشّعرية ،كما أنّ المبدع لا يرق لمستوى الكمال دونه.

5-إنّ دعوة الجرجاني لإجراء عمليّة استقرائية كاملة لشعر المتنبي يتمّ من خلالها تقويم فنّه والحكم عليه بموضوعية هذا العمل نراه موافقا للمنطق السّليم ويستدعي مزيدا من الاهتمام والتّقدير.

6-سبق الجرجاني بنظرته لأثر البيئة والمجتمع في الإبداع الشّعري الناقد (تين) taine المتوفى سنة1893م،فقد أرجع علاقة المبدع بعصره وبني جنسه على ثلاثة عوامل هي: الجنس والبيئة وتأثير الماضي على الحاضر "أمّا عن القاعدة الثّانية الّتي ترتكز عليها قاعدة (تين) فهي البيئة ويقصد بذلك المعنى الجغرافي والوسط الاجتماعي والثّقافي فكلّ هذا يؤثّر في إبداع المفكّر أو الأديب ويصبغه بصبغته".[293]

وترتبط فكرة التّأكيد على البيئة والمجتمع في الانتصار للشّعراء المحدثين عموما وأنّ تجديدهم حريّ بالدراسة والاهتمام لا يراد به الدّفاع عن المتنبي بل جميع الشّعراء المحدثين .

7-اعتماده على المقايسة في الدّفاع عن المتنبي وتوظيفها كإجراء هامّ وفعّال في كثير من محطّات الوساطة "فالمقايسة إذن هي المنهج الأساسي الذي اعتمده الجرجاني في وساطته ولكن هل تصحّ المقايسة في كلّ الأحيان منهجا معتمدا؟".[294]

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال عرضنا لنماذج المتنبي التي قاسها الجرجاني على الشّعراء لنتبيّن مدى إصابته في ذلك الإجراء ،وبالتّالي فالفصل الموالي يعتبر إجراءً عمليّا لتلك المقايسة.

[293] عثمان موافي ،مناهج النقد الأدبي والدراسات الأدبية ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية مصر؛(د،ط) ،(د،ت) ، ص: 16.
[294] نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري ؛ ص : 189.

المبحث الأوّل:المقايسة على المستوى النّحوي واللّغوي.

نشأت العلاقة بين النّحاة والشّعراء على مبدأ التّقدير والاحترام،ونقل عن الخليل بن أحمد(ت175ه)أنّه قال ":الشّعراء أمراء الكلام يصرّفونه أنّى شاؤوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم ".[1]

فأباحوا لهم استعمالات اندرجت ضمن الضّرورة الشّعرية ؛كما أنّهم يعدلون عن سنن اللّغة وضوابطها تجويدا لفنّهم ومراعاة لما يقتضيه الوزن والقافية ،لكنّ خروجهم عن قواعد اللّغة لم يرق كثيرا من النّحاة واللّغويين فولجوا من هذا الباب للنّقد ،فحاول النقاد تضيق المسلك عليهم دفاعا عن النقد باعتباره مجالا له أربابه وروّاده،هذا ما جعل الخصام يشتدّ بين الفريقين حول المحدثين من الشّعراء الذين رأى فيهم الفريقان تجرئا على اللّغة وخروجا عن سننها كالذي سنراه مع المتنبي .

لم يؤمن أبو إسحاق الحضرمي(ت117ه)وغيره من المتعصّبين إلاّ بالشّعر الجاهلي وكان عمرو بن العلاء(ت154ه) يقول":لقد حسن هذا المولّد حتّى هممت أن آمر صبياننا بروايته ،يعني بذلك شعر جرير والفرزدق فجعله مولّدا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ،وكان لا يعدّ الشّعر إلاّ ما كان للمتقدّمين ،قال الأصمعي:جلست إليه عشر حجج فما سمعته يحتجّ ببيت إسلامي ".[2]

نرجع سبب تلك العصبيّة لأسباب سياسيّة ومذهبيّة خصوصا ما انتشر في ذلك العصر من الانحرافات والعصبيات التي ألقت بظلالها على فهم نصوص الوحي وتكييفها لنصرة هذا التّوجّه أو ذاك فكان من اللّازم الاعتصام بديوان العرب الذي جاء بعيدا عن تلك الأجواء والميول العقدية أمّا بالنّسبة لجمع اللّغة فقد أجمع النّحاة على الاحتجاج بشعراء صدر الإسلام ،نلاحظ أنّ الخصومة بين القدماء والمولّدين ألقت بضلالها على ساحة النّحاة واللّغويين فكان من نتائجها خروج أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي على قواعدِ النّحاة وضوابطَ اللّغويين ليبدعوا كما أبدع أسلافهم من الشّعراء.

[1](القرطاجني) حازم ؛منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛تحقيق:محمّد الحبيب ابن الخوجة ؛تونس (د،ط) ؛1966م؛ ص: 463.
[2] (البغدادي) عبد القادر بن عمر؛خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ؛تحقيق: نبيل وإميل ؛دار الكتب العلميّة ؛لبنان؛ الطّبعة الأولى :1418ه-1998م ،ج:1،ص :06.

نعرض الآن مجموعة من الانتقادات اللّغويّة والمؤاخذات النّحوية على المتنبي ونقف على طريقة القياس الذي أجراه الجرجاني في دفاعه عن المتنبي لنكشف مدى إجادته وإصابته في ذلك الإجراء منبّهين على ما رآه غيره من العلماء لنخلص إلى نتيجة نراها قريبة من الصّواب بأدلّتها وحججها .

أولا: المقايسة في الجانب النّحوي.

انعكست ثقافة المتنبي اللّغوية ومعارفه الثّقافية على إبداعه الشّعري،وجاد بما جادت به قريحته بجراءة قلّما يوجد لها نظير ،خاطب كلّ طائفة بلسانها ،وتكلّم بحالها ،متّخذا من آراء الكوفيين مستندا له وكان يرى أنّ أقدر النّاس على فهم شعره ابن جنّي فقد روي "أنّ سائلا سأله عن قوله في مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل ابن العميد :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعَكَ أَوْ جَرَى.[3]

فقال له:وكيف قلت لم تصبرا فقال (المتنبي):لو كان أبو الفتح حاضرا لأجاب".[4]

الوجه أن يقول تصبرنْ، لكنّ نون التّوكيد الخفيفة تبدل في الوقف ألفا لقول ابن مالك:

وَأَبْدِلَنْهَا بَعْدَ فَتْحٍ أَلِفَا وَقْفًا كَمَا تَقُولُ فِي قِفَنْ قِفَا

قال الخضري في شرحه لألفية ابن مالك ":فإن وقعت نون التّوكيد الخفيفة بعد فتحة أبدلت النّون في الوقف أيضا ألفا فتقول:في اضربَنْ يا زيدٌ اضْرِبَا."[5]

وضرورة الشّعر تبيح ذلك الاستعمال ،نبدأ بأوّل اعتراض نحوي على أبي الطيّب من ذلك ما ذكره الجرجاني في قوله ":ممّا أنكره أهل العلم واستضعفوه قوله في مدح مساور بن محمّد الرّومي":

جَلَلاً كَمَا بِي فَلْيَكُ التَبْرِيحُ أَغِذَاءُ ذَا الرّشَإِ الأَغَنِّ الشِيحُ.[6]

[3] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج 02 ؛ ص : 264.
[4] (البغدادي) عبد القادر بن عمر؛خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ،ج:1،ص :389.
[5] محمّد الخضري ،حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،ج:01 ؛ص :150.

قال أهل الإعراب :حذف النّون من تكن إذا استقبلتها اللاّم خطأ لأنّها تتحرّك إلى الكسر وإنّما تحذف استخفافا إذا سكنت ،فقال لهم المحتجّ عن أبي الطيّب :لعمري إنّ وجه الكلام ما ذكرتم لكنّ ضرورة الشّعر تجيز حذف النّون مع الألف واللاّم ،وقد حكاه أبو زيد عن العرب في كتابه المعروف بكتاب النوادر وأنشد فيه لحسيل بن عرفطة :

لَمْ يَكُ الْحَقُّ سوَى أَنْ هَاجَه رَسْمُ دَار قَدْ تَعفَى بِالسُّرر.[7]

وأبو زيد ثقة والرّواية عن العرب حجّة ".[8]

كما اعترض الثعالبي على هذا البيت قائلا":حذف النّون مع (يكن) إذا استقبلتها الألف واللاّم خطأ عند النّحويين ،ولأنّها تتحرّك إلى الكسر ،وإنّما تحذف استخفافا إذا سكنت ".[9]

يسلّم الجرجاني بقول أهل الإعراب قائلا":لعمري إنّ وجه الكلام ما ذكرتم "لكنّه وجد في النّوادر أنّ العرب حذفت النّون السّاكنة قبل الألف واللاّم في قول الشّاعر (لم يَكُ الْحَقّ)فثبوت النقّل يرفع الخلاف،نصوّر المسألة نحويّا ثمّ نبيّن شكل القياس ونناقش حجّة الخصم واعتراضه .

قال ابنُ مالك:

وَمِنْ مُضَارِعٍ لِكَانَ مُنْجَزِمْ تُحْذَفُ نُونٌ وَهْوَ حَذْفُ مَا الْتُزِمْ.

"قوله:(تحذف نونٌ) هي لام الفعل تخفيفا (وهو حذف) جائز (ما التزم) نحو(وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ يُضَـٰعِفْهَا [سورة النساء آية 40]وخالف في هذا أخيرا يونس فأجاز حينئذ تمسّكا بقوله:

فَإِنْ لَمْ تَكُ المرآة أَبْدَتْ وَسَامَةً فَقَدْ أَبْدَت المرآة جَبْهَةَ ضَيْغَمِ .

---

[6] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 01 ؛ ص : 365

[7] أبو زيد الأنصاري ،النّوادر في اللّغة ،تحقيق:محمّد عبد القادر أحمد ،دار الشّروق ،القاهرة، الطّبعة الأولى: 1401ه- 1981م ؛ ص : 96.وجاء فيه : السِّرَرْ.

[8] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص: 441.

[9] الثعالبي ؛ يتيمة الدّهر ؛ ج : 01 ؛ ص : 244.

وحمل على الضّرورة ...وقد قرئ شاذّا (لَمْ يَكُ ٱلذِينَ كَفَرُوا [سورة البينة آية 1]".[10]

يؤخذ من هذا النّص شاهدان الشّعر والقراءة الشاذّة ،احتجّ الكوفيون بهما ،ومنع البصريون حذف النّون إذا اتّصل بها ساكن ،وأجازه يونس بن حبيب (183هـ)لثبوت النّقل والقراءة الشاذّة تعضّده وذهب العكبري إليه أيضا فقال إنّ ":حذفها من فَلْيَكُ لسكونها وسكون التّاء في التّبريح ".[11]

ليسهل النّطق بها فالعلّة هنا الثّقل ،قال ابن وكيع مصرّحا بقبح هذا الاستعمال":في هذا البيت عيوب منها حذف النّون من تكن لأنّها قويّة بالحركة اللّازمة لالتقاء السّاكنين ،وعيب آخر أنّه حذفها مع الإدغام وهذا غير معروف لأنّه لا يقال في بني النّجار بلنجّار وها هو قد قال :فليكُ التّبريح فحذف مع الإدغام ولم يكن علمه بالعربية طائلا ".[12]

هذا ملخّص قول العلماء في المسألة، أمّا شكل القياس النّحوي فنجريه كما يلي:

تحقيق الأصل:قال النّحاة يجوز حذف نون كان بشروط":أن تكون بلفظ المضارع ،وأن تكون مجزومة وألاّ يكون بعد النّون ساكن ولا ضمير متصل وألاّ تكون موقوفا عليها مثال ما اجتمعت فيه الشّروط قول اللّه تعالى(وَلَم اَكُ بَغِيّاً ﴿١٩﴾ [سورة مريم آية 19]".[13]

إذا اتّصل بالنّون ساكن تظهر مثل قولنا ":لم يكنْ الرّجل يكذب"لكنّه ثبت نقلا عن العرب حذفها وهو الشّاهد المذكور في النّوادر "لَمْ يَكُ الْحَقُّ"،فعلى مذهب الكوفيين القياس صحيح والجرجاني مصيب فيه وعلّة القياس ضرورة الشّعر ،نعطي الفرع حكم الأصل وهو الجواز.

[10] حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج : 01 ؛ ص : 380.
[11] العكبري ؛ شرح الذيوان ؛ ج: 01 ؛ ص : 152.
[12] ابن وكيع ،المنصف ص:288.
[13] محمّد الخضري ،حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،ج:01 ؛ ص: 83

نظيف ما ذكره الأشموني سابقا قول الشّاعر"فإن لم تك المرآة"والقراءة الشاذّة (لَمْ يَكُ اِلذِينَ كَفَرُوا [سورة البينة آية 1] لأنّه":يحتجّ بها في اللّغة والنّحو إذ هي على كلّ حال أقوى سندا وأصحّ نقلا من كلّ ما احتج به العلماء من الكلام العربي غير القرآن ".[14]

هذه القراءة حجّة على البصريين ،ومبطلة لقول ابن وكيع بأنّ علم أبي الطيّب بالعربيّة لم يكن طائلا بل كان طائلا و هاطلا في آن واحد.

كما أنّ للمسألة نظائر منها :حذف الألف واللاّم في الأسماء إذا دخل عليها حرف النّداء ومع ذلك جاء في الشّعر إثباتها [15]ومثله أيضا التّنوين في اسم قاضٍ إذا دخلت الألف واللاّم عادت الياء لأنّ التّنوين حجبها وقد تحجب دون وجوده فتكون خلافا للأصل كما في قول الشّاعر :

فطِرْتُ بِمُنْصلي في يَعملَات دَوَاميَ الأَيْدِ يخْبطْنَ السَّرِيحَا[16]

الشّاهد في قوله: الأيْدِ وكان الأولى أن يقال الأيدِي "لأنّ الياء تثبت مع دخول الألف واللاّم، فلمّا اضطرّ حذف الياء مع وجودها وذلك أنّه أدخلهما على محذوف وأبقاهما على الحذف فكذا هذا حذف النّون كما تفعل العرب ".[17]

هذه النّظائر تندرج ضمن المقايسة (الأشباه والنّظائر)التي يقوّى بها القياس النّحوي الذي وظّفه الجرجاني ،وعلّة الشّبه في كون اللّغة تقبل بعض زيادة الحروف أو حذفها وكلّ ذلك من قبيل توسّعها.

من المسائل التي انتقدت على المتنبي حذف النّداء في قوله:

هَذِي بَرَزْتِ لَنَا فَهَجْتِ رَسِيسَا ثُمَّ انْثَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسَا.[18]

[14]التواتي بن التواتي،محاضرات في أصول النحو،دار الوعي للنشر والتوزيع،الرويبة،الجزائر؛(د،ط) ؛(د،ت) ؛ ص : 28-29.
[15]وهو قول الشّاعر: فيا الغلامان اللّذان فرّا إيّاكما أن تكسبانا شرّا.
[16]من شواهد المغني (208) ،قائله يزيد بن الطثريّة أو مضرس بن ربعي.
[17]القزاز القيرواني ؛ما يجوز للشّاعر في الضّرائر ؛قدّم له:رمضان عبد التّواب ؛مطبعة المدني ؛ مصر ؛(د،ت) ؛(د،ط) ؛ ص : 114.
[18](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 02 ؛ ص: 301.

قال الجرجاني على لسان الخصم ":حذفَ علامة النّداء من هذي وحذفها خطأ لأنّ هذي تصلح أن تكون نعتا لأي وكلّ معرفة تصلح جاز أن تكون نعتا لأي فحذف علامة النّداء منه غير جائز ،قال المحتجّ :هذا لعمري أصل القياس في النّحو ،غير أنّ ضرورة الشّعر تجيز ترك القياس في النّحو ".[19]

ثمّ ذكر جواز حذف النّداء من النّكرات وهو شائع ومستعمل ،إنّ ما يلفت الانتباه في قياس الجرجاني هنا هو إخضاع شعر المتنبي لقواعد النّحاة ثمّ يجعل الضّرورة الشّعرية آخر الحجج ،فعندما لا يسلّم الخصم بالمذهب الكوفي يعضّد حجّته بآراء النّقاد .

يظهر تحامل ابن وكيع جليّا في قوله ":حذف النّداء من المبهمات لحن عند البصريين لأنّه لا إعراب له يدلّ على إرادتك كما يدلّ قولك (زيد أقبل) على المحذوف وهو في المبهمات لا إعراب لها لا يدلّ على مرادك ،ويشكل ولا يجوز إلاّ في رواية شاذّة غير موثوق بها ".[20]

لكنّ الرّواية الشّاذة في ذلك قبلها الكوفيون والبصريون مثلما سنبيّنه لاحقا؛ يقول ابنُ مالك:

وَذَاكَ فِي اسْمِ الجِنْسِ وَالْمُشَارِ لَهْ قَلَّ وَمَنْ يَمْنَعْهُ فَانصُرْ عَاذِلَهْ.

قال ابنُ عقيل":الحذف مع اسم الإشارة قليل وكذا مع اسم الجنس ،حتّى إنّ أكثر النّحويين منعوه ولكن أجازه طائفة منهم وتبعهم المصنّف ولهذا قال ":ومن يمنعه فانصر عاذله " أي انصر من يعذله على منعه لورود السّماع به فممّا ورد معه مع اسم الإشارة قوله تعالى(ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ [سورة البقرة آية 84]،أيْ يا هؤلاء ،وقول الشّاعر :

ذَا ارْعِوَاء فَلَيْسَ بَعد اشْتِعَال الرَّ أْسِ شيبا إِلَى الصِّبا مِنْ سَبِيلِ.

أي يَا ذَا ".[21]

[19](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 466.
[20] ابن وكيع ؛ المنصف ؛ ص : 256.
[21]الخضري ؛حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ؛ج :2 ؛ ص :113

أوّل البصريون الآية وقالوا بأنّ هؤلاء بمعنى الذين خبر أنتم ،وتقتلون صلته ،وحذف النّداء من الإشارة مقيس مطّرد عند الكوفيين لثبوته بالنّقل ،وإن كان الأصل ما سلّم به للمحتجّ بقوله ":هذا لعمري أصل القياس في النّحو "لكنّ الضّرورة أباحته ،وحذف النّداء في النّكرة أبعد منه في المعارف ومثّل له الجرجاني بقول العجّاج : جَارِي لاَ تَسْتَنْكِرِي عَذِيرِي".[22]

علّق القزّاز على هذا البيت قائلا":قالوا :يريد يا جارية وحكي في مثل العرب أطرق كَرَا يريد يَا كَرَا يعني الكروان".[23]

نلاحظ أنّ الأصل منقول عن العرب يجوز قياس بيت المتنبي عليه فنعطي الفرع حكم الأصل وهو جواز حذف النّداء في النّكرات والمبهمات ،والعلّة هي الضّرورة الشّعرية ،ولأبي العلاء رأي آخر نقله البرقوقي وهو أنّ "هذه موضوعة موضع المصدر وإشارة إلى البرزة الواحدة كأنّه يقول:هذه البرزة برزت لنا كأنّه يستحسن تلك البرزة الواحدة".[24]

إذا سلّمنا بهذا التّخريج فلا إشكال لأنّ المتنبي يخاطب هذه البرزة بالذّات التي حرّكت ما كان في القلب من الهوى وهو المقصود بقوله الرّسيس إذ معناه في الأصل ما يتولّد عن الحمّى من ضعف ثمّ أريد به مَارَسَّ في القلب من الهوى ،ثمّ انصرفت مودعّة وما شفيت ما أبقى عليه الهوى (النسيس) من نفوسنا بالوصال ،عرف الجرجاني هذه المعاني بذوقه فقابل الحجّة بجنسها مع علم هؤلاء المعترضين بأنّ المتنبي كوفيّ المشرب ،لا يمكن تصوّر القياس النّحوي بمعزل عن آراء المدرسة الكوفة التي اعتمدها أبو الطيّب وفقهها الجرجاني ،نواصل رحلتنا مع القياس النّحوي لنقف على ما قاله في صباه يمدح عليّ الطّائيّ:

فَأَرْحَامُ شِعْرٍ يَتَّصِلْنَ لَدُنَّهُ وَأَرْحَامُ مَالٍ مَا تَنِي تَتَقطَّعُ.[25]

[22] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 466.
[23] القزاز القيرواني ؛ما يجوز للشّاعر في الضّرائر ؛ ص : 112.
[24] (المتنبي)أبو الطّيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 02 ؛ ص: 301.
[25] المصدر السّابق ؛ ج : 02؛ ص : 348؛ جاء في الديوان : وأرحام مال لا تني تتقطّع.

قال في الوساطة ":أنكروا تشديد النّون من لدنّ وإنّما هو لدُنْ ولَدْن فأمّا تشديد النّون فغير معروف في لغة العرب ،وقد كان أبو الطيّب خوطب في ذلك فجعل مكان لدنّه ببابه ثمّ احتجّ بما أذكره جملة قال :قد يجوز للشّاعر من الكلام ما لا يجوز لغيره لا للاضطرار إليه ولكن للاتّساع فيه واتّفاق أهله عليه فيحذفون ويزيدون وروى أبياتا منها :

إِذَا غَابَ غُدوًا عَنْكَ بَلْعَمٌ لَمْ تَكُنْ جَليدًا وَلَمْ تعطِف عَلَيْكَ الْعَوَاطفُ.

إنّما هو ابن العمّ".[26]

وساق شواهد أخرى على الحذف والزيادة مدلّلا بها على الاتّساع اللّغوي الذي سلكه المتنبي وإن كانت الضّرورة أجازته ،فالنّون تبدل مرّة ألفا في الوقف ،وقد تحذف كما في البيت السّابق (بلعمّ) أو عند إضافة المثنى مثل:جَاءَ عَبْدَا زَيْد ،وجعلت إعرابا في التّثنية والجمع،استخلص الجرجاني من ذلك أنّ":التّشديد في لدنَّ أحسن من هذا كلّه لأنّ النّون ساكنة مع الهاء والنّون تتبيّن عند حروف الحلق لتباعدها منها فزاد في تبيينها فاجتلب التّشديد وهذه زيادة نون وقد قال بعض العرب :(مُذْ لَدُ شوْلاً فإلى إتلافها) فحذف النون من لدن ".[27]

هذا مجمل ما ذكره الجرجاني من قول المعترضين كابن وكيع الذي قال ":هذا من لحونه إنّما تشدّد النّون مع النّون نحو لدنّي ولدُنَّا ،واستعمل لَدُنْ بغير (مِنْ) وما يكاد يستعمل إلاّ بمن قال اللّه عزّ وجلّ (ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [سورة هود آية 1]".[28]

كما اعترض عليه ابن جنّي فقال ":قوله:لدنّه فيه قبح وشناعة وليس هو معروفا في كلام العرب وليس يشدّد إلاّ إذا كان فيه نون أخرى نحو لدنّي ولدنّا ".[29]

[26] السّابق ؛ ص : 450.
[27](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 451.
[28]ابن وكيع ؛ المنصف ؛ ص : 442.
[29] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ،ج : 02 ؛ ص :348.

بعد أن عرضنا مجمل ما قيل من الانتقاد نبيّن شكل القياس الذي اعتمده الجرجاني هنا ثمّ نقوّمه بآراء النقاد نقوم بتحقيق الأصل المقيس عليه ثمّ نحدّد العلّة والحكم المستنبط منه.

"استعمل النّحاة لَدُنَّ ظرفا للزّمان والمكان يدل فيهما على الغاية ،وتستخدم مع (مِنْ) قلّما تفارقها وفيها لغات هي لَدُنْ ولُدْنَ بضم اللّام وسكون الدّال ،ولَدَا بفتح اللّام والدّال بعدها ألف ،ولَدُ بفتح اللّام وضم الدّال وحذف النّون ولَدْ بفتح اللّام وسكون الدّال ،وحذف النّون ولُدْ بضم اللّام وسكون الدّال وحذف النّون".[30]

قوله :لدنَّ بالتّشديد وجه مستعمل في النّحو وظّفه المتنبي مضافا مع الهاء،استدلّ الجرجاني بشواهد كثيرة فيها حذف الحروف وزيادتها من باب التوسّع اللّغوي كقول بعضهم" :

إِنَّ شَكْلِي وَإِنَّ شَكْلَكِ شَتَّى فَالزَمي الخُصَّ واخْفِضِي تبيْيَضِضِّي

أراد تبيَضِّي فزاد ضادا أخرى ،ومثله في زيادة نونات قول شبيب بن ثعلبة :

وَلَبْسَةُ الحُرْقُوصِ بالقَفَنِّ ودمّل فِي الاسْتِ مُسْتَقِرَّن

أُحِبُّ مِنْكَ مَوْضِعَ الوُشْحُنِّ فَذَاكَ مِنْ ذَاكَ إِلَى السَنن

قطنَّةٌ مِنْ أَجْوَدِ القَطِنْ.

فزاد هذه النّونات ".[31]

ثمّ قال على وجه المقايسة ":والتّشديد في لدنّه أحسن من هذا كلّه ،لأنّ النّون ساكنة مع هاء".[32]

إذا كان التوسّع اللّغوي قد أباح مثل هذه الزّيادات والحذف فلم ير المتنبي ضيرا في استعمالها ،فالنّون أقرب لحروف العلّة (الياء ،الواو)وأكثرها شبها بهما لذا تدغم فيهما كما أنّها علامة للإعراب وتبدل

[30]الخضري ؛حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ؛ ج : 01 ؛ ص : 68.
[31](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 354.
[32] المصدر السّابق ؛ ص : 354.

عند الوقف ألفا وزيادة المتنبي للنّون شبيهة بزيادة غيره لها ولحروف أخرى لم تعط خصائصها ولها أحوال أخرى كزيادتها في موضع وحذفها في آخر ،وقد يجتمعان "كقول سحيم :

وَمَا قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى مَيْسَنَا نَ مُعجَبَةٌ نَظراً وَاتصَافَا.

أراد ميسان فحذف وزاد نونا".[33]

يحمل بيت المتنبي على هذه الوجوه من قبيل التّناظر والعلّة هي ما تقتضيه اللّغة من توسّع ،فلا فرق إذن بين زيادة نون وحذفها كما في النصّ السّابق ،نلاحظ أنّ قياس الجرجاني صحيح لاشتراك الفرع والأصل في العلّة المستنبطة من شواهد العرب من زيادة النّون أو حذفها وهي ما ذكره الجرجاني من أنّ النّون ساكنة مع الهاء ،وهي تتبيّن عند حروف الحلق لتباعدها منها لتحقيق صورة صوتيّة متلائمة مع الإيقاع بعيدة عن الثقل ،قال الجرجاني":إنّ النّون السّاكنة حسن تشديدها لتظهر ظهورا شافيا فهذه علّة قريبة قد يحتمل للشّاعر تغيير الكلام لأجلها ".[34]

يمكننا أن نظيف علّة ثالثة هي ضرورة الشّعر وبذلك يسلم المتنبي من المؤاخذة ويوفّق الجرجاني في القياس.

كما تحمل هذه المسألة على قياس الأشباه لمشابهة النّون حروف العلّة مثل إدغامها مع الياء والواو إدغاما ناقصا ،هكذا أبدع الجرجاني في المسألة وأخضعها للقياس النّحوي وقوّاها بالمقايسة .

نؤكّد على ضرورة مراعاة ما تتطلّبه الصّورة الفنيّة من الانزياح اللّغويّ الذي تسبح من خلاله في عالم الإبداع متحرّرة من تلك القيود اللّغوية مستندة على الضّرورة الشّعرية ،ونشير في الأخير إلى الرّواية الأخرى للبيت وهي":يتّصلن ببابه" فإذا صحّت فلا وجه للاعتراض.[35]

من أشكال الاعتراض النّحويّ على أبي الطيّب قوله:

[33] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص :349.
[34] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 455.
[35] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص :349.

لَيْسَ إِلَاّكَ يَا عَلِيُّ هُمَامُ سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ[36].

قال الجرجاني ":أنكروا اتّصال الضّمير بإلاّ وحقّ الضّمير أن ينفصل عنها وبذلك جاء القرآن قال الله تعالى(ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَاّ إِيَّاهُ)[سورة الإسراء آية 67]،وهو الظّاهر في قياس النّحو والمشهور عن العرب".[37]

لا يجوز الابتداء بالضّمير المتصّل ولا يقع بعد إلاّ في الاختيار فلا يقال ":ما رأيت إِلَاّكَ"،لقول ابنِ مالك : وَذُو اتِّصَالٍ مِنْهُ مَا لَا يُبْتَدَا وَلَا يَلِي إِلَاّ اخْتِيَارًا أَبَدَا.

إذ لا يقال ما أكرمت إِلَّاكَ ،وقد جاء شذوذا في الشّعر كقوله :

وَمَا عَلينَا إِذَا مَا كُنْتِ جَارَتَنَا أَنْ لاَ يُجَاوِرَنَا إِلَاّكِ دَيَّارُ.[38]

استدلّ الجرجاني بهذا البيت على صحّة قياس المتنبي والعلّة في ذلك السّماع وضرورة الشّعر ،نعطي حكم الأصل للفرع وهو الجواز ،كما نعضّده برأي الكوفيين المجيزين للقياس على الشاذّ،ولا نرى هذا الشاذّ من قبيل "إذا جعلت النوادر والشواذّ غرضك واعتمدت عليها في مقايستك كثرت زلّاتك ".[39]

فشتّان بين النّحويّ الذي يخضع الشاذّ للقياس وبين الشّاعر الذي يوظّفه ضرورة ،يقول الجرجاني في الشّاهد المنقول عن العرب وإن كان شاذّا "أنا لا أرى أن يطالب الشّاعر أكثر من إسناد قوله إلى شعر عربيّ منقول عن ثقة وناهيك بالفرّاء".[40].

يعتبر الفرّاء رائد المدرسة الكوفية "التي تسلّم للعرب ولو جاء مخالفا لقواعد النّحويين ،وكان يتوسّع في السّماع من العرب بل كان يتوسّع فيه إلى أقصى حدّ أمكنه ملتمسا فيه القياس خاصّة إذا اتّفق مع

[36] المصدر السّابق ؛ج : 03 ؛ ص :276.
[37](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 457.
[37]الخضري ؛حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ؛ ج: 01 ؛ ص : 71.
[39] السيوطي ؛الأشباه والنّظائر ؛ ج : 03؛ ص : 43.
[40] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 457.

بعض آي الذّكر الحكيم ،وكان يقيس على الشّاهد الواحد من كلام العرب ويؤسّس به قواعده ولذلك نراه يحتجّ بالبيت المجهول ،مثل :سمعت بعض العرب".[41]

لم يسلم الجرجاني من الانتقاد لاستدلاله بشعر مجهول نردّ هذا الاعتراض بما نقل عن الجرمي من أنّه قال ":نظرت في كتاب سبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا أمّا الألف فعرفت قائليها ،وأمّا الخمسون فلم أعرف قائليها".[42]

المهمّ في تلك الشّواهد أن تكون ثابتة عن العرب ،إنّ ما نقله الفرّاء عنهم أصل معوّل عليه في قياس الجرجاني وإن كان ابنُ مالك يرى أنّ ترك اتّصاله مع إلاّ هو المختار ،لكنّ ضرورة الشّعر أباحت ذلك الاتّصال وهذا ما نراه أيضا لارتضاء الكوفيين له ولأنّ للشّعر ضرورات تبيحها له المحظورات ،نواصل محطّات القياس النّحوي لدى الجرجاني لنقف هذه المرّة عند أعقد بيت لأبي الطيّب وهو قوله :

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادٍ لُيَيْلَتُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ [43].

يقول الجرجاني مبيّنا وجه الاعتراض"اعترض عليه تصغيره اللّيلة ثمّ استطالها فقال :لُيَيْلَتُنَا المنوطة بالتّناد معنى صدر البيت أن اللّيلة كانت طويلة فأقامها مقام أيّام الأسبوع كلّه ،ثمّ جعلها اسما لليالي الدّهر فكلّ أسبوع بعده أسبوع إلى آخر الدّهر وهو يوم القيامة وهو المراد بالتّنادِ ،فهذه اللّيلة لطولها هي بمنزلة أيّام الدّهر كلّها فكيف جوّز تصغيرها ،ولَمَّا سُئل أبو الطيّب عن ذلك أجاب بقوله":هذا تصغير التّعظيم والعرب تفعله كثيرا ،قال لبيد

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ * دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ.[44]

أراد لطف مدخلها فصغرها،وقال الأنصاري :أَنَا عُذَيْقَهَا الْمُرَجَّبُ ،وَجُذَيْلَهَا الْمُحَكَّكُ ،فصغّر وهو يريد التعظيم"[45].

---

[41] شرف الدين الراجحي، مآخذ النحاة على الشعراء حتى القرن الرابع الهجري ؛ ص : 62.
[42] البغدادي ؛ خزانة الأدب ؛ ج : 01 ؛ ص : 17.
[43] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص :74.
[44] لبيد بن ربيعة ؛ الديوان ؛ دار صادر ؛بيروت ،(د،ط) ،1386ه-1966م ،ص : 132.
[45] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 458 -459.

جاء في القاموس"أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ بأنّه تصغير التّعظيم"[46]،وعليه فهذا التّصغير ثابت مستعمل عن العرب وهو الذي رآه أبو الطيّب ولم يرضه الجرجاني وعقّب عليه قائلا ":في احتجاج أبي الطيّب خلل من قبل أن دويهة في هذا الموضع تصغير في المعنى واللّفظ وكذلك جذيلها ألمحكك لأن هذا الجذيل لا يكون إلا لطيف الجرم وإنما هو جذم من النّخلة تحتك به الإبل ،وكلما زاد تحكك الإبل به زاد لطفا وصغرا وضئولة وإنما وجه القول في هذا أن من التّصغير ما يكون جاريا على طريق الاستهانة والتّحقير ومنه ما يراد به الصّغر واللّطافة ،فأنت إذا قلت :جاءني رُجيْل لم تبال بصغر جسمه وتفاوت خلقه وقصر قامته إذا أردت تحقير شأنه والإهوان به ،ومتى أردت الإخبار عن ضئولته ودمامة خلقه لم تعرج على حاله ولم تفكر في محله .وقد تقول ذلك لملك على هذا الوجه،وتقول للرجل للعادي على الوجه الأول،وقد تفعل ذلك وأنت تريد ذمّه وان كان قوي الخلق عظيم الشأن ،وذكر لبيد الدويهية على لفظ التّصغير من باب اللّطافة دون النّكاية ،فقول أبي الطيب :لُيَيْلَتُنَا خارج مخرج الذمّ والهجو ثم قد أزال الالتباس وأفصح عن المراد بقوله المنوطة بالتناد،إذ قد بيّن أنه لم يرد قصر مدتها."[47]

هل ما ذهب إليه الجرجاني من أنّ الجذل والعذيق في قول الأنصاري مقصود بهما التّصغير في اللّفظ والمعنى أم هو بخلاف ذلك ؟.

والجواب عن السّؤال ظاهر في قول محمّد مندور الذي بيّن صحّة ما ذهب إليه المتنبي فقال":الجرجاني قد تخبّط في شرحه معنى الجديل ألمحكك والذي أوقعه في هذا التخبط هو لفظ ألمحكك فقد ظنّ أنّ المقصود بالجذيل هنا العود الذي ينصب للإبل الجربى لتحكك به وكلمّا زاد تحكّك الإبل زاد لطفا وصغرا وضئولة وإذن فالتّصغير مقصود بمعناه.ولو أن الجرجاني احتكم إلى ذوقه لشكّ في استقامة مثل هذا الشرح...والتحكّك هنا ليس معناه تحكك الإبل الجربى،بل تحكك أصول النّخل عندما تقوى وتشتدّ فتزال عنها أصول الأعناق أي تحكك،وهذا دليل القوّة والصّلابة،فالرجل يفخر بأنه الغديق المرجّب أي ضم إلى الخوص وحمى بالأشواك وأنه الجذيل ألمحكك أي الجذع القويّ وإذن فلا وجه هنا للطافة والصّغر والضئولة وإنما هو تصغير التّعظيم الذي أدركه المتنبي بحسه الصّادق ومعرفته المستنيرة."[48]

[46]: محمّد بن يعقوب ؛ القاموس المحيط ؛ ص :990؛باب اللّام فصل الجيم .
[47] ا(الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 459.
[48] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي ؛ ص : 305.

لو سلّم الجرجاني برأي المتنبي لكانت المسألة مندرجة ضمن القياس النّحوي ،ويكون بيت لبيد هو المقيس عليه لأنّ "ثبوت الحكم في الفرع فرع عن ثبوته في الأصل ،وكذلك في المناظرة إذا قاس المستدّل على أصل لا يقول به في الأصل لأنّ المستدلّ معترف بفساد قياسه".[49]

نسلّم برأي مندور في المسألة ونعتبره أصحّ ممّا ذهب إليه الجرجاني لثبوت هذا النّوع من التّصغير والدّليل على ما ذهبنا إليه ثبوته عن الكوفيين ،قال الخضري في معرض حديثه عن فوائد التّصغير أنّه "أربع :تصغير ما يتوهّم كبره كجبيل ،وتحقير ما يتوهّم كسبيع ،وتقليل ما يتوهّم كثرته كَدُرَيْهِمَاتٍ وتقريب ما يتوهّم بعد زمنه كقبيل العصر أو محلّه كفويق هذا أو رتبته كأصيغر منك ،زاد الكوفيون خامسة وهي التّعظيم ،كقول لبيد :

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ * دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ.[50]

فصغّر الدّاهية لتعظيمها ،لأنّ المقام للتّهويل بدليل وصفها بما بعدها ،وردّه البصريون إلى التّحقير بتأويله بأنّه إشارة إلى أنّ حتف النّفوس الذي يترتّب عليه أعظم المشقّات قد يكون بصغار الدواهي".[51]

ممّا نعضّد به رأي الكوفيين ما ذكره العكبري بقوله ":لُيَيْلَتُنَا تصغير تعظيم وتكبير أسوة بقول الرّسول الأكرم لعائشة:(يا حميراء)."[52]

لقد جنح الجرجاني لمذهب البصريين في عدم اعتبارهم قياس التّعظيم مع أنّ لأبي الطيّب مندوحة في آراء الكوفيين ،ويبقى حرصه في الدّفاع عن أبي الطيّب قائما حيث حمل المسألة على قياس الأشباه والنّظائر كقول بشّار :

أَضلَّ النَّهَارَ الْمُسْتَنِيرُ طَرِيقَهُ أَم الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ.[53]

جعل الدّهر كلّه مجموعا في ليلة واحدة كما جمعها المتنبي ووجه الشّبه هو الاشتراك في غلوّ المعنيين.

[49] الشريف التلمساني ؛ مفتاح الوصول ؛ ص : 106.
[50] لبيد بن ربيعة ؛ الديوان ،ص : 132.
[51] الخضري ؛حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ؛ ج: 02 ؛ ص : 254.
[52] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،التبيان في شرح الديوان ،العكبري عبد الله بن الحسين ؛صحّحه :كمال طالب دار الكتب العلميّة ،لبنان الطّبعة الأولى :1418ه-1997م،ج:1،ص :356.
[53] بشّار بن برد ؛ الديوان ؛ج :2؛ ص : 77.(جاء صدر البيت في الديوان :أَضلَّ الصَّبَاحُ الْمُسْتَنِيرُ سَبِيلَهُ).

في ختام هذا المقام نختم بما ذكرته منى إلياس في تحقيقها لباب الشاذّ من المسائل العسكريات لأبي عليّ الفارسيّ فقد أعجبنا بقولها حيث قالت":إنّ إبداع صورة جديدة من الكلام لا ينبغي أن يكون من عمل النّحويين وإنّما هو ممّا تتّفق عنه قرائح الأبيناء من شعراء الأمّة وكتّابها ممّن ثقفوا أصول لغتهم وهدتهم حاسّتهم البيانيّة إلى إبداع هذه الصّورة الجديدة كما تمليها عبقريّة اللّغة نفسها ،وإنّما يأتي عمل النّحويين لإقرار هذه الصّورة ورصدها وبيان وجوه تلاؤمها مع أوضاع اللّغة".[54]

وبين ما تقتضيه اللّغة من القواعد وما تتطلّبه الصّورة الفنيّة من الحريّة يجد الشّاعر نفسه مضطرا للعدول عن سنن اللّغة خاضعا لانفعاله وعواطفه قهرا غير مبال بخروجه ذلك ما دام أنّه يرى قدرة الإبداع والتّصوير تلوحان أمامه مع ما تبيحه له بعض الضّرورات التي لا يؤاخذ عليها.

إنّ الشّعراء المحدثين يخترقون حدود القياس النّحوي من أجل الإبداع فقط،ما دامت لغتهم غير مسموعة عند النّحاة فعندما يدور الشّعر في فلك الضّرورة البعيدة عن اللّحن فهو ملتزم بما حدّ له.

الفرق واضح إذن بين سعي النّحاة وحرصهم على حماية اللّغة من الانزلاق وبين إرادة الشّاعر في الإبداع ،من هنا حدث الاصطدام بين الفريقين واحتدم الصّراع بين الاتّجاهين ،ولكلّ وجهة هو مولّيها ،نكتفي بهذا القدر في مجال النّحو ونفتح ما يتعلّق بمسائل الصّرف.

ثانيا :المقايسة في الجانب الصرفي

ممّا أنكروه على المتنبي في هذا الجانب ما ذكره الصاحب (385هـ)في قوله"ومن أوابده التي لا يسمع طوال الدّهر مثلها ،قوله في سيف الدولة: (بحر الطويل)

إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لدَوْلَةٍ فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَ طُبُولٌ .[55]

وهذا التحاذق منه كتغزل الشّيوخ قبحا ودلال العجائز سماجة ولكن بقي من يسمع ".[56]

ونحن نسمع لنعقل الحقّ ونتّبعه ،وذلك من خلال تصوّر قياس الجرجاني للمسألة ،نبدأ بعرضه لرأي المعترض حيث قال على لسانه ":إنّ جمع بوق على بوقات خطأ ،وإنّما يجمع باب فُعْل على أفْعال

[54] منى إلياس ؛ القياس في النّحو ؛ ص : 167.
[55] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 229.
[56] الصاحب بن عباد ؛ الكشف عن مساوئ المتنبي ؛ ص : 258.

...،فأمّا فُعْل وفُعلات فممّا لا يعرف في شيء من الكلام في صحيح ولا معتلّ،سئل أبو الطيّب عن ذلك فقال :هذا الاسم مولّد لم يسمع واحده إلاّ هكذا ولا جمعه بغير التّاء وإنّما هو مثل حمّام وحمّامات وساباط وساباطات وسائر ما جمعوه من المذكّر بالتّاء ،وقال المحتجّ عنه :إنّ أصل الجمع التّأنيث ولذلك جاء ما جاء منه بالتّاء وإن كان في الأصل مذكّرا ،قال :فمن جمع اسما لم يجد عن العرب جمعه فأجراه على الأصل لم يسغ الردّ عليه ولم يجز أن ينسب إلى الخطأ لأجله ،وهذا اسم أعجمي تكلمت به العرب ولم يحفظ عنهم جمعه ،فلمّا احتاج المولّدون إليه أجْرَوْهُ على أصل الجموع وتبعوا فيه عادة العرب في الأسماء المنقولة عن الأسماء الأعجمية نحو سرادق وسرادقات وساباط وساباطات وخان وخانات وهارون وهارونات وإوان وإوانات فعدلوا بجميع هذه الأبنية عن أصول قياسها وألحقها بأصل الجمع وغلبوا فيها التّأنيث ولولا ذلك لما جاز في خان وهو مثل مال أن يجمع على خانات كما لا يقاس مال ومالات ولا في إوان وهو مثل جراب وقد ترخسوا في الأسماء العربية بمثل ذلك تغليبا للتّأنيث في هذا الباب فأخرجوها عن أبوابها وخالفوا فيها أخواتها ".[57]

أشار في هذا النصّ لحجج الفريقين بين مجوّز لجمع بوقات وبين مانع ذلك ،وسنذكر إجراءه للقياس الصرفي أوّلا ثمّ نثني بالمقايسة (الأشباه والنّظائر) ،فعلى القول بعربيّة الكلمة (بوق)نقول :

من أدلّة استعمال العرب (بوق) ما جاء في قصّة الآذان عندما سأل عليه الصّلاة والسّلام الصّحابة فقال بعضهم:{اتّخذوا ناقوسا مثل ناقوس النّصارى، وقال بعضهم:بل بوقا مثل قرن اليهود}.[58]

وأشار الجرجاني لقول رؤبة: رَحَى طَحَّانةٍ صَاحَ بُوقُهَا.

إذا سلّمنا بهذين الدّليلين فباب جمعها معروف فُعْلٌ يجمع على أَفْعَالٍ في أدنى العدد ،وإن لم ينقل عنهم ذلك فالقياس يقتضيه،هذا دليل المعترض وعليه فلا يمكن القياس لانعدام الأصل الذي يردّ إليه الفرع ،أمّا إذا كانت مولّدة فيكون الحكم كما يلي :

[57](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 443- 444.
[58]البخاري ؛ الصحيح ،(رقم : 328).

رأى المتنبي أنّ لفظ (بوق) ليس بعربيّ فقال":لم يسمع واحده إلاّ هكذا ولا جمعه بغير تاء" ويؤيّده قول ابن فارس (395هـ)":بوق :الياء والواو والقاف ليس بأصل معوّل عليه ولا عندي فيه كلمة صحيحة ".[59]

إذا سلّمنا بهذين القولين تكون علّة القياس سماعيّة لقول المتنبي "لم يسمع واحده إلاّ هكذا" ونعطي الفرع حكم الأصل وهو صحّة الاستعمال ،كما تحمل المسألة أيضا على قياس الأشباه فيجرى على عادة العرب في الأسماء المنقولة عن الأعجمية مثل سرادق وسرادقات وخان وخانات حملا لها على حمّام وحمّامات ،وله نظائر ذكرها الجرجاني وأنشد "قول أوس بن حجر :

تَكنّفَنَا الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِيَنتَزِعُوا علقَاتِنَا ثُمَّ تَرَبَّعُوا.

فجمع علقا على علقات ،وأنشد لغيره :

يرَى عِيساً يَسُودهنَّ ماءُ من النَّجَدَاتِ يحمِلُهَا الذميلُ.

يريد جمع النّجد ،وهو العرق ،في أبيات كثيرة تشهد لما قاله".[60]

هذه الشّواهد أدلّة لما ثبت في الشاذّ في جميع ما لا يوجد له مثال القلّة من المذكّر، وقد جاء أيضا فيما له مثال القلّة وإن لم يكن مستمرّا، والعلّة في ذلك كونها مذكّرا لا يعقل فيجوز جمعها بالتّاء.

اعتمد الجرجاني قياس الأشباه والنّظائر والوصف الجامع بين بوقات وعلقات والنّجدات هو عدم وجود أمثلة لجمع القلّة من المذكّر ،ولها نظائر مثل سرادقات وخانات وهارونات أسماء أعجميّة ألحقتها العرب بأصل الجمع وغلّبوا فيها التّأنيث ،وما يعضّد مقايسة الجرجاني هذه ما ذهب إليه ابن جنّي حيث قال ":عاب على أبي الطيّب من لا مخبرة له بكلام العرب جمع بوق والقياس يعضّده إذ له

[59] أحمد بن فارس؛معجم مقاييس اللّغة ؛ج:1؛ص:166.

[60] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 446.

نظائر كثيرة :مثل حمّام وحمّامات وسرادق وسرادقات وجواب وجوابات وهو كثير في كلام العرب في جمع ما لا يعقل من كلام المذكّر إذ لا يوجد له مثال القلّة".[61]

هكذا عرض الجرجاني أقوال الفريقين وناقش أدلّة الخصمين تارة بالقياس إذا توفّرت أركانه وتارة بالمقايسة إن أمكنه ذلك ،وكلا الدّفاعين معتبران شرعا لأنّ فيهما إبراز لنظرة أبي الطيّب اللّغويّة ومقدرته الفنيّة .

لم يحدّد الجرجاني موقفه من الخصمين ،وإنّما اكتفى بقوله ":قال الفريقان ما حكيناه ؛وكان لأبي الطيّب في الصّحيح مندوحة ،وفي المجتمع عليه متّسع ".[62]

لكنّنا نرى في عدول أبي الطيّب غاية فنيّة ورؤية جماليّة فسيف الدّولة يستحقّ هذا الوصف بكلّ ما يحمله السّيف من شجاعة وقوّة لما يحقّقه من انتصارات وفتوحات بخلاف غيره من الملوك والأمراء لا يعرفهم العامّة إلاّ بالطّبول والأبواق عندما يتنقّلون من مكان إلى مكان وقعودهم عن الجهاد كقعود القواعد من النّساء عنه ،أضاف التّأنيث لـ(بوق) لمناسبته حال القاعدين عن الجهاد ،فاختلاف الصيغ يؤدي إلى اختلاف الدّلالات ؛أليست الزيادة في المبنى زيادة في المعنى ؟هذا ما تبادر إلى أفهامنا ونظنّ أنّ أبا الطيّب كان يقصده.

من المآخذ الصّرفية على المتنبي ما جاء في قوله:

أَبْعِدْ بَعِدْتَ بَيَاضًا لاَ بَيَاضَ لَهُ لَأَنْتَ أَسْوَدَ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ.[63]

يقول المتنبي "إنّ بياض الشّيب ليس ببياض فيه نور وسرور وهو أشدّ سوادا من الظلم لما يورى به من حلول الأجل وقطع الأمل".[64]

[61] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص :229-230.
[62] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 446
[63] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :04 ؛ ص : 151.
[64] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 151.

أشار الجرجاني لبيان اعتراض الخصم بأنّه "أنكر أسود من الظّلم ،ولم يعلم أنّه قد يحتمل هذا الكلام وجوها يصحّ عليها ،وأنّ الرّجل لم يرد أَفْعَلُ التي للمبالغة ".[65]

يتعلّق هذا الاعتراض بالتّعجب وهو استعظام زيادة في وصف الفاعل خفي سببها ،والألوان لا يكون فيها الخفاء لذا لا يتعجّب منها ، لم يشر الجرجاني للوجوه التي يصحّ حمل استعمال المتنبي عليها وممّن أشار لها ابن الأنباري (577هـ) في حديثه عن المسألة السادسة عشر حيث قال ":ذهب الكوفيون إلى أنّه يجوز أن يستعمل ما أفعله في التعجّب من البياض والسّواد خاصّة من بين سائر الألوان نحو أن تقول :هذا الثوب ما أبيضه !وهذا الشّعر ما أسوده ! وذهب البصريون إلى أنّ ذلك لا يجوز فيهما كغيرهما من سائر الألوان، أمّا الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا إنّما جوّزنا ذلك للنّقل والقياس أمّا النّقل فقد قال الشّاعر: إِذَا الرِجَالُ شَتَوْا وَاشْتَدَّ أَكْلُهُمْ فَأَنْتَ أَبْيَضُهَمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ.[66]

وفي الاحتجاج أنّه قال:(أبيضهم) وإذا جاز ذلك في أفعلهم جاز في ما أفعله !وافعل به !لأنّهما بمنزلة واحدة ".[67]

واعتمادا على هذا النّص نكيّف قياس الجرجاني للمسألة كما يلي :

نحقّق أصل القياس وهو قول طرفة بن العبد:

إِذَا الرِجَالُ شَتَوْا وَاشْتَدَّ أَكْلُهُمْ فَأَنْتَ أَبْيَضُهَمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ

وجه الاحتجاج أنّه قال أَفْعَلَهُمْ فيقاس عليه ما أَفْعَلَهُ وأَفْعِلْ بِهِ ،ومنه "قول الشّاعر من الرّجز :

جَارِيَةٌ فِي دِرعِهَا الفَضفَاضِ تَقْطَعَ الحدِيثَ بالايمَاضِ

أَبْيَضُ مِنْ أُخْتِ بنِي أَبَاضٍ ".[68]

---

[65](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 439.

[66](طُرْفة ابن العبد)؛ الديوان؛ دار صادر ؛بيروت ،(د،ط) ،1380ه-1961م، ص : 18.رواية الديوان : أَمَّا المُلُوكُ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَلْأَمُهُمْ لُؤمًا.

[67] كمال الدين الأنباري ؛الإنصاف في مسائل الخلاف ؛تحقيق :حسن محمّد ؛دار الكتب ،بيروت ؛الطبعة الأولى :1988؛ج:1 ؛ص:141 -142

[68]كمال الدين الأنباري ؛الإنصاف في مسائل الخلاف ؛ ج : 1 ؛ ص : 142.

هذه السّماعات جعلها الجرجاني أصلا للقياس ،يقول الواحدي ":وقد ذهب جميع الشرّاح في قوله :

لَأَنْتَ أَسْوَدَ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ.

إلى أنّ هذا من الشاذّ الذي أجازه الكوفيون في نحو قول الرّاجز:أَبْيَضُ مِنْ أُخْتِ بنِي أَبَاضٍ".[69]

هذا النّقل أبقاه ابن مالك "على ظاهره وطرحه إلى المسموعات الشاذّة".[70]

والكوفيون يجوّزون القياس على الشاذّ كما أشرنا سابقا.

نقيس الفرع (قول المتنبي:أَسْوَدُ)على (أَبْيَض) والعلّة هي :أنّ البياض والسّواد هما أصل الألوان "ومنهما يتركّب سائرهما من الحمرة والصّفرة والخضرة والصهبة والشّهبة والكهْبة إلى غير ذلك فإذا كانا هما الأصليين للألوان كلّها جاز أن يثبت لهما ما لا يثبت لسائر الألوان إذا كانا أصليين لها ومتقدّمين عليها".[71]

نلاحظ أنّ الحكم المستنبط من القياس جواز التعجّب من سواد اللّون وفاقا لمذهب الكوفيين ومن وافقهم من البصريين فقد أجازوه في ضرورة الشّعر خاصّة.[72]

العلّة الثّانية في القياس هي ضرورة الشّعر على رأي البصريين ،نلاحظ مدى قدرة المتنبي اللّغوية وبراعته على تطويع اللّغة "وإخضاعها للتّعبير عن تجربته الشّعرية حتّى تصبح اللّغة بوحشيّها ونافرة سلسة القيادة يصوغها الأديب البارع صياغة متميّزة لا قلق فيها تجعل اللّفظ الغريب ممتزجا مع غيره من الألفاظ فيصير مألوفا مستساغا مفجّرا لطاقات إيجابية لا يفجّرها لفظ غيره".[73]

من خصائص الإبداع لدى المتنبي قدرته على توظيف الغريب والشاذّ في قالب الصور الفنيّة ببراعة غير مألوفة تجعل الألفاظ المختلفة متآلفة مع بعضها وتحنّ في صورة النّظم الذي سعى أبو الطيّب لإحداثه

[69] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :04 ؛ ص : 151
[70] محمّد حسين الجزائري ؛ القياس في اللّغة ؛ ص : 52.
[71]كمال الدين الأنباري ؛الإنصاف في مسائل الخلاف ؛ ج : 1 ؛ ص : 142.
[72]ينظر ؛ابن عصفور الاشبيلي ؛شرح جمل الزجاجي ؛تحقيق:فواز الشّعّار ؛ دار الكتب العلمية؛الطبعة الأولى: 1998م ؛ج1؛ص:576
[66]أحمد محمود المصري ومحمد أبو شوارب،قضايا الإبداع، دار الوفاء ،الإسكندرية، ،ط:01،2005م ؛ ص : 71.

في تركيبة المجتمع بين العرب وغيرهم من الأجناس ،فقد كان يستعمل جموعا قياسية متعدّدة ويأتي باشتقاقات غريبة كانت لها دلالاتها الإيحائيّة ومراميها المعنويّة ،هذا ما وسّع باب الخصومة اتّجاهه وأغرى النقاد بانتهاجه نقف على هذا القدر المتعلّق بالصّرف لنلج إلى مجال اللّغة ونكشف ملامح القياس لدى الجرجاني في هذا الجانب .

ثالثا : المقايسة في الجانب اللّغوي.

شهد الجرجاني بفضل المتنبي اللّغوي وسبقه الإبداعي ،ولم يكن دفاعه عنه اعتباطيا أو مساقا بالهوى في أغلب مضامينه فقد مرّ معنا عرضه لأدلّة الفريقين وذكره لحجج الخصمين بما يزيل عنه آفّة التعصّب التي اشتهر بها خصوم المتنبي الّتي من بين مجالاتها اتّهامهم له بالخروج عن قواعد اللّغة وقياسها فلمحوا أمشاجا من التّراكيب اللّغوية البعيدة عن القياس ،من جملة ذلك قول المتنبي :

شَدِيدُ البُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تُرُنْجُ الهِنْدِ أَوْ طَلْعُ النَّخِيلِ[74]

عابه الصاحب فقال ":المعروف عند العرب الأترج ،والترنج ممّا يغلط فيه العامّة ،لا أدري الاستهلال أحسن ،أم المعنى أبدع ،أم قوله ترنج أفصح ".[75]

كما أشار الجرجاني لهذا الاعتراض دون أن يصرّح بالصاحب فقال ":المعروف من العرب الأُتْرُجُ والتُّرُنْجُ ممّا يغلط به العامّة".[76]

ثمّ ذكر حجّة أبي الطيّب دون أن يبيّن موقفه منهما "قال أبو الطيّب :يقال أترجة وأترج وترنج حكاها أبو زيد ،وذكرها ابن السكيت في أدب الكاتب ".[77]

نبيّن معنى المتنبي الذي خاطب به سيف الدولة قائلا ":إنّ الأترج أو الطّلع بعيد من أن تشرب الخمر على رؤيته يعني أنّ الأترج والطّلع لم يحضرا لديك ليشرب عليهما وإن كان غيرك يتّخذهما لذلك".[78]

---

[74] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :03 ؛ ص : 213.
[75] الصاحب بن عباد ؛ الكشف عن مساوئ المتنبي ؛ ص : 257.
[76] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 270
[77] المصدر السّابق ؛ ص : 270.

لأنّ سيف الدّولة كان تقيّا عفيفا لا يشرب الخمر كغيره ،والأترج ثمر من جنس اللّيمون محكيّ عن العرب بوجوه منها ما جاء في القاموس"الأُتْرُجُّ والأُتْرُجَّةُ والتُرُنْجَةُ والتُرُنْجُ حامضه مسكّن غُلْمَةَ النّساء ويجلوا اللّون والكلف ،وقشره في الثّياب يمنع السوس".[79]

نلاحظ إذن بأنّ التُّرُنْجُ كلمة صحيحة لها أصلها اللّغوي إلاّ أنّ استعمالها قليل ،وقد اعتمد ابن منظور فصاحتها وروى "عن أبي عبيدة : ترنُجَةٌ وتُرْنُج ".[80]

استعمال المتنبي للتّرنج صحيح فالكلمة موجودة في المعاجم ،لم نقف على من نبّه لغلط استعمالها أو قلّة فصاحتها ،وعليه فلا داعي للقياس أصلا لأنّ الاستعمال صحيح ،فالمتنبي كان واثقا من فصاحة الكلمة ،فعندما عيب عليه استعمالها أجاب الحاضرين بقوله :

أَتَيْتُ بِمَنْطِقِ الْعَرَبِ الأَصِيلِ وَكَانَ بِقَدْرِ مَا عَايَنْتُ قِيلِي

فَعَارَضَهُ كَلامٌ كَانَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ النِّساءِ مِنَ البُعُولِ

وَهَذا الدُّرُّ مأْمُونُ التَّشَظِّي وَأَنْتَ السّيفُ مأْمُونُ الفُلُولِ

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَفْهَامِ شَيءٌ إِذَا احْتَاجَ النَّهارُ إِلى دَلِيلٍ.[81]

ذكرنا هذه المسألة الصّحيحة وإن لم يكن فيها قياس لنحمل عليها ما شابهها من كلّ استعمال لغويّ اتّهم به أبو الطيّب وله وجه من الصّحة أباحه السّماع ،إنّ الذي نراه هنا هو حرص الشّاعر على إحياء مثل هذه المفردات المغمورة في معاجم اللّغة ليلتفت إليها وتوظّف كغيرها من الألفاظ المتداولة.

من أشكال القياس اللّغوي عند الجرجاني ما اعتراض به الخصم على المتنبي في قوله :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِي وَلَا القُنُوعُ بِضَنْكِ الْعَيْشِ مِنْ شِيَمِي.[82]

---

[78](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :03 ؛ ص : 214.
[79] الفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ؛ ص : 207-208.
[80] ابن منظور ، لسان العرب ؛ ج : 03 ؛ ص : 40.
[81] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :03 ؛ ص : 215.

ليس من عادة أبي الطيّب أن يترجّى الآمال ويقعد عن المعالي كما أنّه لا يرض بقليل الزّاد فيسافر لطلب المال ،المعنى صحيح كما هو ملاحظ وإنّما آخذه النقاد على لفظة (القُنُوعِ) ،قال الجرجاني على لسان الخصم ":قالوا :القُنُوعُ خطأ وإنّما هي القناعة ،فأمّا القُنُوعُ فالمسألة ،يقال:قَنَعَ يَقْنَعُ قَناعَةً إذا رضي ،وقَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا إذ سأل والفاعل فيهما قانع ،قال المحتجّ : الرّواية المسموعة هي: ولا القناعة بالإقلال من شيمي ".[83]

هذه الرّواية المشار لها هي الموجودة في الدّيوان مشهورة عن الشّاميين وعلى تقدير ثبوتها فلا وجه للاعتراض، أمّا إذا سلّمنا برواية القُنُوعِ فشكل القياس يكون كما يلي:

بالنّسبة لتحقيق الأصل نستنبطه من نصّ الجرجاني حيث قال ":القُنُوعُ بمعنى القناعة محكيّة عن العرب وإن لم تكن مشهورة ،وقد ذكرها أهل اللّغة ،وحكوا عن أوس بن الحارث الطّائي أنّه أوصى ابنه فقال في بعض وصيّته :خير الغنى القُنُوع ،وشرّ الفقر الخُضُوع ،ولا يَحتمل معنى القُنُوع هنا في هذا الكلام إلاّ الرّضا والقناعة".[84]

وكلام العرب حجّة نثره وشعره ،القُنُوع قليل الاستعمال إلاّ أنّه ثابت عن العرب فقالوا":رجل قانع وقنيع "[85]،وفعلهما واحد كمنع فنقول :قَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعةً وقُنُوعًا وإن كان الأوّل أشهر في الاستعمال هذا وجه صحيح يجوز قياس الفرع (القُنُوعُ) عليه ،والعلّة هنا هي علّة تشبيه لأنّ القنوع استعمل بمعنى القناعة أي الرّضا ،والسياق لا يجيز إلاّ ذلك الحمل الذي قصده المتنبي ،أمّا على مذهب البصريين في عدم القياس على المسموع القليل فنحمل المسألة على قياس الأشباه والنّظائر فنقول إنّ وجه الحمل في هذه المقايسة هو ضرورة السّجع في قول أوس بن الحارث :خير الغنى القنوع وشرّ الفقر الخضوع وضرورة الشّعر أولى اعتبارا من السّجع،فهو يشبه قياس الأولى لأنّ علّة الفرع وهو ضرورة الشّعر أقوى

---

[82] المصدر السّابق ، ص : ج :4 ؛ ص : 155 ؛ جاء في الديوان عجز البيت كما يلي : وَ لاَ القَنَاعةُ بالإقْلاَلِ مِنْ شِيَمِي .
[83] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 462.
[84] المصدر السابق ؛ ص : 463.
[85] الفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ؛ باب العين ،فصل القاف ؛ ص : 775.

من السّجع ،نستنتج من هذا القياس أنّ بيت المتنبي صحيحا على مذهب الكوفيين في قياسهم على المنقول عن العرب وإن كان شاذّا أو قليل الاستعمال .

ومن بين المآخذ على أبي الطيّب قوله في مدح المغيث بن عليّ العجلي:

بَيَاضُ وَجْهٍ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً وَدُرُّ لَفْظٍ يُرِيكَ الدُّرَّ مُخْشَلِبَا.[86]

قال الجرجاني مبيّنا قول المعترض":لفظ (مخشلبا) ليس من كلام العرب ،فقال أبو الطيّب :هي كلمة عربيّة فصيحة وقد ذكرها العجاج ولست أعرفها في شعر العجاج ولا أحفظها محكيّة عن العرب غير أنّي أرى استعمالها وأمثالها غير محفوظ لأنّي أجد العرب تستعمل كثيرا من ألفاظ العجم إذا احتاجت إليه لإقامة الوزن وإتمام القافية ،وقد تتجاوز ذلك إلى استعماله مع الاستغناء عنه كما سمّوا الحمل برقا مع كثرة أسماء الغنم ".[87]

وساق الجرجاني شواهد كثيرة على توظيف الألفاظ الأعجمية إمّا بقصد إتمام الوزن أو القافية أو بغير سبب موجب ،وقبل أن نبسط الحديث عن مقايسة الجرجاني نقف أوّلا على معنى البيت لتتّضح لنا معالم تلك المقايسة ،قال البرقوقي ":الحالك :الشّديد السّواد ،والمخشلب خرز أبيض يشبه الدّار والعرب تسمّيه الخضض ؛أمّا المخشلب فهي كلمة نبطيّة يقول":إنّ نور وجه الممدوح يغلب نور الشّمس حتّى إذا قابلها كأنّها سوداء ،وأنّ لفظه أحسن من الدرّ حتّى يرى الدرّ إذا نطق كأنّه خرز ".[88]

يمكن صياغة الإشكالية في هذا السّؤال هل يجوز العدول عن الألفاظ العربيّة إلى الأعجمية ؟ يجيب الجرجاني عن ذلك من خلال قياسه بيت المتنبي على نظائره من أقوال الشّعراء والجامع بينها هو ضرورة الوزن والقافية أو التّوسع اللّغوي بدافع تحقيق التّواصل الخطابي من خلال عوامله التي نقصد بها

[86] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :01 ؛ ص : 240 ؛ رواية الديوان مَخْشَلَبَا
[87] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 461.
[88] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج :01 ؛ ص : 240 .

"العلاقة بين المتكلّم والمخاطب وقد تكون نظريّا علاقة حميميّة أو علاقة توتّر علاقة اتّصال أو علاقة انفصال علاقة احترام أو علاقة كراهيّة".[89]

فبالنّظر لتحقيق المطلب الجماعي تكون علاقة اتّصال، ويمكن أن تكون علاقة كراهيّة عند من لا يرى توظيف الكلمات الأعجميّة كما هو الحال عند المعترض على أبي الطيّب.

والنّظائر التي قاس عليها الجرجاني هي قول الشّاعر":

تَضَمّنها وَهُمْ رُكُوبٌ كَأَنَّهُ إذَا ضمَّ جَنْبَيْهَا المِخَارِقِ رَزْدَقُ

يريد رسته ،وهو الصفّ من النّخيل وغيره إلاّ أنّهم زعموا أنّه أراد النّخل هنا ،وقد استعمل العجّاج في قوافي جيميته ألفاظا منه، قال:كَمَا رَأَيْتَ في المَلَاء البَرْدَجَا

يريد الرّقيق وهو بالفارسيّة برْده ،وقال : كالْحَبَشيِّ الْتفَّ أو تسبّجَا

يريد لبس قميصا وإنّما هو بالفارسية شَبِي فعرّبه بسبيجَةِ ...وقد أفرط أبو نواس حتّى استعمل زنمرده وبازبنده ،وباريكنده ،وغير ذلك ".[90]

فكما جاز لهؤلاء ألفاظ العجم مع اتّساع العربيّة وغنائها ،جاز ذلك للمتنبي ،أمّا وجه التّناظر فهو لتحقيق غاية الإفهام ،يمكننا قياس توظيف المتنبي لألفاظ العجم على إفراط أبي نُواس وتكون المقايسة من باب حمل الأقلّ على الأكثر (شعر أبي نواس) ،لا نقصي حاجة العصر ودوافعه لأنّه دائما يفرض علينا معاجم مواكبة للتّطوّرات الدّلالية للّغة كما في عصرنا الحاضر الذي ظهر فيه المعجم الكبير والوسيط اللّذان يضمّان مجموعة من الألفاظ المولدّة والمعربّة والدّخيلة التي أقرّها المجمع اللّغوي وأجاز استعمالها للأدباء من أمثلة ذلك قولنا :استقلّ فلان طائرة خاصّة بمعنى ركبها بينما مدلولها المعجمي

[89] محمّد مفتاح،تحليل الخطاب الشّعري(إستراتيجية التناص)،المركز الثقافي العربي،بيروت ،الطبعة الرّابعة :2005م ،ص : 67.
[90] المصدر السّابق ؛ ص : 462.

هو رؤية الشّيء قليلا ،ومن قرارات المجمع اللّغوي بالقاهرة الذي أنشأ سنة (1934م) أنّهم "استشهدوا بجواز استعمال الجيل بأهل الزّمان الواحد بقول المتنبي : وإنّما نحن في جيل سواسيّة".[91]

إلى غيرها من الألفاظ التي فرضتها متطلّبات العصر وأجازتها المجمّعات اللّغوية المختلفة والمتعدّدة في بلادنا العربيّة والإسلامية.

إنّ غرض هذه المقايسة الإنصاف وذلك بتحكيم منطق العقل المتمثّل في مراعاة متطلّبات العصر وما يقتضيه واقع المعاشرين لتؤدّي اللّغة وظيفتها التواصليّة دون مراعاة فصاحة الكلمة وإنّما العبرة بمدى تحقيقها لعمليّة التواصل ،إنّ ما يميّز إبداع المولّدين هو قدرتهم على تطويع اللّغة بمفرداتها المختلفة فعملهم أشبه بالنّحت في صخور صمّاء لتحقيق أقصى ما يمكن إبداعه ولتقريب الفكرة من المتلّقي الذي أصبح يحمل في القرن الرّابع الهجري ثقافة لغوية عربيّة وفارسيّة ونبطيّة وغيرها ،يقول الجرجاني مبيّنا التماس التوسّع للمحدثين ":أمّا المحدثون فقد اتّسعوا فيه حتّى جاوزوا الحدّ لـمّا احتاجوا إلى الإفهام ،وكانت تلك الألفاظ أغلب على أهل زمانهم ،وأقرب من أَفهام من يقصدون إفهامه ".[92]

من الإجحاف إذن رفض المقاصد التي راعاها الجرجاني وسعى أبو الطيّب لتحقيقها في مجالات التّواصل المختلفة ،نبّهنا الجرجاني بذلك على حقيقة نقدية مفادها "أنّ النّحاة لم يكونوا منصفين حين أرادوا أن يكيلوا بكيلين وما كان ذلك إلاّ لأنّهم حكّموا أهواءهم وأذواقهم في إعظام المتقدّم ونصرته وفي التّهوين من شأن الحديث وإنكاره وكان عليهم أن يضعوا معايير علمية موضوعية يحكمون بها على القديم والحديث على سواء".[93]

نواصل رحلة المقايسة مع الجرجاني ،ونقف على اعتراض الصاحب قائلا ":ومن عيوب قصائده التي تحيّر الأفهام وتفوت الأوهام ،جمعه من الحساب ما لا يدرك بالأرتماطي ولا بالأعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

[91] محمّد عبد العزيز ؛ القياس في اللّغة ؛ ص : 251.
[92] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 462.
[93] محمّد حسن عبد العزيز ؛القياس في اللّغة العربية ؛ ص : 120.

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادٍ لُيَيْلَتُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ .[94]

وهذا كلام الجحكل (ما لا يسمع صوته كالذرّ) ورطانة الزطّ فما ظنّك بممدوح قد شمّر للسماح من مادحه فصكّ سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعاني المنبوذة".[95]

تعرّضنا سابقا في الجانب النّحوي لتصغير أبي الطيّب اللّيلة وقلنا بأنّه تصغير التّعظيم ،أمّا مؤاخذتهم اللّغوية فقالوا بأنّ العرب لم تتجاوز لفظ رباع ،وحينما سئل المتنبي عن ذلك أجاب قائلا لقد":جاء عن العرب خُمَاسٌ وَسُداسٌ إلى عُشَار حكاه أبو عمروا الشّيباني وابن السّكّيت ،وذكره أبو حاتم في الإبل وقد جاء ذلك في الشّعر ،قال الكميت :

فلمْ يَسْتَرِيثُوكَ حتّى رَمَيْـ ـتَ فَوْقَ الرِّجَالِ خِصَالاً عُشَارَا

آخر : ضَرَبْتَ خُماسَ ضَرْبَةً عَبْشمى أَدارَ سدُاسُ أنْ لاَ يستَقِيمَا

وقد نسبت العرب إلى كلّ ذلك فقالوا :خُماسيٌّ وسُداسيٌّ وعُشَرَى قال أبو النّجم :

فَوْقَ الخُمَاسيّ قَلِيلاً تُفضّلُهُ ".[96]

هذه نصوص ثابتة يصحّ القياس عليها ،ثمّ ردّ الجرجاني على شبه المعترضين بأنّ هذه الألفاظ أجريت مُجرى واحد واحد ،اثنين اثنين،وأنكروا تخصيص سداس من بين الأعداد.

نبيّن معنى المتنبي وفق ما أشار إليه الواحدي بقوله ":أراد واحدة أم ستّ في واحدة ،وستٌّ في واحدة -إذا جعلتها فيها كالشّيء في الظّرف ولم ترد الضّرب الحسابي-سبع ،وخصّ هذا العدد لأنّه أراد ليالي الأسبوع ،وجعلها اسما لليالي الدّهر كلّها لأنّ كلّ أسبوع بعده أسبوع آخر إلى آخر الدّهر".[97]

يقول المتنبي هل هذه اللّيلة واحدة أم ليالي الدّهر كلّها جمعت فيها واتّصلت بيوم القيامة؟ ووجه المبالغة واضح فليس بإمكانه أن يعيش تلك المدّة كلّها.

[94] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص :74.
[95] الصاحب بن عباد ؛ الكشف عن مساوئ المتنبي ؛ ص : 262.
[96] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 458.
[97] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص :75.

حمل صاحب المغني هذا الاستعمال من قبيل الإساءة فقال":وللجهل بمواقع هذه الألفاظ استعملها المتنبي في غير موضع التّقسيم فقال:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادٍ لُيَيْلَتُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي ".[98]

يرى ابن هشام أنّ الأعداد المعدولة كمثنى ورباع يراد بها الانفراد لا الاجتماع "فاستعمال أُحاد وسداس ...إنمّا هما بمعنى واحدة واحدة وستّ ستّ واستعمال سداس وأكثرهم يأباه ويخصّ العدد المعدول بما دون الخمسة".[99]

بينما يرى سعيد الأفغاني وجها آخر فقال معقّبا على كلام ابن هشام ":إنّ الكوفيين يجيزون ذلك إلى العشرة والمتنبي كوفيّ ".[100]

نلاحظ أنّ معظم الاستعمالات اللّغويّة والنّحوية لأبي الطيّب لها سندها المعتبر من المدرسة الكوفيّة ومن باب الإنصاف كيف نخطّأ المتنبي إذا استنّ برأيهم ؟.

فإذا كنّا في الفقه لا نخطّأ فتوى المالكيّ ولا الشّافعيّ عند اختلافهما نظرا لصحّة دليل كلّ منهما فمن باب أولى التّشنيع على المتنبي وقد جنح لآراء المدرسة الكوفيّة مع تقريرنا بأنّ منظومة الشّعر ليست كالنّثر،نعود لنبيّن وجه القياس اللّغوي الذي وظّفه الجرجاني في هذه المسألة فنقول :

نحقّق الأصل(المقيس عليه) :قولنا أُحَاد :أي واحدا واحدا ،ومثنى أي ثنتين ثنتين ومنه جاء القوم مثنى وثلاث أي ثلاثا ثلاثا ،ورباع أربعة أربعة ،فهذه معدولة عن أعداد مكرّرة لأنّها عدلت عن صيغتها وعدلت عن تكرّرها فمنعت من الصّرف ،استعملها العرب بمعنى الأعداد المفردة ومنه قول الشّاعر:"

ضَرَبْتَ خُمَاسَ ضَرْبَةً عَبْشمى أَدارَ سدُاسُ أنْ لاَ يستَقِيمَا

قال القاضي :إنّما هو اسم معدول عن خمسة ولا مدخل للتّكرير فيه".[101]

وعلى هذا الفهم يحمل قوله تعالى(فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ) [سورة النساء آية 3]،قال القرطبي في تفسيره":أحاد معدول عن واحد واحد ،ومثنى معدولة عن اثنين

[98] ابن هشام الأنصاري ؛ مغني اللّبيب ؛ ص : 613.
[99] المصدر السّابق ؛ ص : 53.
[100] السّابق ؛ ص : 53.
[101](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 458.

اثنين وثلاث معدولة عن ثلاثة ثلاثة ورباع عن أربعة أربعة ،وفي كلّ واحد منهما لغتان :فُعَالَ ومَفْعَلَ يقال أحاد ومؤحد وثناء ومثنى وثلاث ومثْلث ورباع ومرْبع وكذلك إلى معشر وعشار".[102]

فقوله عشار دليل على النّقل والإثبات ،قاس الجرجاني (سداس) على الأصل وهو (خُمَاسَ) و(عشار) لأنّه ثبت استعمالها عن العرب ،وعلّة القياس صرّح بها الجرجاني بقوله ":إنّ الأعداد إذا استولت في المعنى لم يحظر على ذكر أحدهما ،ولو قال :خماس أو رباع لكان الأمر واحدا ،ولو بلغ العشار لم يزده غير فضل الاستطاعة ".[103]

فهذه علّة سماع ينتج عنها إعطاء الفرع حكم الأصل وهو جواز الاستعمال ،نلاحظ أنّ قياس الجرجاني سليم وهو نفس الرّأي الذي تبنّاه القزاز القيرواني فقال منتصرا للمتنبي ":وأمّا قولهم إنّ العرب لم تتجاوز في العدد رباع ادّعاء منهم ،لأنّ القياس لا يمنعه ،وإنّما جاء في القرآن إلى رباع فأمّا في الكلام فلا أرى مانعا يمنعه ،على أنّه قد أتى في الشّعر عشار وهو قول الكميت :

فلمْ يَسْتَرِيثُوكَ حتّى رَمَيْـ ـتَ فَوْقَ الرِّجَالِ خِصَالاً عُشَارًا.

فإذا كان القياس يعطيه وقد جاء في الشّعر ما يجاوز رباع دلّ على أنّ قوله (سداس) جائز".[104]

من خلال تمعّننا في الأدلّة نوافق القزاز والقاضي على صحّة الاستعمال وبهذا يتبيّن لنا سلامة القياس اللّغوي الذي اعتمده الجرجاني ،وهو قد وفّق هنا بخلاف مسألة التّصغير الّتي أخفق الجرجاني فيها .

نواصل محطّات القياس اللّغوي ونختم هذا الجانب بما أثاره بعض خصوم أبي الطيّب في قوله يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي:

فِدًى مَنْ عَلَى الْغَبْرَاءِ أَوَّلُهُمْ أَنَا لِهَذَا الأَبِيِّ المَائِدِ الجَائِدِ الْقَرْمِ .[105]

يقول المتنبي بأنّ هذا الممدوح يفديه كلّ من على الأرض وأوّلهم هو لأنّه سيّد الجميع ،أمّا وجه الاعتراض فذكره الجرجاني بقوله":قالوا: لم يحك عن العرب الجائد،وإنّما المحكيّ عنهم رجل جواد ،وفرس جواد ،ومطر جواد".[106]

---

[102] القرطبي،الجامع لأحكام القرآن،تحقيق،عماد زكي البارودي وخيري سعيد ،المكتبة التوفيقية ،مصر؛(د،ط) ؛(د،ت) ؛ج: 05 ص: 17.
[103] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 458.
[104] القزاز القيرواني ؛ما يجوز للشّاعر في الضّرائر ؛ ص : 107.
[105] (+المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 175.جاء في رواية الديوان : لِهَذَا الأَبِيِّ المَاجِدِ الْجَائِدِ الْقَرْمِ.

وجاء في القاموس أيضا "جاد يجود فهو جواد إذا كان كريما سخيّا ،ويقال جاد وأجاد أتى بالجيّد فهو مِجْوَاد".[107]

هذه هي اللّغات المسموعة عن العرب لكنّ الجرجاني رأى أنّ القياس يبيح استعمال جائد على جواد فقال ":هذا الباب يستغنى فيه بالقياس عن السّماع لاطّراده واتّساق أمره على الاعتدال ،فكلّ فعل في الكلام يقتضي التّصريف إلى فاعل ومفعول ،وكلّ فعل فله مُفْعِل وَمُفْعَلُ ولسنا نحتاج في مثل هذا إلى التّوقّف وإتّباع المسموع ،وهذا أشبه بمذاهب القياس ،والأصل الذي عليه أهل اللّغة".[108]

بناء على هذا النصّ نحدّد آلية القياس كما يلي:

جائد اسم فاعل من الفعل الثلاثي جَادَ يَجُوْدُ من باب قَال يَقُول ،يأتي اسم الفاعل من الثلاثيّ المجرّد على فاعل بكثرة في فَعَلَ بالفتح متعدّيا كان أو لازما ،وعين الفعل واو انقلبت في الماضي ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها استلزم ذلك قلبها في اسم الفاعل إلى الهمزة نحو قائل وبائع ،هذه علّة القياس وجائد "اسم فاعل قياسي ،وقد خضعت لكلّ ما يحتمله القياس فيها من حيث التّصريف والإبدال ،وعلى ذلك فكلمة سندها القياسي الذي يبرّر استعمال الشّاعر لها ".[109]

ويؤيّده قول ابن جنّي(ت392هـ)":وكيف تصرّفت الحال فالنّاطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ ".[110]

وقوله أيضا في باب ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب "ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ولا مفعول ،وإنّما سمعت البعض فقست عليه غيره فإذا سمعت قام زيد أجزت ظَرُفَ بِشْرٌ ،وكرم خالد ".[111]

هذا لَعْمري ما يقتضيه القياس ويبيحه ،نلاحظ في قياس الجرجاني مهارة لغويّة ونحوية كبيرة فقد جعل الإنصاف غاية مرماه وتتبّع الحقّ سبيله ومبتغاه .

---

[106] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 470.
[107] الفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ؛ باب الدّال ،فصل الجيم ؛ ص : 295.
[108] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 470.
[109] محمّد عبد الرّحمن شعيب ،المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ،دار المعارف ،مصر،(د،ط) : 1964م ؛ ص : 62.
[110] ابن جنّي ؛ الخصائص ؛ ج : 01 ؛ ص :356.
[111] أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص ، ج:01 ؛ ص : 358.

في خاتمة هذا المبحث نستنتج أنّ القياس النّحوي والصّرفي واللّغوي الذي استند عليه الجرجاني في دفاعه عن أبي الطيّب صحيح ،فالمتنبي كوفيّ المشرب لذا كان "يجنح نحو الشاذّ وجنونه بالأشياء التي تثير ضجّة حولها وليس من شكّ في أنّه كان يعمد إلى هذه الشواذّ عمدا ويقصد إليها قصدا ".[112]

ولا نرى مانعا في تلك الشواذّ لأنّها جاءت في صور فنيّة رائعة ،انسجم فيها شذوذ اللّفظ وشذوذ المعنى مثلما بيّناه سابقا في جمع بوق على بوقات وإلحاق التّأنيث ،وإذا تمعنّا في هذه الشواذّ رأينا أنّ ضرورة الشّعر تبيح معظمها كما أنّ أكثرها منقول عن العرب ،ولا نبخس نحاة البصرة حقّهم لكنّنا نردّد مقولة الجرجاني لتكون دليلا عليهم وعلى غيرهم ،يقول الجرجاني ":قد احتمل للشّعراء لأجل الشّعر ما هو أبلغ من تغيير الألفاظ وإزالة الكلام عن موضعه ".[113]

والجرجاني محقّ في هجومه على النقاد اللّغويين الذين حكّموا مقاييسهم مغفلين ما يتطلّبه الشّعر من الضّرورة والانزياح ،وإذا كانت المذاهب الفقهية الأربعة تختلف في حكم فقهي وتتمسّك كلّ مدرسة بأصولها في الفتيا فما بالنا نعنّف المتنبي أو غيره من الشّعراء في ركونهم لهذه المدرسة النّحوية أو تلك أليس في هذا دليلا على صحّة ما نقول؟.

الفرق واضح بين لغة الإبداع ولغة الاحتجاج ،هذه الفكرة التي دار حولها قياس الجرجاني في هذا المبحث وتميّز فيه بوصفين مهمّين "الموضوعية في الحكم على فنّ هذا الشّاعر ،ثمّ التعاطف معه ".[114]

نقيّد تعاطفه بما يتلاءم مع مبدأ الإنصاف المتمثّل في التماس المخارج والتّأويلات التي يبيحها الإبداع والتّصوير الفنّي ،انتقد الجرجاني التّأويل لأنّه كان يهدف لإعظام المتقدّم وقداسته فقال ":ثمّ تصفّحت مع ذلك ما تكلّفه النّحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن :تارة بطلب التّخفيف عند توالي الحركات ومرّة بالإتّباع والمجاورة وما شاكل ذلك من المعاذير المُتَمَحَّلة وتغيير الرّواية إذا ضاقت الحجّة وتبيّنت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة ،وارتكبوا لأجله من المراكب الصّعبة الّتي يشهد القلب أنّ المحرّك لها والباعث عليها شدّة إعظام المتقدّم ،والكَلَفُ بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ،وألفته النّفس".[115]

---

[112] عبد الوهاب عزّام ؛ المتنبي بعد ألف عام ؛ ص : 358.
[113] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 28.
[114] عثمان موافي ؛ الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص : 114.
[115] ،(الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ص :10.

من محاسن هذا التكلّف الذي ركبه النحاة ما كان متعلّقا بضبط القياس وحفظ قواعد اللّغة لذلك أباحوا الضّرورة نظرا لما يقتضيه الشّعر من الاستعمالات "اضطرّ الشّاعر لذلك أم لم يضطرّ".[116]

بشرط عدم الوقوع في اللّحن فالضّرورة لا تبيحه ولا ترفع الإثم والحرج عن مستعمله ،لكنّ الجرجاني صرّح بوجود اللّحن عند امرئ القيس وزهير وغيرهما من فحول الشّعراء ولم يقصد بذلك الطّعن فيهم والحطّ من أقدارهم ،وإنّما أراد التّنبيه على من ادّعى عصمتهم ،كما يرى المنطق أنّ الوقوع في الخطأ شيء يشترك فيه الجميع فإذا قلنا :المتنبي شاعر وكلّ شاعر يخطأ تكون نتيجة المقدّمتين :المتنبي يخطأ هذا القياس المنطقي من الشّكل الأوّل ،إنّه يمهّد لمقايسته بهذه الحقيقة المنطقية التي أراد تطبيقها من خلال قياس أخطاء المتنبي على نظائرها ممّا هو موجود في شعر القدماء والمحدثين ليس من قبيل حمل الخطأ على مثله بل لتقرير مبدأ الاعتدال في النّقد ،ونحن نؤمن كالجرجاني بأنّ الأخطاء إنّما تصحّح بمعايير علميّة ومقاييس فنيّة ،لكنّ فكرة الوساطة مبنيّة على إنصاف الشّاعر من المتعصّبين الذين يغضّون الطّرف عن أخطاء البعض ويوجهّونها للبعض الآخر كالمتنبي ،ومن جملة الشّواهد التي مثّل بها على خطأ القدماء قول امرئ القيس مسكّنا الفعل المضارع بغير موجب :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحقبٍ إِثْمًا منَ اللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ .[117]

وقول لبيد بن ربيعة مكرّرا الخطأ نفسه :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعضَ النُّفُوسُ حِمَامُهَا[118]

وقول الفرزدق: وَغَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إِلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَرَّفُ .[119]

فقد عطف المرفوع على المنصوب وهو لحن ،وأمثال هذه الأخطاء إذا تتبّعناها في شعر عصر الاحتجاج وجدناها أكثر ولكنّ العلماء التمسوا لها المخارج ، لم تذهب هذه المساوئ محاسنهم فكيف ينفى أبو الطيّب من ساحة الشّعر لوقوعه فيما وقع فيه غيره ،هذا إذا سلّمنا بأنّ خروجه على قواعد البصريين يعدّ خطأ.

---

[116] السيوطي ، الإقتراح في أصول النّحو ؛ ص : 11.
[117] امرؤ القيس ؛ الديوان ؛ ص :132.
[118] لبيد بن ربيعة ؛ الديوان ؛ ص : 175.رواية الديوان : تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقْ بَعضَ النُّفُوسُ حِمَامُهَا.
[119] الفرزدق ؛ الديوان ؛ ؛ ص : 386.

نغادر ساحة اللّغويين وقياسهم لنطرق باب النقاد الفنيّين ونرى دفاعهم عن المتنبي كيف كان وما هو شكل المقايسة التي اعتمدها الجرجاني في دفعه أخطاء الشّكل والمضمون في ما يسمّى بعمود الشّعر الذي يعتبر أحدّ أهمّ المقاييس المعتبرة في تقويم الفنّ الشّعري ،نقف على مواجهة الجرجاني لخصوم أبي الطيّب من خلال مبدأ المقايسة الذي اعتمده في هذا المجال مع ما تخلّلها من بعض أحكام القياس وذلك بردّ الفروع إلى الأصول عن طريق المعايير الموضوعة لكلّ عنصر من عناصر عمود الشّعر.

المبحث الثاني:المقايسة في عناصر عمود الشّعر.

تكاملت ملامح القصيدة مع تأسيس نظرية عمود الشّعر بعناصره السّبعة ،هذه الرّؤية الفنيّة أصبحت محكّمة في تقويم النّص الشّعري والنّظر فيه ،فكلّما كان الشّعر مقاربا لعناصر عمود الشّعر كان سالما من القوادح والعوارض المسقطة من شأنه .

وقبل وقوفنا على مفهومه وبيان عناصره نشير إلى أن صاحب الوساطة من أوائل النقاد الذين أشاروا لعمود الشّعر بعناصره الأربعة الأولى وإن كان للمرزوقي فضل التّحقيق والزيادة ،هذا الرّأي الذي تبنّاه جودت فخر الدّين ونميل له نحن أيضا حيث قال":إنّ عيارات المرزوقي ليست سوى ما جاء به القاضي الجرجاني ".[120]

في حين قال آخرون بأنّ الآمدي أوّل من أشار لعمود الشّعر ولكن ليس بالتّفصيل الذي ذكره الجرجاني ،يقول الآمدي في أحد أحكامه بين الطّائيين ":وإنّهما- البحتري وأبو تمّام-لمختلفان لأنّ البحتري أعرابيّ الشّعر مطبوع ،وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشّعر المعروف ".[121]

أشار الآمدي للتّسميّة فقط ،بينما ذكر الجرجاني عمود الشّعر وبيّن عناصره قائلا ":وكانت العرب إنّما تفاضل بين الشّعر في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحّته ،وجزالة اللّفظ واستقامته،وتسليم السّبق فيه لمن وصف فأصاب وبدّه فأغزر ،ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ،ولم تكن تعبأ بالتّجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشّعر ونظام القريض ".[122]

اشتمل كلامه على ثلاثة عناصر ،الأوّل :شرف المعنى وصحّته ،الثاني :جزالة اللّفظ واستقامته والثّالث:الإصابة في الوصف ،أمّا العناصر الأخرى فذكرها في حديثه عن الاستعارة والتّشبيه وتحديد الفرق بينهما فقال":وإنّما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ،ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب التّشبيه ،ومناسبة المستعار له للمستعار منه ،وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبيّن في أحدهما إعراض عن الآخر".[123]

---

[120] جودت فخر الدّين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتّى القرن الثامن الهجري؛ص : 59

[121] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ؛ ص : 04.

[122] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 00

[123] المصدر السابق ؛ ص : 41.

قوله :المقاربة في التّشبيه ،ومناسبة المستعار منه للمستعار له ،ومشاكلة اللّفظ للمعنى ،هذه بقيّة العناصر أمّا العنصر السّابع فهو التحام أجزاء النّظم والتئامها.

هذه العناصر خاضعة للذّوق المدرّب فهو الذي يكشف عن صدقها وقبولها وحكمه عليها فيه دلالة قاطعة على أسبقيّة النّقد الفنيّ لأنّ المعايير العلميّة نشأت من رحم التذوّق الفنّي .

تعامل المرزوقي بحنكته وقريحته مع ما قاله الجرجاني وأعطى لكلّ عنصر ما يستحقّ من البيان وتأمّل جيّدا عيار الشّعر لابن طباطبا ليجعل لكلّ عنصر عياره الخاصّ الذي يقوّم به وأصبح عمل المرزوقي نظريّة يعتمد عليها النّقاد في التّعامل مع شكل القصيدة وبنائها ،يقول المرزوقي محدّدا عناصر عمود الشّعر":إنّهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحّته ،وجزالة اللّفظ واستقامته،والإصابة في الوصف ومن اجتماع هذه الأسباب الثّلاثة كثرت سوائر الأمثال ،وشوارد الأبيات ،والمقاربة في التّشبيه والتحام أجزاء النّظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن ،ومناسبة المستعار منه للمستعار له ،ومشاكلة اللّفظ للمعنى وشدّة اقتضائهما للقافية حتّى لا منافرة بينهما ،فهذه سبعة أبواب هي عمود الشّعر ،ولكل باب منها معيار".[124]

سنذكر هذه المعايير عند حديثنا عن كلّ عنصر في محلّه،نقوم الآن بتعريف مصطلح عمود الشّعر ،ثمّ نذكر مقايسة الجرجاني في كلّ عنصر من هذه العناصر .

تعريف عمود الشّعر :

يطلق العمود في اللّغة فيقال ":استقاموا على عمود رأيهم أي :على وجه يعتمدون عليه ".[125]
فالاعتماد على نهج معيّن أو وجه محدّد يسمّى عمودا ،أمّا في الاصطلاح فيعرّف بأنّه":الميزان والخصائص التي أوجب العلماء والنّقاد والشّعراء القدامى ضرورة توافرها في الشعر الجيّد المختار".[126]
قوله: الميزان والخصائص بمعنى المعايير والضوابط اللّازم أن تكون في جيّد الشّعر ولا يتأتّى ذلك إلاّ بإتّباع الوجه المحدّد بمعنى ما جاء في المعنى اللّغوي وهو طريقة العرب في نسجها للشّعر وصناعتها له. يعتبر تأسيس عمود الشّعر في القرن الرّابع الهجري أحد أهمّ الانجازات الكبيرة التي شيّدت في ساحة النقد والأدب لما تحمله هذه النّظريّة من أبعاد ألقت بظلالها على الممارسة النّقدية عند الأجيال .

[124] (المرزوقي) أحمد بن محمّد ،شرح ديوان الحماسة،نشره :أحمد أمين وعبد السّلام هارون، الطبعة الأولى : 1371ه-1951م ،ص : 8.
الفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ؛ باب الدّال ؛ فصل العين ؛ ص : 326.
[126] يوسف حسين بكار، قضايا في النقد والشعر دار الأندلس لبنان ط:01،1984 م ؛ ص : 10.

نقوم الآن ببيان وجوه المقايسة التي اعتمدها الجرجاني ،ونذكر ما يتّصل بكلّ عنصر من المقايسة لنلحظ مدى إصابة الجرجاني في دفاعه عن المتنبي ،ونبدأ بأوّل العناصر محتكمين لمعياره الخاصّ .

القاعدة الأولى: شرف المعنى وصحّته.

لا نقصد بشرف المعنى الفضائل والمعاني الحميدة دائما فلكلّ غرض شعري ما يناسبه ،فالمدح له معاني موضوعة كالشّجاعة والكرم ،والهجاء يتطلب معاني مرتبطة بالسّخريّة وذكر مساوئ الأخلاق وذميم الأفعال إلى غير ذلك من المعاني وما يتطلّبه كلٌّ منها ،هذا ما قرّره الجرجاني سابقا مقتفيا في ذلك قول ابن طباطبا حيث قال":وللمعاني ألفاظ تشاكلها ،فتحسن فيها وتقبح في غيرها،فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء ،التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض".[127]

نلاحظ أنّ لكلّ معنى ألفاظ تخصّه وتكون بمثابة المظهر الذي يزيّنه مثل الجارية الحسناء التي تزداد جمالا بروعة ملبسها ،وأكدّ عبد القاهر الجرجاني (474هـ) على المعاني باعتبارها غاية وسيلتها الألفاظ فهي خدم لها ،إنّ فكرة النّظم لديه قامت على بحث العلاقة بين المعنى واللّفظ من هذه الناحيّة فالمعنى عند عبد القاهر كيفيّة النّظم بخلاف ما كان يعتقد من أنّ المعنى يوجد قبل النّظم ،لذا ردّ على هؤلاء بقوله ":بان بذلك الأمر على ما قلناه من أنّ اللّفظ تبع للمعنى في النّظم ،وأنّ الكلم تترتّب في النّطق بسبب ترتّب معانيها في النّفس ".[128]

فعندما يطلب الشّاعر معنى مَا عليه أن يخرجه في اللّفظ الملائم له، لتحصل المشاكلة بينهما ويكوّنان بذلك صورة جماليّة يتألّقان فيها معا .

هذا ما يتعلّق بشرف المعنى، أمّا صحّته فتكون في عدم اضطرابه وسوء ترتيبه وانتقاص بعضه ببعض، لأنّ "صحّة المعنى أوّل درجات الصّعود في مصاعد الشّرف".[129]

وكلّما كان واضحا كان صحيحا وذلك بحسب ارتباطه بالواقع وانسجامه معه ،هذا الوضوح يجب مراعاته عند أصناف المتلقّين فلا نطالب الشّاعر بالوضوح العامّي كما لا نريد منه إغراقا مفرطا يحار

[127] ابن طباطبا ؛ عيار الشّعر ص : 46.
[128] عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز،تحقيق ؛محمود محمّد شاكر ،المؤسسة السعودية الطبعة الثالثة ؛1413ه-1992م ؛ص : 56.
[129] ابن طباطبا ؛ عيار الشّعر ص : 14.

العقل في استنباطه ،من هنا اهتمّ النّقاد بالمعنى وكان أوّل ما يطلبونه فيه" أن يكون صحيحا لا خطأ فيه من واقع الحياة أو واقع التّاريخ أو معنى اللّغة".[130]

ووضعوا لهذه القاعدة عيارا تقوّم به وهو"أن يعرض على العقل الصّحيح والفهم الثّاقب ،فإذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء ،مستأنسا بقرائنه ،خرج وافيا ،وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشته".[131]

يتمّ الحكم على المعنى بمدى قبول العقل الصّحيح وتذوّق الفهم الثاقب له ،انطلاقا من هذه المقدّمة التي أشرنا من خلالها لبعض المفاهيم المرتبطة بالقاعدة نقوم بالكشف عن مقايسة الجرجاني وطريقة ردّه على المعترضين ،من ذلك نقدهم للمتنبي في قوله:

فِي هَبْوَةٍ كِلَاهُمَا لَمْ يَذْهَلِ لاَ يَأْتَلِي فِي تَرْكِ أَنْ لاَ يَأْتَلِي .[132]

ذكر الجرجاني اعتراضهم قائلا":إنّه أفسد المعنى ،لأنّ لا يأتلي لا يقصّر ،فكأنّه قال:لا يقصّر في ترك أن لا يقصّر فوصفه بالتّقصير ،وبيان ذلك أنّه لم يأتل ،فقد جدَّ في ترك الجِدِّ وهو نهاية التّقصير".[133]

بينما مراد المتنبي خلاف ذلك ،فهو يصف الكلب والظبي في هبوة أي الغبرة ،كلاهما لم يذهل بمعنى لم يغفل عن صاحبه،الظبي مجدّ في الهرب ،والكلب مجدّ في طلبه ،فعندما لا يقصّر في ترك التّقصير فقد جدّ ،يتضّح هذا المعنى أكثر في البيت بعده فصوّر إقدام الكلب وعدم تقصيره وركوبه الأهوال حتّى لو استقبله بحر لظنّه جدولا ،يقول المتنبي :

مُقْتَحِمًا عَلَى الْمَكَانِ الأَهْوَلِ يَخَالُ طُولَ الْبَحْرَ عَرْضَ الْجَدْوَلِ.[134]

نلاحظ وضوح المعنى في البيت الثّاني أكثر تجليّا من الأوّل لأنّ زيادة لاَ غيّرت من مسار المعنى ،بعد ذلك عرض الجرجاني حجّة المنافح عن أبي الطيّب فقال ":لا أرى (لَا) إلاّ زائدة فتقدير الكلام :لا يأتلي في ترك أن يأتلي فكأنّه لا يقصّر في ترك التّقصير ،وهذا هو الجدّ وزيادة (لَا) غير مستنكر".[135]

فاللّغويون أمثال ابن هشام قالوا إنّ ":لاَ الزائدة الدّاخلة في الكلام لمجرّد تقويته وتوكيده ".[136]

---

[130] أحمد أحمد بدوي ،أسس النقد الأدبي عند العرب ،شركة نهضة مصر ،الطبعة السادسة :2004م ؛ ص : 368.
[131] المرزوقي أحمد بن محمّد ،شرح ديوان الحماسة :08.
[132] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 322.
[133] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :475.
[134] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 323
[135] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص :475.

وهذا بناء على قاعدة"كلّ زيادة في المبنى زيادة في المعنى" وهي ظاهرة تركيبيّة تعطي للخطاب صورة تغيريّة أو انتقال عواطف الشّاعر وانفعالاته من خلال تراكيبه، لأنّه كما قال عبد القاهر":الكلمة لا تعرى من فائدة ما، ولا تصير لغوا على الإطلاق ".[137]

وذلك في معرض حديثه عن قوله تعالى(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ [سورة الفتح آية 28]،حيث قال ":إن لم تقض بزيادة الباء لم تجد للكلام وجها تصرفه إليه وتأويلا تتأوّله عليه البتّة ".[138]

والزيادة قائمة على تحقيق الفهم أي كفى الله شهيدا ،ومثله بحسبك أن تفعل أي حسبك أن تفعل وبناءً عليه فإنّ معنى لا يأتلي يفيد التّوكيد أي ليأتلي حمله الجرجاني على نظائر منها "قوله تعالى(لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ)[سورة الحديد آية 28] فمعناه ليعلم،وقال العجاج في زيادة (لاَ):

فِي بِئْرِ لاَ حُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرْ.

أي في بئر حور".[139]

كلمة لئلاّ مركبّة من حرف الجرّ اللاّم والحرف المصدري (أنْ) و(لَا) النّافيّة وهي زائدة في بيت العجاج أي :بئر حور ،والحور هو الهلكة فزادها لقصد تحقيق المعنى.

وقد دلّت الآية الكريمة على جواز زيادة لاَ بقصد التّأكيد والقرآن أقوى حجّة في المعاني والألفاظ فإذا اعتبرنا الآية والشّاهد الشّعري أصلا وبيت المتنبي فرعا نقيسه عليهما ،فيكون من باب الشّبه في التّوكيد ويكون الشّبه بين البيتين حكميّا اشتركا في الزيادة وتوكيد المعنى ،ويتباينان مع الآية الكريمة في الزيادة والحذف ،ويكون حكم القياس هو الجواز لثبوته في طرفي القياس ،كما نرى فإنّ هذا يتطابق تماما مع المعنى الذي رامه أبو الطيّب فجاء واضحا لا اضطراب فيه ،إذا كانت زيادة (لَا) في الآية للتّأكيد فإنّ المتنبي وظّفها بذلك الوجه مع تسليمنا بأنّ للنّظم ما يقتضيه من الحذف والزيادة مراعاة للوزن للقافية ،فالمتنبي يصف كلب الصّيد بالشّجاعة لا يقصّر في طلب الظبي فإذا كان الكلب على غير هذه الصّفة لا يستحقّ أن يلتفت إليه ،هذا ما يتطلّبه الفهم الثاقب .

---

[136] ابن هشام ، مغني اللّبيب ؛ ص : 243.
[137] عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ؛ ص : 385.
[138] المصدر السّابق ؛ ص : 389.
[139] صدر البيت هو : وَاخْتَارَ فِي الدِّينِ الْحَرُورِيّ البَطَرْ

كما يمكننا حمل المسألة من قبيل القياس، والعلّة بين الفرع (بيت المتنبي) والأصل(في بئر حور) هي الضّرورة الشّعرية فيصحّ هذا القياس أيضا لأنّ الأصل منقول عن العرب وثابت استعماله.

من مميّزات شرف المعنى أن يكون مبتكرا غير مسبوق ،وهذا كثير في شعر أبي الطيّب ،من ذلك قوله في مطلع قصيدة له في مدح أبي العشائر الحسين بن عليّ بن حمدان :

أَتُــرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّــاقِّ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي.[140]

قال الجرجاني ":فإنّه ابتداء ما سمع مثله ،ومعنى انفرد باختراعه ".[141]

يتجلّى إبداع المتنبي في كون عادة العرب أنّها جرت بسكب الدموع إظهارا للحبّ وطلبا للشّوق وهو علامة على حزن المحبّ ومكابدته ،التزم الشّعراء هذه الطّريقة في وصلهم وصبابتهم ،بينما رأى أبو الطيّب أنّ سكب الدّمع غير كاف فصوّر هذه المعشوقة مع كثرة تعلّق العشّاق بها وبكائهم عليها أصبحت تعتقد بأنّ هذه الدّموع خلقة وطبعا موجودا فيهم لذا فهي لا تلتفت إليهم ولا تتأثّر بحالهم فهي تطلب سكب الدّم أو شيئا آخر بدل الدّمع ،أيّ معنى حمله هذا البيت ؟ ما أروعه ؟.

لم يُسبق المتنبي إليه فهو من قلائد أبكاره وغرر بدائعه ،يظهر تناسب المعنى وبلاغة اللّفظ واضحين من خلال تكوين جماليّة الصّورة الفنيّة على حدّ قول الجاحظ"فإذا كان المعنى شريفا واللّفظ بليغا وكان صحيحَ الطّبع بعيدا من الاستكراه ومنزّها عن الاختلال مصونا عن التكلّف صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة".[142]

هذا المعنى الرّائع يقاس عليه بعض المعاني التي أخفق المتنبي فيها طلبا لمبدأ المقاصّة الذي قال الجرجاني بتحكيمه ،فحينما يخفق المتنبي في شرف المعنى وصحّته يوسّع الجرجاني من بؤرة المقايسة ويبحث له أشباه ونظائر لينشله من أوحال المؤاخذة والمخاصمة عملا بما يقتضيه القياس المنطقي ،نمثّل على ذلك بقولنا :كلّ شاعر مُجيد ،لا مسيء مُجيد ،ينتج لنا:لا شاعر مسيءٌ نلاحظ أنّ هذا القياس من الشّكل الثّاني،هذه المقايسة –في اعتقادي –محمودة- باعتبار ما تنشده من غاية متمثّلة في إنصاف المتنبي لا

[140](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 101.
[141] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 158.
[142] الجاحظ عمرو بن عثمان ، البيان والتبيين ؛ ج : 01 ؛ ص : 136.

غير، فالأخطاء لا تبرّر بمثيلاتها فلا بدّ من تصويبها بالمعايير العلميّة والفنيّة أو ما يسمّى بالنقد البنّاء الكاشف عن وجوه الإبداع .

إذا كان مطلع المتنبي السّابق غاية في الإبداع كما هو الغالب على مطالعه فقد اشتهر بجودة المبادئ هذه سمة غالبة على محاسن شعره إذا ذكرت مآثر الشّعر لكنّه اعترض عليه مطلع القصيدة التي قالها في مدح كافور سنة ستّ وأربعين وثلاثمائة، فقال:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا.[143]

اشتمل على مساوئ منها "ذكر الموت والدّاء والمنايا ما يوجب الطّيرة التي تنفر منها الطّباع ،فليس هو من حسن الإبتداءات ولا من براعة الاستهلال ،ولا من أدب الضّيف ".[144]

حاد المتنبي عن نهج العرب في مدحها للملوك والتزام التأدّب والتلطّف في المخاطبة فهذا من قبيل حسن السّياسة ،لكنّنا نجد كثيرا من النقاد خرّجوا هذا المطلع من باب حريّة الشّاعر في الإبداع ورأوا بأنّ أبا الطيّب لم يخاطب إلاّ نفسه التي تاقت للموت ورأته شفاء ممّا تلقّته من أذيّة الزّمان ،لا بدّ لنا أن نقرأ شعر المتنبي مع شخصيّة المتنبي .

قاس الجرجاني هذا المطلع على غيره من المطالع التي أخفق فيها الشّعراء كخبر ذي الرّمّة "حين استنشده بعض الملوك من بني أميّة –ويقال إنّه عبد الملك بن مروان –فأنشده قوله :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ.

فقال :وما سؤالك عن هذا يا ابن اللّخناء ! وأمر بإخراجه، وكانت عين الممدوح بها علّة فدمعها لا يستمسك؛ وأنا أرتاب بهذا الخبر ولا أظنّه ثبتا".[145]

بينما أثبت ابن رشيق صحّته في العمدة وذكره في باب المبدأ والخروج والنّهاية [146] كما ذكر في هذا الباب أيضا ما وقع لجرير عندما استهلّ مدحه لعبد الملك بن مروان قائلا ":

أَتَصْحُوا أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ.[147]

[143] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 417.
[144] عبده عبد العزيز قلقيلة ،أبيات المعاني في شعر المتنبي،دار الفكر ،القاهرة،1993م ؛ ص : 170.
[145] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 157.
[146] ينظر ؛ ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة ؛ ج : 01 ؛ ص : 229.

ظنّ الخليفة أنّه يقصد بذلك فؤاده لا فؤاد الشّاعر فقال له":بل فؤادك يا ابن الفاعلة، كأنّه استثقل هذه المواجهة، وإلاّ فقد علم أنّ الشّاعر إنّما خاطب نفسه".[148]

ينبغي أن يكون المبدأ خاليا من مثل هذه المؤاخذات وإلاّ لم يلتفت للقصيدة ،نلاحظ اشتراك هذه المطالع في خروجها عن سنن العرب ومعهود خطابهم للملوك ،فجرير طلب من الخليفة أمرا يجلّ العامّة عنه فضلا عن الملوك وهو أقبح من ذكر أبي الطيّب للموت والدّاء والمنايا مع ما لاقاه جرير من التّعنيف والتّشنيع ما لم يواجه به المتنبي ،فالتشاكل بين البيتين واقع في اشتراكهما في مطلع القصيدة وفي الأسلوب الإنشائي لكنّه متباين الأغراض فجاء عند المتنبي من قبيل الدعاء وهو تمنّي الموت أمّا في بيت ذي الرّمة فجاء تعجّبا ،إنّ الغاية التي يطمح إليها الجرجاني من مقايسته هنا إثبات شاعريّة أبي الطيّب وعدم إسقاطه ،ثمّ شفع الجرجاني الإساءة بالمحاسن فقال":فَلْيَغْتَفِرْ ذلك له لقوله :

أَتُــرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّــاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي".[149]

لو راعينا حريّة الإبداع في بيت المتنبي سنرى في خروجه عن معهود العرب في خطابهم للملوك عذرا لم يحسّ به المعترضون كما أحسّ به أبو الطيّب وهو هل يستحقّ أمثال كافور ما استحقّه ملوك بني أميّة أو العباسين أو سيف الدّولة ومن فيهم النّخوة العربيّة وحرصهم على الوحدة الإسلاميّة أم أنّ كلّ من تملّك أمرا فيجب أن يخاطب بصفة معيّنة ،هكذا نظر المتنبي –في اعتقادنا- لهؤلاء ،الفرق واضح بين مراعاة الصّورة الفنيّة وبين تحكيم المعايير النقدية الموروثة عن العرب .

تمتاز بعض مطالع المتنبي بغرابة تنعكس فيها شخصيّته الدائرة بين الطّموح والتفوّق، فالشّعر عنده ينبع من الآم والمكابدة التي يتجرّعها في تنقلاته بين البلدان، إنّه على بصيرة تامّة بأثر المطالع وما تحدثه في النّفوس، يقول المتنبي مشيرا لحالته وغربته:

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا.[150]

مثّل الجرجاني بشواهد من أخطاء الفحول في المعنى وجعلها قائمة مقام الشّهود في المحاكمة ،فمن أخطائهم في المعنى ومجانبة الواقع ،قول امرئ القيس :

---

[147](جرير) ؛ الديوان ؛شرح: عمر فاروق،شركة الأرقم ،لبنان ،الطّبعة الأولى : -1997م؛ ص :100؛رواية الديوان : أَتَصْحُوا بَلْ فُؤَادُكَ
[148] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة ؛ ج : 01 ؛ ص : 228
[149](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 101.
[150] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 350.

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا شَعَرٌ مُنْتَشِرْ[151]

وصف فرسه بغزارة شعر النّاصية وهذا لا يستحبّ في الخيل الكريمة ،وقول أبي ذؤيب الهذلي :

قَصَرَ الصَّبُوحُ لَهَا فَشُرِّحَ لَحْمُهَا بِالنيِّ فَهْيَ تَئُوخُ فِيهَا الإِصْبَعُ

وصف الفرس بطراوة اللّحم وليونته وهذا عيب في الفرس والمحمود عند العرب وصف الفرس الكريمة بصلابة اللّحم وتماسكه، قال الأصمعي":حمار القصّار خير من هذا، وإنّما يوصف الفرس بصلابة اللّحم ".[152]

إنّ الواقف على معاني الشّعراء القدماء منهم والمحدثين يجد فيها خروجا عن الوصف الدّقيق الذي يجب أن يكون عليه المعنى من الصحّة والشّرف ،لا يسبق إلى فهمنا أنّ مقايسة الجرجاني سعت لمقابلة خطأ بمثله فلا وجه للمشابهة إلاّ من حيث الصّورة فهذا أخطأ في وصف فرس والآخر أخطأ في وصف كلب الصيّد والآخر أخطأ في معنى آخر،يقوم مبدأ المقاصّة على دفع السيّئات بالحسنات ومقابلة الإساءة بالإحسان ثمّ النّظر في أيّهما أرجح فيقوّم به الشّاعر ،وهذا عين المنطق ،فإذا كان النقاد سلّموا بعيوب المتقدّمين "يستوي في ذلك أنصار القديم والمحدث".[153]

فكيف يردّ شعر أبي الطيّب كلّه لوقوعه في الخطأ، نكتفي بهذا القدر وننتقل للعنصر الموالي.

القاعدة الثانية:جزالة اللّفظ واستقامته.

نريد بجزالة اللّفظ ما ليس"بالمغرب البدوي ،ولا السفساف العامّي ،ولكن ما اشتدّ أسره وسهل لفظه ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ،وتوهم إمكانه ".[154]

كلّما كان اللّفظ غريبا انطمس المعنى وبعد عن الوضوح ،وإذا كان سوقيّا دلّ على عجز صاحبه، إنّ اللّفظ الجزل هو القويّ السّالم من الغموض ،غير متنافر الحروف ،ليس مستكرها في السّمع لا يقلق الكلام ولا يضطرب الوزن بسببه ،ويعتبر الطّبع المرجع الأساسيّ في تقويمه ،يقول الجرجاني مبيّنا ذلك ":فان رام أحدهم الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكّن من بعض ما يرومه إلاّ بأشدّ

[151] امرؤ القيس ؛ الديوان ص :60.
[152] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :10-11.
[153] عثمان موافي ؛ الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص : 150.
[154] أبو العباس ثعلب ،قواعد الشعر ،تحقيق :عبد المنعم خفاجي ،دار الجيل ،بيروت ،ط:1،2005م ؛ ص : 59.

التكلّف ،وأتم التصنّع ،ومع التكلّف المقت وللنّفس على التصنّع نفرة،وفي مفارقة الطّبع قلّة الحلاوة وذهاب الرّونق،واختلاق الديباجة".[155]

والذي يخرج اللّفظ من ديباجته هو تكلّف البديع فيوقع صاحبه في المقت والمؤاخذة ،ويصيب المعنى خلل في تأدية وظيفته أو قد يذهب من جماله هذا ما حذّر الجرجاني منه،ونؤكّد على أنّ الجزالة خاصّة بذات اللّفظة بينما تتعلّق استقامته بالمقام الذي يطلبها ويستدعيها.

أمّا عيار جزالة اللّفظ واستقامته فجاء مبيّنا في مقولة الجرجاني"إنّ الشّعر علم من علوم العرب ،يشترك فيه الطّبع والرّواية والذّكاء ثم تكون الدّربة مادّة له وقوّة لكلّ واحد من أسبابه ،فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان".[156]

يخضع هذا المعيار للطّبع والرّواية والاستعمال ،حيث تقوم هذه الثّلاثة بتقويم اللّفظة مفردة أو مركّبة في سياقها ،وقد اعتمد المرزوقي على رؤية الجرجاني ووافقه على هذا المعيار.

اهتمّ عبد القاهر الجرجاني بأثر اللّفظ في بناء نظريّة النّظم مؤكّدا على أنّ كلّ ما يمسّها من تغيّر ينعكس على توجيه المعنى ،وتأمّل ابن سنان الخفاجي الألفاظ وأفردها بدراسة مستقلّة واضعا مقاييس للجيّد منها المستحقّ للسّبق ،نكتف بهذا المقدار المتعلق بجزالة اللّفظ واستقامته ونرافق الجرجاني في محطّات المقايسة الخاصّة بهذا الجانب .

يجب أن يكون اللّفظ دقيقا ليبرز المعنى فيه بوضوح وفي هذا الصّدد اعترض على المتنبي استعماله(الوشاية)لعدم وفائها بالمعنى الذي وضعت له كما في قوله مخاطبا سيف الدّولة:

وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ الْوُشَا ةِ إِنَّ عَلِيًّا ثَقِيلٌ وَصِبْ .[157]

ذكر الجرجاني وجه الاعتراض بقوله ":جعل الأمراء يوشى بهم ،وإنّما الوشاية السّعاية ونحوها ،ومن شأن الممدوح أن يفضل على عدوّه ،ويجري العدوّ مجرى بعض أصحابه لا سيما إذا كان الممدوح مثل ابن حمدان والعدوّ الدّمستق ،وليس بسائغ في اللّغة أن يقال :وشى فلان بالسّلطان إلى رعيّته ؛ولو

[155] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 19.
[156] المصدر السّابق ؛ ص : 20.
[157] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 01 ؛ ص : 229 ؛ رواية الديوان : وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ الْعُدَا ةِ إِنَّ عَلِيًّا ثَقِيلٌ وَصِبْ .

قيل ذلك في أميرين لكان قصّر بالموشى به لا محالة ،وإنّما المعروف الصّحيح أن يوشى بالأصغر إلى الأكبر فإن توسّع في ذلك فالبنّظير ".[158]

أصل الوشاية النّميمة والكذب ،وهي لا تصلح مع المعنى الذي قصده أبو الطيّب ،لأنّ الدمستق ما كان ليجرأ على أهل الثغور والإغارة عليهم إلاّ بعد ما بلغه عن الوشاة أنّ سيف الدّولة مريض فالوشاية بهذا المعنى غير صحيحة لأنّها لا تكون بين الملوك وإنّما تكون بمن دونهم ،فلفظ الوشاية غير دقيق لأنّه أذهب معنى معتبرا في الممدوح ،هذه المؤاخذة ردّها الجرجاني بالمقايسة فقال ":أصل الوشاية استخراج الحديث بالمسئلة والتلطّف ،كما يستوشي الرّجل جري الفرس بتحريكه وغمزه بعقبيه ،فقد يجوز أن يجري هذه الكلمة على أصلها ويجعل هؤلاء وشاة لما أتوه بهذا الخبر :والكلام هو الأوّل عندي والعذر فيه يضعف ،وإنّما أراد بالوشاة الذين بعثوه على قصد العثور ،فإنّما وشوا بأهلها لما دلّوه على ضعفهم واشتغال ناصرهم".[159]

ردّ الجرجاني قياس الوشاية على بعض مواقعها المعنويّة كالتلطّف ،هذه المقايسة لا نوافقه عليها لاعتبارين ،الأوّل : لم يسق شاهدا شعريّ يستند عليه كما فعل في كثير من دفاعاته الأخرى ،الثّاني :سلّم بهذه الرّواية مع خطئها ،لأنّ الرّواية الصحيحة فيها العُدَاةِ بدل الوشاة ،ولو وقف عليها لمّا كلّف نفسه عناء المقايسة.

من العيوب اللّفظيّة تكرير الكلمّة أو الكلمات المتقاربة في المعنى في بيت واحد، فإذا جاءت بغرض التّشويق والاستعذاب استحسن ذلك كما في التغزّل والنّسيب، لذلك عاب الصاحب قول المتنبي:

فَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الذِي قَلْقَلَ الحَشَا قَلاَقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاَقِلُ.[160]

فقال ":ما له قلقل الله أحشاءه، و هذه القافات الباردة".[161]

نبيّن معنى البيت أوّلا لنكون على بصيرة بما سنقول لاحقا":القلقلة :التّحريك ؛ويريد بالحشا ما في داخل الجوف ،والقلاقل الأولى جمع قلقل وهي النّاقة الخفيفة ؛ويقال أيضا :رجل قلقل وفرس قلقل

[158](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 477.
[159]المصدر السابق؛ ص: 477.
[160] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 293.
[161] الصاحب بن عباد ؛ الكشف عن مساوئ المتنبي ؛ ص :78.

:إذا كانا سريعي الحركة والقلاقل الثّانية جمع قلقلة وهي الحركة ،يقول :حرّكت بسبب الهمّ الذي حرّك نفسي إبلا خفافا في السّير ؛يعني سافرت ولم أعرّج بالمقام الذي يلحقني فيه الضّيم".[162]

أثر التكلّف واضح في الكلمات لأنّ من مميّزات الشّعر الرّاقي قصدية الكلمة "بمعنى الحرص على علاقة الدّال بالمدلول وكان الشّعراء يستعملون اللّغة بحسب ما تمليه تجاربهم".[163]

وعليه فقد كان المتنبي حريصا على مراعاة مدلولات هذه الكلمات المتقاربة في شكلها وصوتها ،ونحن لا نرى فيها إلاّ مجارات الشّعراء والبوح بمكنون القدرة اللّغويّة التي يتمتّع بها المتنبي ولذلك قال على نفس هذا المنوال أيضا :

عَظُمَتَ فَلَمَّا لَمْ تُكَلَّمْ مَهَابَةً تَوَاضَعْتَ وَهْوَ العُظْمُ عُظْمًا عَنِ الْعُظْمِ.[164]

قال الحاتمي ":ما أكثر عظام هذا البيت ".[165]

معنى هذا البيت الذي خاطب به الحسين التنوخي قائلا له":أنت عظيم القدر والنّفس والهمّة لم يكلّمك النّاس مهابة لك :فلمّا هابوك تواضعت متعظّما عن تلك العظمة ،وهذا التّواضع والتّعظيم عن العظمة هو عين العظمة ،لأنّ تواضع الشّريف عن شرفه هو الشّرف كلّ الشرف".[166]

نرى في ألفاظ المتنبي غرابة ووحشيّة مع ثقلها على السّمع وبعدها عن الوضوح فهذه الأبيات فقدت بلاغتها للإغلاق الموجود فيها وما يكتنفها من غموض الدّلالة حتّى وإن تجلّت محاولة المتنبي في إظهار مقدرته وقهره للألفاظ لخدمة معانيه التي صبا إليها فينبغي أن لا يتكلّف الشّاعر مثل ذلك التوظيف لكنّ الجرجاني دافع عنها بقياس الأشباه والنّظائر وحملهما على قول الأعشى:

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الحَانُوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ[167]

[162](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 293.
[163]محمّد مفتاح،تحليل الخطاب الشّعري(استراتيجية التناص)،ص : 56.
[164] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 178.
[165]الحاتمي ؛ الرّسالة الحاتميّة ؛ ص : 92.
[166] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 178.
[167]الأعشى ؛ الديوان ؛ ص : 93.

وهذا الشّبه صوري لأنّ الأوّل قلقل والثّاني شلشل ،وذكر القزاز القيرواني أنّهم قالوا ":هذه الألفاظ كلّها بمعنى واحد وهذا عيب ،وقال قوم :هي مختلفة المعاني فالمِشَلُ السريع السوق ،والشلول الخفيف الذي يسرع في حوائجهم ،الشلشل الذكيّ ،والشول الرّافع يده".[168]

عند المقابلة بين الأبيات يتّضح لنا ما يلي :

تبدوا عناصر التشاكل في تكرار الألفاظ المتشابه في هيئة الحروف وغرابتها وغموض معانيها وبرجوعنا للمعاجم تنكشف لنا دلالاتها كما تشترك في ثقلها على السّمع لتقارب مخارج الحروف ،نلاحظ أنّ الاستعانة بالمعجم ساعدنا في الكشف عن النّاحية الدلاليّة لهذه الألفاظ لكنّ صورتها الصّوتية لم تقبل ذلك الخلل والثّقل ،أمّا صور التّباين فتتمثّل في الاشتقاق الذي ولّده المتنبي من أصل الكلمة (قلقل وعظم) بينما استعمل الأعشى مفردات مختلفة في التّركيب على أحد القولين في ذلك متقاربة في الحروف ومتشابهة في المباني ،إنّ ألفاظ المتنبي دلالاتها واضحة في المقام وأعطت معنى منسجما لم يؤاخذه النقاد عليه وإنّما أوخذ بثقل الحروف ،وفي بيت الأعشى كانت المؤاخذة من ناحيتين الأولى: غرابة الألفاظ وتقاربها في المعنى وهذا عيب فادح في الشّعر ،أمّا على القول باختلاف معانيها كما حكاه القزاز فتتشابه مع بيتيْ المتنبي في صورتها وحكمها.

إنّ ما نخرج به من هذا النّقاش كنتيجة للمقايسة هي أنّ بيت أبي الطيّب أقلّ مؤاخذة وإساءة من قول الأعشى فهو من باب القياس بالأولى لأنّ علّة الفرع أخفّ من الأصل (بيت الأعشى) ،أو لنقل إنّه من باب قياس الشّبه إذا اعتبرنا أنّ الأعشى لم يكن مصيبا في استعماله كما هو الحال عند كثير من النقاد.

ممّا يتّصل بموضوع الألفاظ ما جاء منها شاذّا وغريبا ومتنافرا في شعر المتنبي كلفظ التوراب وخفجت ومخشلبا تقاس على أشباهها ونظرائها في الشّعر ،مع العلم بأنّ أبا الطيّب "يدرك بأنّ اللّفظة الغريبة كثيرا ما تحمل معها شيئا من الغموض لا بدّ منه أحيانا في صناعة الشّعر وهو غموض ملازم لإضعاف تلك العلاقة الآلية بين الألفاظ ومداليلها التي وضعت لها في المعاجم حتّى تصبح كلّ لفظة رهينة السّياق الذي ترد فيه ".[169]

[168] القزاز القيرواني ؛ ما يجوز للشّاعر في الضّرورة ؛ ص : 137-138 .
[169] حسين الواد ؛ المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب ؛ ص : 140.

وهذا ما عبّر عنه محمّد مفتاح بزاوية التّركيب الدلالي عند دراسته التشاكل والتباين على مستوى المعجم ،الذي قد يفرض السّياق فيه صورا من المجاز تحدّده القرائن الموجودة فيه ،وعندما ينثر الشّعر لتحديد ملامح المعنى الموجود فيه تذهب طلاوته لأنّ الشّعر يحمل صورة فنيّة معيّنة تنتج من تآلف الألفاظ والمعاني قد يصيبها الخلل عند تفكيك ذلك التّركيب ؛هذه الصّورة تقوّم بمدى إصابة الشّاعر في وصفها وقدرته على التّمثيل والتخيل .

القاعدة الثّالثة : الإصابة في الوصف.

نعني بالوصف هنا "التّصوير والإيضاح، أمّا الإصابة فأن يصوّر المتكلّم التّعبير عنه من المعنى تصويرا مطابقا لما عليه الموصوف في الخارج والواقع من غير انعكاس ولا انتقاص".[170]

يؤخذ من هذا النصّ أنّ ارتباط الصّورة بعالم الحسّ يحدث مقاربة فعليّة بين الموجود في الواقع والمعبّر عنه في الصّورة ،وقد مثّل المرزوقي على هذا الجانب من الصّورة بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زهير من أنّه "كان لا يمدح الرّجل إلّا بما يكون للرّجال".[171]

فلكلّ غرض شعري عناصره المنوطة به يجب إصابة تصويرها وتجسيد ملامحها لتمثل أمام القارئ كما هي في واقعها ،اعتنى النقاد بالصّورة واعتبروها جوهر فنّ الشّعر"فالصّور الشّعرية في الخطاب النّقدي عند العرب ،حتّى نهاية القرن الرّابع الهجري على الأقلّ،لا يطلب منها سوى الكشف والتمثيل والتّوازن ،مرتكزة على المعادلات التّشبيهية التّي يعتمدها العقل بين المحسوسات عبر قدرة تخيلية واعية تختزن الصّورة بوصفها مدركات تجسيدية يقدمها الشّاعر في حالات المماثلة والمشابهة بين الموجودات".[172]

تعتمد الصور البيانية كثيرا على دقّة الوصف ،فالصّورة الناتجة يلزمها أن تكون واضحة ففي التّشبيه يجب مراعاة وجه الشّبه وفي الاستعارة تراعى المقاربة بين المستعار والمستعار منه وفي المجاز تراعى فيه القرينة ،فعلى أساس الوصف قامت المفاضلة بين الشّعراء فامرؤ القيس اشتهر بنعت الخيل وطرفة بوصف الإبل والأعشى وأبو نواس بالخمر ومجالسها والمتنبي بوصف الحروب والسّلاح .

---

[170] يوسف حسين بكار، قضايا في النقد والشعر ؛ دار الأندلس لبنان ط:01،1984م ؛ ص : 13.
[171] المرزوقي ،مقدمة شرح ديوان الحماسة،ص:9 .
[172] محمّد مصطفى أبو شوارب، إشكالية الحداثة(قراءة في نقد القرن الرابع الهجري) ،ص : 87.

كما وضعوا لهذه القاعدة عيارا خاصّا متمثّلا في ":الذّكاء وحسن التّمييز، فما وجداه صادقا في العلوق ممازجا في اللّصوق يتعسّر الخروج عنه ،والتبرّؤ منه ،فذاك سيماء الإصابة فيه ".[173]

اعتمد الجرجاني على الذكاء وحسن التّمييز في مقايسته لبعض المآخذ المتعلقّة بالإصابة في الوصف والتي رأى فيها خصوم المتنبي خروجا عن الصّواب ،من ذلك قول المتنبي من آخر ما أنشده لسيف الدّولة بحلب سنة خمس وأربعين وثلاثمائة :

تَخُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمُ.[174]

يقول الجرجاني على لسان المعترض "إنّه أخطأ في وصف درع عدوّه بالحصانة وأسنّة أصحابه بالكلال ومن كان هذا قدر معرفته ونهاية علمه فمناظرته في تصحيح المعاني وإقامة الأغراض عناء لا يجدي وتعب لا ينفع".[175]

لم يرض الجرجاني بهذا الفهم السّقيم فقام بعرض نماذج متعدّدة بيّن من خلالها صحّة ما ذهب إليه المتنبي من تلك الشّواهد قول الأعشى :

وَإِذَا تَكُونُ كَتِيبَةً مَلْمُومَةً خَرْسَاء يَخْشَى الدارِعُونَ نزَالَهَا

كُنْتَ الـمُقدَّمَ غَيْرَ لاَ بِسِجُنَّةٍ بِالسَّيْفِ تَضْرِبُ معلمًا أَبْطَالَهَا.[176]

إنّ مذهب العرب في الشّجاعة وصفها للعدوّ بمناعة درعه وتحصّنه وكثرة عتاده وسلاحه ،وتصف الممدوح بإظهار الجبن وقلّة الاستعداد ،ولذلك عاب عبد الملك بن مروان كثيِّر لما أنشده":

عَلَى ابْنِ أَبِي العَاصِي دِلاَصٌ حَصِينَةٌ أَجَادَ الْمُسَدِي سَرْدَهَا وأَذَالَهَا .

قال له عبد الملك:وصفتني بالجبن هلاّ قلت كما قال الأعشى وذكر البيتين المتقدّمين ".[177]

اتّخذ الجرجاني من نقد عبد الملك بن مروان أصلا صحيحا للمقايسة وحمل عليه بيت المتنبي لتماثلهما في معنى محدّد هو وصف العدوّ بكثرة سلاحه وحصانة درعه ومنعة حصنه ووصف غيره بغير ذلك

[173] يوسف حسين بكار، قضايا في النقد والشعر ؛ ص : 13 – 14.
[174](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 140.
[175](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 434 – 435..
[176] الأعشى ؛ الديوان ؛ ص : 248.
[177](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 435.

لأنّ الممدوح قويّ بذاته ،هذه طريقة العرب ومعهود خطابها في وصفها للخيل والسّلاح فإذا أرادوا النّجدة والمنعة وتفاخروا بالحروب والنّجدة كثّروا من عدّتهم وعتادهم وأنّهم أهل للنّجدة ،وإذا وصفوا خصومهم بقوّة المنعة وكثرة الحصون والعدّة فالغرض من ذلك النعي عليهم وإظهار ضعفهم وعجزهم ويظهر لنا أنّ أبا الطيّب أخذ معنى الأعشى واعتمد عليه ،ثمّ جاء الجرجاني فأفصح عن هذا الأخذ وقاس البيتين على بعضهما لاتّحادهما وتشابههما في المعنى الذي جرت عليه العرب في وصفها حصانة العدوّ وكثرة عتاده وعدّته ،أمّا وجه التباين بين البيتين فهو زيادة أبي الطيّب حسن المعنى ونقله للتّشبيه فشبّه رؤوس الرّماح بالأقلام تخطّ في القرطاس ولا تخرقه ،ويظهر لي معنى آخر في تشبيه المتنبي له ارتباط بالمعنى وهو عدوله عن تشبيه رؤوس السّيوف بالرّماح فيه دلالة على جبن العدوّ البعيد عن ساحة المعركة لأنّه لو كان فيها لخطّت درعه صدور السّيوف بدل الرّماح ؛يقول قدامة في محاسن الوصف المحمود وهو الذي"إذا أكثر المعاني التي الموصوف مركّب منها ثمّ أظهرها فيه وأولاها حتّى يحكيه بشعره ويمثّله للحسّ بنعته".[178]

بعبارة أخرى فأفضل التّشبيه ما كانت وجوهه متعدّدة وما تقارب فيه المشبّه بالمشبّه به.

فإذا لم يسلّم الخصم بقياس الأشباه والنّظائر المتمثّل في قياس معنى أبي الطيّب على الأعشى يلزمه الجرجاني بأخطاء وقع فيها الشّعراء ولم يوفّقوا في إصابتهم الوصف ،كقول أبي تمّام :

رَقِيقُ حَوَاشِي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ.[179]

يقول الجرجاني مبيّنا خطأ المعنى "والبرد لا يوصف بالرقّة ،وإنّما يوصف بالصفاقة والدقّة ".[180]

لم يحسن أبو تمام وصف الثّوب بما يلاءم الحقيقة ،وأخطاءهم في هذا الباب كثيرة أشار المرزباني(ت384هـ)لبعضها بقوله ":من الأبيات التي قصّر فيها أصحابها قول امرئ القيس :

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وللسَّاقِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعٌ أَخْرجَ مُهْذِبِ .[181]

فقيل له :إنّ فرسا يحتاج إلى أن يستعان عليه بهذه الأشياء لغير جواد ،وقول المسيّب بن علس :

---

[178] قدامة بن جعفر ؛ نقد الشّعر ؛ ص : 130.
[179] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج :1 ، ص :278.
[180] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :78.
[181] امرؤ القيس ؛ الديوان ؛ ص :23، رواية الديوان : فَلِلسَّاقِ أُلْهُوبٌ وللسَّوطِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَخْرجَ مِعنَبِ.

وَقَدْ أَتَناسَى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مُكدَم

فسمعه طرفة فقال :استوْنق الجمل ،والصّيعريّة من سمات النّوق ".[182]

يقاس بيت المتنبي إذا سلّمنا بعيب المعنى على هذه الشّواهد التي أخفق أصحابها في دقّة الوصف وكما اغتفر لهم ذلك يغتفر للمتنبي أيضا ،هذا هو المعنى المحوري الذي دارت حوله فكرة المقايسة ،والتي دلّلنا عليها بالشّكل الأوّل من أنواع القياس الأرسطي وهو أنّ :المتنبي شاعر وكلّ شاعر يخطأ النتيجة هي : المتنبي يخطأ وغيره من الشّعراء يخطأ أيضا ،فليس الوقوع في الخطأ عيبا يردّ به جميع إبداع الشّاعر.

ننتقل للعنصر الموالي وهو المقاربة في التّشبيه لارتباطه بالوصف الذي هو إخبار عن حقيقة الشّيء والأوّل كمجاز وتمثيل.

القاعدة الرابعة :المقاربة في التشبيه.

يعتبر التّشبيه من الفنون البلاغية المهمّة ،اهتمّ النقاد والمبدعون بدراسته كصورة فنيّة تعطي للأثر الفنّي فاعليته ،ونظرا لأهميّته صنّف كعنصر فعّال من عناصر عمود الشّعر ،يقول ابن قتيبة في بيان أهميّته":وليس كلّ الشّعر يختار ويحفظ على جودة اللّفظ والمعنى ،ولكنّه قد يختار ويحفظ على أسباب منها:الإصابة في التّشبيه ".[183]

الإصابة في التّشبيه أو المقاربة فيه لا تعني المماثلة بين طرفي التّشبيه من جميع الوجوه لأنّ الاثنان في هذه الحالة يصبحان شيئا واحدا ،والشّيء لا يشبّه بنفسه ،فعندما يقصد المشبّه وجها معيّنا عليه أن يجيد فيه ويصيب لتتكامل ملامح الصّورة الفنيّة وتتجاذب بين الشّيء المحسوس والغائب ،أمّا إذا قصد مجموعة من أوجه الشّبه فتلك المقاربة في التّشبيه،كلّما تعدّدت أوجه الشّبه كان قويّا وفنيّا.

يعرّف التّشبيه بأنّه ":الدّلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى".[184]

[182]المرزباني ،الموشّح (مآخذ العلماء على الشّعراء في عدّة أنواع من صناعة الشّعر) ؛ص :132 .
[183]ابن قتيبة ،الشعر والشعراء ،ج:1-ص:84.
[184]القزويني أبو عبد الله ،الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع؛دار الكتب العلميّة ،بيروت ؛(د،ط) ؛ (د،ط)؛ص :217.

والشّاعر الحاذق يدرك بلطيف تأمّله وتمعنّه الائتلاف الواقع بين العناصر فيوقعه ،وأحسن التّشبيه عند قدامة بن جعفر(ت337هـ)"ما أوقع بين الشّيئين اشتراكهما في الصّفات أكثر من انفرادهما فيه حتّى يدني بينهما إلى حال الاتّحاد".[185]

أمّا عيار المقاربة في التّشبيه فهو":الفطنة وحسن التقدير ،فأحسنه ما لا ينتقض عند العكس وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصّفات أكثر من انفرادهما ليبن وجه الشّبه بلا كلفة ،إلا أن يكون المطلوب من التّشبيه أشهر صفات المشّبه به ،وأملكها له لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض ".[186]

وهذه القاعدة تخضع للفطنة وحسن التّقدير، ويرجع اهتمام الشّعراء به إلى"قيمته في تصويرهم وإلى طبيعته الخاصّة التي تتميّز بالوضوح الشّديد، والتي كانت سببا مباشرا في شيوعه وانتشاره على نحو ملحوظ".[187]

وللتّشبيه عند المتنبي مكانة خاصّة لا تغادر قصيدة من قصائده إلاّ وتجد فيها مجموعة من التّشبيهات الرّائعة التي لفتت أنظار النقاد فأفردوه بدراسات مستقلّة ككتاب "تشبيهات المتنبي ومجازاته"لمنير سلطان حيث قام باستقصاء مجموعة من المفردات الدينيّة والطّبيعيّة والمعارك الحربيّة الموجودة في صورة التّشبيه عند المتنبي وقام بعرضها ودراستها وإحصاء المفردات فيها.

نقوم بعرض مقايسة الجرجاني في هذا الجانب ،ونقف عند اعتراض خصوم أبي الطيّب على قوله :

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ فَلاَ أَحَدٌ فَوْقِي وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي.[188]

قالوا ":إنّما يشبّه من الأسماء بمثل وشبه ونحوهما ،ومن الأدوات بالكاف ثمّ تدخل على أنّ فيقال :كأنّه الأسد ،وقد تقرّب العرب التّشبيه بأن تجعل أحد الشّيئين هو الآخر فتقول زيد الأسد عاديا ،والسّيف مسلولا ،فأمّا مَا فلها مواقع معروفة وليس للتّشبيه في أبوابها مدخل".[189]

[185] قدامة بن جعفر ، نقد الشّعر ، ص : 124.
[186] المرزوقي ،مقدمة شرح ديوان الحماسة،ص:10 .
[187] محمّد مصطفى أبو شوارب، إشكالية الحداثة(قراءة في نقد القرن الرابع الهجري) ؛ ص : 87 – 88.
[188] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 281.
[189] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 442 – 443.

نشير أوّلا إلى أنّ البلاغين لم يذكروا (مَا)من أدواة التّشبيه ،ولكنّ أنصاره أجابوا عنه بقولهم":لعلّ الأقرب أن يكون مراده بقوله بمَا وكَأنّه :قول القائل ما أشبهه بكذا وكأنّه كذا ،يقول –المتنبي- لا تشبّهني بأحد ولا تقل كأنّه فلان وما أشبهه بفلان ،لأنّه ليس فوقي أحد ولا مثلي أحد فتشبّهني به".[190]

وكان جواب أبي الطيّب عندما سئل عن ذلك قائلا بأنّ "مَا تتأتي لتحقيق التّشبيه؛ تقول عبد الله الأسد وما عبد الله إلاّ الأسد، وإلاّ كالأسد، تنفي أن يشبّه بغيره، قال:

وَمَا هِنْدٌ إِلاَّ مُهْرَةٌ عَرَبِيّةٌ سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ

وقد تجيء مع الكاف قال لبيد:

وَمَا المَرْءُ إِلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ.[191]

فكأنّ قائلا قال:ما هو إلاّ كذا، وآخر قال:كأنّه كذا، فقال:أمط عنك تشبيهي بما وكأنّه ".[192]

نفى الجرجاني أن يكون التّشبيه بمَا،وإنّما هو بالكاف لأنّ مَا للنّفي فنفت أن يكون المرء إلاّ كالشّهاب فهي لم تتعدّ موضعها ،وذكر أنّ أصل الكلام هندٌ مُهرةٌ فدخلت مَا على المبتدأ والخبر وأدخل حرف الاستثناء ليصل بعد هذا التّحليل إلى أنّه "ليس بمنكر أن ينسب التّشبيه إلى مَا إذا كان له هذا الأثر ،وباب الشّعر أوسع من أن يضيق عن مثله ".[193]

نوافق الجرجاني في النّتيجة التي توصّل إليها عن طريق قياس الأشباه والنّظائر،استعمل المتنبي (مَا)لتحقيق التّشبيه وهي باقية على مراد النّفي أي لا تشبّهني بأحد لأنّه ليس فوقي أحد ،نقيسه على نظيره وهو:مَا هند إلاّ مهرة أو كالمهرة فنفت الاشتباه سوى المستثنى منها ،وكذلك في قولنا:ومَا المرء إلاّ كالشّهاب فنفت الاشتباه سوى المستثنى منها ،وكانت غاية مَا تحقيق التّشبيه في المستثنى منه هذه وجوه التّماثل الحاصلة في هذا القياس يضاف إليها صورة المشبّه فيه أكبر من المشبّه به فلا مثيل له يقاس عليه ،أضاف الجرجاني جامعا آخر بمثابة العلّة لهذه المقايسة هو ضرورة الشّعر وما تتطلّبه

[190](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 281.
[191] لبيد بن ربيعة ؛الديوان ، 88.قاله في رثاء أخيه مربد.

[192] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 443.
[193] المصدر السّابق ؛ ص : 443.

الصّورة والرّؤية الجماليّة من توسّع بلاغي يريد الشّاعر أن يعبّر عنها ولتكن رغبة المتنبي في إكبار المثير عن أن يكون له شبيه "فالمشبّه هنا تخطّى حدود أن يقارن بمشبّه به وأن يقع في إساره ليطرح عليه المشبّه به معنى من معانيه ،وظلاّ من ظلاله ،فالمثليّة منتفيّة ،والإحساس بالمشبّه قد تضخم حتّى صار يشبّه به وتدور المعاني في فلكه ".[194]

إنّ غاية إكبار المثير تظهر في تشبيهات المتنبي عندما يعبّر عن رؤيته المتعالية وتبجّحه بنفسه أو في مدحه لسيف الدّولة في بعض الأحيان.

خرّج بعض النقاد بيت المتنبي تخريجات لغويّة منها ما أشار إليه ابن القطاع فقال":الصّحيح من معنى هذا البيت أنّ (مَا) نكرة بمعنى شيء موضوعة للعموم كأنّه قال :أمط عنك تشبيهي بشيء من الأشياء كما أنّك تقول :مررت بما معجب لك :أي بشيء معجب بك ،وقال أبو بكر الخوارزمي :مَا هنا اسم بمعنى الذي يقال لمن يشبّه بالبحر :كأنّه ما هو نصف الدّنيا ،يعنون البحر لأنّ الدّنيا برّ وبحر ويقولون كأنّه ما هو سراج الدّنيا ،يعنون الشّمس والقمر ،ولمّا كان لفظهما في المشبّه به ذكره المتنبي مع كأنّ".[195]

تعنى هذه التخريجات بالجوانب اللّغوية مع أنّنا لا ننكر ما فيها من الصحّة إلاّ أنّنا نميل للدّفاع الفنّي الذي اعتمده الجرجاني في المقايسة ،والجانب الثّاني ما يتوافق مع مبدأ المقاصة فيقاس خطأه هنا بفرائد من تشبيهاته الحسنة التي لم يسبق إليها ،والتي انتقى الجرجاني منها هذين البيتين يصف فيهما المتنبي الخيل،فقال: وَمَا الخَيْلُ إلاَّ كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنِ مَنْلاَ يُجَرِّبُ.

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ.[196]

شبّه الخيل بالصديق لكثرة اصطحابها ،وهما لا يمحّصان إلاّ بالتّجربة والامتحان ،فالجياد من الخيل قليلة لا تعرف بألوانها وإنّما بِعَدْوِهَا وطباعها ،كالصّديق تعرف مودّته في النّائبات والشّدائد ،ربط شاعرنا بين "الحسّ الإنساني الذي يصل إلى حدّ الألفة مع الحيوان ،وهذه الألفة تتعمّق بحيث لا

[194]. منير سلطان، تشبيهات المتنبي ومجازاته، منشأة ؛ المعارف، الإسكندرية، مصر، 1993م ؛ ص : 243
[195] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 281.
[196] المصدر السّابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 304.

تقتصر على الظّواهر المرئية ،فهناك جوهر ينبغي على الإنسان إدراكه ،ونلاحظ اختياره الرّائع للتّشبيه بين الخيل والصّديق ".[197]

يدلّ هذا التّشبيه على دقّة الملاحظة ومدى رؤية الشّاعر للأشياء حوله "إنّ الفارق بيننا كبشر عاديين وبين الشّاعر الحاذق يتمثّل في هذه القدرة الذّهنية التي تجعله يرى أبعد ممّا نرى وأدّق ،قد يستطيع كلّ منّا أن يلاحظ أنّ ثمّة مشابهة قائمة بين بعض الأشياء ،أو يدرك علاقة ما بينها ولكنّ إدراكه ذلك إدراك محدود ليس على نفس القدر من الدقّة التي يتميّز بها إدراك الشّاعر الحاذق ".[198]

فلتشفع له هذه المحاسن الكثيرة إن سلّمنا بخطئه في التّشبيه ،نواصل دربنا في الكشف عن مقايسة الجرجاني ونقف على العنصر الخامس من عناصر عمود الشّعر.

القاعدة الخامسة:التحام أجزاء النّظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن.

يقول أبو عمرو في حديثه عن الشّعر ":وأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج،فتعلم بذلك بأنّه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللّسان كما يجري على الدهان".[199]

تأمّل عبد القاهر الجرجاني هذا النصّ جيّدا وخرج منه بفائدة علميّة وفنيّة في آن واحد متمثّلة فيما عرف بنظريّة النّظم ،التي تتلاءم فيها الألفاظ والمعاني لتعطينا صورة فنيّة متلاحمة يسري المعنى في أجزائها لا ينفكّ عن جزء منها ،مشترطا فصاحة اللّفظة وتباعد مخارج حروفها وشدّة وثاقها بالمعنى تحقيقا لما عرف بعلاقة المجاورة للمحاورة .

أمّا بالنّسبة للذيذ الوزن فأفصح عنه ابن طباطبا بقوله ":وللشّعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ،فإذا اجتمع للفهم مع صحّة وزن الشّعر وصحّة المعنى وعذوبة اللّفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر،تم قبوله له واشتماله عليه وان نقص جزء من أجزائه

[197] نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، ص : 191.
[198] جابر عصفور ؛ الصّورة الفنيّة في التراث النّقدي والبلاغي ؛ ص : 187.
[199] الجاحظ ،البيان والتبيين ،ج:2،ص:67 .

التي يعمل بها وهي:اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ كان إنكار الفهم إيّاه على قدر نقصان أجزائه".[200]

لا بدّ من مراعاة هذه العناصر الثلاثة وهي:اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ ليكون الشّعر ملتحم الصّورة ومنتظم الأجزاء، فنغم الوزن وجرس اللّفظ وبراعة المعنى يعطيان للشّعر مرتبة الكمال. ولهذه القاعدة عيار كغيرها من القواعد يضبطها وهو"الطّبع واللّسان فما لم يتعثّر الطّبع بأبنيته وعقوده ولم يتحبّس اللّسان في فصوله ووصوله بل استمرا فيه واستسهلاه بلا ملال ولا كلال ...وإنّما قلنا على تخيّر من لذيذ الوزن لأنّ لذيذه يطرب الطّبع لإيقاعه ويمازجه بصفائه ،كما يطرب الفهم لصواب تركيبه واعتدال نظمه".[201]

فكثرة الزّحافات والعلل تذهب نغمة الإيقاع وتكون الألفاظ فيه مضطربة وقلقة في مواقعها ،فممّا رآه المعترض خارجا عن هذه القاعدة في شعر المتنبي ،قوله يمدح أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي :

تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفُ.[202]

قال الجرجاني على لسان المعترض":خرج عن الوزن لأنّه لم يجيء عن العرب مفاعلن في عروض الطّويل غير مصرّع".[203]

ومن بين المعترضين أيضا ابن وكيع الذي قال":أهل العروض ينكرون هذا البيت ويقولون :هذه القصيدة من العروض الطّويلة الأوّل وعروض الطّويل الأوّل أبدا يجيء مقبوضا على مفاعيلن إلاّ أن يصرع البيت وهذا البيت غير مصرّع فهو غير جائز عندهم".[204]

قبل أن نبيّن شكل المقايسة في هذه المؤاخذة لا بأس من الإشارة لبعض الأمور منها:

سمّي البحر الطّويل بذلك لأنّ عدد حروفه يبلغ ثمانيّة وأربعين حرفا ،وقيل لأنّه يقع في أوائل أبياته الأوتاد ثمّ الأسباب والوتد أطول من السّبب "وهو على ثمانيّة أجزاء فعولن مفاعيلن أربع مرّات وله عروض واحدة وثلاثة أضرب وعروضه لم تستعمل إلاّ مقبوضة والمقبوض ما سقط خامسه السّاكن

[200] ابن طباطبا ،عيار الشعر،ص:15 .
[201] المصدر السّابق ؛ ص : 17.
[202] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 30.
[203] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 467.
[204] ابن وكيع ،المنصف في نقد الشّعر وبيان سرقات المتنبي ،تحقيق : الداية ؛دار قتيبة ؛دمشق ؛(د،ط) ؛(د،ت) ؛ ص : 423.

كان أصله مفاعيلن فأسقطت الياء منه فبقي مفاعلن وسمّي مقبوضا لأنّك إذا حذفت ذلك الحرف منه تقبّضت أجزاؤه واجتمعت ".[205]

وعروضه تكون مقبوضة وجوبا أي محذوفة الحرف الخامس السّاكن وهو ياء مفاعيلن فتصبح مفاعلن وأضربه على ثلاثة أوجه :صحيح (مفاعيلن) ،مقبوض (مفاعلن) ،محذوف(مفاعي).

أمّا حجّة المتنبي فذكرها الجرجاني بقوله ":إنّما جاء البحر على مفاعيلن ،وليس يحظر على الشّاعر إجراؤه على الأصل ،وقد جاء عن العرب مفاعيلن في المصرّع ،وما خرج عن الوزن لم يحتمله المصرّع ولا غيره ،قال امرؤ القيس:

أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي وَهَلْ يَمْنَعَنْ مَنْ كَانَ فِي العُصُرِ الخَالِي.[206]

فجاء بالعروض على مفاعيلن لـمّا صرّع ،قالوا :وقد جاء في شعر المحدثين ما أجروْا فيه غير المصرّع مُجرى المصرّع فقال شاعرهم : فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مَبيضٌّ والشّعْرُ مِثْلُ اللّيْلِ مُسْودٌّ.

وأبو الطيّب أعذر من هذا، لأنّه جرى على أصل البحر في الدّائرة، وقد جرى أبو تمام إلى ما هو أقبح من الأمرين فصرّع المصراع في قوله:

يَقُولُ فَيُسْمِعُ ،وَيَمْشِي فَيُسْرِعُ وَيَضْرِبُ فِي ذَاتِ الإله فَيُوجِعُ.[207] ".[208]

وبيّن الآمدي خطأ أبي تمام في هذا البيت قائلا ":حذف النّون من "فَعُولُنْ" الأولى والياء من "مَفَاعِيلُنْ" الّتي تليها ومن "فعولن" الّتي هي في أوّل المصراع الثّاني وذلك كلّه أيضا يسمّى مقبوضا وهو من الزحاف الحسن الجائز إلاّ أنّه إذا جاء على هذا التوالي والكثرة في البيت الواحد قبح جدّا".[209]

تفعلة بيت أبي تمام هكذا : فَعُولُ مَفَاعِلُنْ فَعُولُ مَفَاعِلُنْ فَعُولُ مَفَاعِلُنْ فَعُولُ مَفَاعِلُنْ.

أمّا بيت أبي الطيّب فتفعيلته :فَعُولُ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُ مَفَاعِيلُنْ.

---

[205] الخطيب التبريزي ؛الكافي في العروض والقوافي ؛تحقيق"إبراهيم شمس الدين ؛دار الكتب ا ؛لبنان؛ الطّبعة الأولى: 2003م.ص:19

[206] امرؤ القيس ؛ الديوان ؛ ص : 54.

[207] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج :1 ، ص 368

[208] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 468.

[209] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ؛ ص : 270 – 271.

يظهر شكل القياس في حمل بيت المتنبي على بيت امرئ القيس وعليه فهذا قياس علّة وهي ثبوت مفاعيلن في المصرّع عن العرب ،وتماثلهما في نفس البحر ،نلاحظ أنّ العلّة في الأصل مساوية للفرع. كما جرت عادة الجرجاني أن يواجه الخصم بمقايسة أخرى إذا لم يسلّم بالقياس الأوّل ،وهذه المقايسة الثّانية المشابهة فيها حاصلة من باب الأولى لثقل العلّة في بيت أبي تمام وخفّتها في بيت المتنبي كما قال الناقدان الجرجاني والآمدي،أمّا شكل التباين فنلحظه في خروج أبي تمام عن أصل الدّائرة.

يظهر التحام ألفاظ أبي الطيّب وانتظامها واضحا، فالعلم يصلح بالفكر والمنطق يصدق بالحكمة، وفي عجز البيت التّباين بين الباطن والظّاهر ومقابلتهما بالدّين الذي يطّلع عليه الله ومحاسن الأخلاق التي يشاهدها النّاس،وهذا من حسن التّقسيم الذي يزيد الشّعر روعة وانسجاما .

ترتبط هذه القاعدة بأواصر الصّورة الفنيّة سواء في نسقها الداخلي المكوّن لها أو في نسقها الخارجي الذي يتفاعل معه الإيقاع والذّوق من خلال التئام الوزن مع نظم وحدات الكلام واتّفاقها ،كما تحتاج الصّورة الفنيّة إلى عنصر آخر يزيد في تحسينها ويرغّب في التّفاعل معها ،هذا العنصر يتعلّق بالاستعارة التي تعتبر أحد أعمدة الكلام .

القاعدة السادسة:مناسبة المستعار منه للمستعار له.

تعدّ الاستعارة من محاسن الكلام ودرره ،وهي أحد أقسام المجاز اللّغوي الذي تنقل فيه الألفاظ من حقائقها اللّغويّة إلى دلالات أخرى على وجه من المناسبة ،عرّفها القزويني بقوله ":الاستعارة ما تضمّن تشبيه معناه بما وضع له".[210]

المراد بمعناه ما عني به أي ما استعمل فيه ،أمّا ما وضع له فلم يتناوله ،وإن تضمّن التّشبيه ،وأشار لها الجرجاني بقوله "هي ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ،ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ،وملاكها تقريب الشّبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه ؛وامتزاج اللّفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبيّن في أحدهما إعراض عن الآخر ".[211]

لا بدّ من تحديد وجه المناسبة لتتحقّق المقاربة ؛قام الجرجاني بالتّمييز بين الاستعارة والتّشبيه قبل المرزوقي وذلك لأنّ التّشبيه يربط المشبَه بالمشبه به على وجه من العلاقة يحافظ كلّ منهما على أصله

[210]القزويني أبو عبد الله ،الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ؛ص :286.
[211]المصدر السّابق ؛ ص : 41.

بينما يدمجان في الاستعارة فيكوّنان لوحة متّحدة تربطها علاقة لغويّة قائمة على المقارنة فالمعنى في الاستعارة لا يمثّل مباشرة "بل يقارن أو يستبدل بغيره على أساس من التّشابه ،فإذا كنّا نواجه في -التّشبيه-طرفين يجتمعان معا ،فإنّنا في -الاستعارة-نواجه طرفا واحدا يحلّ محلّ طرف آخر ويقوم مقامه لعلاقة اشتراك شبيهة بتلك التي يقوم عليها التّشبيه".[212]

في التّشبه يتمّ التّأكيد على وجه الشّبه فمن خلاله يرتبط طرفا التّشبيه، وفي الاستعارة نعنى بتحديد المقاربة بين المستعار منه والمستعار له، وتمثّل هذه المقاربة مفتاح الوصول للمعنى المقصود.

أمّا بالنّسبة لعيار هذه القاعدة فهو"الذّهن والفطنة، وملاك الأمر تقريب التّشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبّه والمشبّه به، ثم يكتفي منه بالاسم المستعار لأنه المنقول عمّا كان له في الوضع إلى المستعار له ".[213]

تقوّم الاستعارة عن طريق الفهم وتصويب العقل، ويراعى فيها مدى قبول النّفس أو نفورها لأنّ الذّوق والطّبع يزنان قدرتها على تصوير الأشياء.

أغرم أبو تمام بالاستعارة وأسترسل فيها حتّى مال فيها إلى التّعدّي، كما شغف المتنبي بها فجاءت في شعره مشوبة بنوع من الغموض.

نشير الآن لشكل المقايسة في جانب الاستعارة ونستكشف قدرة الجرجاني في ردّه على اعتراض خصوم أبي الطيّب كما في قوله من قصيدة يمدح بها عضد الدّولة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة حيث قال:

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هِمَمٌ مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا .[214]

الهمّة تدلّ على المعالي، ومحلّها النّفس، هذا الممدوح تجلّت فيه مجموعة من الهمم حمل الزّمان واحدة منها، ولو قدّر ووجد زمان أوسع منه واحتملها لأظهر هذا الممدوح همه كما قال في البيت بعده:

فَإِنْ أَتى حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَانِ أَبْدَاهَا .[215]

---

[212] جابر عصفور، الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب،المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة:1992؛ص :201.
[213] المرزوقي ،مقدمة شرح ديوان الحماسة،ص:13
[214] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 413.
[215] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 413.

قال الخصم ":هذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ،وإنّما تصحّ الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة وطرف من الشّبه والمقاربة ،فقلت له :هذا أبو رميلة يقول :

هُمْ سَاعِد الدَّهرِ الذِي يتَّقى بِهِ وَمَا خَيْرَ كَفٍّ لاَ تَنُوءُ بسَاعِد .

وهذا الكميت يقول : وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَقْلِبُ ظَهْرهُ عَلَى بَطْنِهِ فِعْلَ الممعَّكِ بالرَّمْل.

وشاتم الدّهر العبقي يقول:وَلَمَّا رَأيْتُ الدَّهْرَ وَعرا سَبِيلُهُ وَأَبْدَى لَنَا ظَهْرًا أجبّ مسمَّعَا

وَمَعرِفَة حَصاء غَيْر مُفاضَة عَلَيْهِ ولَوْنا ذَا عثَانِينَ أَجْدَعَا

وَجَبهَةُ قِردٍ كَالشِّرَاكِ ضئيلَةٍ وَصعَّرَ خَدَّيْهِ وَأَنْفًا مُجَدَّعًا .

فهؤلاء قد جعلوا الدّهر شخصا متكامل الأعضاء تامّ الجوارح ؛فكيف أنكرت على أبي الطيّب أن جعل له فؤادا ".[216]

وممّن اقتفى هؤلاء في لوحة الدّهر أبو تمام ،فقد عابه الآمدي وانتقده في قوله:

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكَ[217]

قال الآمدي ":إنّ أبا تمام خرج عن المنهج المألوف في الاستعارة ".[218]

نفس الرّؤية واجهه بها عبد القاهر الجرجاني فانتقد استعارة أبي تمام لرداءتها وثقلها على النّفس.[219]

قايس الجرجاني استعارة أبي الطيّب على هذه الاستعارات بالشّبه الموجود وهو الدّهر المستعار من الإنسان ،يقول الجرجاني":فأمّا الدّهر فإنّما يراد بذكره أهله ؛فإذا جعل للدّهر ساعدا وعضدا ومنكبا فقد أقيم أهله مقام هذه الجوارح من الإنسان ".[220]

وهذا الشّبه يحقّق المقاربة بين المستعار منه للمستعار له والمراد بالدّهر كما ذكر الجرجاني أهله وهو ما نراه أيضا وكما هو مشاهد في عصرنا ،فعندما نرى سلوكا جديدا غير حضاريّ نقول :هذا هو الزّمان

---

[216] القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :429 – 430.

[217] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج : 1 ، ص:440

[218] (الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، ص :228

[219] ينظر : عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز،تحقيق ؛محمود شاكر ،مطبعة المدني ،مصر ،الطبعة الثالثة ؛1413ه-1992م ؛ص :47.

[220] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 430 – 431.

فنرميه بهم ،أمّا صور التّماثل في المقايسة فهو لفظة الدّهر في بيت الكميت وشاتم الدّهر وأبي تمام ومعناها المعجمي هو "الزّمان الطّويل والأمد الممدود وألف سنة ".[221]

وقد يعدّ في الأسماء الحسنى كما جاء في الحديث ؛[222]وعليه فلا مقاربة بينه وبين المستعار منه بوجه من الوجوه تعالى الله هن ذلك علوّا ،ولم نجد –فيما نعلم-من أشار لذلك الحديث من النقاد ،نلاحظ أنّ التشاكل الذي يجمع المتنبي وأبي تمام هو الموضوع وهو تشاكل جزئي خفيّ في أبي تمام فلفظ الأخدع من أدقّ أوصاف الإنسان ومركّباته ،بخلاف الفؤاد فلكلّ حيوان فؤاد بمعنى القلب إلاّ أنّ فؤاد الإنسان حيّ يعقل ،أمّا صور التباين التي نلحظها بين هذه الاستعارات فهو اختلاف فروعها فمنهم من استعار السّاعد ،ومنهم من استعار له الظّهر أو الخدّين أو الأنف أو الأخادع ،وهي جميعا مربوطة بعلّة المشابهة المشار لها سابقا أي من حيث الموضوع ،الأسلوب عند أبي تمام إنشائي يراد به الطلب وهو خطابي موجّه على طريقة الأمر ،أمّا عند المتنبي فهو خبري اعتمد على الغيبة ،والمعنى في الأبيات كلّها فيه غموض وغلوّ أكبر عند المتنبي فالممدوح لا يمكنه أن يعيش الدّهر كلّه.

تشترك استعارة المتنبي مع غيرها في تنزيل الزّمن صورة الإنسان وأنّ المراد به أهل العصر، والزّمن متباين عند الشّعراء كما أنّ المكان متباين أيضا، فإذا سأل سائل ما وجه قياس استعارة المتنبي على سابقتها؟ قلنا :لغلبة الشّبه وهو أنّ الزّمن يراد به ناسه وأهله ،وظّف المتنبي الزمن بدل الدّهر وإن كانا متقاربان إلاّ أنّه بينهما فرق لطيف ،فالزّمن يطلق على "العصر ،وقليل الوقت وكثيره".[223]

الزّمن عند المتنبي قد يكون محدّدا يراد به شيئا معيّنا مثل طائفة مخصّصة أو وقت معيّن ربّما سرعان ما يزول، فحركيّة الزّمن يمكن طيّها بخلاف حركيّة الدّهر فهي طويلة.

إنّ استدلاله باستعارة أبي تمام واعتبارها طرفا في المقايسة من باب تسليمه بعيبها ،فقد عدّها في أوّل الوساطة من جملة العيوب ،ثمّ دافع عنها في هذا الموضع بشراسة فقال ":وإذا قال أبو تمام :(يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ) ؛فإنّما يريد أعدل ولا تجر وأنصف ولا تحف ،لكنّه لـمّا رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل ،وأن يقذفوه بالعَسْفِ والظّلم ،والخُرْق والعنف ،وقالوا :أعرض عنّا وأقبل على

[221] الفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ؛ باب : الرّاء ؛ فصل : الدّال ؛ ص : 420.
[222] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قال الله تعالى :يسبّ بنو آدم الدّهر وأنا الدّهر بيدي اللّيل والنّهار) أخرجه البخاري ،رقم (6181).
[223] المصدر السّابق ؛ باب :النّون ؛ فصل : الزّاي ؛ ص : 1213.

فلان ،وقد جافانا وواصل غيرنا وكان الميل والإعراض إنّما وقع بانحراف الأخدع وازورار المنكب استحسن أن يجعل له أخدعا ،وأن يأمر بتقويمه ".[224]

لقد حكّم الآمدي وعبد القاهر الجرجاني المعايير التي وضعتها العرب وأهملا حريّة الإبداع التي تقوّم بقبول النّفس أو نفورها مع أنّ استعارة أبي تمام والمتنبي مستساغة في الذّهن وموافقة للفطنة ،استعار المتنبي للزّمن فؤادا ،وشبّهه بإنسان بجامع الإحساس والتأثّر ،ثمّ حذف المشبّه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفؤاد ،ونوع الاستعارة مكنيّة لأنّ الإنسان قد حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه .

إنّ خصوم المتنبي وأبي تمام لجئوا في الاستعارة إلى تطبيق النّظريّة الإبدالية التي من مرتكزاتها أنّ الاستعارة تحصل باستبدال كلمة حقيقيّة بكلمات مجازيّة وهذا الاستبدال يقوم على علاقة المشابهة الحقيقيّة أو الوهميّة وأكثر ما تتضّح للعيان كما قال محمّد مفتاح في الاستعارة التّصريحيّة التي يصرّح فيها بلفظ المشبّه به كقولنا :رأيت شمسا وتكون خافيّة في الاستعارة المكنيّة كما هو الحال في استعارة المتنبي ،بينما تعتبر لوحة الدّهر من الأنساق التّصويرية الرّائعة حتّى لو حملت في مضمونها غرابة وإحالة لأنّها من قبيل النّظريّة التفاعليّة التي ترتكز مسلّماتها في "أنّ الكلمة إنّما يحدّدها السّياق وينتجها لأنّ الكلمة ليس لها معنى محدّد بكيفيّة نهائية :كما أنّ المشابهة ليست العلاقة الوحيدة في الاستعارة ".[225]

فربّما تكون علاقات أخرى يفهمها واقع المخاطبين بمعزِل عن اللّغة المعجميّة.

ومن بين النّظائر التي ساقها الجرجاني في هذا الجانب واعتبرها وجها آخر للمقايسة هو أنّ الدّهر لـمّا أقيم كالشّخص المحمود المذموم والإنسان المحسن المسيء قاس هذه الألفاظ على قول امرئ القيس لـمّا أراد الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لـمّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلكَلِ .[226]

"جعل له صلبا وعجزا وكلكلا لـمّا كان ذا أوّل وآخر وأوسط ممّا يوصف بثقل الحركة إذا أستطيل وبخفّة السّير إذا استقصر وكلّ هذه الألفاظ مقبولة غير مستكرهة وقريبة المشاكلة ظاهرة المشابهة".[227]

---

[224] المصدر السّابق ؛ ص : 432 – 433.
[225] ينظر :محمّد مفتاح،تحليل الخطاب الشّعري(إستراتيجية التناص)،ص :129.
[226] امرؤ القيس ؛ الديوان ؛ص : 107.
[227](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 432.

ذكر ابن رشيق أنّ ابن وكيع زعم أنّ هذه أوّل استعارة وقعت وبيّن معناها بقوله ":استعار لليل سدولا يرخيها وهي الستور ،وصلبا يتمطّى به ،وأعجازا يردفها ،وكلكلا ينوء به ".[228]

أقام امرؤ القيس اللّيل وهو عبارة عن مسافة زمنية في صورة من يعقل الخطاب فحاوره وكلّمه ،ولا فرق بين من جسّد الدّهر والزّمن في صورة الإنسان وبين من أقام لليل صلبا وأعجازا .

فائدة هذه المقايسة كغيرها يراد بها إنصاف المتنبي وأنّه كغيره من الشّعراء لهم محاسن ومساوئ ينظر فيهما جميعا ثمّ يقوّم الشّاعر ؛والصور البيانيّة كالاستعارة تحكّم فيها الأذواق وليس المقاييس هذا ما دفع مندور إلى انتقاد هؤلاء بقوله"النّفس لا تقبل ولا تنفر جريا وراء قياس ".[229]

فمراعاة جانب الإبداع والفنيّة في التّصوير مقدّم على قياس صورة على أخرى ،نواصل رحلة المقايسة لنقف عند آخر عنصر من عناصر عمود الشّعر.

القاعدة السابعة: مشاكلة اللّفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما.

لم يبيّن الجرجاني وجه المقايسة في هذه القاعدة بوضوح ،وإنّما هو اجتهاد منّا ومحاولة في استنباط رؤيته في ذلك ،استفاد الجرجاني من إشارة سابقيه وآرائهم لقضيّة المشاكلة بين اللّفظ والمعنى كأبي عمرو الجاحظ حيث قال":ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللّفظ ،ولكلّ نوع من المعاني نوع من الأسماء ،فالسّخيف للسّخيف ،والخفيف للخفيف ،والجزل للجزل ".[230]

المعاني السّخيفة كهتك الأعراض في الهجاء له ألفاظه الخاصّة به،وكلّما أمتع المعنى ووفّى بالغرض قدّم على غيره من المعاني ،أمّا شريفها كالمدح بالكرم ومكارم الأخلاق فله ألفاظ دالّة عليه .

يقول الجرجاني مبيّنا انسجام الألفاظ وتناسبها مع المعنى ":ولا آمرك بإجراء أنواع الشّعر كلّه مجرى واحدا ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتب المعاني ،فلا يكون غزلك كافتخارك ،ولا مديحك كوعيدك ،ولا هجاؤك كاستبطائك ؛ولا هزلك بمنزلة جِدِّك ،ولا تعريضك مثل تصريحك ،بل ترتّب كلاًّ مرتبته وتوفّيه حقّه ،فتلطّف إذا تغزّلت ،وتفخّم إذا افتخرت وتتصرّف للمديح تصرُّف مواقعه فإنّ المدح بالشّجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللباقة والظّرف

[228] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة ؛ ج : 01 ؛ ص : 278.
[229] محمّد مندور ، النقد المنهجي ، ص : 301.
[230] الجاحظ ،البيان والتبيين ،دار الكتب العلمية ؛بيروت ؛لبنان ؛(د،ط) ؛(د،ت) ؛ ج :2 ؛ ص : 21.

ووصف الحرب والسّلاح ليس كوصف المجلس والمُدام ،فلكلّ واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه ".[231]

أمّا عيار هذه القاعدة فهو"طول الدّربة ودوام المدارسة فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض لا جفاء في خلالها ولا نبوّ ولا زيادة فيها ولا قصور،وكان اللّفظ مقسوما على رتب المعاني :قد جعل الأخصّ للأخصّ والأخس للأخس فهو البريء من العيب ،وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوّفها المعنى بحقه واللّفظ بقسطه وإلا كانت قلقة في مقرها مجتلبة لمستغن عنها ".[232]

لا بدّ أن يغرم الناقد بملازمة النصوص ويعطي للدربة حقّها من كثرة التّعامل والتأمّل فيخبْرَ ما تقتضيه صناعة الشّعر ويقف كثيرا على طرائق العرب في صناعته لتتولّد لديه آلية الذّوق والفهم ويصل لدرجة النّضج والكمال ويبلغ أسمى مراتب النقد مثل القاضي الجرجاني الذي نواصل معه متعة المقايسة في دفاعه عن أبي الطيّب والتوسّط بينه وبين خصومه ،ومن بين ما يتعلّق بمشاكلة اللّفظ والمعنى وشدّة اقتضائهما للقافية قول المتنبي يمدح طاهر بن الحسين العلوي :

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ ثَنَائِي حَدِيقَةً سَقَاهَا الْحِجَى سَقْيَ الرِّيَاضِ السَّحَائِبِ.[233]

معنى المتنبي أنّ "الحديقة :الرّوضة قد أحدق بها حاجز ،والمراد بها هنا القصيدة والحجى العقل ؛جعل العقل ساقيا لها لأنّ المعاني التي فيها إنّما تحسن بالعقل ،فجعل العقل ساقيها كما تسقى السحائب وقوله :سقي الرياض السحائب :أراد سقي السحائب الرياض ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو من شواذّ الاستعمال".[234]

الفصل بين المضاف والمضاف إليه مسألة نحويّة رأى فيها الخصم خروجا عن اللّغة فقالوا":فصل بين المضاف والمضاف إليه (بالمفعول) وإنّما يفصل بينهما بالظروف والحروف وما أشبههما ".[235]

والتمس لها نظائر من الشّعر كعادته حيث ذكر منها قول الشّاعر:

---

[231] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 24.
[232] يوسف حسين بكار، قضايا في النقد والشعر ؛ ص : 30.
[233] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 01 ؛ ص : 286. رواية الديوان : حَمَلْتُ إِلَيْهِ مَنْ لِسَانِي حَدِيقَةً .
[234] المصدر السابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 286.
[235] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 464..

كَتَحْبِيرِ الْكِتَاب بِكَفٍّ يَومًا يَهُوديّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ ".[236]

فصل بين المضاف والمضاف إليه بيوم ،وهذه المقايسة ليست هي المقصودة هنا وإنّما لهذا الفصل علاقة بالقافية عدّه ابن رشيق ضمن الحشو وفضول الكلام [237]،وسمّاه قدامة بن جعفر بالتّعطيل حيث قال ":هو أن لا ينتظم نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض فيقدّم ويؤخّر كما قال دريد بن الصمّة :

وَبَلِّغْ نُمَيرًا إِنْ عَرَضْتَ ابْنَ عَامِرٍ فَأَيّ أَخٍ فِي النَّائِبَاتِ وَصَاحب

ففرّق بين نمير بن عامر بقوله :إن عرضت".[238]

وعليه يمكننا أن نقيس بيت المتنبي عليه بجامع إقامة الوزن والعلّة هي الضّرورة الشّعرية وذلك لإتمام الوزن والقافية ،فالمتنبي فصل بين المضاف والمضاف إليه حفاظا على القافية أنّ دريد بن الصمّة ففصل بينهما من أجل الوزن هذه صورة المباينة بين البيتين أمّا صور التشاكل فتظهر في عدم الإخلال بالمعنى في البيتين ،ونلاحظ أيضا أنّ هذا الفصل في الشّعر كثير قد يبلغ حدّ الإفراط كما في الفصل بين المبتدأ والخبر كما سيأتي معنا بيت الفرزدق في التّعقيد والغموض .

في ختام هذا المبحث نشير إلى أنّ برهان العلّة الذي يقول اللّغويون يعتمد كنتيجة لكلّ شكل من أشكال المقايسة في كلّ عنصر من عناصر عمود الشّعر ،وبرهان العلّة هو:كلّ الشّعراء يخطئون ،المتنبي شاعر ،تكون نتيجة المقدّمتين اليقينيتين :أنّ المتنبي يخطئ ،ويسمّيه المناطقة بالقياس الحملي.

انتقى في الوساطة مجموعة شعريّة رائعة أبدع فيها المتنبي وأبان عن مقدرته الفنيّة في حسن المبدأ والخروج والنّهاية ،تلاءمت فيها الألفاظ والمعاني وغرّدت فيها نغمات الأوزان وجرس الألفاظ وجال العقل في قطف ثمارها وسرح الخيال في أرجائها ،وصدق المتنبي حين قال :

أَنَا الذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ.[239]

وصدق ابن رشيق أيضا عندما قال ":ثمّ جاء المتنبي فملأ الدّنيا وشغل النّاس".[240]

---

[236] المصدر السابق ؛ ص : 464.
[237] ابن رشيق ؛ العمدة في محاسن الشّعر ونقده ؛ ج : 02 ؛ ص :24.
[238] قدامة بن جعفر ؛ نقد الشّعر ؛ ص : 208.
[239] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 83.

وأكبر دليل على ذلك كثرة هذه الشّروح والتّعليقات حول ديوانه التي لم يحظ بها شاعر مثله ،قالت نجوى صابر في هذه المختارات التي جمعت في الوساطة ":وإن كان القاضي الجرجاني لم يحلّل ولم يذكر لاختياراته هذه سببا فإنّنا نؤكّد روعة هذه الاختيارات ودلالتها على ذوقه السّليم وليس يخفى علينا - المتنبّي- فقد وفّق توفيقا كاملا سواء أكان ذلك في ألفاظه أم في تناوله لمعانيه الإنسانية الشّديدة القرب من النّفس البشرية ،وما توحي به من مشاعر صادقة وآمال وأوجاع وإدراك بعيد لحقائقها الخالدة ،وعبقريّة المتنبّي في قدرته على تطويع هذه المعاني في سلاسة وقوّة وجزالة وامتناع دون إكراه ولا تعسّف في صورة أو لفظة".[241]

وبالرّجوع لما بيّناه سابقا في كلّ عنصر من عناصر عمود الشّعر نستطيع أن ندرك الجماليّة الفنيّة الموجودة في تلك الاختيارات التي لفتت ذوق ناقدنا الجرجاني .

نطوي صفحة المعايير الخاصّة بتقويم الشّعر من خلال نظريّة المرزوقي ونلج لرحاب المعاني الشّعريّة وما يكتنفها من غموض وتعقيد لنقف على مدى قدرة المقايسة في الدّفاع عن المتنبي في هذا الجانب.

[240] ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشّعر ونقده ، ج : 01 ،ص: 144.
240نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري ،ص : 191.

المبحث الثّالث:المقايسة في الغلوّ والتّعقيد.

اهتمّ الشّعراء بألفاظهم ومعانيهم لأنّ إبداع الصّورة الفنيّة يرجع إليهما ،واللّفظ خادم للمعنى يتغيّر بتغيّره ،وأوّل ما يقرع السّمع مطلع القصيدة فينبغي إجادة ألفاظه ومعانيه ،واستفتاحها بما يتلاءم مع المقام ثمّ تأتي العناصر الأخرى كالوقوف على الأطلال وما يعقبه من بكاء وسؤال وغير ذلك والقصيدة الرّائعة هي التي يحسن صاحبها الانتقال من حال لحال ،فيحسن في المبدأ ويجيد في الانتهاء "فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض ،وأن يحتال في ما يضل بين حاشيتي الكلام ،ويجمع بين طرفي القول حتّى يلتقي طرفا المديح والنّسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما ،فلا يختلّ نسق الكلام ولا يظهر التّباين في أجزاء الكلام".[242]

إنّ مفهوم الوحدة عند حازم يتجسّد في مدى تماسك وتلاحم أجزاء القصيدة، معما يصاحبها من انفعالات وعواطف الشّاعر.

حدّد النّحاة عصر الاحتجاج الزّمني والمكاني حفاظا على الألفاظ وتراكيبها ،أمّا المعاني فلم يوضع لها قيد زمنيٌّ يربطها أو واقع جغرافيّ يحدّها ليبقى باب الإبداع مفتوحا أما المبدعين ،قال صاحب خزانة الأدب":علوم الأدب ستّة :اللّغة والصّرف والنّحو ،والمعاني والبيان والبديع ،والثلاثة الأوّل لا يستشهد عليها إلاّ بكلام العرب دون الثّلاثة الأخيرة فإنّه يستشهد عليها بكلام المولّدين لأنّها راجعة إلى المعاني ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع إلى العقل ،ولذلك قبل أهل هذا العصر الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيّب ".[243]

نظرا للمعاني المتعدّدة الموجودة في دواوين هؤلاء الشّعراء اهتمّ العلماء بجمعها ودراستها لسبر ما فيها من الأمثال السّائرة والمعاني العابرة والصور الفنيّة الرّائعة يقدمهم أبو الطيّب في الصدارة ،لأنّ معانيه تكاد تكون واضحة سهلة التدبّر والفهم ،أمّا ما استغلق منها وصعب إدراكه ففيه دارت آلية المقايسة

[242]حازم القرطاجيني ؛منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛تحقيق:محمّد الحبيب ابن الخوجة؛تونس (د،ط) ؛1966م؛ ص : 318.
[243]البغدادي،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب؛ج: 01 ؛ ص : 5.

لدى الجرجاني في درئه للانتقاد الذي وجّه لأبي الطيّب وكان خاضعا للمقاييس التي رآها هؤلاء ملائمة لتصويب المعنى ،في حين رأى بعضهم تحكيم الذّوق وما يستجيده الطّبع ،أي تحكيم الرّؤية الفنيّة.

يشمل هذا المبحث عنصريين ،يتعلّق الأوّل بالمبالغة والغلوّ ،والثاني بالتّعقيد والغموض ،ولم نلج مباشرة للمقايسة فارتأينا أن نقدّم بعض التّوضيحات والأمور الضّرورية لتقريب مفاهيم هذه المصطلحات لتكون المقايسة واضحة المعالم في بابها .

أوّلا : المبالغة والغلوّ.

يطلق الغلوّ في اللّغة فيقال":غلا في الأمر غلوّا:جاوز حدّه؛ وبالسّهم غَلْوًا وغُلُوًّا:رفع يديه لأقصى الغاية".[244]

نلاحظ أنّ الغلوّ يطلق على مجاوزة الحدّ والمدى ،وفي الاصطلاح عرّفه قدامة بقوله ":الغلوّ إنّما هو تجاوز في نعت ما للشّيء أن يكون عليه ،وليس خارجا عن طباعه إلى ما لا يجوز أن يقع عليه".[245]

أمّا موقف النقاد من الغلوّ فانقسم إلى مذهبين ذكرهما الجرجاني بقوله ":أمّا الإفراط فمذهب عامّ في المحدثين ،وموجود كثير في الأوائل والنّاس فيه مختلفون فمستحسِن قابل ومستقبح رادّ ،وله رسوم متى وقف الشّاعر عندها ولم يتجاوز الوصف حدّها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النّقص والاعتداء فإذا تجاوزها اتّسعت له الغاية وأدّته الحال إلى الإحالة ،وإنّما الإحالة نتيجة الإفراط ،وشعبة من الإغراق والباب واحد ،ولكن له درج ومراتب".[246]

هذه الرّسوم أقامها ابن رشيق مقام الأدلّة المجوّزة للغلوّ فمن استحسنها راعى في ذلك جانب الفنيّة المصوّغة للتّأمّل والتفكّر ،وأبرز من اعتبر ذلك من النقاد عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني فنظريّة النّظم راعت معاني النّحو التي تركّب فيها الصّورة الفنيّة وفيها يتمّ التّفاعل بين الشّاعر والمتلقّي.

[244] الفيروز آبادي ؛ القاموس المحيط ؛ باب : الواو ؛ فصل : الغين ؛ ص : 1325.
[245] قدامة بن جعفر ؛ نقد الشّعر ؛ ص : 214.
[246] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 420.

اشترط حازم أن لا يكون الغلوّ مستحيلا –هذا ما نراه أيضا- فالعقل لا يقبل المستحيل بحال من الأحوال مثل أن نتصوّر جسما ساكنا ومتحرّكا معا ،بينما ردّ أصحاب الاتّجاه الآخر كلّ معنى ليس له شاهد من الواقع ،لأنّ غاية المعنى عندهم الوضوح وارتباطه بالمعقولات ،بناء على مسألة(الصّدق والكذب) "فكان الشّاعر المبالغ والمغالي أو المحيل هو الذي يأتي بأخبار وأوصاف لا تمكن ولا تعقل أو هو الذي ينأى بكلامه عن الحقائق المباشرة أو المعقولة حتّى تنقطع الصّلة بينها وبين الإمكان في الوجود وفي العقل ".[247]

يقوّم الشّعر عند هؤلاء بمدى مطابقته للواقع وكلّما ابتعد عنه كان مرفوضا،اعتمادا على هذا المعيار ومن خلاله اعْتُرض على حبيب وأبي الطيّب كما رأينا ذلك مع الآمدي،وما تعلّق بأبي الطيّب سنبيّنه لاحقا،فمن زمرة خصومه الحاتمي الذي اعترض عليه في قوله يمدح سعيد بن عبد الله الكلابي:

وَضَاقَتِ الأَرْضُ حَتَى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا.[248]

قال له الحاتمي ":أفتعلم مرئيا يتناوله النّظر لا يقع عليه اسم شيء ،وما أراك نظرت إلاّ لقول جرير :

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعدَهمُ خَيْلًا تكرُّ عَلَيْهم وَرِجَالَا.[249]

فأحلت المعنى عن جهته وعبّرت عنه بغير عبارته".[250]

المعنيان متغايران لكنّ تصوير أبي الطيّب لحالة الهاربين من بني تميم لما رأوه من قوّة الممدوح وهيبته في أقصى غاية لا يمكنه المزيد عليها ،ولكن هل يمكن أن يقال : إنّ غير شيء يمكن رؤيته ،كما عبّر المتنبي عن ذلك ؟.

تأمّل الجرجاني في الشّعر فوجد لاستعمال أبي الطيّب نظائر كقول أبي تمام :

---

[247] حسين الواد ،المتنبي والتجربة الجمالية ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،عمان ،الطبعة الاولى،1991م ؛ ص : 248.
[248] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 287.
[249] جرير ؛ الديوان ؛ص : 371.
[250] الحاتمي، الرّسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره، تحقيق:محمّد يوسف،دار صادر، لبنان، (د-ط)، 1965م؛ ص:27.

أَفِيَّ تَنْظِمُ قَوْلَ الزُّورَ وَالفَنَدْ وَأَنْتَ أَنْزَرُ مِنْ لاَ شَيْءَ فِي العَدَدْ .[251]

فقال الجرجاني":قد أجاز هذا أن يكون معدودا فكيف يحظر عليَّ أن أجعله مرئيا !".[252]

يمكن أن يكون المعدوم عند أبي تمام معدودا، وعند المتنبي يمكن رؤيته، فكلاهما نّزلا المعدوم صورة الموجود.

بينما أرجع عثمان موافي غلّو أبي تمام في هذا البيت لوجود معاني فلسفيّة ،فالإنسان المنقطع عن دوره في مجتمعه كالصّفر بين الأعداد لا قيمة له ،هكذا صوّر لنا عدوّه الذي يمتهن قول الزّور بأنّه لا يستحقّ أن يلتفت إليه لأنّه أنزر من لا شيء في العدد بل صورته دون المعدوم ،إنّ أبا تمام مشغوف كثيرا بهذا التّعبير فقال مخاطبا نفسه :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الدَّهْرَ يُمْهِلُنِي حَتَّى أَرَى أَحَدًا يَهْجُوهُ لاَ أَحَدُ.[253]

إنّ من يتجرّأ عليه بالهجاء يجب أن يكون في صورة منحطّة كالمعدوم أو مثل الجماد الذي لا يعقل لانعدام الإحساس والشّعور فيه.

طرفا المقايسة في هذا الجانب هما بيت أبي تمام والمتنبي، نقوم بتحديد عناصر التشاكل والتّباين الموجودة لتتّضح لنا نتيجة المقايسة كما يلي:

التشاكل الذي يجتمع في الطرفان هو اشتراكهما في الموضوع أي إخراج المعدوم في صورة الموجود ووجه المناسبة عند أبي تمام أنّ الأعداء الأكفاء هم الذين يعتبر وجودهم ويكون لهم شأن ،أمّا عدوّه الذي يهجوه فجعله لا شيء في العدد بل أقلّ بكثير فبلغ بالمعنى أقصى غاية يحتملها من الاستحقار،ولمّا قصد المتنبي إظهار الخوف والهلع عند الهروب ناسب أن يجعل المعدوم غير المرئيّ في صورة المرئيّ لأنّ المعنى يطلب ذلك ،والمناسبة في البيتين مقبولة غير مردودة وإن كنّا نرى صورة المتنبي أفضل لما يحيط

[251] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج:2،ص:334.
[252] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 424-425 .
[253] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج:2،ص:330.قاله أبو تمام يهجوا عتبة بن أبي عاصم.

بها من عوامل نفسيّة ،كما يمكننا جعل هذه المناسبة علّة في الشّبه وهو الاشتراك في جعل المعدوم موجودا ،وأشرنا سابقا إلى أنّ الغلوّ المرفوض عند حازم ما كان من قبيل المستحيل وهو بعيد في طرفي هذه المقايسة للمناسبة التي ذكرناها عند الشّاعرين.

نلمح صورة التّباين في توظيف المعدوم لدى الشّاعرين فهو شيء عقليّ عند أبي تمام لأنّه موجود في الذّهن مرتبط بالمعدود ،لا يمكن حصوله إطلاقا إلاّ من جهة المعنى المراد ،والغرض الذي دار في فلكه هذا المعدوم هو الهجاء ،بينما نجده عند المتنبي شيئا حسّيا فالمعدوم متعلّق بالرّؤية والمشاهدة الحسيّة والغاية منه البلوغ بالمعنى إلى أقصى غايته فصوّر رعب الفارّين وقلقهم في صورة فنيّة رائعة لا يستهان بها ولا تقبل الجدل ولا تقوّم بالمقايسة كما هو الحال عند محمّد مندور الذي رفضها ونبذ تسليم الجرجاني بعيبها فقال":إنّ تسليمه بهذا النقد والتماسه العذر للبيت يدلّ على انحراف عن فهم المعنى الصّادق في هذا البيت كما أنّه يدلّ على أنّه لم يدرك السّخرية المرة الكامنة في بيت أبي تمام ومثل هذين البيتين لا إفراط فيهما وهما من عيون الشّعر وكذلك الأمر في معظم الأبيات التي ساقها الناقد كأمثلة للإفراط ..وأنّ الجرجاني مخطئ في تسليمه بعيبها ولو أنّ أمرها كان بين يدي ناقد آخر كالآمدي لعرف كيف يذود عنها بدلا من التماس أشباه لها ونظائر".[254]

يبدوا أن الحظّ قد خان هذه المرّة مندور لأنّه يعلم جيّدا أنّ غرض الجرجاني من وساطته ليس الانتصار لأبي الطيّب فبغيته أن يحتمل له ما احتمل لغيره من الأخطاء فالمنهج هو الذي فرض على الجرجاني هذه الأشباه والنّظائر ،ونحن مؤمنون بروعة بيت المتنبي وأبي تمام وبعدهما عن الإفراط والغلوّ للمناسبة التي أشرنا لها سالفا ،وما سنذكره الآن من أدلّة على قبولنا للمبالغة في هذين البيتين .

نلمس الدليل الأوّل في قول الجرجاني مشيرا لصحّة بيت المتنبي":فلم يكترث بالإحالة ،ولم يستقبح أن جعل غير شيء مرئيّا لما استوفى عنده الغاية ولم يبق وراءها مرمى للشّاعر".[255]

[254] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي ؛ ص : 299-300.
[255] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 424

فغاية المتنبي تتمثّل في تجسيده للمعنى بأعلى صورة لا يمكن الزيادة عليها لأنّ الممدوح ملأ الأرض برجاله وخيله فلا مفرّ منه وأنّى لهذا الهارب أن تهدأ نفسه فكلّ شيء حوله حتّى العدم قد يتوهّمه جنديّا يطلبه ،هذه الصّورة لها دليل من القرآن ،يقول تعالى مبيّنا حال المتخلّفين في غزوة تبوك (وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴿١١٩﴾) [سورة التوبة آية 119]؛قال في الكشّاف":وضاقت عليهم أنفسهم أي قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنّها خرجت من فرط الوحشة والغمّ".[256]

وقوله تعالى(وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾[سورة الأحزاب آية 10]،قال القرطبي في تفسيره":أي زالت عن أماكنها من الصّدر حتّى بلغت الحناجر ،وهي الحلاقيم واحدها حنجرة فلولا أنّ الحلقوم ضاقت عنها لخرجت قاله قتادة ،وقيل هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد قال :

إِذَا مَا غَضِبِنَا غضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دمَا.

أي كادت تقطر".[257]

وأقرب آي القرآن مناسبة لاستعمال أبي الطيّب قوله تعالى لسيدّنا زكريّاء عليه السّلام(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٨﴾ [سورة مريم آية 8]،قال الزمخشري "إنّ المعدوم ليس بشيء أو شيئا يعتدّ به ،كقولهم :عجبت من لا شيء ،وقوله :إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا ".[258]

فشيء في بيت المتنبي من باب ما يعبأ به كما في الآية ،وذهب الواحدي إليه أيضا حيث قال":وهاربهم إذا رأى ما ليس بشيء يعبأ به أو توهّم ما ليس بشيء شيئا ظنّه إنسانا يطلبه".[259]

---

[256]أبو القاسم محمود الزمخشري ،الكشف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ؛ ج : 02 ؛ ص : 217.

[257]أبو عبد الله محمّد بن أحمد القرطبي،الجامع لأحكام القرآن، ج :07 ؛ ص : 145.

[258]أبو القاسم محمود الزمخشري ،الكشف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ؛ ج : 04 ؛ ص : 04 .

نلاحظ بعد تأمّل الأدلّة أنّ مبالغة المتنبي لها ارتباط بالواقع من حيث القبول العقلي له كونه شيئا يعبأ به ،نحن على يقين بمعرفة الجرجاني لأساليب العربيّة من خلال القرآن الكريم ،ونعتقد أيضا إحساسه بجمال المعنى وروعته رغم ما فيه من مبالغة ،لكنّ السّؤال المطروح ما هو غرض قياسه على بيت أبي تمام ؟ ولعلّ الإجابة قد تكون في أنّ هذا القياس من باب الأولى فالعلّة المتمثّلة في غلوّ المعنى قبيحة عند أبي تمام لأنّه جعل الموجود معدوما ،وهناك علّة قبيحة أخرى أشار لها عبد القاهر بقوله ":ربّما دعاهم الإيغال وحبّ السّرف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هي أدون منه حتّى يقعوا في ضرب من التهوّس،كقول أبي تمام : وَأَنْتَ أَنْزَرُ مِنْ لاَ شيْءَ فِي العَدَدْ ".[260]

أمّا المتنبي فأراد أن يخرج المعدوم إلى صورة الموجود وهذا هو اللّائق لما يعطيه للصّورة من قيمة فنيّة يجعلها تتفاعل مع النّفس ويصطادها العقل حتّى وهي في عالم الخيال ،عرّف حازم القرطاجني التخيل بقوله":أن تتمثّل للسّامع من لفظ الشّاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها أو تصوّر شيء آخر بها انفعالا من غير رويّة إلى جهة من الانبساط أو الانقباض".[261]

فالشّعر الذي لا يعتمد على التخيل قلّما تتعلّق به نفوس المتذوّقين الذين يستحسنون فيه نوعا من المبالغة على حدّ تعريف صاحب الصناعتين للمبالغة بأنّها "تبلغ بالمعنى أقصى غايته،وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله، وأقرب مراتبه".[262]

الهارب في بيت المتنبي لا يستقرّ له قرار ،ولا يعود ذلك لحالة الخوف والإحباط فقط بل رؤيته غير المرئيات في صور المرئيات ويظنّها رجلا يلاحقه إنّها توحي بكثرة عدّة الممدوح وعدده فلو لم يكن كذلك لما عاش الهارب تلك الصّورة المفزعة والهلع الذي قد أصابه ربّما قد يحرّك يده أو رجله فيتوهّمها

[259] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 03 ؛ ص : 287-288.
[260] عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ؛ ص : 76.
[261] حازم القرطاجني ؛ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ؛ ص : 89.
[262] أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص : 354.

شيئا يلاحقه ويطلبه وعليه"يمكننا القول بأنّ هذا التّصوير إن جاز تسميّته غلوّا فهو ممكن الحدوث من النّاحية النّفسية على الأقلّ ثمّ إنّه لا يتنافى ومناحي العربيّة في التّعبير والصّياغة".[263]

ممّا يرتبط بالصّياغة والتّعبير في جانب المبالغة التقصّي ونقصد به "بلوغ الشّاعر أقصى ما يمكن من وصف الشّيء ،كقول عمر بن الأيهم التغلبي (الوافر) :

وَنُكْرِمُ جارَنَا ما دَامَ فِينَا وَنُتْبِعُهَ الكرَامَةَ حيْثُ كَانَا .

فتقصّى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه ".[264]

يظهر تقصّي أبي الطيّب لمعناه في وصفه حالة الهارب المترقّب المكثر من النّظر والالتفات ،خصّ النّظر من بين الحواس لأنّ الهارب يحسّ بالأمان عندما لا يشاهد شيئا يطلبه ،بيد أنّ المتنبي لم يرد له الاطمئنان بحال فلو رأى غير الموجود لخافه ،حمل بعض أنصار المتنبي رَأَى على رؤية القلب وقالوا بأنّه أراد التوهّم وقالوا "غير الشّيء يجوز أن يتوهّم ومثله كثير ".[265]

وحاصل هذه المقايسة وما أتبعناه فيها مناقشة هو براءة المعنى من الغلوّ المفرط بل هو من روائع شعره وأبكار إبداعه لما بيّناه سابقا من الوجوه.

إنّ مقايسة الجرجاني صحيحة إذن إذا راعينا الإلزام الذي أخذه على نفسه فهو لا يبتّ حكما ولا يفصح برأي وإنّما غايته التوسّط ،هذا التوسّط الذي يمكن توسيع دائرته بقياس الأشباه والنّظائر وهو موجود معتبر في الوساطة حيث قام بسرد أبيات للشّعراء الفحول وقعوا في الإفراط المقيت والمبالغة المستحيلة ،من ذلك قول الأعشى:

لَوْ أَسْنَدتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ.[266]

[263] عثمان موافي ؛ الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص :163.
[264] ابن رشيق ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص : 05.
[265] حسين الواد ؛ المتنبي والتجربة الجماليّة عند العرب ؛ ص : 249.
[266] الأعشى ؛ الديوان ؛ ص : 113.(قاله في مدح عامر بن الطفيل ويهجوا علقمة بن علاثة).

يظهر الغلوّ في هذا البيت كونه مناقضا للواقع الحسّي المشاهد ،فلا الواقع يقبله ولا العقل يستسيغه إلاّ في حقّ الأنبياء عليهم السّلام فيصدّقه العقل ويكون من قبيل المعجزات ،أمّا عودة الحياة بمجرّد إسناد الميت لنحر هذه المرأة فهذا ما لا يتصوّر في العقل حدوثه فضلا أن يكون له شاهد من الواقع فهل سقط الأعشى عن رتبته بهذا الغلوّ وهل سقط شعر زهير حينما قال:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لنَرْجُوا فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا .[267]

يفخر زهير بقومه الذين بلغ مجدهم عَنَانَ السّماء وهو يرجوا أن يتجاوز هذا الحدّ وهل عرفوا مكانا أعلى من السّماء حتّى يرجوه لقومه اللّهمّ إلاّ الجنّة أو النّار ،أليس غلوّ زهير فاحشا وإفراطه متزايدا وهل ردّ شعر بشّار لأنّه قال:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حتَّى إِنَّهُ لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لَمْ تُخْلَقِ.[268]

عابه النقاد بأنّ الخوف يصيب النّفوس الحيّة وترتعد منه الأعضاء ،فكيف يصيب ذلك النّطف التي في الأرحام ،بينما رأى البعض لهذا المعنى اعتبارا في الواقع وذلك لأنّ الخوف يصيب خلايا الإنسان جميعها إذ من الممكن تصوّر حدوثه عقليّا ونفسيا وذلك لأنّ "الخوف انفعال نفسي يؤثّر على مشاعر الإنسان وأعضاء جسمه وما يحتويه من خلايا وكائنات حيّة دقيقة كالنّطف التي في الأصلاب والأرحام ويظهر أنّ أبا نواس كان يستشعر حقيقة هذا المعنى في أعماق نفسه ولذا نجده يستعمله مرّة أخرى في مدح الممدوح نفسه فيقول:

حَتّى الذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانِ.[269]".[270]

بمثل هذا الغلوّ صوّر لنا أبو نواس الخليفة العبّاسي الرّشيد ،ونرى ما ذهب إليه عثمان موافي من أنّ لهذا الغلوّ وجوها تحتمله لا يحتملها غلوّ الأعشى أو زهير.

---

[267] زهير بن أبي سلمى ،الديوان ،أبو العبّاس ثعلب ،تحقيق : فخر الدّين ،دار الآفاق ،بيروت ،الطّبعة الأولى :1402ه-1982م ، ص : 52.
[268] بشار بن برد ؛ الديوان ؛ ج:4،ص: 136.
[269] بشار بن برد ؛ الديوان ؛ ج:4،ص: 133.
[270] عثمان موافي ؛ الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص :160.

اعتمد القدماء في ردّهم الغلوّ والإفراط على قياسه بممكنات الوجود ومتصوّرات العقول فقبلوا منه ما انسجم معهما وحكموا على صاحبه بالكذب والإحالة وفي المقابل راعوا حسناتهم وإجادتهم في المعاني الأخرى التي أبدعوا فيها ،لكنّ خصوم المتنبي آخذوه بالأخطاء ولم يلتفتوا لمحاسنه في غير ذلك كما فعلوا مع غيره من الشّعراء ،فردّ عليهم الجرجاني بمنطق لا يسع العاقل ردّه وإنكاره فثبت بالبرهان قولنا :"كلّ شاعر أفرط في المعنى وكلّ من أفرط في المعنى يخطّأ تكون النتيجة :"كلّ شاعر يخطّأ ،وصور الخطأ كثيرة ذكرنا منها غلوّ المعنى ونشير الآن للتّعقيد والغموض فيه.

ثانيا: التعقيد والغموض.

ينشأ الغموض غالبا من تعقيد العبارة ،وعندما يصيب المعنى غموضا فإنّ المتلقّي يرتاب في فهمه وتتوعّر السبل في فهمه ،التّعقيد يصيب الألفاظ ،والغموض يصيب المعنى ،نبيّن مفهوم التّعقيد ثمّ نشير لموقف النقاد منه عموما والجرجاني خصوصا من خلال مقايسته في ذلك .

جاء في القاموس"المعقّد:الغامض من الكلام "[271]،ويقال "عقّد كلامه:أعوصه وعمّاه ،وكلام معقّد أي مغمّض".[272]

أمّا في الاصطلاح فالمعقّد "هو الكلام الذي يحتاج إلى جهد في تقريب في المعنى ".[273]

ويتفاوت هذا الجهد حسب درجة التّعقيد، والشّعر يعتمد على اللّغة كوسيلة لتحقيق آليّة التواصل، فلا بدّ من مراعاة ما يقتضيه المعنى النّحوي، لتكون المعاني مترابطة مع بعضها يسهل فهمها ويستنطق معناها من التّركيب بوضوح .

يؤدّي الكلام وظيفة الإخبار والإبلاغ والإقناع ،لا تحقّق هذه الوظائف غايتها إلاّ بوضوح الدّلالة ونأيها عن التّعقيد الذي يجعل المعنى في حضيض الإغراب والعجمة ،ولابدّ من الالتزام بمبدأ وضوح المعاني وتقريبها من الفهم ،يقول عبد القاهر":وأمّا التّعقيد فإنّما كان مذموما لأجل أنّ اللّفظ لم يرتّب

[271] الفيروز آبادي ؛القاموس المحيط ؛فصل العين ،باب : الدّال ؛ ص : 324.
[272] ابن منظور ؛ لسان العرب ؛ ج :03 ؛ ص : 304.
[273] أحمد مطلوب؛ معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها؛ مكتبة لبنان؛ (د، ط):2000م.ص: 633.

التّرتيب الذي بمثله تحصل الدّلالة على الغرض حتّى احتاج السّامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى له من غير طريق".[274]

يؤكّد عبد القاهر على ضرورة الالتزام بالمعنى النّحوي لتتّضح الدّلالة أكثر ويكون المعنى متناولا من طرقه التي توصل إلى فهمه ،فالخلل في تركيب الألفاظ ينعكس سلبا على المعنى فينشأ بذلك الغموض فيه ويتولّد الاصطدام المعرفي مع المتلقّي لتكون نتيجة ذلك الإعراض عنه وطرحه .

بدأ الجرجاني حديثه عن التّعقيد والغموض مقرّا بوجودهما واستناد الشّعراء عليهما،لكنّه لم يبيّن موقفه بالاستحسان أو الرّفض ،فغايته من ذلك إنصاف أبي الطيّب ممّا اتّهمّ به منهما فقام بسرد شواهد من شعر المحدثين وذكر ولوعهم وافتتانهم باستعمالهما كأبي تمام الذي لم تسلم له قصيدة إلاّ وفيها تعقيدا أو غموضا ،يقول الجرجاني في ذلك ":ولو كان التّعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيتٌ واحد ؛فإنّا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التّعقيد حظّهما وأفسد به لفظهما ولذلك كثر الاختلاف في معانيه ،وصار استخراجها بابا منفردا ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب ".[275]

هذا النصّ سنعتمد عليه فيما بعد كنتيجة للمقايسة في جانب التّعقيد ، لم يكتف بالتّمثيل على ذلك بأبي تمام بل وسّع دائرة الحديث ليشمل جميع الشّعراء حيث قال":وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلاّ ومعناه غامض مستتر ؛ولولا ذلك لم تكن إلاّ كغيرها من الشّعر ؛ولم تفرد فيها الكتب المصنّفة وتشغل باستخراجها الأفكار الفارغة".[276]

[274] عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ؛ ص : 139.
[275] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 417.
[276] المصدر السابق ؛ ص : 417.

يربط الجرجاني ظاهرة التّأليف في أبيات المعاني بما لمسه النقاد من تعقيد وغموض ،والمقصود بأبيات المعاني ما يرجع معناها إلى"الأبيات التي يوهم ظاهرها خلاف معانيها أو اختلال معانيها فإذا أجيد تأمّلها عرف مقصود قائلها وظهرت لها معانٍ صحيحة".[277]

نلاحظ أنّ الاختلال في المعنى الذي ينشأ من تعقيد التّركيب قد يدرك عند التّأمل وبذلك اعتبروا التّعقيد والغموض جنسا من أجناس الشّعر إذا كان بذلك المعنى .

تجاذب هذه الظّاهرة في نقدنا العربيّ القديم تيّاران نقديان ،رأى الأوّل ضرورة الالتزام بوضوح المعنى وذلك من خلال ترتيب الوحدات الكلاميّة مع دلالاتها الوضعية فيراعى ما له الصّدارة والتّقديم ويهتمّ بالقرائن في صرف الحقيقة للمجاز ،مثّل هذا الاتّجاه عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي الذي أشار إلى أنّ "المحمود من الكلام ما دلّ لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولم يكن خافيا مستغلقا كالمعاني التي وردت في شعر أبي الطيّب ".[278]

لأنّ عدم إدراك المعنى المستغلق يجعل الصورة غير واضحة المعالم ،ويرجع عدم إدراكه إلى وجود اللّفظ الحوشي المهجور أو التراكيب الملتوية وبذلك لا يؤدّي الكلام غايته التي وضع لها وهو تبيين المراد من وضعه ،يقول عبد القاهر مبيّنا رفض التعقيد الخالي من الإبداع قائلا ":لأنّه يتعبك ثمّ لا يجدي عليك ويؤرّقك ثمّ لا يروق لك".[279]

أمّا الموقف الثّاني فيمثّله فريقان من القدماء يرى أحدهما في التّعقيد والغموض أمرا شائعا في الشّعر واعتباره جنسا من أجناسه ،وعلى رأس هؤلاء صاحي الوساطة الذي قال في معرض حديثه عنه ":لم نجد شاعرا أشمل للإحسان والإصابة والتّنقيح والإجادة شعره أجمع بل قلّما تجد ذلك في القصيدة

[277] عبده عبد العزيز قلقيلة ،أبيات المعاني في شعر المتنبي،دار الفكر ،القاهرة ؛(د،ط) ؛1999م ؛ ص : 09 .
[278] ابن سنان الخفاجي ،سر الفصاحة ؛تحقيق :فؤاد دوّار ؛القاهرة ؛ الطبعة الأولى ؛(د،ت) ؛ ص : 242.
[279] عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ؛ ص : 230.

الواحدة والخطبة الفردة ولا بدّ لكلّ صانع من فترة والخاطر لا تستمر به الأوقات على حال ولا يدوم في الأحوال في نهج".[280]

فالشّاعر قد يجيد فيه ويخفق كغيره من الأجناس الشّعريّة التي تتفاوت في الجودة والرّداءة ،أمّا الفريق الآخر فذهب إلى استحسان المعقّد والغامض على غيره ولكنّهم"لم يمتدحوا منها الغلق الذي إذا تفحّصته لم تحصل منه على معنى رائق أو غريب مستطرف ،وإنّما استحسنوها لأنّها مهما قلّبت فيها النّظر على وجوهه تفتّقت على المعاني العديدة والدّلالات الحسنة ،فكانت بمثابة المنجم الذي لا ينضبّ معينه ،لهذا كان أنصار التّعقيد والغموض في الشّعر كثيرا ما يمتدحون أبياتا قليلة منها ويردّون أبياتا أخرى كثيرة لم يحسن أصحابها صنعها".[281]

إذا انطوى التّعقيد -عند هؤلاء-على معاني مولدّة نتج من تقليب الكلام على ما يقتضيه من وجوه معاني النّحو فهذا تمام الإبداع وغاية الكمال ،ومن أبرز روّاد هذا الاتّجاه قدامة بن جعفر حيث قال ":إنّ الغلوّ عندي أجود المذهبين ،وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشّعر والشّعراء قديما ،وقد بلغني عن بعضهم أنّه قال : أحسن الشّعر أكذبه ".[282]

وبيّن عبد القاهر المقصود من قولهم "خير الشّعر أكذبه" أنّهم "لا يريدون كلاما غفلا ساذجا ويكذب فيه صاحبه ويفرط ،نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ويقول للبائس المسكين :أنت أمير العراقين ".[283]

وإنّما جنحوا إلى"أنّ الصّنعة إنّما تمدّ باعها ،وتنشر شعاعها ويتّسع ميدانها ،تتفرّع أفنانها حيث يعتمد الاتّساع والتّخييل ،ويدعى الحقيقة فيما أصله التّقريب والتّمثيل ،وحيث يقصد التلطّف والتّأويل

[280](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 61.
[281] حسين الواد ؛ المتنبي والتّجربة الجماليّة عند العرب ؛ ص : 282.
[282] قدامة بن جعفر ؛ نقد الشّعر ؛ ص : 35-36.
[283] عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ؛ ص : 253.

ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذمّ والوصف والنّعت والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ،وهنا يجد الشّاعر سبيلا إلى أن يبدع ويبدي في اختراع الصور ويعيد".[284]

إنّ الشّاعر يجد في الغلوّ مرتعا لأفكاره محسّا بإعجاب المتذوّق وتقبّله فيبتعد بذلك عن مسلّمات الحياة ومعقولاتها الظّاهرة ويستعذب الغلوّ لأنّ وقعه في النّفس أبين وأثره في المعنى أبلغ وأحسن ولولا ذلك لما كان للشّعر فائدة تستقطب المتذوّقين له .

قسّم الجرجاني الغموض إلى قسمين:

أ-غموض الألفاظ وغرابتهما وانعكاسه على المعنى، هذا القسم ليس مقصودا بالدّراسة والاهتمام لأنّه يتبيّن مراده بالرجوع إلى المعاجم والقواميس.

ب-غموض المعنى مع وضوح الألفاظ :مثّل له الجرجاني بقول الأعشى:

إذَا كَانَ هَادي الفَتَى في البِلاَ دِ صَدْرَ القنَاة أطَاعَ الأمِيرَ.[285]

"إنّ هذا البيت كما تراه سليم النّظر من التّعقيد ،بعيد اللّفظ عن الاستكراه ،لا تشكل كلّ كلمة بانفرادها على أدنى العامّة فإذا أردت الوقوف على مراد الشّاعر فمن المحال عندي ،والممتنع في رأيي أن تصل إليه إلاّ من شاهد الأعشى بقوله ....وإلاّ فمن يسمع بهذا البيت فيعلم أنّه يريد:أنّ الفتى إذا كبر فاحتاج إلى لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه، واستسلم لقائده، وذهبت شرّته".[286]

يمكننا أن نحمل تعقيد المتنبي الذي سنبيّنه لاحقا على بيت الأعشى من باب قياس الأولى لأنّ العلّة في الأصل أقبح منها في الفرع وهي غموض المعنى مع وضوح اللّفظ.

فمن أمثلة الغموض الفاحش مع تعقيد اللّفظ ما جاء فيقول المتنبي:

---

[284] المصدر السّابق ؛ ص : 251.
[285] الأعشى ؛ الديوان ؛ ص : 91.
[286] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :418.

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ .[287]

قال الجرجاني على لسان المعترض ":كيف يحتمل له اللّفظ المعقّد ،والترتيب المتعسّف لغير معنى بديع يفي شرفه وغرابته بالتّعب في استخراجه وتقوم فائدة الانتفاع بإزاء التأذي باستماعه ...ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة ،والتّعقيد المفرط ،فيشكّ أنّ ورائها كنزا من الحكمة ،وأنّ في طيّها الغنيمة الباردة حتّى إذا فتّشها وكشف عن سترها وسهر ليالي متوالية فيها حصل على أنّ ":وفاءكما يا عاذليّ بأن تسعداني إذا درس شجاي ،وكلّما ازداد تدارسا ازددت له شجوا ؛كما أنّ الرّبع أشجاه دارسه".

فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة اللّفظ ،وبهاء الطّبع ورونق الاستهلال ويشحّ عليها حتّى يهلهل لأجلها النّسج ،ويفسد النّظم ،ويفصل بين الباء ومتعلّقها بخبر الابتداء قبل تمامه ،ويقدّم ويؤخّر ،ويعمّى ويعوّص".[288]

لا يجيز النحاة أن يتعلّق بالمبتدأ شيئا بعد الإخبار عنه ومجيئه هنا من قبيل الضّرورة القبيحة ،فقوله :بأن تسعدا تعلّق بالمبتدأ الذي هوّ وفاؤكما" ،فمعنى البيت "إنّ وفاؤكما بأن تساعداني على البكاء كهذا الرّبع ،فإنّ الرّبع كلّما تقادم عهده كان أشجى لزائره وأشدّ لحزنه لأنّه لا يتسلّى به المحبّ وكذلك وفاؤكما كلّما ضعف وقلّ إسعادكما لي على البكاء اشتدّ حزني إذ لا أحد من أتسلّى به ،ثمّ قال :والدّمع أشفاه ساجمه كأنّه يقول:إنّ لي العذر في البكاء أمّا أنتما فخليّان ،إذ لو كنتما محزونين مثلي لاستشفيتما بالدّمع كما هو شأن المحزون مثلي يريد ابكيا معي بدمع في غاية السجوم فهو أشفى للوجد فإنّ الرّبع في غاية الطسوم وهو أشجى للمحبّ".[289]

نلاحظ أنّ سبب التّعقيد اللّفظي هو التّقديم والتّأخير،ويكاد يكون معنى البيت متقاربا مثلما أشار له ابن جنّي بقوله":كنت أبكي الرّبع وحده فصرت أبكي وفاءَكما معه ،ولذا قال وفاؤكما كالرّبع:أي كلّما ازددت بالرّبع وبوفائكما وجْدا ازددت بكاءً،ويروى والدّمعِ بالجرّ عطفا على الربع وعلى هذا

[287] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 43.
[288](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 98.
[289](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 43.

يكون المعنى وفاؤكما كالربع الدارس في الأدواء إذا لم تجريا عليه الدمع الساجم وفي الشفاء إذا أجريتما عليه".[290]

ونظرا لهذا التّعقيد الغامض قال العميدي (ت433هـ)":واللّه لو أقد الإنسان ألف شمعة يستضيء بنورها إلى استنباط غوامض هذا البيت مع قلّة الفائدة فيه لصعب عليه ".[291]

لذلك سلّم الجرجاني بتعقيد البيت وهو ما نذهب إليه أيضا ،ثمّ قاسه على أشباهه من شعر المتقدّمين حيث قال ":ومتى وجدتك تحتمل للفرزدق قوله :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ.[292]

...وأنت لا تجد في شعر أبي الطيّب بيتا يزيد معناه على هذا الغموض أو تتعقّد ألفاظه تعقّد أبيات الفرزدق ".[293]

طرفا المقايسة هما بيت المتنبي والفرزدق لاشتراكهما في علّة واحدة هي تعقيد اللّفظ وغموض المعنى هذا من حيث عموم الاشتراك ،فعلّة الفرزدق أقبح من وجهين آخرين ،وعليه فالعلل ثلاثة ذكرها ابن رشيق واعتبرها من أسباب الإشكال وهي":التّغيير عن الأغلب كالتقديم والتّأخير وما أشبهه وسلوك الطّريق الأبعد وإيقاع المشترك ،وكلّ ذلك اجتمع في بيت الفرزدق :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ.[294]

فالتّغيير عن الأغلب سوء التّرتيب ،لأنّ التقدير :وما مثله في النّاس حيٌّ يقاربه إلاّ مملكّا أبو أمّه أبوه يريد بالمملّك هشام بن عبد الملك ،والممدوح هو إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك ،وأمّا

[290] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 43.
[291] العميدي، الإبانة عن سرقات المتنبي،تحقيق:إبراهيم الدسوقي البساطي ،دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثانية ، (د،ت) ؛ ص : 96.
[292] الفرزدق ؛ الديوان ؛ ص : 56.
[293] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :419.
[294] الفرزدق ؛ الديوان ؛ ص : 211

سلوك الطريق الأبعد فقوله :أبو أمّه أبوه وكان يجزئه أن يقول :خاله ،وأمّا المشترك فقوله:حيّ يقاربه لأنّها لفظة تشترك فيها القبيلة والحيّ من سائر الحيوان بالحياة ".[295]

موضع التّناظر بين البيتين هو الاشتراك في سوء التّرتيب أو التّغيير عن الأغلب كما رأينا ذلك عند الفرزدق من خلال نصّ ابن رشيق ،أمّا عند المتنبي فهو ما أشار إليه الجرجاني بقوله ":لو احتمل الوزن ترتيب الكلام على صحّته فقيل :وفاؤكما بأن تسعدا أشجاه طاسمه كالرّبع".[296]

فصل المتنبي بين المبتدأ ومتعلّقه بعد الإخبار عنه والفرزدق أيضا فصل بين المبتدأ والخبر لكنّ فصل المتنبي أقبح لأنّه لا يتعلّق بالمبتدأ شيء بعد الإخبار عنه .

أمّا الفروق بينهما أي شكل التباين فيظهر في زيادة سبيْ الإشكال في سلوك الطّريق الأبعد واللّفظ المشترك عند الفرزدق ،هذا ما عناه الجرجاني بقوله ":أو تتعقّد ألفاظه تعقّد أبيات الفرزدق" ،وقوله أيضا "وأنت لا تجد في شعر أبي الطيّب بيتا يزيد معناه على هذا الغموض ".[297]

وكنتيجة لهذه المقايسة نستخلص أنّ النقاد لم يكونوا منصفين عندما حاولوا إخراج المتنبي من دائرة الشّعراء لهذا التّعقيد اللّفظي الذي وقع فيه فالمنطق يلزمنا أن نحكم عليه كغيره من الشّعراء وأنّ تفاوت الشّعر بين الجودة والرّداءة حقيقة فنيّة ومسلّمات علمية فجلّ من بلغ غاية التّمام والكمال ولكلّ إنسان مهما علا شأنه هفوات وعثرات فنوازن محاسنه بمساوئه ثمّ نحكم على الأكثر منهما .

إنّ الغاية المطلوبة من إجراء المقايسة ليس قياس الأخطاء بما شابهها بل للتّدليل على اشتراك الشّعراء جميعهم فيها ،وعملا بما يقتضيه القياس المنطقي الذي يقرّ بأنّ :كلّ غلوّ غامض وكلّ غامض مرفوض النتيجة هي :كلّ غلوّ مرفوض ،وعندما نرفض جزءا معيّنا لا يعني إباحة رفض جميع الشّعر تحقيقا لمبدأ المقاصّة الذي قال به الجرجاني ولو كانت غايته الذود عن المتنبي لما أكثر من قوله في الوساطة

[295] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص : 199.
[296] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 98.
[297] المصدر السّابق ؛ ص : 419.

"إنّه ليس بغيتنا الشّهادة لأبي الطيّب بالعصمة ،ولا مرادنا أن نبرّئه من مفارقة زلّة ،وإنّما غايتنا فيما قصدناه أن نلحقه بأهل طبقته ،ولا نقصّر به عن رتبته ،وأن نجعله رجلا من فحول الشّعراء".[298]

وفحول الشّعراء لهم محاسن فنيّة وقصائد شعريّة جمعت الغثّ والسّمين وضمّت في طيّاتها ما استحسنه الطّبع وفي المقابل فيها ما يمجّه أيضا ويرفضه.

من بين القضايا المرتبطة بالغموض ما جاء من المعاني التي حملت فسادا عقائديّا وخروجا عن محاسن الأخلاق أو الأبيات التي لم يراعى فيها قضيّة الالتزام ،اتّهم المتنبي بفساد عقيدته ومجون آرائه وكثرة تعدّيه على الأعراف والأخلاق طلبا لإقصائه وحاجة في نفس يعقوب طمح إليها خصومه ومن سار على دربهم من عامّة النّقاد الذي اتّبعوا سبيلهم على سبيل التّقليد ولو تمعّنوا في طبيعة الفنّ وما يقتضيه الفهم لعلموا أنّ الشّعر لوحة يرسمها الفنّان نتفاعل معها لنكشف مدى ما تدلّ عليه وغاية ما تهدي إليه أو لنقل هل المهمّ في الصّناعة السّلعة وقيمتها أم البحث عن عقيدة الصّانع ومدى التزامه بالأخلاق والأعراف.

نقوم الآن بكشف طريقة المقايسة في جانب غموض المعنى المرتبط بالدّين والأخلاق،لنقف على مدى قدرة المقايسة على تحقيق أهدافها في ذلك الجانب ،وقام الجرجاني بتحديد موقفه منذ البداية حيث أقرّ بفصل الشّعر عن الدّين وأنّه لا سبيل لتحكيم المعايير الدينيّة في تقويم الشّعر.

فمن جملة ما اتّهمّ به المتنبي من فساد العقيدة قوله في صباه (من الخفيف):

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلى مِنَ التَّوْحِيدِ.[299]

لفظ التّوحيد من قبيل المشترك فيطلق على أمارته وهو قولنا:لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ،كما يطلق على معاني أخرى ،فعلى المعنى الأوّل قال الواحدي مشيرا للمعنى الموجود في بيت أبي الطيّب "كنّ

[298]السابق ؛ ص : 416.
[299](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص : 40.

يمصمص ريقي لحبهنّ إيّاي ،فكانت الرّشفات في فمي أحلى من كلمة التّوحيد ،وهي لا إله إلاّ الله وهذا إفراط وتجاوز حدّ".[300]

وعلى المعنى الآخر قالوا":للتّخلص من هذه المبالغة المفرطة إنّ التّوحيد نوع من ثمر العراق".[301]

نلاحظ أنّ سبب الغموض في المعنى ناجم عن الاشتراك، فمن رأى التّوحيد بمعنى الدّين أوقع المتنبي في المؤاخذة، ومن رآه بأنّه نوع من الثّمر فليس هناك اعتراض.

ومن خلال وقوفنا على الوساطة وجدنا الجرجاني يستدلّ ببيت شعري أوقع الاشتراك اللّفظي غموضا في معناه وهو قول تميم ابن مُقْبل :

يَا دَارَ سَلْمَى خَلَاءً لَا أُكَلِّفُهَا إِلاَّ المرانَةَ حَتَّى تَعْرِفَ الدِّينَا.

قال القاضي ":إنّ الذي خالف بين أقاويلهم فيها هو أنّهم لم يعرفوا المرانة فقال قائل:هي ناقته ،وقال آخر :هي موضع دار صاحبته ،وقال آخر إنّما أراد الدوام والمرونة ".[302]

نحمل قول المتنبي عليه ونراهما من باب الحمل على النّظائر لتشابههما في وجه واحد وهو الاشتراك الذي تسبّب في غموض المعنى واحتمل أكثر من وجه ،وكما احتمل بيت ابن مُقبل ثلاثة معاني فبيت أبي الطيّب لم يخرج عن معنيين ،لكن قد يقول قائل :أنا لا أسلّم بأنّ التّوحيد نوع من الثّمار فنجري المقايسة على تسليمنا بفساد الاعتقاد كما يلي :

اعتمد الجرجاني على قياس الأشباه والنّظائر وحمل فساد عقيدة المتنبي على قول أبي نُواس:

قُلْتُ وَالكَأسُ عَلى كَـ قَـيَّ تَهوَى لالتِثامي.

أَنَا لاَ أَعْرِفُ ذَاكَ الْـ يَوْمَ فِي ذَاكَ الزِّحَامِ.[303]

[300] المصدر السابق ؛ج : 02 ص : 40.
[301] السابق ؛ج : 02 ص : 40.
[302] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 417.
[303] عليّ فاعور؛ ديوان أبي نواس ؛ ص : 455.

فهذا أنكر معلوما من الدّين بالضّرورة فكفره واضح،والمتنبي وقع فيه لاستهزائه بالدّين فقابل بين مصّ الحبيبة لريقه وجعله ألذّ من كلمة التّوحيد وهذا استهتار بيّن ،يمكن درأه لوجود الشّبهة فيه وهي أنّ ترشّف ريق الحبيبة يحتمل معنى موجود في الثمر ،لكنّ هذا القياس مرفوض عند من لا يسلّم بالعلّة وهي فساد عقيدة الشّاعرين ،ومن شرط العلّة أن تكون مسلّمة عند الخصمين ليصحّ الاستدلال،ومن قواعد الفقهاء "قاعدة :درأ الحدود بالشّبهات" ،تتجلّى صورة القاعدة في محاولة أنصار المتنبي التماس المخرج له فقالوا بأنّ رواية البيت":هُنَّ فِيهِ حَلاَوَةُ التَّوْحِيدِ" ،قال ابن جنّي ":يروى أنّ المتنبي أنشده هكذا".[304]

أي :حَلاَوَةُ التَّوْحِيدِ ،بمعنى هي عندي مثلَ حَلاَوَةُ التَّوْحِيدِ ،فحذف المضاف ورفع ،ولعلّ الجرجاني لم تبلغه هذه الرّواية لذلك لم يشر إليها.

أمّا الذين حكّموا المعيار الدّيني فيجابهون بهذا السّؤال :كيف احتملتم ذلك لأبي نواس وقبلتم شاعريّته ورفضتم شعر أبي الطيّب المتنبي ؟.

ثمّ أشار الجرجاني لنتيجة المقايسة قائلا ":غايتنا فيما قصدناه أن نلحقه بأهل طبقته ولا نقصّر به عن رتبته ،وأن نجعله رجلا من فحول الشّعراء ،ونمنعك عن إحباط حسناته بسيّئاته ،ولا نسوّغ لك التحامل على تقدّمه في الأكثر بتقصيره في الأقلّ".[305]

وسّع الجرجاني من دائرة المقايسة لتشمل الشّعراء جميعا خصوصا أهل الجاهليّة الذين عرفوا بفساد الدّين والأخلاق كامرئ القيس فلو كان هذا المقياس معتبرا في تقويم الشّعر لرفضنا بذلك شعرهم وهذا لم يقل به أحد لأنّ اللّغة منهم استقاها العلماء واستعانوا بها على فهم نصوص الوحي ،هذا ما دفع بالقاضي أن يعجب ويقول":والعجب ممّن ينقص أبا الطيّب ويغضّ من شعره لأبيات وجدها تدلّ على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الدّيانة ".[306]

[304] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص : 40.
[305] المصدر السابق ؛ ص : 416.
[306] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 63.

ثمّ قال أيضا":فلو كانت الدّيانة عارا على الشّعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخّر الشّاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدّواوين ،ويحذف ذكره إذا عدّت الطّبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمّة عليه بالكفر ،ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبَعرى وأضرابهما ممّن تناول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبِكَاء مفحمين ،ولكنّ الأمرين متباينان ،والدّين بمعزل عن الشّعر".[307]

لأنّ الشّعر مبنيّ على التخيل والمبالغة،والطّابع العلمي يفرض تطبيق المقاييس الفنيّة والعلمية لكشف بلاغة النصّ وما فيه من أدب وحكمة فغاية الفنّ هي الجمال واللّذّة ،يقول عبد القاهر في ردّه على من تعلّق بذمّ أحوال الشّعراء ":وأمّا التعلّق بأحوال الشّعراء بأنّهم قد ذمّوا في كتاب الله تعالى فما أرى عاقلا يرضى به أن يجعله حجّة في ذمّ الشّعر وتهجينه والمنع من حفظه وروايته والعلم بما فيه من بلاغة وما يختصّ به من أدب وحكمة ذاك لأنّه يلزم على قود هذا القول أن يعيب العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهليّة في تفسير القرآن وفي غريبه وغريب الحديث ".[308]

هذا الذي قرّره صاحب الوساطة بقوله "فإن احتمل فللكلّ وإلاّ ردّ على الجميع" لذلك لم يعتبر ابن سلاّم المقياس الديني في طبقاته فبدأ بأشعر الشّعراء امرئ القيس ،كما أنّ الأصمعي قد لاحظ أنّ الشّعر إذا روعي فيه الأخلاق لان ولذلك"حاول الأصمعي أن يمنح صفة الفحولة لمن يستحقّها من الشّعراء فحاتم الطّائي وعروة بن الورد ليسا بفحلين وإن كانا شاعرين كريمين وعنترة شاعر فارس وليس بفحل وتظهر محنة الأصمعي في محاولته منح صفة الفحولة لشعراء مسلمين لأنّه لا يستطيع تجاهل التوجّه الإسلامي في عمليّة الحكم فدهب يحكم بالمعيارين الفنّي والأخلاقي معا حيث كان يثبت صفة الفحولة لبعض الشّعراء وفي الوقت نفسه يؤخّرهم عن رتبتهم بفعل المعايير الدّينيّة والأخلاقية".[309]

---

[307] المصدر السابق ؛ ص : 64.
[308] عبد القاهر الجرجاني ؛ دلائل الإعجاز ؛ ص : 27.
[309] كامل يوسف عتوم ؛ الفصل بين الشعروالدين في التراث النقدي عند العرب ،المجلّة الأردنية في اللّغة العربيّة وآدابها ؛المجلد :03 ؛عدد :02 ؛ربيع الأوّل :1428ه-2007م، ص: 26.

يمثّل الأصمعي الفرقة التي تأرجحت بين تحكيم المعيار الفنّي فقط أو تلك التي حكّمت المعيار الأخلاقي مع تقرير الأصمعي نظريّا "أنّ الشّعر يضعف إذا دخل من باب الدّين والخير حتّى إذا حان وقت التّطبيق نفرت من كلّ شعر يخرج على قيم الدّين ومواصفات الأخلاق".[310]

وتبقى جدليّة تحكيم المقياس الدّيني من عدمه قائمة بين النقاد وإن كنّا نرى رأي الجرجاني في ضرورة فصل الشّعر عن الدّين للأدلّة التي أشرنا لها في الفصل الثّاني في المبحث الرّابع ،نواصل رحلتنا مع الجرجاني وما مثّل به على ضعف عقيدة المتنبي من ذلك قوله يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوي

وَأَبْهَرُ آيَاتِ التِّهَامِيِّ أَنَّهُ أَبُوكُمْ وَأَجْدَى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ.[311]

أشار البرقوقي لمعنى البيت قائلا ":إنّ أبهر آيات النبيّ أنّه أبوك وكونه أباك هو أجدى مناقبكم معشر الفاطميين ،أو هو إحدى مناقبكم الكثيرة –على رواية إحدى بدل أجدى-وروى بعضهم البيت هكذا :وَأَكْبَرُ آيَاتِ التِّهَامِيِّ آيَةً ،أبوك يعني أنّ عليّ بن أبي طالب أبا الممدوح هو أكبر آيات سيّدنا رسول الله ؛وهو حسن لو كانت الرّواية صحيحة".[312]

رفع المتنبي من قيمة الممدوح وشرفه وجاوزها على قدر رسول الله عليه الصّلاة والسّلام ومنزلته ،وهذا من الاستهزاء بالدّين فأبناؤه عليه السّلام هم الذين شرفوا بالانتساب له لا العكس ،كما أنّ أبهر آياته القرآن الذي وقع به التّحدي ،يقول ابن جنّي مبيّنا غموض البيت":قد أكثر النّاس القول في هذا البيت ،وهو في الجملة شنيع الظّاهر وقد كان يتعسّف في الاحتجاج له والاعتذار منه بما لست أراه مقنعا ،ومع هذا فليست الآراء والاعتقادات في الدّين ممّا يقدح في جودة الشّعر ورداءته ".[313]

ألغى ابن جنّي المعيار الديني ولم يره مقياسا لتقويم الشّعر ،وبه قال الجرجاني كما سبق لذا فمقايسته في هذا الجانب هي من قبيل حمل بيتيْ المتنبي السّابقين وبيت أبي نواس على ما شابههما من الشّعر

[310] أحمد صبره، نجوى محمود حسين، دراسات نقدية نقد تطبيقي، دار المعرفة الجامعية، مصر،الطّبعة الأولى :2002م ،ص : 29.
[311] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 01 ؛ ص : 281.
[312] المصدر السّابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 282.
[313] السّابق ؛ ج : 01 ؛ ص : 282

الذي خرج عن الدّين والأخلاق من شعر الجاهليين ،والشّبه في ذلك فساد الدّين وعلّة الكفر صريحة فيهما إلاّ أنّها أقبح في معنى أبي الطيّب لاستهتاره بالدّين وسخريته منه ،أمّا أبو نواس فأفصح باعتقاده وعدم إيمانه باليوم الآخر ،كما استهتر بأحكام الإسلام ولم يراعي حرمة المسلمين في ذكره للخمر ومجالسها ،الفرق واضح بين من يستهزأ بالدّين وبين من يبوح بمعتقده ،وقد رأى الثعالبي أنّ الديانة ليست عارا على الشّعر ولا سوء الاعتقاد سببا لتأخّر الشّاعر إلاّ أنّه أكّد على "أنّ للإسلام حقّه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولا وفعلا ونظما ونثرا ".[314]

رأي الثعالبيّ موافق لرأي الجرجاني تماما فالإسلام له حقّه من التّعظيم لا يجوز الاستهانة به ولا التّعدي على شريعته ،فعندما يتجرّأ الشّاعر على ذلك يهجره النّاس لأنّه لم يراعي عوامل الخطاب بل غلّب جانب التوتّر فيها لأنّ المسلمين يراعون حرمة الدّين فإذا تعارض المعنى مع تلك الحرمة أسقطوه ولم يراعوا ما فيه من خصائص فنيّة ويبقى شعره شعرا بغضّ النّظر عن قبوله أو عدم قبوله فمردّ ذلك راجع للمقاييس النقدية ،أمّا بالنّسبة لحريّة الشّاعر في اعتقاده ما يريد فالإسلام لم يجبر أحدا على ذلك فمن باب أولى أن يقول ما يعتقد ،والحريّة لا تعني "الإباحة والفوضى والتحلّل بل هي في صميمها أمانة صعبة ومسؤوليّة باهضة وقيود صارمة وأخطر ما تتعرّض له الحريّة -في أي مجال لها-هو الجهل بتبعاتها ومسؤوليتها واختلاط مفهومها بشوائب ضالة من الفوضى والتحلّل والإفلات".[315]

فالحرّية الشّخصية تتوقّف عند حريّة الآخرين ،وإذا كنّا نتعامل مع معتقد الشّاعر فذلك لأنّ الإسلام أباح له ذلك ،ولا نقبل من أحد السّخرية بالإسلام وشرائعه لأنّ الإسلام لم يبح ذلك ،ودليلنا على ما ذهبنا إليه هو بقاء شعر كعب بن زهير وابن الزّبَعرى وأضرابهما ممّن تناول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاب من أصحابه مسطورا في الدّواوين والاستشهاد به إن دعت الضّرورة لذلك،يقول تعالى(فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلأَرْضِ ﴿١٧﴾[سورة الرعد آية 19].

[314] الثعالبي ؛ يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر ؛ ج : 01 ؛ ص : 142.
[315] عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر،ص :240.

وفي خاتمة هذا النّقاش فإنّ السّؤال المطروح على دعاة تحكيم المقياس الدّيني:ما هو الموقف من الشّعر الجاهلي؟ هل بالإمكان استثناءهم وإلغاء المقياس في نقدنا لهم؟وإن كان كذلك فلا بدّ من إقامة الدّليل ؟لأنّ طبيعة النقد كعلم يرفض مثل هذه التّناقضات .

هكذا وظّف الجرجاني هذه الرّؤية المنطقيّة في مقايسته للمعاني المرتبطة بالعقيدة ،نجد هذه الرّؤية حتّى عند بعض خصوم المتنبي أمثال العميدي الذي صرّح قائلا:"وكيف يسوغ لي أن أثلبه لإلحاده ...وأنا أتحقّق أنّ أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفّار والمنافقون والفجّار".[316]

وقد ذكر العروضي توجيها حسنا لمعنى المتنبي فقال ":هذا البيت حسن المعنى ،مستقيم اللّفظ حتّى لو قلت إنّه أمدح بيت في الشّعر لم أبعد عن الصّواب ،ولا ذنب له إذا جهل النّاس غرضه واشتبه عليهم ومعنى البيت إنّ كفّار قريش كانوا يقولون إنّ محمّدا صنبور-أي منفرد أبتر لا عقب له-فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى(إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ [سورة الكوثر آية 1] ،أي الكثير ،ولست بأبتر كما قالوا ؛ما شانئك هو الأبتر ،فقال المتنبي :أنتم من معجزات النبيّ وآية لتصديقه وتحقيق قوله تعالى وذلك أجدى ما لكم من مناقب ".[317]

نلاحظ اختلاف النقاد في توجيه معنى البيت ونرجع ذلك لما يحمله اللّفظ من دلالات ،ومثل هذه التّوجيهات والتّأويلات تقوى بها مقايسة الجرجاني وتشدّ من عزيمتها لأنّ الجرجاني كان قادرا –في نظرنا-أن يذود عن هذه الأبيات وأن يلتمس لها المخارج لكنّه جنح لقياس الأشباه والنّظائر لأنّه من قبيل المسلّمات المنطقية فإذا احتملنا لفحول الشّعراء فساد عقائدهم فكيف لا نحتمله للمتنبي!.

نشير في ختام هذا المبحث للمعاني الفلسفية الموجودة عند المتنبي والتي لم يولها الجرجاني قسطا وافيا من الشّرح والتّحليل حيث يقول":وإنّما دللناك على منهاجه وأريناك بابه وقد قدّمنا فيما استرذلناه من

[316] أبو سعيد العميدي ؛ الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى ؛ ص : 25.
[317] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 01 ؛ ص : 282.

شعره وإنّما تجد له المعنى الذي لم يسبقه الشّعراء إليه إذا دقق فخرج عن رسم الشّعر إلى طريق الفلسفة".[318]

ثمّ ذكر أبياتا من ذلك المعنى كقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدّولة (من البسيط):

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لاَ اتِّفَاقَ لَهُمْ إِلاَّ عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ.

فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ تَشْرُكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ.[319]

وصف القدماء المتنبي بالفيلسوف سواء خصومه كالحاتمي الذي قام بردّ كلّ معنى بديع أبدعه لأرسطو وفلاسفة اليونان بينما لقّبه أنصاره بالفيلسوف ولكن "لا نستطيع أن نطلق صفة الفلسفة بمعناها الواسع على المتنبي لأنّه لم يكن صاحب مذهب بعينه وإنّما كان مثقّفا ثقافة فلسفيّة فنقل بعض آراء الفلاسفة ونشرها في قصائده ورصّع بها أبياته اجتلبها من الكتب التي قرأها أو من رفيقه في بلاط سيف الدّولة أبي نصر الفارابي".[320]

هذا ما جعل الجرجاني يقتنع ببعد المتنبي عن الفلسفة لأنّه لو اقتنع بذلك لأجرى مقايسته في ذلك الجانب .

إنّ الخصومة الأشدّ بين المتنبي وخصومه دارت رحابها حول السّرقات فاتّهموه بها منتقصين من قدرة إبداعه وإضعاف مكانته ، لم نرد أن نردّد ما قاله النقاد وإنّما غايتنا الكشف عن طريق واضح رسمه الجرجاني وأبدعه من خلال قياس الأشباه والنّظائر الذي اعتمده في التوسّط بين المتنبي وخصومه ،هذا ما سنشير إليه في المبحث الموالي.

[318] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 182.
[319] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 01 ؛ ص :224.
[320] مصطفى الشكعة،فنون الشّعر في مجتمع الحمدانيين،مكتبةالأنجلوالمصرية ،مصر،(د،ط) ،(د،ت) ؛ ص : 443.

المبحث الرّابع:المقايسة في ابتداع المعاني (السّرقات الشّعرية).

اهتمّ الجرجاني كغيره من النقاد بموضوع السّرقات وقرّر منذ البداية صعوبة مسلكها ،ونبّه إلى عدم الإفراط أو التّفريط في تناولها حيث قال ":ولم يبق عليك إلاّ أن تحترس من التّفريط كما احترست من الإفراط ،فلا تكن كمن يرى السرق لا يتمّ إلاّ باجتماع اللّفظ والمعنى وبنقل البيت جملة والمصراع تامّا".[321]

ثمّ أبدى مجموعة من الملاحظات كقوله:إنّ المشترك والمبتذل من المعاني المباحة لا سرقة فيها ،مثل تشبيه الحسن والجمال بالقمر ،والجود والكرم بالبحر ،وغير ذلك كما سيأتي بيانه لاحقا من خلال وقوفنا على مقايسته في هذا الجانب.

نبيّن أوّلا مفهوم السّرقة ثمّ نذكر مقايسة الجرجاني في هذا الجانب .

تعريف السّرقة الشّعرية:

تطلق السرقة في اللّغة على أخذ الشّيء بخفاء يقال":سرِق الشّيء سرقا خفي ،وسرقت مفاصله وانسرقت ضعفت ،والسّارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له فإن أخذ من ظاهره فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس فإن منع ممّا في يديه فهو غاصب".[322]

أمّافي الاصطلاح فيراد بها "احتيال الأدباء للإفادة من إبداع من تقدّموهم من غير الإشارة إلى مبدعيه أو نسبته إلى قائليه".[323]

ويكون هذا الاحتيال في المعاني المخترعة لا المتداولة ،بعد أن فرغ الجرجاني من تقرير منهجه العام اتّجاه السّرقة انتقل لبيان سرقات المتنبي متناولا إيّاها من جانبين ،الأوّل :ما يتعلّق بها من مقاييس نقديّة ومعايير فنيّة .

[321](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 183.
[322] ابن منظور ،لسان العرب ؛ ج : 06 ؛ ص :
[323]مجدي وهبة؛ كامل المهندس؛ معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب ؛ ص : 199.

الثاني : تمثيله لمجموعة من الشّواهد قاس عليها أبيات المتنبي.

عندما يتناول الشّاعر معنى غيره من المتقدّمين فإنّه مطالب بالتّحوير الفنّي أي ما يضفيه من إبداع وتصوير يكون فيه المعنى السّابق جديدا في صورة فنيّة تزيد من بيانه أو تختصره إن كان مطوّلا.

وذكر ابن رشيق بعض ملامح تشكيل هذه الصورة الجديدة حيث قال":غير أن المتّبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلا أو يبسطه إن كان كزّا أو يبيّنه إن كان غامضا أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا أو رشيق الوزن إن كان جافيا فهو أولى به من مبتدعه وكذلك إذا قلبه أو صرفه عن وجهه إلى وجه آخر".[324]

يجب مراعاة هذه الأمور عند تناول معنى ما ليخرج بذلك الآخذ من مذمّة التّقليد القبيح ،لهذا رأينا كثيرا من كتب النقد –وبالأخصّ ما كتبه خصوم المتنبي -تذكر صور هذا الأخذ دون أن تنبّه على المحاسن التي يضيفها الآخذ والتي تخرجه من ربقة التّقليد المنبوذ.

نقوم الآن ببيان شكل المقايسة في السّرقات مشيرين للمواضع التي وفّق الجرجاني فيها ،ومنبّهين على المسائل التي خالفه فيها غيره من النقاد وموقفنا منها ،وقسّمنا صور المقايسة إلى خمسة أقسام نذكرها كما يلي:

القسم الأوّل:المعاني المشتركة أو العامّة التي شاعت بين النّاس لا يكون أخذها سرقة:

أطلق عبد القاهر الجرجاني على هذه المعاني اسم "المعاني العقلية"لاشتراك الجميع في تناولها فهي من قبيل المشاع الذي لا ينفرد به أحد دون آخر ،وقد بيّنها صاحب الوساطة بقوله":من المعاني مشترك عامّ الشّركة ،لا ينفرد أحد منه بسهم لا يساهم عليه ،ولا يختصّ بقسم لا ينازع فيه ،فإنّ حسن

[324] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص : 226.

الشّمس والقمر ومضاء السّيف وبلادة الحمار وجود الغيث وحيرة المخبول ونحو ذلك مقرّر في البداية وهو مركّب في النّفس تركيب الخلقة".[325]

من أمثلة المشترك الذي لايتّهم آخذه، قول الأعشى:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابر.[326]

أخذه المتنبي وقال :

فَذُقْتُ مَاءَ حَيَاةٍ مِنْ مُقَبّلِهَا لَوْ صَابَ تُرْبًا لأَحْيَا سَالِفَ الأُمَمِ.[327]

نطبّق المقايسة على هذين البيتين مظهرين وجوه التّماثل والتّباين بينهما ثمّ نذكر نتيجة المقايسة التي نحكم من خلالها على حسن الأخذ أو عدمه ،يتماثلان في معنى محدّد هو الغلوّ في مدح الحبيبة ففي مقدورها أن تهب الحياة لمن تشاء،وباستطاعتها أن تعيد للموتى حياتهم ،وتوظيفهما لـ(لَوْ)ينفي بعض الإغراق والغلوّ،يقول أبو هلال ":إذا تحرّز المبالغ واستظهر فأورد شرطا أو جاء بكاد سلم من العيب".[328]

صورة الحبيبة واحدة عند الشّاعرين فهي بارعة الحسن معشوقة من الجميع ،نلاحظ كيف يلعب التّخيل بعقولنا وهو تخيّل مقبول لأنّ الوصل في الحبّ يراد بقاؤه وعدم انقطاعه ،انطلقا الشّاعران من الحسّ الواقعي إلى فضاء غير محدود ،ونطلق على هذا النّوع من الخيال "الخيال التّفسيري" أو البياني "ومعناه أنّ الشّاعر يريد أن يفسّر عاطفته إزاء أمر ما ويريد أن ينقل إليك إحساسه ومشاعره كي تحسّ كما أحسّ هو تماما فيأتي لك بصور تستطيع أن تنقل إليك هذا الإحساس وذلك الشّعور".[329]

إنّ عاطفة الحبّ مليئة بالأحاسيس والمشاعر القويّة أكثر من غيرها، أمّا صور التّباين فنلمحها في استعارة الماء للحياة فالله تعالى جعل كلّ شيء حيّا بالماء، فإذا أصابه بعض ريقها لم يطلبه الموت بل

[325](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :185.
[326]الأعشى ؛ الديوان ؛ ص : 140.
[327](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 154.
[328]أبو هلال العسكري، الصّناعتين (الكتابة والشّعر) ،مطبعة محمّد بك الاستانة ،(د،ط) ،1319ه ؛ ص : 286.
[329]ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي (طبيعته، نظرياته، مقوماته، معاييره، قياسه) ؛ ص : 164.

إنّ الموتى يعودون للحياة إذا ترشّفوا بعض ريقها، أيّ صورة هذه ؟وأيّ معنى هذا ؟ما أعظم المتنبي ونفاذ بصيرته!فقد جاء في الأثر أنّ الله تعالى يُنْزِلُ من السّماء ماء بعد نفخة الصّور الأولى فيحيي بذلك جميع النّفوس ،ولعلّ أبا الطيّب قصد ذلك وهو الذي نرجّح لتوافقه مع المعنى ،نلحظ زيادة في المعنى عندما قال أبو الطيّب بأنّه قد ذاق ماء الحياة من فِيهَا ولم يذكره الأعشى ،ترتبط صورة المتنبي الفنيّة بما اشتهر عند العامّة من أنّ هناك ماء للحياة من ذاقه لا يموت كما روته بعض الرّوايات في قصّة حياة الخضر عليه السّلام وبالتّالي فالمعنى له ارتباط بالواقع.

إنّ الحكم المستخلص من هذا المقايسة هو انتفاء السّرقة عن المتنبي لأنّ المعاني المتداولة إذا أحسن الآخذ تحسينها فلا يؤاخذ كما ذكرنا ذلك في أوجه التّباين ونبّهنا على زيادة المتنبي وتحسينه للصّورة الفنيّة حيث بلغ بالمعنى أقصى غايته ،يقول ابن رشيق ":اتّكال الشّاعر على السّرقة بلادة وعجز وتركه كلّ معنى سبق إليه جهل ".[330]

لم يأخذ المتنبي معنى الأعشى كما هو بل وسّعه وأبدعه في صورة فنيّة مغايرة، من أشكال المقايسة في جانب المعاني المبتذلة التي لها علاقة بالحبّ وأهله، قول أبي نواس:

سُنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنْ.[331]

وقول بعض المحدثين: كُنْ إِذَا أَحْبَبْتَ عَبْدًا لِلَّذِي تَهْوَى مُطِيعًا.

وقال أبو الطيّب: تَذَلَّلْ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ.[332]

أجمع الجرجاني والآمدي وغيرهما من النقاد على أنّ المعاني المتداولة لا يعدّ صاحبها سارقا ،وقال المرزباني ":لا يعذر الشّاعر في سرقته حتّى يزيد في إضاءة المعنى أو يأتي بأجزل من الكلام الأوّل أو

[330] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص :216.
[331] عليّ فاعور؛ ديوان أبي نواس؛ص :551.
[332] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 02 ؛ ص :346.

ينسج له بذلك معنى يفضح به ما تقدّمه ولا يفتضح به ،وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير إليه".[333]

زاد المتنبي المعنى العقلي المتمثّل في تذلّل المحبّ بين يدي المحبوب إضاءة وعليه فلا يقال لآخذه سارق لأنّنا نرى في أشكال هذا الأخذ فائدة مهمّة تتعلّق بدراسة المعنى من النّاحيّة التّاريخيّة وتتبّع مراحل تطوّره وصورة استعماله من عصر لآخر ،فلا ينبغي أن نقصر السّرقة على تجريح الشّعراء بمثل هذا الغمز واللّمز لأنّ من يدّعي السّرقة في المعاني المتداولة لا يعبأ برأيه فهذا مقياس نقدي نخضع عمليّة القياس له ،أمّا على عدم تسليم الخصم بهذا المقياس فقد أجرى الجرجاني أيضا قياس الأشباه والنّظائر رغبة منه في الوصول للحقّ من جميع سبله ،ومن خلال هذا القياس والمقايسة سنقف على مستوى إبداع المتنبي في أخذه.

نعتبر مجموعة الأبيات الشّعريّة التي وُظِّفَ فيها معنى تذلّل المحبّ وخضوعه مثل أبي نواس والمتنبي أشكالا صحيحة الاستعمال فعلّة الاشتراك واحدة وهي المعنى المتداول الذي يرتبط بخضوع المحبّ وتذلّله وبالتّالي تكون نتيجة القياس جواز استعمال الشّاعريين أو غيرهما ممّن أخذ المعاني المتداولة وأضاءها .

أمّا قياس الأشباه والنّظائر فتتجلّى صورته في حمل بيت المتنبي على معنى أبي نواس ووجه الحمل شبه المعنى في البيتين وهو التذلّل والخضوع في الحبّ ،التقابل بين المتنبي وغيره راجع لحالة نفسيّة ضروريّة يلزم المحبّ سلوكها ،وإلاّ ضيّع حبّه كما قال العبّاس بن الأحنف :

تَحَمَّلْ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمُ.

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ الذَّنْبَ فِي الْهَوَى يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَى وَأَنْفُكَ رَاغِمُ.[334]

[333](المرزباني) أبو عبيد الله ،الموشّح (مآخذ العلماء على الشّعراء في عدّة أنواع من صناعة الشّعر) ؛ص:478.
[334] المصدر السّابق ؛ ج : 02 ؛ ص : 347.

نلاحظ زيادة أبي الطيّب في المعنى من حيث تقصّيه وبلوغ جوانبه ففي القرب تجب الطّاعة والانقياد وفي البعد ينبغي التّسليم لفعلها والرّضا بأمرها ،وليس وراءهما حالة يكون عليها المحبّ،هكذا وضّح معنى السّكون عند أبي نواس ،ومعنى المتنبي أجمل لأنّه زاد الصّورة الفنيّة حالين يكون عليهما المحبّ بخلاف صورة أبي نواس فهي واحدة.

إنّ نتيجة المقايسة مسلّم بها وهي انتفاء سرقة المتنبي لأنّه زاد المعنى بيانا ووضوحا وبلغ بالمعنى أقصى جوانبه في لفظ جزل ومعنى صحيح ووزن رشيق.

لم يُسلِّم الجرجاني –في نظرنا- سرقة المتنبي من أبي نواس وإنّما فهمها كما بيّناه بالقياس والمقايسة لذا يظهر -لنا- أنّ عبد الرّحمن شعيب لم يفهم الجرجاني جيّدا عندما قال ":نحن لا نسلّم للجرجاني هذه الدّعوة ،ونرى أنّ التذلّل والخضوع سنّة العشّاق جميعا كما قال أبو نواس ".[335]

نعم لا يسلّم الجرجاني برأي إلاّ في المقايسة عندما لا يسلّم الخصم بالعلّة الموجودة في القياس فيضطرّ الجرجاني لذلك أن يسلّم للخصم لما تقتضيه المقايسة ،إنّه يؤمن بأنّ المعنى المبتدع إذا صار متداولا فهو من قبيل الاشتراك فمن باب أولى أن يكون في أصله متداولا ،يقول الجرجاني مشيرا لذلك ":وصنف سبق المتقدّم إليه ففاز به ثمّ تدوول بعده فكثر واستعمل ،فصار كالأوّل في الجلاء والاستشهاد والاستفاضة على ألسن الشّعراء فحمى نفسه عن السّرق وأزال عن صاحبه مذمّة الأخذ كما يشاهد ذلك في تمثيل الطّلل بالكتاب والبرد".[336]

ومثله أيضا تشبيه عيون المرأة وحسن جيدها بالغزال.

تظهر براعة الجرجاني وسعة إدراكه وإحاطته بالمعقول والمنقول في دفاعه عن المتنبي بجميع الطّرق العقليّة ليعطينا صورة أخرى من المقايسة يبرّأ بها ساحة المتنبي ممّا اتّهمّ به من سرقة المعاني المتداولة فساق

[335] عبد الرّحمن شعيب ؛ المتنبي بين ناقديه ؛ ص : 225.
[336] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :185.

شواهد لفحول الشّعراء تداولوا فيها المعاني المشتركة وأقامها طرفا في المقايسة ليكون حكمه النّهائي تبرئة المتنبي ،وهذا من قبيل الاستدلال بالملزوم على لازمه نوضّحه كما يلي :

لو كان الاشتراك من قبيل السّرقة لكان الشّعر كلّه مسروقا ،وهذا لا يقبله عاقل،فكيف يؤاخذ المتنبي بتهمة السّرقة ببرهان لا يسلّم العقل به ،أو بما يجيب خصوم أبي الطيّب وقد اشترك الفحول في توظيف المعاني المشتركة ؟ فهذا لبيد يقول :

وَجَلاَ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا.[337]

قال الجرجاني "فأدى إليك المعنى الذي تداوله الشّعراء ،قال امرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِ.[338]

وقال الهذلي : عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَسْمِ الكِتَا بِ يزْبُرُهُ الكَاتِبُ الْحِمْيَرِي.

وأمثال ذلك ممّا لا يحصى كثرة، ولا يخفى شهرة، وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفضل وله عليها ما تشاهد من الزّيادة والشِّفِ ".[339]

أخذ لبيد هذا المعنى المشترك وزادا في توضيحه مثلما فعل خلفه المتنبي فكلاهما له فضل الزّيادة والبيان نواصل رحلة المقايسة مع الجرجاني لنقف هذه المرّة على الزيادة في المعنى المأخوذ إبداعا وتحسينا .

القسم الثاني:الزيادة في المعنى لا تعدّ سرقة.

لا بدّ للشّاعر أن يراعي تجويده الفنّي وأن يتعامل مع المعنى بطريقته ،فمن أخذ معنى غيره فله أحوال أشار لها ابن رشيق بقوله ":إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إذا كان طويلا ،أو يبسطه إن كان كرّا

[337] لبيد بن ربيعة ؛ الديوان ؛ ص : 456.
[338] امرؤ القيس ؛ الديوان ؛ ص : 147.
[339] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :187.

أو يبيّنه إن كان غامضا ،أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ،أو رشيق الوزن إن كان جافيا فهو أولى به من مبتدعه وكذلك إن قلبه ،أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر".[340]

اعتمادا على هذا النّص سنبيّن مقايسة الجرجاني في هذا القسم مقدّمين الحديث عن اختصار الآخذ للمعنى المطوّل ،من ذلك قول أبي تمام يمدح أبا سعيد محمّد الثغري:

غَرَّبَتْهُ العُلاَ عَلَى كَثْرَةِ الأَهْـ لِ فَأَضْحَى فِي الأَقْرَبِينَ جَنِيبَا

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي مَرْ وَ مُقِيمًا بِهَا لَمَاتَ غَرِيبَا.[341]

وقال أبو الطيّب :

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا.[342]

قال الجرجاني ":وبيت أبي الطيّب أجود وأسلم ،وقد أساء أبو تمام بذكر الموت في المديح ،فلا حاجة به إليه ؛والمعنى لا يختلّ بفقده ،ومن مات في بلده غريبا فهو في حياته أيضا غريب ،فأيّ فائدة في استقبال الممدوح بما يتطيّر منه !".[343]

يظهر التّشاكل بين البيتين في معنى خاصّ هو أثر الغربة في النّفوس وقلّة الاهتمام بالرّموز ،لأبي تمام فضل السّبق وللمتنبي فضل البيان والاختصار فعبّر عن الغربة من واقع نفسي معاش تألّم من مرارتها فهو لم يجد النّاصر والمعين من أهله ووطنه أي محلّ إقامته لقلّة النّاصر والمساعد ،ولفقد النّظير ؛ثمّ أقام الدّليل على دعواه وهو أنّ النّفيس من كلّ شيء يعدّ غريبا بالنّسبة مع غيره ممّا ليس هو على شاكلته بينما صوّر أبو تمام المعنى لغيره على سبيل المدح وجعله أجنبيّا منفصلا عن أهله وشتّان بين الغريب والأجنبيّ ،ثمّ تمنّى له البقاء بنفي الموت عنه ،وذكره في غرض المدح قبيح ،من الفروق أيضا أنّ المتنبي جمع المعنى في بيت وذكره حبيب في بيتين ،وهذه صورة من صور الاختصار ،مع أنّ بيت أبي الطيّب

[340] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص :226.
[341] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج: 01 ؛ص: 94.(رواية الديوان : غَرَّبَتْهُ العُلاَ عَلَى كَثْرَةِ النَّاسِ ...).
[342] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص :354.
[343] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :219.

أصحّ سبكا وأرقّ وزنا ؛فزيادة أبي الطيّب للمعنى من حيث الاختصار والتّصوير تشفع له في أخذه وتنفي عن مؤاخذته .

إنّ لوحة الغربة تمثّل ما يسمّى بالتّواتر بمعنى "إعادة نماذج معيّنة وتكرارها لارتباطها بالسنة وبالسّلف ولقوّتها الإيحائية ".[344]

يحافظ التواتر على حياة المعاني وبقائها مثل المعنى الذي حملنا عليها هذه المقايسة وما يحمله من دلائل نفسية وصور اجتماعية ،رسمها أبو تمام لغيره مع أنّها أمر نفسيّ ،وأعاد المتنبي إجادتها فأجاد وأعاد الغربة لحقلها النّفسي وربطها بالأهل والوطن لأنّها مسّت أقرب النّاس وأعزّ مكان وهو موضع الإقامة.

إنّ نتيجة المقايسة إذن هي نفي سرقة أبي الطيّب من أبي تمام لاختصاره المعنى وحسن تصويره له.

ومن بين ما استحسنه ابن رشيق فيما يتّصل بالمعنى المخترع أن يبسطه الآخذ إن كان كزّا أو يبيّنه إن كان غامضا، كقول بعض المحدثين:

وَمَا فَسَدَتْ لِي يَشْهَدُ اللَّهُ نِيَّةٌ عَلَيْكَ بَلْ اسْتَفْسَدْتَنِي فَاتَّهَمْتَنِي".[345]

أخذه أبو الطيّب وأصبح من روائع شعره، فقال يمدح كافورا سنة ثلاثمائة وسبعة وأربعين من الهجرة:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ .

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَكِّ مُظْلِمِ.[346]

نقل الشّاعر تجربة إنسانيّة مفادها أنّ سوء الظنّ يجعل صاحبه يَسْتَفْسِدُ -ضدّ الاستصلاح-غيره ويتّهمهم بالظنّ الفاسد ،بسط المتنبي المعنى وبيّنه حيث قال":إذا كان فعل المرء سيّئا قبيحا ساء ظنّه

[344]محمّد مفتاح،تحليل الخطاب الشّعري(إستراتيجية التّناص) ،ص :134.
[345] المصدر السّابق ؛ ص : 135.
[346](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 264 -265.

بالنّاس لسوء ما انطوى عليه ؛وإذا توهّم في أحد ريبة أسرع إلى تصديق ما توهّمه لما يجد من مثل ذلك في نفسه ".[347]

وبيّن في البيت الثّاني عواقبه الوخيمة وما يحدثه من قطع الصّلة مع الأحباب لأنّه صدّق الأوهام والوشايات وما كان ليصدّقها لولا فساد ظنّه.

بعد التأمّل في البيتين نستنتج ما يلي :

يتشابه البيتان في موضوع واحد يتمثّل في الظنّ الفاسد وما يحدثه في النّفس من تردّد وحيرة ربّما أدى إلى انقطاع أواصر المحبّة والتّواصل ،قابل الشّاعر بين حالته وحالة صاحبه فقال في صدر البيت بأنّ نيّته لا زالت صافية في المحبّة باقية على المودة وفي عجزه بيّن فسادها عند صاحبه الذي لم يرَ فيه صلاحا فاتّهمه ،يبدوا حسن التّقسيم جيّدا بين ارتباط النيّة بالذّات ورؤية الغير لها لأنّها لا تنفع إلاّ بانسجامها فيهما ،أمّا المتنبي فبسط المعنى وأخرجه من دائرة الخصوصيّة إلى فضاء الحكمة وجعله مثلا سائرا وجمع بين فساد الأعمال وسوء الظّنون اللّذان يسرعان بصاحبهما إلى قطع كلّ صلة مع النّاس بل يجعلانه غير قادر على تمييز عدوّه من صديقه لانطوائه على الظنّ الفاسد ،فزيادة أبي الطيّب المعنى وضوحا برّأته من تهمة السّرقة ،كما يبدوا تجويده للصّورة رائعا خصوصا عندما جعله حائرا كأنّه يعيش في ظلام دامس فمن فقد حسن الظنّ كأنّما فقد النّور الذي يبصر به .

يعتبر تجويد الصّورة معيارا حقيقيّا للأخذ الجيّد عند الجرجاني والآمدي،فتناول المحدثين لمعاني غيرهم روعي فيه مدى الإحساس والتّفاعل مع الفكرة وإلاّ عدّ الآخذ سارقا منبوذا ،كما يؤكّد ابن طباطبا على قيمة التّجويد الفنّي للصّورة حيث يقول ":إذا تناول الشّاعر المعاني التي سبق إليها ،فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب ،بل وجب له فضل لطفه وإحسانه".[348]

[347] المصدر السابق ؛ ج : 004 ؛ ص : 264.
[348] ابن طبا طبا،عيار الشعر؛ ص : 76.

نؤخذ من النصّ أنّ المتنبي يستحقّ الفضل والثناء لا المؤاخذة والجفاء لفضله وسبقه لما بيّناه من تجويده للمعنى وزيادة وضوحه.

المعنى الذي اشترك فيه الشّاعران هو من قبيل الاقتباس وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن، فسوء الظنّ مأخوذ من قول الله تعالى(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾[سورة الحجرات آية 12]فالآية الكريمة ربطت الظنّ السيّء بالإثم الذي يقع فيه صاحب الظنّ ،ويكون التّناص في الاقتباس واضحا سهل الملاحظة فهو"تأثّر وإبداع تظهر فيه سمات الشّاعر وخصوصيته وطابعه الفريد".[349]

إذا سلّمنا باقتباس الشّاعرين للمعنى فلا وجه لمؤاخذة أبي الطيّب واتّهامه لأنّ غيره شاركه فيه.

من أمثلة المقايسة في الزّيادة على المعنى المخترع الذي انفرد به صاحبه ،قول الأفوه الأودي :

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَار.

النابغة : إِذَا مَا غَزَوْا بِالجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ.[350]

أبو نواس : تَتأبَّى الطَّيْرُ غُدْوَتَهُ ثِقَةً بِالشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ.[351]

أبو تمام : وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ أَعْلاَمِهِ ضُحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ.

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنَ الجَيْشِ إِلاَّ أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ.[352]

قال الجرجاني مبيّنا معاني هذه الأبيات "زعم كثير من نقاد الشّعر أنّ أبا تمام زاد عليهم بقوله :إلاّ أنّها لم تقاتل فهو المتقدّم ؛وأحسن من هذه الزيادة عندي قوله :في الدماء نواهل ،وإقامتها مقام الرّايات

[349] حمدي الشيخ، قضايا أدبية ومذاهب نقدية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية،(د،ط)؛ 2007م ؛ ص : 55.
[350] (النابغة) زياد بن معاوية،الديوان،شرح حنا نصر الحتّي ،دار الكتاب ،بيروت ،(د،ط) ،1427ه-2007م،ص : 31.
[351] (أبونواس)الحسن بن هانئ ،الديوان ؛شرح :عليّ فاعور ؛ ،ص:257.(جاء في الديوان :تَتأبَّا الطَّيْرُ غُدْوَتَهُ).

[352] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج: 02 ؛ص: 40.

وبذلك يتمّ حسن قوله :إلاّ أنّها لم تقاتل ،على أنّ الأفوه الأودي قد فضل الجماعة بأمور :منها السّبق وهي الفضيلة العظمى ،والآخر قوله :رأي العين فخبر عن قربها لأنّا إذا بعدت تُخَيَّلَتْ ولم تُر؛وإنّما يكون قربها متوقّعا للفريسة ،وهذا يؤدي المعنى ؛ثمّ قال :ثقة أن ستمار فجعلها واثقة بالميرة ولم يجمع هذه الأوصاف غيره ؛وأمّا أبو نواس فإنّه نقل اللّفظ فلم يفضّل ؛وقال أبو الطيّب :

سَحَابٌ مِنَ العِقْبَانِ يزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ."[353] [354]

انطلاقا من هذا النّصّ نرسم شكل المقايسة التي اعتبرها الجرجاني كما يلي :

هذا المعنى البديع للأفوه الأودي له فضل السّبق والتقدّم،صوّر لنا عظمة الجيش وشدّة فتكه بعدوّه ما جعل الطّيور تتبعهم وتظلّهم وتعطى الميرة بما تجد من لحوم القتلى ،أخذه أبو نواس فلم يجوّده ،وهذه سرقة قبيحة لأنّه أخذ المعنى كما هو ؛قال في العمدة ":السّرق إنّما هو في البديع المخترع الذي يختصّ به شاعر ".[355]

نخرج أبا نواس من ساحة المقايسة ،لإخفاقه وعدم توفيقه ،نقارن بين أبي الأفوه الأودي وأبي تمام والمتنبي،وجه الشّبه الذي يجمع الشّعراء الثلاثة هو معنى محدّد يتمثّل في مصاحبة الطّيور لجيش الممدوح ثقة بنصره وشدّة فتكه بعدوّه ،امتاز الأفوه الأودي بفضيلة الاختراع وتمام التّصوير فجعل الطّيور قريبة لتناول فريستها كما أنّها واثقة بميرتها أي لحوم القتلى ،أخذه أبو تمام وأجاد في تصويره وزاد المعنى إضاءة فأقام الطّير مقام الرّايات واعتبرها جزءا من الجيش لمؤازرته حتّى وإن لم تقاتل ،كما تجلّت الصّورة الفنيّة في روعة التّشبيه ،هذا التّشبيه فكّ المتنبي رموزه وأعطانا صورة إبداعيّة أخرى تحمل في طيّاتها لوحة الخيال التّأليفي الذي نسجت ملامحه من عالم الخيال الإبداعي الذي أنتجه أبو تمام حيث جعل هذا السّرب من الطّيور جيشا آخر يطلب العدوّ أيضا.

[353](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 56.
[354](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 274 - 275.
[355] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص :216.

"جعل العقبان التي فوق جيشه سحابا وجعل جيشه كذلك سحابا لما فيه من بريق الأسلحة وصبّ الدّماء وصوت الأبطال ،وجعل الأسفل يسقي الأعلى إغرابا في الصّنعة ؛فهو قد شبّه العقبان بسحاب يظلّ الجيوش ويزحف تحتها سحاب –يريد الجيوش-إذا استسقت العقبان بطلب الدّم سقتها صوارمه–سيوفه-لأنّها تقتل الأعداء فتشرب العقبان دم القتلى ".[356]

يظهر شكل التّباين بين المتنبي وأبي تمام في صورة مشاركة الطّيور للجيش وطلبها لدماء القتلى ،وأصل السّقي أن يكون من أعلى لكنّ أبا الطيّب جعل الأسفل يسقي الأعلى إغرابا في المعنى ،هذا الإغراب الكامن كالنّار في الزّند وكالدرّ في عمق البحر لا يتوصّل إليهما إلاّ بقدح الزّند وتكلّف الغوص كما قال عبد القاهر الجرجاني مشيرا للمعنى إذا كان بتلك الصّفة فهو الذي يجوز "أن يدعّى فيه الاختصاص والسّبق والتقدّم والأوّليّة وأن يجعل فيه سلف وخلف ،ومفيد ومستفيد ،وأن يقضى بين القائلين فيه بالتّفاضل والتّباين".[357]

ثمّ ذكر الموضع الذي يقضى فيه بذلك فقال ":الاحتفال والصّنعة في التّصويرات التي تروق السّامعين وتروعهم ،والتخيلات التي تهزّ الممدوحين وتحرّكهم ،وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس النّاظر على التّصاوير التي يشكّلها الحذّاق بالتّخطيط والنّقش أو بالنحت والنّقر فكما أنّ تلك تُعجب وتَخلب وتروق وتُؤْنِقُ وتدخل النّفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ،ولا يخفى شأنه."[358]

إنّ عمل الشّاعر شبيه بعمل الصّائغ يأخذ المعنى فينتج منه حللا متنوعّة يفاضل الذّوق بينها وتقوّم على قدر إجادتها وصنعتها ،المعدن واحد والصّياغة متفاوتة هكذا شأن المعاني بقسميها المشترك والمخترع أخضعها أبو الطيّب لتجربته وثقافته فأخرجها في معنى بديع مخترع ،هذا ما فعله وأعجب به كثير من النقاد مثل عثمان موافي الذي قال معبّرا عن صنيع أبي الطيّب بأنّه "قد صوّر كلا من الطّير والجند في صورة سحاب فالطّير سحاب يظلّل سحاب الجند الكثيف وبين الطّير والإنسان لغة

[356](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ج : 04 ؛ ص : 56.
[357] عبد القاهر الجرجاني ؛ أسرار البلاغة ؛ ص : 340.
[358] المصدر السّابق ؛ ص : 342-343.

مشتركة يفهمها كلّ منهم فالطّير إذا عطشت وطلبت السّقيا سقتها سيوف الجيش وهذه المشاركة الوجدانيّة التي خلقها الشّاعر بين الطّير والإنسان والتي جعلت كلّا منهما يحسّ بصاحبه ويفهمه هي التي تضفي على هذا المعنى شيئا من الجدّة والطّرافة وتبرزه في صورة أكثر إبداعا من الصّورة السّابقة".[359]

هكذا صوّر الجرجاني مقايسته في أخذ المعنى المخترع وأقنعنا بسلامة أبي الطيّب من السّرقة لأنّه أبدعه من ناحية توضيحه للمعنى وتحسينه وجعله في صورة فنيّة اعتمدت على الخيال واشترك فيها الوجدان وتقاربت غاية واحدة بين الجيشين الأوّل يطلب الغلبة والانتصار وكثرة القتل والآخر يريد أجسادهم بعد الموت حتّى لا يبقوا على ظهر الأرض لعلّ هذا ما كان المتنبي يصبوا إليه ،كما يمكننا إضافة علّة أخرى للمقايسة هي قلّة المعاني وشبه نفاذها لأنّ القدماء سبقوا إليها وتناولوها ،نبقى مع سرقة المعاني وهذه المرّة في نقل المعنى المخترع في صورة معنى آخر.

القسم الثالث: من نقل المعنى إلى ضدّه أو لمعنى آخر لا يعدّ سارقا.

هذا النّوع ممّا أضافه الجرجاني ،وعدّه من مستحسن السّرقة ،وما تجدر الإشارة إليه هنا قول ابن رشيق مبيّنا إسهامات الجرجاني وما لمسه من أفكار نقدية جاء بها في موضوع السّرقات—وهو ما نراه أيضا- فقد وصفه بأنّه"أصحّ مذهبا وأكثر تحقيقا من كثير ممّن نظر في هذا الشّأن".[360]

وهذا خلاف ما ذهب إليه مندور حيث قال بأنّ عمل الجرجاني "جاء خاليا من كلّ درس أو تحقيق أو تطبيق للمبادئ ؛وإن يكن لصاحبه فيه فضل فهو فضل الجمع لا أكثر ولا أقلّ".[361]

هذا الجمع الذي قام به الجرجاني هو ما سنحاول توضيحه وتبينه من خلال المقارنة والنّظر في المتشابهات والمتناظرات بين شعر المتنبي وغيره لنستخلص الحكم النقدي المناسب ؛إنّ التّهمة الأساس التي دارت حولها خصومة المتنبي قضيّة السّرقات فمن المستحيل أن يمرّ عليها الجرجاني مرّ الكرام ؛ولو

[359] عثمان موافي ؛ الخصومة بين القدماء والمحدثين ؛ ص : 319.
[360] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص :216.
[361] محمّد مندور ؛ النقد المنهجي عند العرب ؛ ص : 295.

تأمّلنا مؤلّفات خصومه سنجدها تصبّ في قالب واحد مثل (الكشف عن مساوئ المتنبي)للصاحب و(الرّسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيّب وساقط شعره) للحاتمي ،والمنصف لابن وكيع ،والإبانة لأبي سعيد العميدي وغيرها من التآليف،هذا ما دفع الجرجاني للاهتمام بتحقيقها وتنقيحها ،وإن كنّا نوافق مندور في بعض الإفراط والتفريط الذي وقع الجرجاني فيه .

إنّ نقل المعنى من غرض لآخر أو إلى ضدّه يطلق عليه النقاد النّقض ،وهو من قبيل النّظر والملاحظة أشار له الجرجاني بقوله ":ومن لطيف السّرق ما جاء به على وجه القلب ،وقصد به النّقض ؛كقول المتنبي :

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ.[362]

إنّما نقض به قول أبي الشُيص:

أَجِدُ الْمَلاَمَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ.[363]

يتناول الشّاعران معنى يرتبط بأحد عوائق الحبّ وهو الملامة لأنّها تصدّ المحبّ عن وصله ،جعلها أبو الشيص من قبيل اللّذة والعشق لأنّ الملامة تزيده حبّا وإقبالا ولذلك استكثرها وأكثر من طلبها نقض أبو الطيّب المعنى وقال:لا أجمع بين المحبّة والملامة لأنّ الملامة معناها النّهي عن الحبّ والمحبّ لا يشغل سمعه إلاّ بمحبّه،أمّا معنى المتنبي -فيظهر لنا-أملح وأعذب ؛فالملامة تتناسب مع المدح وتقبح في أمور الحبّ ؛إذا أنصت المحبّ للعذال فقد يتّهم في الوصل لأنّ مقام الحبّ يجب أن تصمّ فيه الآذان عمّا يعكّر صفو الحبّ ويكدّره .

النقض أو الإلمام من محاسن السّرقة لأنّ الآخذ يخفي المعنى ويظهره بوجه مغاير، عرف أبو الطيّب بقدرته على إخضاع المعاني لذوقه وتصرّفه فيها بإحكام، أمّا وجه المقايسة بين البيتين فنبيّنها في النقطتين الآتيتين:

[362](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج:01 ؛ ص : 129..
[363](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ ص : 206.

الأولى :من المسلّم به عند النقاد أنّ الإلمام ضرب من النّظر ،إذا أجاد الآخذ في تصوير المعنى وإبداعه لا ينسب للسّرقة ،يقول ابن رشيق مشيرا لذلك ":إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إذا كان طويلا أو يبسطه إن كان كزّا ،أو يبيّنه إن كان غامضا ،أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ،أو رشيق الوزن إن كان جافيا ،فهو أولى به من مبتدعه وكذلك إن قلبه ،أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر".[364]

يؤخذ من النصّ أنّ قلب المعنى أو صرفه لوجه آخر لا يعدّ سرقة ،ولا فرق بين البيتين من حيث تناسب الألفاظ وحسن التّقسيم ورشاقة الوزن فكلاهما متقاربان ومتشابهان ،أمّا التّباين فنلمحه في نقض المعنى كما بيّناه سابقا ،الحبّ والملامة منفصلان عند المتنبي،كما أعطى الاستفهام الإنكاري للصّورة الفنيّة انفعالا نفسيّا فتعجبّ الشّاعر مبديا عدم رضاه ؛هذا ما دفعه لنقض المعنى ،وقد عدّه ابن رشيق من مليح التّغاير؛فكيف يتّهم المتنبي بالسّرقة ؟ هذا هو الحكم المستنبط من المقايسة.

الثّانية :أشار الجرجاني إلى أنّ أصل البيتين من قول أبي نواس:

إِذَا غَادَيْتَنِي بِصَبُوحٍ عَذْلٍ فَمَمْزُوجًا بِتَسْمِيَةِ الْحَبِيبِ.

فَإِنِّي لاَ أَعُدُّ اللَّوْمَ فِيهِ عَلَيْكِ إِذَا فَعلْتِ مِنَ الذُّنُوبِ.[365]

أبو نواس له فضل السّبق والتقدّم ؛وأبو الشيص والمتنبي لهما فضل اختصار المعنى وتوضيحه ،فإن وقعت التّهمة فعليهما وإلاّ فلا ؟،هذه نتيجة مقايسة الجرجاني ،فمثلما تناول أبو الشيص معنى أبي نواس تناوله المتنبي أيضا وأبدع الشّاعران في تصويره بما أزال عنهما كلفة السّرقة.

من أنواع السّرقة الاختلاس أو النّقل ؛وهو أن ينقل المعنى من غرض لآخر بقصد التّمويه"كأن ينقل شاعر بيتا من المديح إلى النّسيب أو من الفخر إلى الهجاء أو غير ذلك ،فإذا مرّا بالغبيّ الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين وإذا تأمّلهما الفطن الذكيّ عرف قرابة ما بينهما والوصلة الّتي تجمعهما ".[366]

[364]ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص :226
[365]عليّ فاعور؛ ديوان أبي نواس؛ ص:63.
[366](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 204.

مثّل له الجرجاني بقول كثيّر (من الطويل) :

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تُمَثَّلُ لِي لَيلَى بِكُلِّ سَبِيلِ.

وقال أبو نواس (من الكامل):

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ.[367]

قال في الوساطة":فلم يشكّ عالم في أنّ أحدهما من الآخر؛ وإن كان الأوّل نسيبا والثّاني مديحا ".[368]

لا يغادر طيف الحبيبة نظر كثيّر فكلّما حاول نسيانها تمثّلت له في كلّ الطّرق ،نفس المعنى نقله أبو نواس إلى المديح فصورة الممدوح ملأت المكان بحيث لم يخل منه موضع ،وتبدوا إجادة أبي نواس واضحة من حيث الصّياغة الشّعرية ،أمّا بالنسبة للتّباين فيظهر في اختلافهما في الغرضين الشّعريين .

نجعل هذا الأخذ بين كثّير وأبي نواس طرفا في المقايسة ونحمل عليه ما شابهه من اختلاس المتنبي لأبي تمام كقوله:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُه.[369]

أبو الطيّب ونقله إلى البأس:

وَفِي الْحَرْبِ حَتَّى لَوْ أرادَ تَأَخُّرًا لَأَخَّرَهُ الطَّبْعُ الكَرِيمُ إِلَى الْقُدْمِ.[370]

صوّر أبو تمام كثرة الممدوح للبذل في صورة رائعة متوافقة مع الواقع وذلك لأنّ كفّه مبسوطة دائما حتّى غلب الحال على طبعه بحيث لو أراد قبضها كناية عن البخل لم تطاوعه أنامله ،نحدّد المعنى بدقّة أكثر

[367] عليّ فاعور؛ ديوان أبي نواس؛
[368] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 205.
[369] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج: 02 ؛ص: 15
[370] (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج:04 ؛ ص : 174.(من قصيدة في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي).

فنقول:إنّه الإقدام في الكرم، أخذه المتنبي واستعمله في الشّجاعة والبأس حيث قال في وصف ممدوحه بأنّنا":وجدناه ملازما للحزم حتّى لو تعمّد تركه لم يعد مع تركه إلاّ حازما لأنّ الحزم ملازم له ".[371]

يشترك المعنيان في موضوع واحد هو المديح من حيث الكليّة أمّا من حيث الجزئية فالإقدام في السّخاء والكرم لدى أبي تمام ،والإقدام في الشّجاعة والحرب عند المتنبي فهذا المعنى الجزئي فيه صورة من صور التّباين بين البيتين ،من عناصر الاشتراك أيضا توافق عاطفة الشّاعريين وسّموّها فقد رفعت من شأن السخيّ والشّجاع باعتبارهما غايتان مطلوبتان في المديح،من عناصر اشتراكهما أيضا كونهما أصبحتا طبعا وسجيّة في الممدوح.

قاس الجرجاني أخذ المتنبي من أبي تمام على أخذ أبي نواس من كثيّر ،ووجه الشّبه عنده هو نقل الآخذ معنى غيره واستعماله في معنى مغاير مع أنّ الآخذين قد أجادا في الصّياغة والتّصوير،وعليه فالحكم المستنتج من قياس الأشباه والنّظائر هو نفي المؤاخذة والتّهمة عن المتنبي كما نفيناها عن أبي نواس .

ولا نوافق الجرجاني على مقايسته في جانب نقل المعنى من غرض لآخر لأنّه بذلك ألغى عامل الذّوق الذي لطالما أكّد عليه كما نسي حريّة الإبداع التي تعطي الصّورة الفنيّة وجها جماليا مع تقريره سابقا "أنّ الشّعر لا يحبّب إلى النّفوس بالمقايسة ".[372]

زلّت قدم الجرجاني مرّتين ؛الأولى :لما عدّ الاختلاس من التفنّن في السّرقة وأهمل فرصة التأمّل في الصّورة الفنيّة عند الآخذ مع تأكيده سابقا باستنفاذ المتقدّمين للمعاني حيث قال ":ومتى أنصفت علمت أنّ أهل عصرنا ثمّ العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة ،وأبعد من المذمّة لأنّ من تقدّمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها وإنّما يحصل على بقايا إمّا أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة لها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذّر الوصول إليها ؛ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنّه غريبا مبتدعا ؛ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا

[371] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 175.
[372] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 31.

ثمّ تصفّح عنه الدّواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغضّ من حسنه ولهذا السّبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بتّ الحكم على شاعر بالسّرقة".[373]

حذّر الجرجاني غيره من الإفراط في السّرقة لكنّه وقع فيه مع ما قدّمه من المعاذير،وقال ناقدنا ابن رشيق بأنّ الشّاعر "إذا صرف المعنى من وجه إلى وجه آخر لا يعدّ سرقة".[374]

نعتبر هذا النصّ دليلا على انتقادنا لمقايسة الجرجاني في هذا الموضع ،كما نحتجّ أيضا بقول الآمدي الذي لطالما ردّده عندما ذكر أنّ سرقات المعاني "ليست من كبير مساوئ الشّعراء ؛وخاصّة المتأخرين إذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدّم ولا متأخّر".[375]

الزّلل الثّاني الذي نرى أنّ الجرجاني وقع فيه قوله السّابق في بيتي كثَيِّر وأبي نُوَاس"فلم يشكّ عالم في أنّ أحدهما من الآخر؛ وإن كان الأوّل نسيبا والثاني مديحا ".[376]

انتقده مندور نافيّا وجود قرابة بين المعنيين حيث قال ":الفرق واضح بين البيتين ،فالأوّل حقيقة نفسيّة حارّة بينما الثّاني معنى عقلي متكلّف فكثيِّر لانشغاله الدّائم بصاحبته لا يستطيع أن ينساها كأنّما هي أمامه دائما ،بينما أبو نواس يفترض قضيّة ثمّ يبني عليها نتيجة فهو يعبّر عن حبّ النّاس لممدوحه بأنّ مثاله مصوّر في القلوب فلذلك كأنّه في كلّ مكان لأنّ النّاس منتشرين في كلّ مكان فمن الإسراف إذن تقرير السّرقة بين البيتين".[377]

ومن الإسراف أيضا تقريرها بين المتنبي وأبي تمام لأنّ انبساط الكفّ يصبح سجيّة بممارسة البذل دائما، بينما الطّبع الكريم أصليّ في الممدوح وموجّه فلو أراد تأخّرا لكان تأخّره تقدّما، وشتّان بين ما يكسب بالعادة وبين ما يكون مطبوعا عليه الإنسان.

[373] المصدر السّابق ؛ ص : 214 – 215.
[374] ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص : 216.
[375](الآمدي)الحسن بن بشر ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ص: 92.
[376](الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص : 205.
[377] محمّد مندور ؛ النّقد المنهجي عند العرب ؛ ص : 292.

عندما ينقل المعنى لضدّه أو لغرض آخر ،لا بدّ من مراعاة الإجادة في الأخذ ،على حدّ قول صاحب الإيضاح ":ما أخرجه حسن التصرّف من قبيل الأخذ والإتّباع إلى حيّز الاختراع والابتداع وكلّما كان أشدَّ خفاء كان أقرب إلى القبول".[378]

من بين صور الخفاء نقل المعنى إلى آخر مناقض أو مغاير وكلّما كان خافيا نأى بصاحبه عن السّرقة .

أمّا بالنّسبة لأخذ اللّفظ مع المعنى فنوضّحه في الأقسام الموالية ونقف على مقايسة الجرجاني في ذلك.

القسم الرّابع:من أخذ اللّفظ والمعنى جميعا أو أخذ المعنى فشوّه جماله أو قصّر فيه يعدّ سرقة.

أخذ اللّفظ والمعنى كما هو دالّ على عجز الآخذ وجبنه وفساد طبعه ،وهو أقبح السّرقة كالغصب وهو الأخذ مع التّهديد ،مثلما فعل الفرزدق مع الشمرذل اليربوعي[379] ،أو كإغارته على بيت جميل[380]واجتلابه[381] بيت النّابغة وهو أخفّ من سابقيه لأنّه يكون على جهة التّمثيل ،وأسوأ منه الانتحال [382]كفعل جرير ببيت طفيل الغنوي ،لكنّ أبا الطيّب -فيما نعلم- لم يقترف نوعا من هذه السّرقات القبيحة التي وقع فيها الفرزدق وجرير وغيرهما من فحول الشّعراء ،هذا أقوى دليل على شاعريّة أبي الطيّب ،ويؤخذ من سرقة الفرزدق وجرير وغيرهما أنّ الوقوع في تلك المحظورات وتفاوت مستوى الإجادة في الشّعر لا يكونان سببا لإسقاط الشّاعر والحطّ من قدره والتّحامل عليه .

نلمح ذكاء الجرجاني وفطنته عند أوّل مسألة صدّر بها سرقات المتنبي حيث أشار لانتحال أبي تمام بيت بكر بن النَّطاح ،يقول مشيرا لذلك بأدب":هذا ما ادّعي فيه على أبي الطيّب السّرقة ،وما أضيف إليه ممّا عثرت به :قال أبو تمام وقد روي هذا البيت لبكر بن النّطاح ،وقد دخل في شعر أبي تمام :

---

[378]الخطيب القزويني ،الإيضاح في علوم البلاغة والبيان والبديع ؛ ص : 425.

[379] البيت قوله : فَمَا بينَ مَنْ لَمْ يُعطِ سَمْعًا وَطَاعَة وَبَين تَميمٍ غَيْرُ حزّ الحَلاقِمِ .(انظر ابن رشيق ؛ العمدة ؛ ج : 02 ؛ ص : 220).

[380]الإغارة :أن يصنع الشّاعر بيتا أو يخترع معنى مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبع صوتا فيروى له دون قائله" .

[381] الاجتلاب :هو نوع من الاصطراف وهو أن يعجب الشّاعر ببيت من الشّعر فيصرفه إلى نفسه فإن صرفه إليه على جهة المثل فهو اجتلاب.

[382] نوع من الإصطراف فإن ادّعاه جملة فهو انتحال (انظر ابن رشيق ؛ العمدة ؛ ج : 02 ؛ ص : 217).

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهَ جَاد بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهْ.[383]

قال أبو الطيّب: يَا أَيُّهَا الْمُجْدَي عَلَيْهِ رُوحُهُ إِذْ لَيْسَ يَأْتِيهِ لَهَا اسْتِجْدَاءُ

احْمَدْ عُفَاتَكَ لاَ فُجِعْتَ بِفَقْدِهِمْ فَلَتَرْكُ مَا لَمْ يَأْخذُوا إِعْطَاءُ.[384]

قال الجرجاني":وبيت أبي تمام أو بكر بن النّطاح أملح لفظا ،وأصحّ سبكا ،وزاد أبو الطيّب بقوله :إنّه يجدي عليه روحه ،ولكنّ في اللّفظ قصور ،والأوّل نهاية في الحسن ".[385]

يشترك الشّاعران في معنى مرتبط بالجود وهو الجود بالأرواح لأنّه غاية الجود ومنتهاه ،تتجلّى جمال الصّورة في كلمة لفظة الكفّ باعتبارها آلة الجود والسّخاء كما أنّ بسطها كناية عن كثرة الإحسان وعدم البخل،ولذلك ردّ الله عزّ وجلّ على قول اليهود –تعالى الله عمّا يقولون-بأنّ يدّه مغلولة فقال تعالى(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ)﴿٦٤﴾ [المائدة آية 66] .

لا يمكن للعقل أن يتصوّر وضع الرّوح في الكفّ ،فهذا من قبيل التّخييل المؤدي لغموض المعنى لكنّنا نلحظ وجها من المناسبة بين الرّوح والكفّ لأنّ البذل غالبا ما يكون بالكفّ فهي آلة الجود ،امتزج في الصّورة العقل بالخيال فالرّوح أنفس ما يملكه الإنسان وهي غير مرئيّة فلو أمكن لمسّها لوضعت في الكّف لتعطى للسّائل ،هذا المعنى الرّائع قصّر المتنبي في أخذه وقصّر في لفظه فاستعمل الاستجداء :أي الاستعطاء وهي ثقيلة في السّمع ،ولفظة الجود أجود في بيت بكر بن النّطاح وأبي تمام .

قاس الجرجاني تقصير المتنبي في لفظ الاستجداء وإخفاقه حين جعل المعنى في بيتين وهي زيادة غير مرغوبة ،مثّل الجرجاني بتقصير المتنبي في أخذه لمعنى بكر بن النّطاح ليقول :إنّ تقصير المتنبي أخفّ من انتحال أبي تمام للبيت كاملا ،هذه المقايسة من باب حمل الأخفّ على الأثقل أي قياس الأولى فالعلّة في الأصل (الانتحال)أقبح منها في الفرع (التقصير في الأخذ) كما فعل المتنبي.

[383] الخطيب التبريزي،شرح ديوان أبي تمام ، ج: 02 ؛ص: 15.(جاء صدر البيت في الدّيوان : وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ).
[384](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 01 ؛ ص : 151.
[385] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :216..

نوافق الجرجاني فيما ذهب إليه من تقصير المتنبي في أخذه المعنى ،قال ابن رشيق":فإن قصّر كان دليلا على سوء طبعه وسقوط همّته وضعف قدرته".[386]

لم تضمحلّ همّة المتنبي بل تتبّع المعنى وتقصّاه قصد إبداعه ،نترك فرصة الحديث للجرجاني ليطلعنا على موضع آخر متعلّق بنفس المعنى أجاد فيه أبو الطيّب حيث قال "ثمّ نقل المعنى عن الرّوح إلى الجسد فقال:

لَوْ اشْتَهَتْ لَحْمَ قَارِيهَا لَبَادَرَهَا خَرَادِلٌ مِنْهُ فِي الشِّيزَى وَأَوْصَالُ.[387]

وهذا هو الأوّل ؛ومن جاد بأوصاله فقد جاد بروحه ".[388]

نقل المعنى من الجود بالأرواح إلى الأجسام قصد أن يخفيه ،يبقى الموضوع نفسه وهو المدح الذي يدور المعنى في فلكه ،يقول المتنبي":لو اشتهت أضيافه لحمه لما بخل به عليهم ولأتاهم وشيكا ؛قطع من لحمه حرصا منه على مسرّتهم ".[389]

هذا ضرب من الإغراق لا يستسيغه العقل -في نظرنا-فالضّيوف يعافون أكل لحم البشر فكيف يتصوّر منهم طلب ذلك من الممدوح، يبقى معنى المتنبي دون المستوى المطلوب الذي جاء به بكر بن النّطاح.

عند المقابلة بين البيتين نلاحظ التّماثل في شكليين من أشكال الجود الأوّل هو الجود بالأرواح والثّاني بالأجساد،يشتركان في كونهما من أغلى ما يملك ،نقل المتنبي المعنى لموضع آخر قصد إخفاءه وهو محمود لقول ابن رشيق"فإن غيّر بعض المعنى ليخفيه أو قلبه عن وجهه كان ذلك دليل على حذقه".[390]

---

386 ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص : 216.
387 (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 03 ؛ ص : 400.
388(الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :216.
389 (المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 03 ؛ ص : 400.
390 ابن رشيق القيرواني ؛ العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ؛ ج : 02 ؛ ص : 218.

ومن حذقه أيضا تحسين المعنى وذلك بذكر الضّيوف ،فلو طلبوا لحمه لما بخل عليهم إرضاء لهم وطمعا في مسرّتهم ،فقد بلغ بالمعنى أقصى غاية يحتملها وهو أنسب لحال الضّيافة ،على كلّ حال هذا البيت أحسن من سابقه لكن يبقى بيت بكر بن النّطاح متصدر الإجادة .

يتدرجّ أبو الطيّب في سماء الصّعود ليرفع المعنى قليلا عن بيتيه السّابقين،يشير الجرجاني لارتقاء أبي الطيّب بقوله ":ثمّ كرّره وغيّره بعض التّغيير فقال :

مِلْتُ إِلَى مَنْ يكَادُ بَيْنَكُمَا لَوْ كُنْتُمَا السَّائِلَيْنِ يَنْقَسِمُ.[391]"[392].

يخاطب المتنبي صاحبيه على عادة العرب قائلا لهما":إنّي عدلت إلى زيارة رجل لو جئتما يا صاحبيّ تسألانه يكاد ينقسم بينكما، فيصير لكلّ واحد منكما نصفه إن سألتماه نفسه ".[393]

هذا مظهر من مظاهر تلاعبه بالمعاني، كما نلحظ فيه براعته الفكرية وقدرته اللّغوية، حيث صوّر لنا إمكانية قسم جسده نصفين ليعطيه للسّائلين إذا طلباه ،وهو معنى حسن متداول بين النّاس ،كما هو مشهور في كلامنا فيقول البعض منّا عندما يكثر عليه الطّلب ولا يقدر على التّحمّل :لا يمكنني أن أقسم نفسي نصفين.

يبقى وجه الشّبه في المقايسة دائما المدح بالجود فهذا يجود بروحه والآخر يجود بجسده ،أمّا الفرق بينهما فالرّوح تعطى دفعة لا تقبل الانقسام ،بينما يقبل الجسد القسمة بين اثنين ،هذه زيادة أضافها المتنبي وصاغها في جمال فنّي أثره واضحا في المضمون .

يتعلّق الحكم المستفاد من هذه المقايسة بإثراء المعنى لأنّه "في اللّغة الفنيّة لم يكن في نظر هؤلاء النقاد مجرّد فكرة يحصلها في الذّهن، ولكنّه فيض من الصّور والأحاسيس والدّلالات الإيحائية ".[394]

[391] المصدر السّابق ؛ ج : 04 ؛ ص : 184 . (جاء في الديوان عجز البيت : إِنْ كُنْتُمَا السَّائِلَيْنِ يَنْقَسِمُ) .
[392] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :217.
[393](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 04 ؛ ص : 184.
[394]حسن طبل، المعنى الشعري في التراث النقدي، ص : 226.

فينبغي أن تدرس وفق صياغتها الشّعريّة أي في قالب تركيبها لأنّ نثر الشّعر وتفكيك وحداته يفقد النّظم أبّهته ورونقه ويذهب كثيرا من خصائصه ومقوّماته. نواصل رحلة تقصّي الجرجاني لمعنى السّماحة بالرّوح عند المتنبي ونقف عند آخر إبداعه وما جادت القريحة به حيث قال يمدح بدر بن عمّار :

إِنَّكَ مِنْ مَعْشَرٍ إِذَا وَهَبُوا مَا دُونَ أَعْمَارِهِمْ فَقَدْ بَخِلُوا.[395]

قال الجرجاني":فجاء به معنى مفردا ،وهو من باب السّماحة بالرّوح ،والغرض واحد ".[396]

وصلت رحلة المتنبي مع معنى السّماحة بالرّوح إلى هذه المرتبة من الإجادة والتّصوير ،فالممدوح من جماعة عظيمة ترى غاية الجود في وهب الأعمار وبذل النّفوس ،معنى صريح تشهد بصحّته العقول السّليمة،وتدين بفضله الأخلاق السّامية النّبيلة لأن من يبذل نفسه يستحيل أن يبخل بما دونها.

قايس الجرجاني بين هذا المعنى الفرد البديع ومعنى بكر بن النّطاح ،كلاهما بلغا غاية الإجادة واشتركا في معنى السّماحة بالرّوح ،معنى يندرج ضمن غرض المديح ،أمّا التّباين فيكمن في غلوّ بكر بن النّطاح حيث جعل الرّوح ممكنة الحصول في الكفّ وأقامها كغيرها من الأمتعة والأموال بينما جاء معنى المتنبي متطابقا مع الواقع بعيدا عن الغلوّ ،فالدّفاع عن المستضعفين يكون بردّ الظّلم عنهم والأذى فعندما يطلبون من الممدوح ذلك لا يبخل عليهم فشتّان بين من يجود بماله أو بشيء آخر وبين من يجود بروحه في سبيل إسداء المعروف لمن سأله ذلك .

من خلال ما سردناه من تعامل أبي الطيّب سواء مع المعاني المشتركة أو المبتدعة نستخلص أنّ "النقاد غالوا في اتّهام المتنبي بالسّرقة وحاسبوه حسابا لا تقرّه قوانين النقد وعمّوا كثيرا عن الفروق الدّقيقة والإضافات الموفقّة التي بز بها أسلافه من الشّعراء وأربى عليهم".[397]

[395](المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ؛ ج : 03 ؛ ص : 333.
[396] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :217.
[397]محمّد عبد الرّحمن شعيب ،المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ،ص : 255.

لو أجرينا عمليّة استقراء للانتقادات التي وجّهها النقاد للمتنبي في السّرقات وأخضعناها للمقايسة لخرجنا بنتيجة حتميّة مفادها أنّ أخذ المعاني المتداولة بين النّاس لم يسلم منه أحد من الشّعراء والمتنبي أكثرهم إبداعا في هذا الجانب بما يدفع عنه مذمّة الأخذ ،يقول عبد الرّحمن شعيب "نحن نسلّم أنّ المتنبي انتفع إلى حدّ كبير بجهود أسلافه من الشّعراء ولكنّنا نأبى أن نسلّم أنّ كلّ ما أثير حوله من دراسات في مجال السّرقات الأدبيّة قد تحرّى أصحابها العدل والتزموا جانب الدقّة والإنصاف ".[398]

هذه الدقّة التي يمكننا بيانها وفق ما ذكره محمّد مفتاح حيث أرجع عمل الشّعراء في تناولهم للمعاني إلى دعامتين أساسيتين هما "التوالد والتّناسل ذلك أنّنا نجد أثر أدبيا أو غيره يتولّد بعضه من بعض وتقلب النّواة المعنويّة الواحدة بطرق متعدّدة وفي صور مختلفة ".[399]

رأينا قبل قليل معنى السّماحة بالجود عند المتنبي وبكر بن النطّاح وكيف تداوله الشّعراء بصور مختلفة أمّا الدعامة الثّانية فهي متعلّقة بالمعاني المشتركة المتمثّلة في التّواتر الذي سبقت الإشارة إليه وقلنا بأنّه إعادة نماذج معيّنة وتكرارها لدلالاتها الإيحائية.

المتنبي كغيره من الشّعراء الذين التفتوا لموروث أسلافهم وانتفعوا بمآثرهم لكنّه لم يكن مقلّدا بل كان مبدعا في الكثير من النّماذج التي أخذها ليعطيها في صورة إبداعيّة أخرى مثّلت جانبا كبيرا من ذلك الإعجاب الذي جعل النّاس يشغلون به ويهتمّون به على حدّ قول ابن رشيق أو مثلما قال عبّاس حسن مصرّحا بموقفه من المتنبي حيث قال":بيد أنّي رأيت المتنبي برغم مساويه أعلى الجميع مكانة وأكثرهم شيعة وأقربهم من الصّدارة منزلة إن لم يظفر بها حقّا فكأن قد وإن لم يصرّحوا بإمارته فقد صرّحوا بأنّه آخر الشّعراء".[400]

وآخر ما نختم به حديثنا في هذا الفصل كنتيجة تقويميّة لعمل الجرجاني في المقايسة نذكر ما يلي :

[398] المصدر السّابق ؛ ص : 217.
[399] محمّد مفتاح،تحليل الخطاب الشّعري(إستراتيجية التّناص)،ص :134.
[400] عبّاس حسن ؛المتنبي وشوقي (دراسة نقد وموازنة) ؛دار المعارف ؛مصر ؛(د،ط) :1964م ؛ص : 08.

إنّ الاعتراضات التي وجّهها خصوم المتنبي جاءت على نوعين:الأوّل خاصّة بمنطق العلم والعقل عالجها عن طريق القياس النّحوي واللّغوي باعتباره مسلكا من مسلك تحصيل العلوم مع اعتبار ترجيحات الكوفيين ،وفي هذا الجانب أبدع الجرجاني أيّما إبداع بشهادة مندور وغيره من النقاد.

أمّا الجوانب الأخرى المتعلّقة بشكل القصيدة وبناءها أي عمود الشّعر وما يتّصل بالمعنى من تعقيد وغموض وكذلك موضوع السّرقات كما بيّنا سابقا ففي هذه الجوانب تختصم المعايير النقدية مع الذّوق الفنّي الذي لا يمكن تعليله في كثير من الأحيان كما أشار الجرجاني سابقا ،في هذا المجال كان عمل الجرجاني قائما على قياس الأشباه والنّظائر(المقايسة) مطالبا في كلّ نتيجة من نتائجه النقاد بإنصاف المتنبي وعدّه من جملة الشّعراء المجيدين ،يقول الجرجاني مشيرا لذلك ":فإن قالوا ألسنا نسامح المتقدّمين بالخطأ ؟ولا نحتمل لهم الإغراق الفاحش ؟قلنا :أَوَلَسْتُم قد سلّمتم لهم الإحسان في غير ذلك ،ولم تسقطوهم من عداد الشّعراء لأجله فأجروا هذا الرّجل مجراهم وألحقوه في الحكم بهم ".[401]

هذه غاية ما كان يطمح إليه الجرجاني ويريد تحصيله ،وفي نظرنا فإنّ الوساطة حقّقت الكثير من تلك الأهداف.

[401] (الجرجاني) علي بن عبد العزيز ،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص :426.

لا نعني بالخاتمة أنّ الموضوع قد توقف ونفد البحث فيه ،وإنّما نرى خاتمة كلّ بحث تحمل في طيّاتها تصوّرات جديدة وإرهاصات مستقبليّة عبارة عن الآمال والأبعاد التي يحملها موضوع البحث ويطمح لتحقيقها أو بعبارة أخرى هي مجموعة المستويات المرغوبة التي يطلبها البحث من الباحثين في المستقبل لإثبات تفاعله مع الآخرين وبلوغه المنزلة التي لا يمكن على الأقل أن يكون دونها.

ارتأيت في هذا المقام أن أتحدّث عن النّتائج المقتطفة من هذا البحث والتي تعبّر -في ذاتها-عن الإجابة عن تلك التساؤلات المطروحة في المقدّمة والّتي نرى أنّنا حاولنا الإجابة عنها من خلال عرض الموضوع لذا سنقوم بإجمالها هنا ثمّ ننتقل بعد ذلك للحديث عن تلك الرّغبات التي يصبوا البحث لتحقيقها والآفاق التي نراها تزيده انفتاحا وتألّقا.

بالنسبة للنّتائج المستنبطة نجملها كما يلي :

-القياس بمعنى مساواة فرع لأصل في علّة الحكم نعتبره دليلا علميّا ،رأينا صور توظيفه لدى الجرجاني في المسائل النّحويّة واللّغويّة فلهذا يجب علينا أن نسلّم به ،أمّا بالنّسبة لقبوله أو ردّه لعدم موافقته آراء البصريين فذلك أمر آخر سبقت الإشارة إليه في البحث وقلنا :إنّ المتنبي كان كوفيّ المشرب ،والشّعر يحتمل من الضّرورة ما لا يحتمله غيره كإقامة الوزن أو القافية ،كما أنّ كثيرا من استعمالات أبي الطيّب اللّغويّة والنّحويّة لها سندها العلمي.

كما وظّف الجرجاني هذا القياس العلمي في بعض الجوانب الأخرى مثل حديثه عن المعاني المتداولة على أساس اعتباره مقياسا مسلّما به عند النقاد وبالتّالي فلا سرقة إذا تناولها الشّاعر،والناقدان الكبيران الجرجاني والآمدي ألغيا اعتماد الشّعراء على المعاني المتداولة (العقليّة) ولم يصنّفوها ضمن أمور السّرقة الّتي يؤاخذ الشّعراء عليها وبذلك ردّ الجرجاني كثيرا من الانتقادات التي وجّهت لأبي الطيّب في مجال السّرقات الشّعرية.

-القياس بمعنى حمل معلوم على معلوم لمساواته في علّة الحكم ،هذا باعتباره من عمل المجتهد أطلقنا عليه اسم (المقايسة) وظفّه الجرجاني بكثرة وهو الغالب في هذا البحث مثلما سبق معنا من أمثلة في عناصر عمود الشّعر وفي التّعقيد والغلوّ ،والسّرقات الشّعرية ،منه المقبول وهو الغالب الكثير بالنّظر لموافقته للمعايير والأذواق النقدية ،أمّا المردود منه فقليل لبعده عن عناصر الذّوق الفنّي المتمثّلة في عمود الشّعر .

-قياس الأشباه والنّظائر أو غلبة الأشباه من حيث الشّكل الصّوري لها كان المراد منه الاعتذار لأبي الطيّب وإنصافه لاشتراك الشّعراء جميعا في مبدأ تفاوت الشّعراء بين الجودة والرّداءة وتأرجح المستوى الشّعري بينهما لا يقدح في صاحبه.

لا نسلّم بقياس خطأ على خطأ مثله لأنّ الأخطاء يجب أن تصحّح لتكون قابلة للأخذ ،والجرجاني كان على بصيرة بهذا الأمر لكنّ الذي دفعه لذلك غاية نبيلة نبّهنا عليها وهي ضرورة الموضوعيّة فيه وإلحاحها على النقد أن يقوم بتحديد موقفه من الأحكام الذّاتيّة التي يسعى أصحابها لتحقيق مقاصد لا تمتّ للنقد بصلة.

-فكرة الوسطيّة التي قام عليها دفاع الجرجاني لها مستندها العلمي،ففي علم مقاصد الشّريعة الإسلاميّة جاءت وسطا بين مدرستي الظاهريّة(ابن حزم) والباطنيّة(الغلوّ في التّأويل) ،نراها في مناهج الأصوليين عند تعارض الأدلّة فيقدّمون إمكانية جمع الأدلّة على إلغائها عند انعدام التّرجيح بينها نجدها أيضا عند المناطقة من خلال الحدّ الأوسط الذي يجمع بين القضيّتين.

إنّ إيمان الجرجاني بالوساطة كفكرة دفعه لتحرّي الصّدق والإنصاف ،نلمس عاطفته القويّة الممزوجة بالتّواضع والأمانة في طرحه للمسائل ومناقشتها لأنّ الإيمان بالفكرة يجعل صاحبها يتفاعل معها ،هذا ما لمسناه في شخصيّة القاضي العادل.

-أجمل شيء في الإنسان أن يبوح باعتقاده وأن يجهر برأيه ،فإقدام الجرجاني على إنصاف المتنبي والذّود عنه في زمن طغت فيه المادّة والذّاتية على أصحابها ليس بالأمر الهيّن خصوصا إذا راعينا تلك المودّة التي كان يكنّها الصاحب –خصم المتنبي الأوّل- للجرجاني ، لم تمنعه أن يعدل في المحاكمة كما أنّ تصريحه بفصل الدّين عن الشّعر لا يؤخذ على عمومه وإنّما ينزّل الخاصّ بحسبه ،فتقويم الشّعر على الأساس الدّيني أمر مرفوض لأنّ الذّوق والمقاييس هما اللّذان لهما سلطة الحكم ،ونحن نوافق الجرجاني على ذلك كما سبق ،لكن لا يفهم منه أنّ الحريّة ليس لها حدود فحريّة الإنسان تقف عند حريّة غيره والفرق واضح بين من يعبّر عن معتقده وبين من يتجاسر على مشاعر النّاس وعقيدتهم .

-لقد استطعنا أن نكشف شخصيّة المتنبي الشّعرية من خلال مقايسة الجرجاني إذا قلنا :إنّ المتنبي شاعر عظيم بكلّ ما تحمله العظمة لم نعدل عن الصّواب ،قد يخالفنا غيرنا في ذلك لكنّنا نعتقد بعض الشّيء أنّه لن يسلّم بأفضلية شاعر آخر على أبي الطيّب.

لا يوجد ديوان شعريّ لقي من الاهتمام وكثرت حوله الشّروح والتّعليقات مثل ديوان المتنبي، فإذا كانت كثرة الأسماء دالّة على شرف المسمّى فإنّ كثرة الاهتمام دالّة على عظمة الشيء المهتمّ به.

-إنّ خروج المتنبي عن بعض القياسات النّحوية والصّرفية واللّغوية كان لها مستند يتمثّل في آراء المدرسة الكوفية التي تجيز القياس على كلّ ما ثبت بالسّماع ،وإذا ردّ البصريون كثيرا من استعمالاته المخالفة لآرائهم فنحن نرى أنّ لغة الشّعر تكون مرفوضة حينما لا تجد لها مستندا في المدارس النّحوية أو المجامع اللّغوية أمّا وقد وجد ذلك المستند عند أبي الطيّب فلا ضير في كلّ ما جاء به من الإبداع ما دام قائما على الأدلّة.

هذه أهمّ النّتائج التي خرج بها البحث ،أمّا بالنسبة لأهدافه التي ينشدها من أجل الحفاظ على تفاعله واستمراره فتتمثّل في جمع كلّ صور المقايسة الموجودة في الوساطة ثمّ النّظر فيها من خلال إجراء المقارنة بينها للوقوف على القدر المشترك الذي تجتمع فيه لتكون نتيجة ذلك الإجراء هو الحكم

النّهائي على مقايسة الجرجاني بذلك الاستقراء التّامّ ،ويمكننا بذلك الإجراء أن نجيب بموضوعيّة على السّؤال الذي راودنا كثيرا وهو مدى فاعليّة المقايسة في النّهوض بالنّقد.

كما نأمل أن تعنى مقايسة الجرجاني بدراسة حديثة معمّقة وفق ما وصلت إليه المدارس النقدية الحديثة من النّظريات التي تعطيها أبعادا فنيّة في مجال النقد ليس من أجل الدّفاع عن الشّعراء بل لتقويم الأعمال الفنيّة لديهم والوقوف على مدى إجادة هذا وإخفاق الآخر ،فالإبداع موجود ما دام العقل يفكّر وينتج وفضل الله يؤتيه من يشاء ،ومن جدّ وجد ،عسى الله أن يقيّض لمقايسة الجرجاني مَن يخرجها من ضيق الوهم إلى فضاء واسع من الفهم.

إنّنا لا ندّعي العلم والبحث فيه بقدر ما نشعر أنّنا نحاول أن نتعلّم ،وفي النّهاية فمن اجتهد فأصاب فله أجران ،ومن اجتهد فأخطأ فله أجر.

واللهَ نسأل التّوفيق والسّداد ،ومنه يستمد المدد والعون ،والحمد لله ربّ العالمين ،نعم المولى ونعم النّصير.

قائمة المصادر و المراجع

فهرس المصادر

القرآن الكريم ؛ رواية ورش عن نافع.

1-(ابن الأثير)ضياء الدين ،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق الدكتورين :أحمد الحوفي وبدوي طبانة،الطّبعة الأولى : 1379هـ-1959م.

2- أرسطو ،فن الشعر،تحقيق :عبد الرحمن بدوي،ضمن مجموعة بعنوان(فن الشعر لأرسطو طاليس مع الترجمة العربية القديمة وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد) النهضة المصرية،1953م.

3- (الأنصاري)أبو زيد ،النّوادر في اللّغة ،تحقيق:محمّد عبد القادر أحمد ،دار الشّروق ،القاهرة، الطّبعة الأولى: 1401هـ- 1981م.

4-(الآمدي) الحسن بن بشر بن يحي ،الموازنة بين أبي تمّام والبحتري ،تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد ،المكتبة العلمية ،بيروت ،(د،ط) ؛(د،ت).

5-(الآمدي) عليّ بن محمّد ،الإحكام في أصول الأحكام ،تحقيق :عبد الرّزاق عفيفي ،دار ابن حزم الطبعة الاولى :1424هـ-2003م.

6-(البخاري)محمّد بن إسماعيل ،صحيح البخاري ،تحقيق : أحمد زهوة وأحمد عناية ،دار الكتاب العربي ،بيروت ، (د،ط) :1426هـ – 2005م.

7 -(البغدادي) عبد القادر بن عمر؛خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ؛تحقيق:محمّد نبيل وإميل يعقوب؛دار الكتب العلميّة ؛لبنان؛ الطّبعة الأولى :1418هـ-1998م.

8- (الباقلاني)أبو بكر ،إعجاز القرآن ،مطبوع ضمن الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ،دار الفكر لبنان ؛(د،ت) ؛(د،ط).

9-(التّبريزي) أبو زكريا يحي بن عليّ الخطيب ؛الكافي في العروض والقوافي ؛تحقيق"إبراهيم شمس الدين ؛دار الكتب العلمية ؛لبنان؛ الطّبعة الأولى:1424هـ – 2003م.

10-(التلمساني) محمّد بن أحمد،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ،تحقيق :عبد الوهاب عبد اللّطيف،دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى :1417-1996م.

11-(الثعالبي) أبو منصور ،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر،تحقيق :مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ،لبنان،الطبعة الأولى :1420هـ-2000م.

12-(ثعلب) أبو العباس أحمد،قواعد الشعر ،تحقيق :عبد المنعم خفاجي ،دار الجيل ،بيروت ،الطّبعة الأولى :2005م.

13- الجاحظ (عمرو بن بحر) ،البيان والتبيين ،دار الكتب العلمية ؛بيروت ؛لبنان ؛(د،ط) (د،ت).

14-الجرجاني(علي بن عبد العزيز)،الوساطة بين المتنبي وخصومه ،تحقيق :محمد أبو الفضل وعلي البجاوي،مطبعة عيسى بابي الحلبي،القاهرة ،مصر،الطبعة الرابعة،1386هـ-1966م.

15-(الجرجاني)عبد القاهر بن عبد الرحمن ،دلائل الإعجاز،تحقيق ؛محمود محمّد شاكر ،مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ،الطبعة الثالثة ؛1413هـ-1992م.

16-(الجرجاني) عليّ بن محمّد بن عليّ ،التّعريفات ، تحقيق :إبراهيم الأبياري ،دار الكتاب العربي الطبعة الرابعة ؛1418هـ-1998م .

17-(الجرجاني) عبد القاهر بن عبد الرّحمن ،أسرار البلاغة ،تحقيق :محمود شاكر ،مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر؛الطبعة الأولى :1412هـ-1991م.

18-(بن جني) عثمان، الخصائص، تحقيق:محمّد عليّ النجار؛ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،(د،ط) ؛)د،ت).

19-(الحاتمي) أبو علي محمّد بن الحسن، الرّسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره، تحقيق: محمّد يوسف نجم، دارصادر،لبنان، (د-ط)، 1965م.

20-(الحصري) أبو إسحاق إبراهيم ،زهر الآداب ،تحقيق :زكي مبارك ومحيي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ،بيروت،لبنان ، الطبعة الرّابعة ، (د،ت).

21-(ابن خَلكان)أبو العباس أحمد بن محمد ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق:محمد عبد الرحمن المرعشلي و رياض عبد اللّه،دار إحياء التراث العربي،بيروت،لبنان،(د،ط) ؛)د،ت).

22-(الخالديان) أبو بكر محمّد وأبو عثمان سعيد ؛الأشباه والنّظائر من أشعار المتقدّمين والجاهلية والمخضرمين ؛حقّقه :محمّد سيّد يوسف ؛ القاهرة ؛ (د،ط) ؛ (د،ت).

23-(الخطيب القزويني)أبو عبد الله محمّد بن سعيد،الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع دار الكتب العلميّة ،بيروت ؛لبنان ؛(د،ط) ؛ (د،ط).

24-(ابن خلدون) عبد الرّحمن؛ تاريخ ابن خلدون المسمّى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، دار الكتب العلميّة،لبنان ،الطّبعة الثّاني : 1424هـ-2003م.

25-(الخفاجي) ابن سنان ،سر الفصاحة ؛تحقيق :فؤاد دوّار ؛القاهرة ؛ الطبعة الأولى ؛(د،ت) .

26-(ابن رشيق القيرواني) أبو علي الحسن ،العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ،تحقيق:محمّد أحمد عطا دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،الطبعة الأولى ،1422هـ-2001م.

27-(الرّماني)عليّ بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)،دار المعارف ،مصر ،(د،ط) ؛(د،ت).

28-(الزمخشري) القاسم جار الله محمود ،الكشف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ،دار المعرفة ،بيروت؛ (د،ط)؛(د،ت).

29-(سبويه) عمرو بن عثمان بن قنبر،الكتاب ،تحقيق:عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة،الطبعة الثالثة:1408هـ-1988م.

30-(ابن سلاّم الجمحي) محمّد ،طبقات فحول الشّعراء ،قرأه وشرحه:محمود محمّد شاكر،شركة القدس للنّشر والتّوزيع،دار المدني ؛(د،ط) ؛(د،ت).

31-(السيوطي) عبد الرّحمن بن أبي بكر ،الاقتراح في علم أصول النحو ،تحقيق :محمّد حسن إسماعيل الشافعي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،الطبعة الأولى :1418هـ-1988م.

32-(السيوطي) عبد الرّحمن بن أبي بكر؛ المزهر في علوم اللّغة وأنواعها ،تحقيق: محمّد عليّ منصور دار الكتب العلمية ،لبنان ،الطّبعة الأولى: 1998م.

33-(السيوطي) عبد الرّحمن بن أبي بكر،الأشباه والنّظائر في فروع فقه الشّافعيّة ،تحقيق:خالد عبد الفتاح شبل ،مؤسّسة الكتب الثّقافية ،الطّبعة الأولى : 1415هـ-1994م.

34-(الشّافعي)محمّد بن إدريس، الرّسالة، تحقيق:عبد الفتاح بن ظافر كبّارة، دار النفائس، بيروت،لبنان،الطبعة الأولى : 1419هـ-1999م.

35-(الشوكاني) محمّد بن عليّ ،إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ،دار الفكر، لبنان؛(د،ط) ؛(د،ت).

36-(الشاطبي)أبو إسحاق ،الموافقات في أصول الشريعة ،تحقيق:عبد الله درّاز،المكتبة التوفيقية القاهرة ؛(د،ط) ؛(د،ت).

37-الصاحب بن عباد، الكشف عن مساوئ المتنبي، ضمن كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق:إبراهيم الدسوقي البساطي ،دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثانية ، (د،ت).

38-(الصبان) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك،دار الفكر بيروت ،الطبعة الأولى ، 1419هـ -1999م.

39-(ابن طباطبا) أبو الحسن محمّد بن احمد،عيار الشعر،تحقيق:الحاجري وزغلول سلام،المكتبة التجارية الكبرى ،القاهرة ،(د،ط) ،1956م.

40-(العسكري) أبو هلال، الصّناعتين (الكتابة والشّعر)، مطبعة محمّد بك الأستانة،(د،ط) 1319هـ.

41-(ابن عصفور) أبو الحسن الاشبيلي ؛شرح جمل الزجاجي ؛تحقيق: فواز الشّغار ؛منشورات دار الكتب العلمية؛الطبعة الأولى:1419هـ-1998م.

42-(العميدي) أبو سعيد محمّد بن أحمد ، الإبانة عن سرقات المتنبي،تحقيق:إبراهيم الدسوقي البساطي ،دار المعارف ،مصر ،الطبعة الثانية ، (د،ت).

43-(الغزالي) أبو حامد أحمد بن محمّد ،معيار العلم في فنّ المنطق ،دار الأندلس للطّباعة والنشر والتوزيع ،لبنان،(د،ط) ؛(د،ت).

44-(الغزالي) أبو حامد أحمد بن محمّد ،المستصفى من علم الأصول ،تحقيق:حمزة بن زهير حافظ دار الفكر ،لبنان؛(د،ط) ؛(د،ت).

45-(الغزالي) أبو حامد أحمد بن محمّد ،محك النظر في المنطق ،تحقيق :محمد بدر الدين النعساني دار النهضة الحديثة ،بيروت،1966م.

46-أبو الفرج الأصبهاني ،الأغاني، تحقيق : صلاح يوسف خليل ،دار الفكر ،بيروت ،(د،ط) :1390هـ- 1970م.

47-(القزاز)أبو عبد الله محمّد بن جعفر؛ما يجوز للشّاعر في الضّرائر ؛قدّم له:رمضان عبد التّواب و صلاح الدّين الهادي ؛مطبعة المدني ؛ مصر ؛(د،ت) ؛(د،ط).

48-قدامه بن جعفر، نقد الشعر ؛تحقيق:عبد المنعم خفاجي،مكتبة الكليّات الزهرية ؛مصر ؛الطبعة الأولى :1398هـ-1978م.

49-ابن قتيبة ،الشعر والشعراء،تحقيق:أحمد محمد شاكر،دار المعارف ،مصر،(د،ط)،1966م.

50-(القرطبي) أبو عبد اللّه محمّد ،الجامع لأحكام القرآن،تحقيق،عماد زكي البارودي وخيري سعيد المكتبة التوفيقية ،مصر،(د،ط) ؛(د،ت).

51-(القرطاجني) حازم ؛منهاج البلغاء وسراج الأدباء؛تحقيق:محمّد الحبيب ابن الخوجة ؛تونس (د،ط) ؛1966م.

-(القلقشندي) أبو العبّاس أحمد بن عليّ ،صبح الأعشى في صناعة الإنشا،الهيئة المعرفيّة للكتاب (د،ط) : 1405هـ-1985م.

52-(المبرد)محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان؛(د،ط) (د،ت).

53-(المرزباني) أبو عبيد الله محمّد بن عمران ،الموشّح (مآخذ العلماء على الشّعراء في عدّة أنواع من صناعة الشّعر) ؛تحقيق: عليّ بن محمّد البجاوي ؛دار نهضة مصر ؛(د،ط) :1965م.

54-(المرزوقي) أبو عليّ أحمد بن محمّد ،شرح ديوان الحماسة،نشره:أحمد أمين وعبد السّلام هارون، الطبعة الأولى : 1371هـ-1951م.

55-محمد الأمين الشنقيطي ،مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر ،تحقيق:أبي حفص سامي العربي،دار اليقين ،مصر ،ط:1419،01هـ-1999م.

56-محمّد الخضري الشافعي،حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،تحقيق:يوسف الشيخ محمّد البقاعي،دار الفكر،لبنان،1415هـ-1995م.

57-(الأنباري) كمال الدّين عبيد الله ؛الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين ؛تحقيق :حسن محمّد وإيميل يعقوب؛دار الكتب ،بيروت ؛الطبعة الأولى :1988.

58-(ابن النحاس)أحمد بن محمّد ؛ إعراب القرآن؛تحقيق:زهير غازي زاهد؛عالم الكتب بيروت؛الطبعة الأولى ؛1426هـ-2005م

59-(ابن وكيع) الحسن بن علي التنسي،المنصف في نقد الشّعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره تحقيق :محمّد رضوان الداية ؛دار قتيبة ؛دمشق ؛(د،ط) ؛(د،ت).

60-يوسف البديعي ،الصبح المنبي عن حيثية المتنبي،تحقيق:مصطفى السقا ،محمّد شتا، دار المعارف القاهرة ، الطّبعة الثّالثة ،(د،ت).

61-ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،الطّبعة الأولى ،(د،ت).

فهرس المراجع

1-إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب:نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، بيروت، الطبعة الأولى:2006م.

2-أحمد صبره، نجوى محمود حسين، دراسات نقدية نقد تطبيقي، دار المعرفة الجامعية، مصر،الطّبعة الأولى :2002م.

3-أحمد أحمد بدوي ، القاضي الجرجاني ، دار المعارف ، مصر ؛(د،ت) ؛(د،ط).

4-أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب،شركة نهضة مصر ،الطبعة السادسة :2004م.

5-أحمد محمود المصري ومحمد مصطفى أبو شوارب، قضايا الإبداع الفني (دراسة تحليلية في النقد العربي القديم)، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر،الطّبعة الأولى:2005م.

6-الأخضر الأخضاري ،الإمام في مقاصد ربّ الأنام (مقاصد الشريعة الإسلامية) ،دار المختار للطّباعة والنّشر والتّوزيع ،الجزائر،الطبعة الأولى :2010م.

7-بكري عبد الكريم ،أصول النحو العربي في ضوء ابن مضاء القرطبي ،دار الكتاب الحديث الجزائر الطبعة الأولى : 1999م.

8-التواتي بن التواتي ،محاضرات في أصول النحو،دار الوعي للنشر والتوزيع،الرويبة،الجزائر؛(د،ط)

9-جابر عصفور، الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة:1992م.

10-جودت فخر الدّين، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتّى القرن الثامن الهجري، منشورات دار الآداب بيروت، الطبعة الأولى؛ نوفمبر؛ 1984م.

11-حسين الواد ،المتنبي والتجربة الجمالية ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،عمان ،الطبعة الأولى:1991م.

12-حسن طبل، المعنى الشعري في التراث النقدي،دار الفكر العربي ،مصر ،الطّبعة الثّانية: 1418هـ-1998م.

13-حمدي الشيخ، قضايا أدبية ومذاهب نقدية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2007م.

14-داود غطاشة، محمّد صوالحة،النقد العربي القديم حتّى نهاية القرن الخامس الهجري ،دار الفكر، عمّان ،الطبعة الأولى : 1430هـ-2009م.

15-رجاء عيد، التراث النقدي (نصوص و دراسة)، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر،(د،ط)، 1990م.

16-ريجيس بلاشير، أبو الطيب المتنبي،دراسة في التاريخ والأدب،ترجمة إبراهيم لكيلاني،دمشق (د،ط)؛1975 م.

17-السيّد فاضل ،تراثنا النقدي (دراسة في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني) ،دار المعارف الإسكندريّة،(د،ط) ،(د،ت).

18-سعد إسماعيل شلبي،مقدمة القصيدة عند أبي تمّام والمتنبّي ،مكتبة غريب ،القاهرة ،مصر؛(د،ط) (د،ت).

19-سيّد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،دار الشّروق ،مصر ، الطبعة السادسة :1410هـ-1990م.

20-شرف الدين الراجحي،مآخذ النحاة على الشعراء حتى القرن الرابع الهجري،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر،(د،ط)؛2000 م.

21-شوقي ضيف، فصول في الشّعر ونقده، دار المعارف، مصر؛(د،ت) ؛(د،ط).

22-طه حسين ،مع المتنبي،دار المعارف ،مصر ،الطّبعة العاشرة ؛ (د،ت).

23-طه أحمد إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرّابع الهجري،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،الطبعة الأولى ؛ 1405هـ-1985م.

24-عبده عبد العزيز قلقيلة ،أبيات المعاني في شعر المتنبي،دار الفكر ،القاهرة ؛(د،ط) ؛1999م.

25-عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، مصر ،(د،ط)؛1970م.

26-عبد الله التطاوي ، الموقف الفكري والنقدي في إبداع أبي تمام ،دار غريب ،القاهرة (د،ط)؛2003م.

27-عبده عبد العزيز قلقيلة،النقد الأدبي عند القاضي الجرجاني،مكتبة الأنجلو المصرية،الطّبعة الأولى: 1972م.

28-عبد الرحمن خليل إبراهيم، دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيّام الرسول صلى اللّه عليه وسلّم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطّبعة الأولى:1971م.

29-عثمان موافي ،الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها ،دار المعرفة الجامعية ،مصر،الطبعة الرّابعة :2000م.

30-علي عبد المعطي محمد ومحمد محمد قاسم، المنطق الصوري أسسه ومباحثه، دار المعرفة الجامعية، مصر،(د،ط)،1985م.

31-عبد اللّه حمادي،الشعرية العربية بين الإتباع والابتداع ،منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين ،دار هومه ،الجزائر،الطّبعة الأولى:2001م.

32-عزّ الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللّغوية في التراث العربي، دار المسيرة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1424هـ-2003م.

33-عزّ الدّين إسماعيل ،في الشّعر العبّاسي الرّؤية والفنّ ،المكتبة الأكاديمية ،بيروت ،الطّبعة الأولى : 1994م.

34-عثمان موافي ،مناهج النقد الأدبي والدراسات الأدبية ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية مصر؛(د،ط) ،(د،ت).

35-عبد الرّزاق صالحي، الشاهد الشّعري في النقد والبلاغة (وقضايا وظواهر ونماذج)،عالم الكتب الحديث ،الأردن ، الطبعة الأولى ، 1431هـ-2010م .

36-عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث،دار المعارف،مصر،الطبعة الثانية،(د،ت).

37-عبد اللّطيف شرارة، معارك أدبية قديمة ومعاصرة،دار العلم للملايين ،لبنان ،الطّبعة الأولى.

38-عبد الوهاب عزّام، ذكرى أبي الطيّب بعد ألف عام، دار المعارف، مصر، الطّبعة الثّانية:1375هـ-1956م.

39-عبد القادر الدّاودي ،القواعد الكليّة والضّوابط في الفقه الإسلامي،دار ابن حزم ،لبنان ،الطّبعة الأولى: 1430هـ-2009م.

40-محمّد شراره، المتنبي، تحقيق حياة شرارة، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، لبنان،الطّبعة الأولى:1981م.

41-عبد الجليل مرتاض ؛في عالم النصّ والقراءة ؛ديوان المطبوعات الجامعيّة ،الجزائر ،الطّبعة الثّانية : 2007م.

42-محمّد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب،نهضة مصر،(د،ط):2003 م.

43-محمّد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، الطّبعة الثّالثة:(د،ت).

44-محمّد مصطفى أبو شوارب، إشكالية الحداثة (قراءة في نقد القرن الرابع الهجري)،دار الوفاء،الإسكندرية،الطّبعة الأولى :2003م.

45-محمّد الخضر حسين الجزائري، القياس في اللّغة العربية، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر؛(د،ط)

46-محمود السمرة ،القاضي الجرجاني الأديب الناقد ،منشورات المكتب التجاري ،بيروت،الطبعة الثانية :1979م.

47-محمّد سراج، أصول الفقه الإسلامي، منشأة المعارف، الإسكندرية،(د،ط) ،1998م.

48-محمّد مفتاح،تحليل الخطاب الشّعري(إستراتيجية التناص)،المركز الثقافي العربي،بيروت ،الطبعة الرّابعة :2005م.

49-ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي (طبيعته، نظرياته، مقوماته، معاييره، قياسه)،دار الفكر ،الأردن،الطبعة الثالثة:1432هـ-2011م.

50-محمّد الربداوي ،الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام (تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي القديم) ،دار الفكر ،دمشق ،سوريا ؛(د،ط) ،(د،ت).

51-محمّد صايل حمدان ،قضايا النقد القديم والنقد الحديث ،دار الأمل إربد ،الأردن،(د،ط)، 2010م.

52-محمّد حسن عبد العزيز، القياس في اللّغة العربية، دار الفكر العربي، مصر، الطبعة الأولى: 1415هـ-1995م.

53-منير سلطان، تشبيهات المتنبي ومجازاته، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر؛ (د،ط) :1993م.

54-منى إلياس ، القياس في النّحو ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،الطبعة الأولى 1405هـ.

55-محمّد الخضر حسين الجزائري، القياس في اللّغة العربية، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر،(د.ط) (د.ت).

56-مصطفى الشكعة ،فنون الشّعر في مجتمع الحمدانيين ،مكتبة الأنجلو المصرية،مصر،(د،ط) (د،ت).

57-محمّد محدّة ،مختصر علم أصول الفقه الإسلامي ،دار الشهاب ،باتنة ،الجزائر، الطبعة الخامسة :1994م.

58-محمّد عبد الرّحمن شعيب ،المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ،دار المعارف ،مصر،(د،ط) : 1964م.

59-مصطفى صادق الرافعي ،تاريخ آداب العرب ،دار الكتب العلميّة ،لبنان ،الطّبعة الأولى:1421هـ- 2000م.

60-نجوى صابر، الذوق الأدبي وتطوره عند النقاد العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، دار الوفاء الإسكندرية الطّبعة الأولى:2006م.

61-نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، مطبعة حسان، مصر؛(د،ط) (د،ت).

62-نصر محمد نصر القاضي، المنطق الصوري دراسة ونقد، مطبعة حسان القاهرة، مصر، 1982م.

63-وهبة الزحيلي ،أصول الفقه الإسلامي ،دار الفكر ،دمشق ،الطبعة الأولى :1406هـ-1989م.

64-يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)،دار الأندلس،بيروت ،لبنان ، الطبعة الثالثة:1403هـ-1983م.

65-يوسف حسين بكار، قضايا في النقد والشّعر ؛دار الأندلس لبنان ،الطّبعة الأولى :1984 م.

فهرس المعاجم والقواميس

1-أحمد مطلوب؛ معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها؛ مكتبة لبنان؛ (د، ط):2000م.

2-أيميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني ،قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية،دار العلم للملايين، بيروت ، الطّبعة الأولى:01 : 1987م.

3-(الفيروز آبادي) مجد الدّين محمّد بن يعقوب ،القاموس المحيط،تحقيق:نصر الهوريني المصري،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،الطبعة الثانية :1428هـ-2007م.

4-(ابن فارس) أبو الحسن أحمد؛ معجم مقاييس اللّغة؛ تحقيق:إبراهيم شمس الدّين؛ دار الكتب العلمية؛ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى:1420هـ- 1999م.

5-ابن منظور(محمّد ابن مكرم)، لسان العرب،تحقيق:رشيد القاضي ،دار صبح يسوفت ،بيروت لبنان، الطّبعة الأولى :1427هـ-2006م.

6-مجدي وهبة؛ كامل المهندس؛ معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب؛مكتبة لبنان ؛الطبعة الثانية : 1984م.

7-محمّد التنوجي ،المعجم المفصّل في اللّغة ،دار الكتب العلميّة ،بيروت ،لبنان ،الطّبعة الثّانية 1419هـ-1999م.

8-محيي الدّين عبد الحميد ومحمّد عبد اللّطيف السبكي ،المختار من صحاح اللّغة ؛دار الشّروق بيروت ؛ لبنان ؛ (د،ط) ؛(د،ت).

فهـرس دواوين الشّعر

1-(الأعشى)ميمون بن قيس؛ الديوان؛ شرح:مهدي محمّد ناصر الدّين، دار الكتب العلمية، لبنان، الطّبعة الثّالثة: 1424هـ-2003م.

2- (امرؤ القيس) ،الديوان،تحقيق:عمر فاروق الطباع ،شركة الأرقم بن الأرقم،لبنان ،(د،ط) (د،ت).

3-بشار بن برد، الديوان، شرح:الشّيخ الطّاهر بن عاشور،(د،ط) ،(د،ت).

4-(البحتري)أبو عبادة، الديوان، تحقيق:يوسف الشيخ محمّد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1421هـ- 2000م.

5-(أبو تمام)حبيب بن أوس ،الديوان ،شرح الخطيب التبريزي ؛تحقيق :راجي الأسمر ،دار الكتاب العربي،لبنان ،(د،ط) ؛ 1427هـ-2007م.

6-(الجرجاني)عليّ بن عبد العزيز؛الديوان ؛تحقيق :سميح إبراهيم صالح؛إشراف:إبراهيم صالح ؛دار البشائر؛مشق؛الطبعة الأولى :2003م.

7-جرير بن عطيّة الخطفي؛ الديوان ؛شرح: عمر فاروق الطباع ،شركة الأرقم بن الأرقم،لبنان الطّبعة الأولى : 1417هـ-1997م.

8-زهير بن أبي سلمى ،الديوان ،أبو العبّاس ثعلب ،تحقيق : فخر الدّين قباوة ،دار الآفاق الجديدة بيروت ،الطّبعة الأولى :1402هـ-1982م.

9-طُرْفة ابن العبد؛ الديوان؛ دار صادر؛ بيروت،(د،ط) ،1380هـ-1961م.

10-(الفرزدق)همام بن غالب،الديوان،شرح مجيد طرّاد ،دار الكتاب العربي ، لبنان ،(د.ط) 1427هـ-2006م

11-لبيد بن ربيعة ،الديوان،دار صادر ؛بيروت ،(د،ط) ،1386هـ-1966م.

12-(المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،الديوان ،شرح عبد الرحمن البرقوقي ،دار الكتاب العربي بيروت،لبنان،(د،ط)،1407هـ-1986.

13-(المتنبي)أبو الطيّب أحمد بن الحسين،التبيان في شرح الديوان ،العكبري عبد الله بن الحسين صحّحه :كمال طالب دار الكتب العلميّة ،لبنان ،الطّبعة الأولى :1418هـ-1997م.

14-(النابغة) زياد بن معاوية،الديوان،شرح حنا نصر الحتّي ،دار الكتاب ،بيروت ،(د،ط) 1427هـ-2007م.

15-(أبو نواس)الحسن بن هانئ، الديوان؛ شرح:عليّ فاعور؛ دار الكتب العلمية؛ لبنان؛ الطبعة الثانية: 1423هـ-2002م.

فهرس الرّسائل والدّوريات

- صالح نعمان ؛القياس بين المنطق وأصول الفقه (رسالة ماجستير) ؛إشراف :محمّد السويسي ؛سنة :1414هـ- 1992م مكتبة الحضارة الإسلامية تحت رقم : 546.

-كامل يوسف عتوم ؛المجلّة الأردنية في اللّغة العربيّة وآدابها ؛المجلد :03 ؛عدد :02 ؛ربيع الأوّل 1428هـ-2007م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع :	الصفحـــــــــة
المقدمـــــــــة :	أ-هـ
الفصل الأوّل : مفهوم القياس وأنواعه .	1
المبحث الأوّل : قياس الأشباه والنّظائر(عند الأصوليين والنقاد).	16-2
المبحث الثّاني : القياس المنطقي .	40-17
المبحث الثّالث : القياس الأصولي.	64-41
المبحث الرّابع : القياس النّحوي.	94-65
الفصل الثّاني :موقف الجرجاني من خصومة المتنبي وأثر ذلك في النقد الأدبي (توصيف ومناقشة)	95
المبحث الأوّل :ملامح النقد في القرن الرّابع الهجري وتجلّيات خصومة المتنبي.	124-96
المبحث الثّاني :الأفكار النقدية في كتاب الوساطة وقيمتها العلميّة	157-125
المبحث الثّالث :المشروع النقدي لدى القاضي الجرجاني (دراسة في الذّوق والرّؤية.	188-158
الفصل الثّالث :المقايسة الموضوعاتيّة	189
المبحث الأوّل : المقايسة على المستوى النّحوي واللّغوي.	222-190
المبحث الثّاني :المقايسة في عناصر عمود الشّعر	254-223
المبحث الثّالث :المقايسة في الغلوّ والتّعقيد	279-255

المبحث الرّابع :المقايسة في ابتداع المعاني 305-280

الخاتمـــــــــة 310-307

المصادر والمراجـــع 325-312

فهرس الموضـــوعـات : 328-327

ملخص

إنالإشكالية التي حاولنا الإجابة عنها هي ما مدى النتائج التي يمكن للمقايسة أن تحققها في مجال النقد ؟وهل تصلح المقايسة كمبدأ معتمد ؟وإذا كانت كذلك فهل نجحت مقايسة الجرجاني في تحقيق أهدافها وبلوغ مقاصدها ؟.

اعتمدنا على المنهج الوصفي التّحليلي فوصفنا عملية القياس وذكرنا أنواعه كما وصفنا الأرضيّة التي قامت عليها المقايسة وهي خصومة المتنبي وبيّنا أيضا معالم القاضي الجرجاني الناقد وأعطينا صورة واضحة لكتاب الوساطة وذكرنا أهمّ الأفكار النقدية التي احتواها ،ثمّ جاءت عمليّة التّنزيل لمفاهيم القياس في الفصل الثالث وحاولنا توضيح الآلية التي سلكها الجرجاني في ردّ أخطاء النّحو إلى القياس النّحوي ،ثمّ استعمل قياس الأشباه والنّظائر في معالجة أخطاء الغلوّ والتّعقيد والسّرقات الشّعرية وفي عمود الشعر .

من بين المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها كتاب الوساطة وما كتبه النقاد حول الجرجاني ،وشرح البرقوقي ودواوين الشّعراء الذين مثّل بهم في المقايسة.

حقّقت المقايسة الكثير من أهدافها لأنّ المتنبي كان كوفي المشرب ،أمّا السّرقات فقد أجاد المتنبي في توظيفها وإبداعها وتبقى مقايسة الجرجاني تتطلع إلى إثراء أكثر خصوصا في ضوء النّظريات التي وصلت إليها النقد الحديث .

الكلمات المفتاحية :

القياس؛ المقايسة؛ الجرجاني؛ الوساطة؛ المتنبي؛ النحو؛ الأصول؛ المنطق؛ ابن رشيق؛ السّرقات الشعرية.

نوقشت يوم 26 جوان 2014